الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء الثالث والأربعون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب
الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون
(٤٠)
دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته حوالي (١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الرابع

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل المسلمين وكيف أنها استحقت الاستيلاء

عندما رأى صلاح الدين أنـه لن يتمكن من الاستيلاء على عسقلان، من دون الاستيـلاء على مـدينة القـدس المقـدسة، رفع الحصـار عن عسقـلان، وزحف خلال المنطقـة التليـة لليهودية مع جميع آلات حـربه وحشد كبير جداً من الرجـال، عازما على حصار القـدس القائمة هناك، والاستيلاء عليها، وفي الوقت نفسـه عندما سمع سكان القدس والذين تدفقوا عليها وهربوا إليها من المنطقـة المجاورة ومن كل جهة من خلال الخوف من العـدو، سمعـوا بمقتل جيشهـم، وفقـدان الصليب المانح للحيـاة، وأسر الملك، واقتراب صـلاح الدين، تـواضعـوا بأنفسهم بكل نوع من أنواع الصلاة والتضرعات، وعقد جميع المسيحيون الذين سكنوا فيها مجلس ابتهالات مهيبة، واعترافات، وصيـام، حتى الأطفال شاركوا في هذه الممارسات الروحية.

لكن غضب الرب أحرق كل شيء بشكل مكشوف وحاد، ولاعجب في ذلك لأن رجـال الدين والشعب كـانوا قـد انغمسـوا كثيراً في حيـاة الترف من كل نوع، وكـانت البـلاد كلهـا ملـوثة بالشرور والآثام، وفي الوقت نفسه كان الذين ارتدوا الملابس الدينية، قد تجاوزوا بشكل خياني حدود الأنظمة المفروضـة عليهم من قبل قوانينهم، وكان هناك قلة فقط ممن لم يتلوثوا بوباء الشره أو الترف، وكـان بين الذين تولوا الأعمال عند المذبح كثيراً من الصراعات والخلافـات حول الأشياء المقـدسة، ونشبت الخصـومـات من المطامح، لأن فـرسـان الداوية والاسبتـارية عـارضـوا البطريرك والأسـاقفـة، وكـانوا يسعون دائماً للحصـول على الامتيـازات لأنفسهم، ووضعوا منجلهم في حصاد الناس الآخـرين، مع أنهم عندما

تأسست طائفتيهما أولاً وانطلقتا، تمجدتا بطاعتيهما، وعدّوا اقتراف السيمونية أمراً عاديا، ولهذا ملأوا يومياً موضع قيامة الرب وضريحه بأناس غير جديرين، ولهذا السبب فإن الهبة التي كان يرحب بها كثيراً، والتي تمثلت بالنار السماوية، والتي كانت تضفى عليهم من قبل الرحمة الربانية في عشية عيد الفصح، في أيام غودفري، وبلدوين الأول، وبلدوين الثاني، تباطأت الآن بالقدوم ومن ثم تأخر اشعال المصابيح في أيام هؤلاء الملوك المتأخرين، وحول هذه النار، انظر ماتقدم أعلاه، وإذا كان الاكليروس قد تلوثوا بهذه الآثام، كيف يمكن أن تكون الروح مقدسة؟

وأصبحت القدس حتى مثل مصر وسدوم، وتلوثت مثلهما بالموبقات، لأن المدينة كانت مليئة بمواخير خاصة، أديرت وملكت من قبل أشخاص من كل أمة تحت قبة السماء، وكان هؤلاء الأشخاص إما مطرودين من بلادهم بسبب الجرائم التي اقترفوها، أو ممن لايمكنهم إبداء وجوههم واظهارها في بلدانهم بسبب النساء اللائي أخرجوهن، أو بسبب الديون التي لم يكن بامكانهم دفعها، وقد عاشوا كمنفيين في القدس وتولوا ادارة وتشغيل مواخير، دون الاهتمام بأي شيء سوى الربح، وكان بعضهم ليس بامكانهم الاقامة في بلدانهم الأساسية، لأنهم كانوا محرومين كنسيا، ولذلك عاشوا في القدس، ونقل بعضهم بيوتهم ومايملكون من الغرب إلى الشرق سعيا وراء الربح، وكانت هناك أعداد كبيرة من فرسان الضريح المقدس والهيكل، ومن هذا العدد العظيم كان هناك قلة لم يكونوا رجالاً أشراراً، غير أتقياء، لصوصاً، وآثمين وقتلة لآبائهم، وكذابين، وزناة، حسبما أخبرنا برنارد في قداسه إلى فرسان الهيكل— الفصل الخامس— وعلى هذا صارت المدينة المقدسة وكراً لمقترفي الآثام، وكانت مليئة بمواخير سيئة السمعة، إليها أخذ الحجاج أنفسهم للشهوة الجسدية، والشرب، والقمار، وذلك بعدما يكونوا قد

زاروا الأماكن المقدسة.

وتنامى هذا الشر، وتعالى إلى حد أنه لم يبق أحد في مشفى القديس يوحنا، لأن الحجاج لم يعودوا يتلقون أية عناية على أيدي الاسبتارية، مع أن المشفى كان غنياً جداً، كما أنه لم يتوفر أي حب للقديسة مريم في مشفى الفرسان التيوتون، وعلى ذلك أرغم الحجاج الجيدين والمحترمين على الذهاب إلى المواخير، التي كان أصحابها: لصوصاً، وقطاع طرق، ومحتالين مخادعين، وقوماً منفيين، وأكثر الناس اقترافاً للآثام.

فضلاً عن هذا، تعرض أمن وسلام المدينة المقدسة إلى الاضطراب بسبب شرور المسيحيين وشرههم، لأنها كانت مليئة بالتجار من كل لسان، ومعروف أنه حيث هناك تجارة كثيرة هناك كثير من الظلم، وما كان الرب يمكن أن يستجيب حرفيا للذين كانوا يصلون من أجل سلامة المدينة المقدسة، بكلمات إرميا:٥/ ١ قوله:« طوفوا في شوارع القدس وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها»، وبسبب هذه الأشياء أثير غضب الرب، فسمح للبلاد التي انتزعها من أيدي غير المسيحيين، لتقع ثانية تحت سلطانهم، فقد جاء صلاح الدين إلى القدس مع جيش كبير، وعسكر أمامها، وأقام ساتراً من الركام أمام جانبها الغربي، وضيق على المحاصرين بحملات متوالية، وقام سكان المدينة بابداء المقاومة التي استطاعوها، وتولى هو قذف المدينة من على الجانب الشمالي ليلاً ونهاراً، وعندما أحدث ثغرة في السور بوساطة آلاته، أصاب الرعب سكان المدينة الذين لم يتوقعوا وصول أية مساعدة إليهم من أية جهة من الجهات، وقد خافوا أن يدخل العدو، ويشق طريقه عنوة، إلى داخل المدينة، وأن يستولي عليها بالقوة، وقتذاك خضعوا إلى الرعب العظيم الذي استولى عليهم، وسلموا أنفسهم إلى صلاح الدين على شروط محددة هي: بعد تسلمه الفدية عن أنفسهم، عليه أن يسمح لهم بالمغادرة

بسلام.

وبما أن صلاح الدين كان بشكل طبيعي صاحب قلب شفوق، وكان رحيماً على الشعب، لذلك منح هذه الشروط إليهم، وقد أعطاهم جميعاً ضمان البقاء جميعاً أحياء بدون استثناء، وشرط أن الذي يود المكوث هناك، ويوافق على دفع الجزية له، يمكنه أن يبقى ساكناً بسلام، وكل من يود أن يغادر، وكان ذكراً، وتجاوز أكثر من عشر سنوات من عمره، فعليه أن يدفع عشر دوقيات من الذهب الخالص، وإذا كان عمره دون العشر سنوات، فعليه أن يدفع دوقيتين، وعلى النساء أن يدفعن دوقيتين، وتمت الموافقة على هذه الشروط من الجهتين، وبما أنه كانت هناك آلاف كثيرة من فقراء الناس في المدينة، ممن لايمتلكون عشر قطع، فقد أعفاهم صلاح الدين جميعاً من ديونهم.

وحدث استسلام المدينة المقدسة في اليوم الثاني من تشرين الأول، وهو كان اليوم الرابع عشر للحصار، في سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، وكان النهار، نهار جمعة، في السنة التاسعة والثمانين، منذ أن صارت ملكاً للصليبيين.

وجرى الآن الاعلان في جميع أرجاء المدينة، بأن على الصليبيين جميعاً الموجودين فيها، وجوب مغادرتها خلال ثلاثة أيام، وإلاّ فإنهم سوف يصبحون خاضعين لصلاح الدين المسلم، ورعية له، وهو أمر كان محرماً من قبل البابا، مع أقسى العقوبات، فقد كان قد أمر أنه في مثل هذه الحالة، يتوجب عدم بقاء أي مسيحي هناك، وكان من يبقى ينبغي حرمانه كنسياً، ولعنه وطرده كلياً من الكنيسةومع صوت المنادي، الذي أعلن هذا الأمر الكئيب، انفجر نحيب كبير جداً في القدس، وصار بكاء الصليبيين يمكن سماعه من مسافة أميال، ويحكى بأن صلاح الدين نفسه مع امرائه القساة قد تأثروا في قرارة نفوسهم بهذا البكاء، لابل بلغ بهم التأثر إلى حد البكاء من تعاطفهم الانساني مع حزن الصليبيين وأساهم،

ولشدة تأثرهم أعفوا من دينه كل واحد رجاهم فعل ذلك.

علاوة على ذلك، أعطى صلاح الدين أوامره إلى عساكره، بعدم دخول أي منهم المدينة قبل اليوم المحدد لمغادرة الصليبيين، وخرج الصليبيون في اليوم المحدد مع أثاث بيوتهم، وقد ملأوا السموات وهزوا الأرض بصراخهم المرعب ونحيبهم، وخرج أمامهم جميعاً هيروديوس Herodius، بطريرك القدس، مع الصليب، ورجال الدين، والرهبان، والأشخاص الدينين من كلا الجنسين، والراهبات اللائي كن محبوسات في الديرة، فقد تبع هؤلاء جميعاً البطريرك في رتل طويل، وهم يحملون التماثيل والصلبان، والآثار المقدسة، وأوعية القرابين، التي كانت من الممكن أن تداس بأقدام المسلمين، وجاء بعد هؤلاء النبلاء، والعساكر، ورؤوسهم منكسة، ممتلئين بالخجل والأسى، وقدم بعدهم العامة من الجنيسن مكرهين وهم يحملون صغارهم، الذين كانوا يصرخون ويبكون، مع سائمتهم.

وتوزع الصليبيون أمام المدينة، فقد ذهب شطر أول منهم إلى الاسكندرية، وشطر آخر إلى صور، وشطر ثالث إلى أنطاكية، في حين ذهب بعضهم إلى هذا الميناء البحري، وآخرون إلى ذلك الميناء، ولأن بعضهم كانوا صقليين، فقد ذهب هؤلاء إلى الاسكندرية، وأما الآخرون الذين كانوا ايطاليين أو ألمان، فقد ذهب هؤلاء إلى صور وطرابلس، وكان الشطر الأكبر منهم هو الذي توجه إلى ميناء طرابلس، والذي حدث معهم وهم على الطريق إلى هناك، من الصعب الحديث عنه وروايته من دون بكاء، ومن المؤكد لايمكن حكايته ليس من دون ألم، لأنه عندما اقترب هؤلاء المنفيين الحزينين من القدس، من مدينة طرابلس، وعندما رأوها شعروا بشيء من الانتعاش بأرواحهم لأن الذين كانوا فيها أناس مؤمنين بالمسيح، وقد أملوا أن يتلقوا منهم الاستقبال، والأمان والشفقة التي استحقوها، وقد اعتقدوا أنهم نجوا

الآن من أيدي المسلمين، لكنهم تقابلوا مع قوم آثمين، أكثر سوءاً من المسلمين أنفسهم، ذلك أن ريموند كونت طرابلس، الذي كان مرتداً عن المسيحية بشكل سري كما ذكرت من قبل، قد قام أتباعه، أبناء الظلم، فتلقى هؤلاء الضائعين مثل عدو متوحش وهاجم هؤلاء الذين توجب عليه الاشفاق عليهم كإخوة.

وقد انتزع منهم بالقوة الذي سمح لهم المسلمون به، وتركوه لهم شفقة منهم عليهم، وأهانهم كذلك، وفي هذا الوضع المأساوي، وحيث أنه لم يعد بامكانهم الآن أخذ سفينة، أو العودة إلى بلادهم، بقي كثير منهم حيث كانوا بين المسلمين، متحدين بذلك،. ورافضين إطاعة الأمر البابوي المتقدم ذكره، وتخلى كثيرون عن ايمانهم، كما وهلك كثيرون بالجوع، وكذلك قتل بعض أنفسهم صدوراً عن أساهم، ولقد قرأنا بأن سيدة كانت غنية ونبيلة في القدس، وقد حملت الآن ولدها الصغير على كتفيها طوال الطريق إلى شاطىء البحر قرب طرابلس، على أمل أن تعبر البحر، لكنها عندما وصلت إلى هناك سلبت كلياً من مقتنياتها، ولم يبق معها شيئاً لإطعام طفلها، لذلك قامت بحالة غضب نسائي، فأطاحت بابنها في البحر.

وعندما غادر الصليبيون جميعاً القدس، دخل المسلمون إلى المدينة المقدسة، حيث أهانوا الاسم المسيحي بربطهم دوابهم في الكنائس نفسها، وبقيامهم بأعمال تدنيس، فقد لوثوا هذه الهياكل المقدسة، وألقوا بالخارج ودمروا جميع تماثيل الرب والقديسين، وقد وجدوا تمثال لربنا على الصليب، فحملوه بالشارع العام، وسخروا منه، وبصقوا عليه، ورموا الحجارة عليه، ولوثوه بجميع أشكال القذارات، علاوة على ذلك جلبوا العقيلات والعذارى اللائي كن يتوقعن مجيء معجزة من السماء لاسعافهم، فبقين في المدينة، وجلبوهم لاهانتهن، ويقال بأنه وقتها حدث ذلك العمل المشهور(قطع أنوف الراهبات) الذي تقدمت

الاشارة إليه من قبل، علما بأن بعضهم قد ذكر بأن هذا قد حدث عندما سقطت عكا للمرة الأخيرة(سنة ١٢٩١).

وأثناء غضبهم اندفعوا، فازاحوا الحواجز وفتحوا أبواب كنيسة قيامة الرب، وشقوا طريقهم إلى الداخل، ولوثوا المذابح، وحطموا زجاج النوافذ، واقتلعوا التماثيل المحفورة من الجدران، وصعدوا أخيراً إلى برج الناقوس، وحطموا النواقيس بالمطارق، وأبقوهم هناك مكسرين لمدة طويلة كعمل فيه ملامة للصليبيين، وقد شوهدوا من قبل السيد أنطونيوس كما حدثنا في تاريخه— القسم الثاني، العنوان:١٧، الفصل:٩، الفقرة:١٨، وأنا شخصياً لم أشاهد قطع النواقيس، بل شاهدت فقط العوارض الخشبية، التي تعلقوا عليها فيما مضى، ولم يرغب صلاح الدين بتدمير ضريح الرب تدميراً كاملاً، بسبب أعمدة الرخام الثمين والكسوة من الرخام المصقول، فقد رغب بالاستيلاء عليها وانتزاعها بعمل منظم ودون أن يلحق بها أذى، وكان بذلك يدمر الكنيسة بشكل تدريجي

ثم انهم بعدما خرقوا حرمة الكنائس المسيحية، ذهبوا إلى مايعرف باسم هيكل سليمان، حيث أزالوا جميع المذابح المسيحية، وحطموا التماثيل إلى قطع، وهكذا بعدما طهروه، أو بالحري بعدما لوثوه، غسلوا البلاط والجدران بماء الورد، وصبوا فوقهما كثيراً من العطور، وقد أظهروا احتراماً مدهشاً نحو ذلك المكان، ونحو الهيكل، وبعد أعمال الغسل هذه، التي هي شكل التقديس لديهم، دخل صلاح الدين مع امرائه إليه، وقدم أضحية وفقاً للشعائر الاسلامية.

وذهب الآن السريان والطوائف الأخرى من الموارنة، واليعاقبة، والكرج، والأرمن، والنساطرة، والأحباش أو الهنود، مع المسيحيين الشرقيين الآخرين، والمنشقين والهراطقة، إلى صلاح الدين، ومثلوا في حضرته، وأقسموا يمين الولاء له، وقدموا الجزية إليه، ورجوه بأن

يوضعوا محل المسيحيين اللاتين، وبسرور منحهم صلاح الدين ذلك، لرغبته بتوفر بعض الناس لسكنى المدينة، علاوة على ذلك لقد أنقذوا كنيسة الضريح المقدس، التي سمعوا بأنها سوف تهدم، فقد دفعوا مبلغاً كبيراً جداً من الذهب والفضة إلى صلاح الدين، لإبقائها وحفظها من التهديم، وقد أخذ الذهب، وأعطى الكنيسة إلى المسيحيين الشرقيين، بعدما شرط عليهم الشرطين التاليين: أولاً أن لايسمح لأي مسيحي غربي بالدخول من دون أن يدفع الرسم المقرر، وثانيا أن لايعلقوا بعد الآن أية نواقيس في برج النواقيس، بل يعلنون عن مواعيد القداسات بالقرع فوق ألواح خشبية، ولذلك لم يسمع منذ ذلك اليوم حتى الآن صوت أي ناقوس في القدس، أي منذ ثلاثمائة سنة.

وبعدما فرغ صلاح الدين على هذه الصورة من الاستيلاء على القدس، وضع حامية فيها، وزحف من هناك مع جيشه كله ليجدد الحصار على عسقلان، وبعدما هاجمها لعدة أيام عرض السكان تسليمها، شرط تسليم كل من غي ملك القدس، والمقدم الأعلى للداوية، اللذان وقعا بالأسر في المعركة، إلى المسيحيين، وبسرور قبل صلاح الدين هذه الشروط، فاستولى على المدينة، ووفى بوعده، وترك ملك القدس ومقدم الداوية يذهبان مع جميع آلهما وحاشيتهما، ومنحهما الحرية.

وبعدما نال صلاح الدين تلك المدينة حمل نفسه إلى مدن أخرى، وقلاع من قلاع الصليبيين، واستولى عليهم جميعاً خلال مدة قصيرة، باستثناء بعض البلدات على ساحل البحر، وبشكل خاص صور وطرابلس، لأن ذلك الخائن الشرير جداً، أي ريموند كونت طرابلس، قد وجد ميتاً على فراشه، في الليلة التي تقدمت على اليوم الذي كان مقرراً تسليم المدينة فيه إلى صلاح الدين، وقد عرضت البراهين على ردته وكشفت أخبار خيانته بشكل عام على الناس جميعاً، وهي ختانه،

ورسـائل منه، ولذلك السبب، حمل غي ملك القدس، الفاقد لمملكتـه ولعـاصمـة ملكه، نفسه وذهب إلى طرابلـس، وأقام هناك مع أمـرائـه، وطرابلس مدينـة ساحلية، في منطقـة فينيقية، وهي مـدينة قوية وقـديمة جداً وموائمة كثيراً من أجل التجارة.

أوضاع المدينة المقدسة بعد الاستيلاء عليها، وملوكها الاسميين، ومختلف أوضاع تناقل ألقاب ملك القدس وهكذا دواليك، وأيضاً إثارة جميع الغرب ومساعدة الأرض المقدسة

عندما سمع للمـرة الأولى، البابا أوربان الثالث، بأن المدينة المقـدسة، قـد صـارت بإذن من الرب، بأيدي المسلمين، وأن جميع مملكة القـدس، قد ضـاعت كلها تقريباً، وأن الشعب الصليبي، قـد تضرر بطرائق عدة، وأنه قد طرد باضطراب وفوضى من المدينة، وقتها أصيب بأسى عظيم، وبحزن كبير، وحمل على الفور إلى الفـراش، ومات في فيرارا Ferrara، حيث صدف وجوده هناك.

وبناء عليـه هزت هذه الأنبـاء السيئة، والمأســاة المؤلمة، جميع ممالك الغـرب، فشدّ جميع الملوك والأمـراء أحزمتهم للانتقـام للدماء المسيحيـة التي سفكت، وفي سنة ١١٨٨ لتجسيـد الرب، عقـد مجمع عام، جـرت الدعــوة إليـه في باريس، فيــه حمل جمهـور رائع ولايمكن تعــداده من الفرسان والجنود الرجّالة، الصليب، وتعهـدوا باسعاف الأرض المقدسة ونجدتها.

وحمل في تلك السنة نفسها، امبراطور الرومان اللامع جداً، فريدريك الأول، الصليب مع أمـرائـه ونبـلاء ألمانيـا، وفعل الشيء نفسـه كـذلك فيليب ملك فـرنســا، وهنري ملـك انكلترا، وجميع الملوك الآخــرين، ورؤساء الأساقفـة والأساقفة، ورجال دين كنيسـة الرب، فهؤلاء جميعا حملوا علامة الصليب، وكانت هذه النهضة عـالمية، إلى حد بدا العالم فيه

كله قد اتفق في مقـاصـده، وجـرى حشـد جمع هائـل من الخيـول مع بعضها، واندفعوا جميعـاً براً وبحراً بحماس ملتهب من أجل الحرب ضد المسلمين.

وكان في ذلك الوقت في كالبريا Calabria، راعي دير اسمه يواكيم، وكان رجلاً صـاحب تعليم عميق جداً، ومتفوقاً بعبقـريته، فبعث خلفه الملوك والأمراء الذيـن كانوا على طريقهم إلى الأرض المقدسـة، وسألوه عن محصلة حملتهم وكيف ستكون خاتمتها، فأجابهم بأنهم بالفعل سوف يعبرون البحر، غير أنهم سوف يعملون قليلاً نحو الأرض المقدسة، لأن الوقت لم يأت بعـد حتى يتمكن المسيحيون من احتـلال القدس، وكـان الذي حدث هو كما قـال هذا الرجل، لأنهم عندما وصلـوا إلى سورية لم يتمكنوا من الاستيـلاء على شيء غير عكا، وذلك خـلال عـامين من الزمن.

وجرى الاستيلاء على عكا سنة ١١٩٤ لتجسيد الرب، ليس بوساطة خـرق أسـوارهـا، لكنهـا استسلمت وفـق الشروط التـاليـة: أن يخرج المسلمون منهـا دونما أذى، وقد وعـدوا بإعادة خشبـة الصليب المقدس إلى الصليبيين، وهي الخشبـة التي استولى عليهـا صـلاح الدين بالحرب، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وأن يدفعـوا ٢٠٠,٠٠٠ دوقية، لكن صلاح الدين لم يحافظ على وعـوده التي قطعها على نفسـه للملوك حول خشبـة الصليب، وحول إعادة الاسرى الصليبيين فما كان من الملك رتشارد إلاّ أن أمر في أحـد الأيام بجعل خمسة آلاف(مـن الاسرى المسلمين) طعمة للسيف.

ومـات في تلك الأثنـاء ابنتـا الملك غي، من زوجتـه سيبيـلا، البنت الكبرى للملك عمـوري، وغـادرت بعـدهما بوقت قصير أمهما السيـدة سيبيلا، هـذه الحياة، ولم يبق أحد مـن أسرة ملوك القدس الحقيقيـة حياً إلاّ السيـدة اليـزابث(ايسـابل) الـذي كـانت زوجـة همفـري أوف

تيرون،[تبنين] لأن عموري، الملك السادس للقدس، كان له ولد ذكر واحد، هو بلدوين، الذي كان مجذوماً منذ طفولته، وابنتين هما سيبيلا، واليزابث، وإثر وفاة عموري، وصل المجذوم إلى العرش، لكنه بسبب مرضه لم يتمكن من الزواج، ولم يكن له وريث، فجعل من أخته الكبرى سيبيلا وريثة لمملكته، وقد حكم زوجها غي عوضاً عنها، في حين تزوجت اختها اليزابث من اللورد همفري، وبعد خسارة الأرض المقدسة والقدس، ماتت سيبيلا الملكة الوارثة لمملكة القدس، ولم يكن لها وريث سوى زوجها غي، وعندما سمعت اليزابث أخت سيبيلا، بوفاتها، أعلنت عن نفسها ملكة ووريثة لمملكة القدس، وأعلنت في كل مكان بأن زوجها هو الملك عوضاً عنها، مثلما كان غي ملكاً عوضاً عن أختها.

ورأى اللورد هنري، كونت شامبين مع آخرين كثر، بأن المملكة قد انتقلت إلى اليزابث بعد وفاة اختها، ولذلك عملوا لصالح الكونت المتقدم الذكر، وأن جميع الضرائب المجبية في الموانىء، والغرامات المفروضة على المقصرين، ومدفوعات أخرى هي من حق ملك القدس، ينبغي أن يتسلمها همفري، وعلى هذا بقي غي ملكاً بالاسم فقط، حيث جرد من جميع صلاحياته، ولذلك اشتكى وهو محق، أنه كان خرقاً للعدالة تجريده من جميع حقوقه في مملكته، وهكذا دعا إليه المخلصين من أتباعه، وشكل جيشاً، وقرر أن يعهد بنفسه إلى الحظ، وسوف يحارب معهم المسلمين.

ولدى سماع كبار الأمراء بهذا أصبحوا خائفين، من أنه إذا ذهب إلى قتال المسلمين بمثل هذه القوة الصغيرة، وهزم، فلسوف تتفرق جميع الحشود التي جمعوها لخدمة الرب، ولذلك عملوا في سبيل إعادة جميع الحقوق إلى الملك غي كما كانت من قبل، لكن كونراد مركيز أوف مونتفرات وقد رأى بأن المملكة قد آلت لصالح السيدة اليزابث،

بوساطة حق الوراثة، تطلعت نفسه شرهاً إلى المملكة، فقام بعمل مهين، وذلك بموافقة أمهـا كالوماريا Calomeria ، أرملة عموري المتقدم ذكره، وكـانت ماتزال حية، فـانتزع اليـزابث المتقدمة الذكـر من زوجها همفري، وبالقوة اتخذها زوجة له، وأغضب هذا العمل المهين والممجوج جميع الحجـاج، لكنهم أخفوا غضبهم، لأنه مـالم يكن كونراد راضيـاً، لم يكن بإمكانهم الحصول على الأقوات من صور.

علاوة على ذلك، كان هو رجلاً بارعـاً، وقد ربح إلى جانبه عدداً من كبـار الأمراء عن طريق الهدايا والخدمـات، ولذلك ساعـدوه في أعماله، واستولى هـذا المركيز فيها بعـد على صور، وصار رجـلاً قويـاً ومشهوراً، لأنه صـد صـلاح الدين مع جيشـه عندمـا جاء لحصـار صـور، ولذلك مامن أحد تجرأ على معارضته وتجاوزه.

وعندما صـار جيش اللوردات جاهزاً لمحاصرة القـدس، قام الملكان الأعظم قدرة، وهما فيليب ملك فـرنسا، ورتشارد ملك انكلترا بتـوحيد قـواتهما ودمجهـا(٢٨٣)، ولدى سماع صـلاح الدين باقتراب هذا الجيش العظيم، فكر بتسليم القـدس إلى الصليبيين، وأرسل رسـلاً إلى الملكين للتفـاوض حـول ذلك، وعنـدمـا سمع الملكان بهذا— ولنقـل هنا الصدق— دخل الشيطـان فيما بينهما، وبذل كل واحد منهما غـاية جهده ليسلب الآخـر، ولينال أكثر منه، وأن يصبح هو ملك القـدس، ولذلك ثار خـلاف بين الجيشين، وتخاصم الأمـراء فيما بينهم حـول الامـارة المقدسة للقدس.

وأثناء تخاصمهم على هـذه الصـورة، تخلى فيليب وهـو مغضب عن مشروع العمل كله، وذهب عائـداً إلى أوروبا مع جيشه كله، ولأن ملك فـرنسـا سـاند دومـا ملوك القـدس ووقف إلى جـانبهم، ودافع عنهم، وحـافظ عليهم في مملكتهم، رأى أنه من الجانب القـانوني، أنه عندمـا مـاتت الأسرة الملكيـة، فإن لقب المملكـة ينبغي أن يناله شخصيـاً، لكنه

عندما رأى الآن أن هذا لايمكن حدوثه من دون إزالة السلام بين الصليبيين، لذلك انسحب وهو مغضب، وعندما سمع صلاح الدين بأن جيش الصليبيين قدتناقص بسبب مغادرة ملك فرنسا، تخلى عن نيته بتسليم القدس إلى الصليبيين، وحصن المدينة المقدسة، ووضع حامية من الجند فيها، وفي الوقت نفسه بقي الملك رتشارد في سورية، وأثار الحرب بنشاط وفاعلية ضد المسلمين.

وفي سنة ١١٩٧، عندما كان رتشارد ما يزال في سورية، قام غي لوزغنان ملك القدس، التي تعرض في السنوات الماضية إلى الهزيمة على يدي صلاح الدين، قام وقد شاهد شجاعة رتشارد في سورية، وعظمة نفسه، فتخلى له عن لقب وعن حقوق مملكة القدس، على شرط أن يعطيه رتشارد جزيرة قبرص، والتي كان رتشارد قد انتزعها لنفسه من الاغريق، ووافق رتشارد ونفذ ذلك برغبة كبيرة، وجعل غي ملكاً على القدس، في حين أصبح هو نفسه ملكاً على القدس وعلى انكلترا، وقد وضع تاجين على رأسه، ولهذا السبب مابرح ملوك انكلترا يستخدمون هذا اللقب، لكن بعد مغادرة الملك رتشارد، استأنف غي حمل هذا اللقب، قائلاً بأن عاصمة مملكته قد انتقلت من القدس إلى قبرص.

والذي حدث على كل حال أن الأمراء الذين احتلوا أماكن حصينة في سورية رفضوا الاعتراف به ملكاً، لأنهم عرفوا بأنه في الحقيقة قد خسر مملكته، وخسر لقبه المتعلق بها أيضاً.

وبعدما تشجع الملك رتشارد وتحمس بوساطة اللقب الملكي الذي تطلع إليه طويلاً، بدأ يستعد للزحف نحو القدس، وإلقاء الحصار عليها، لكن الشتاء حل، وتفرق اسطوله بكل اتجاه، فغير خطته، وعمل هدنة مع صلاح الدين، وشرع يستعد للعودة إلى الوطن، وسلم قيادة الجيش الصليبي، وجميع حقوق المملكة إلى ابن أخته هنري كونت شامبين، وهكذا غادر تاركاً العمل وقد اكتمل نصفه، ومضى في طريقه

مضيفاً أسى إلى أسى شعب البلاد المعزول، لأنه عدّ ملك فرنسا خصماً له، وخشي من قيامه بغزو بلاده أثناء غيابه، وكان رتشارد ذاهباً إلى وطنه بالبحر كملك، وقد عانى بقدر من الرب من جنوح سفينته أثناء عاصفة شديدة، غير أنه تمكن من الوصول إلى الساحل سالما مع عدد قليل من الأتباع، وعندما كان يشق طريقه بشكل سري للغاية خلال النمسا، اعتقل من قبل ليوبولد، دوق تلك البلاد، وسلب من جميع مقتنياته، ثم جرى تسليمه إلى الامبراطور هنري، ابن فردريك الذي كان قد هلك في الحملة السالفة إلى القدس، وقد أبقاه في السجن لمدة سنة ونصف السنة، ثم أطلق سراحه بعد دفعه مائتي ألف مارك فضي، وعاد إلى انكلترا، وأعتقد أن هذا جزاء جلبه على نفسه، لأنه ذهب ليحصل على مملكة القدس لنفسه، وعندما حصل عليها، تركها في أسى وحزن، وهرب بعيداً .

هذا وكان كونت شامبين المتقدم الذكر، الذي إليه عهد الملك الانكليزي بشؤون العناية بالجيش الصليبي، رجلاً تقياً، وقد رأى بأن البلاد قد تركت في وضع بائس، بعد مغادرة كل من ملكي فرنسا وانكلترا، ولذلك قرر هو شخصياً البقاء في الأرض المقدسة، وامضاء حياته في خدمة الرب، ولدى رؤية تقواه وأوضاعه، قام مقدم الداوية مع الحجاج الآخرين باختياره ملكاً، وأعطوه السيدة اليزابث، ابنة الملك عموري، لتكون زوجة له، لأن زوجها، مركيز صور كان قد توفي، وكذلك همفري، زوجها الأول.

وبعدما حكم لمدة عامين، وعندما كان مستنداً على نافذة في الطابق العلوي من قصره، سقط نحو الأسفل، ومات بشكل بائس، وهكذا باتت مملكة القدس من جديد من دون ملك، وقد حدث هذا في سنة ١١٩٧، ووصلت في السنة التالية حشود لاتحصى من المؤمنين إلى عكا، بوساطة البحر، وكانوا جاهزين من أجل استرداد القدس، لكن بما أنه

لم يكن هناك من يقودهم، ولايوجد ملك للأرض المقدسة، تبددت هذه الحشود من دون عمل، وعاد الناس إلى بلادهم، بعدما أنفقوا كثيراً من المال، من دون محصلة.

وبعد هذا، كان في سنة ١٢٠٢م زلزال كبير في سورية، وقد لحق الدمار مدينة عكا مع جميع قصورها وأبنيتها الأخرى، وحل المصير نفسه بكثير من المدن الأخرى.

وفي سنة ١٢١٥، دعا البابا انوسنت الثالث، إلى عقد مجمع ديني كبير جداً، في اللاتيران في روما، وقد قيل بأنه حضر هذا المجمع ألف وثلاثمائة من الأساقفة، وكان بين هؤلاء اللورد فولك، أسقف طولوز، وكان رجلاً متميزاً، وجاء إلى حضرة البابا انوسنت ومعه القديس دومينيك، والتمس من البابا تثبيت الطائفة، التي عرفت باسم طائفة القديس دومينيك، وكان في البداية من الصعب اقناع البابا بفعل هذا، غير أنه رأى فيها بعد مناماً في كنيسة اللاتيران، بأن جميع أطرافه قد تفككت، وكانت على وشك السقوط، لكن دومينيك، رجل الرب، ركض وأمسك الجسد المتداعي، وحال دون سقوطه، ولذلك قام في اليوم التالي، فبعث وراء القديس دومينيك، ووافق على الاقتراح، وعمل بسرور الذي طلب منه، وتسلم القديس دومينيك في السنة التالية تثبيتاً لطائفتة من هونوريوس الثالث.

وكان في المجمع الذي تقدم ذكره، بالاضافة إلى الأساقفة بطريرك القدس وكذلك بطريرك القسطنطينية، مع عدد كبير من الأساقفة الاغريق ومن الامبراطورية الرومانيةوكذلك مبعوثين من قبل ملوك: القدس ، وفرنسا، واسبانيا، وانكلترا، وقبرص، ومع أن كثيراً من التنظيمات الرائعة قد عملت من قبل هذا المجمع، غير أن النقاش الرئيسي كان فيه حول استرداد الأرض المقدسة، واسترداد القدس، وحول كيفية جمع المال لهذا العمل، وكيف ستكون الدعوة إلى الصليبية،

وكيف ينبغي أن يلبس الناس شارة الصليب، ومن هم الذين ينبغي توليهم قيادة المجموعات وقيادة الجيوش.

وبناء عليه ترك القديس دومينيك منذ أيام ذلك المجمع لحيته تنمو، عازما على الذهاب مع الجنود للقتال ضد المسلمين، وذلك مثلما كان قد قاتل لوقت طويل ضد الالبينيين الهراطقة، وتوفر بعد هذا المجمع حشد رائع من الناس من أهل الغرب للانطلاق من أجل تحرير القدس، والأرض المقدسة.

وحمل في الوقت نفسه الأطفال من مملكتي فرنسا وألمانيا شارة الصليب، وقد بلغ تعدادهم عشرين ألفاً، وأعلنوا أنهم عازمون على الذهاب لمساعدة الأرض المقدسة، وقد توجهوا على شكل حشود إلى مختلف موانىء البحر، ثم عادوا من هناك إلى أوطانهم جائعين ومفلسين، وراجت حكاية بأن شيخ الجبل، الذي اعتاد على تربية الحشيشية منذ طفولتهم، كان لديه في السجن اثنين من الكهنة المنشقين، وكان هذين الكاهنين متعلمين بشكل عميق، وأنهما كانا بارعين بالسحر وتحضير الأرواح، فأعلن أنه لن يطلق سراحهما مالم يعدوه بجلب أطفال من فرنسا وألمانيا إليه، وبناء عليه، قالوا بأن الأطفال المتقدم ذكرهم قد اقتيدوا من قبل هذين الرجلين، بوساطة قوة جذب شيطانية، ورؤى زائفة، حتى يحملوا الصليب، على أساس بأن الرب قد رسم بأن الأرض المقدسة، والقدس، يمكن تحريرهما فقط بوساطة أطفال أبرياء.

وعندما وصل هؤلاء إلى موانىء البحر، جرى اغراق الكثير منهم من قبل القرصان، كما جرى بيع أعداد كبيرة منهم رقيقاً إلى المسلمين وإلى أجانب آخرين، ومات كثير منهم من الجوع، وعاد بعضهم إلى أوطانهم إلى آبائهم، وقد ساد ضلال بين الأطفال في أيامنا، فقد أرادوا في سنة ١٤٥٤، القيام بالحج إلى جبل القديس ميكائيل، وقد تبرهن أن هذا الحج كان مفيداً أم لا من خلال المحصلة المخفقة له.

وفي سنة ١٢١٧، قـامـت أعـداد لاتحصى من النـاس، بعـد مجمع اللاتيران بحمل شـارة الصليب حتى يتمكنوا من القتال ضـد الألبينيين الهراطقة، وكـان من هؤلاء على سبيل المثال سيمون كونت مـونتفورت، وقد كـان بين اتباعـه دومينيك أبونا المقدس، وغي ابن الكـونت المتقدم ذكـره، ولويس ابن ملك فـرنسـا، ومع ذلك كـان بعضهم، وهم الذين شكلوا الجزء الأكبر، قد حملوا شـارة الصليب حتى يتمكنوا من اسعاف الأرض المقـدسـة، واسترداد القـدس، لأنه في تلك السنـة انتهى وقت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين، ولذلك عبر الجيش الصليبي، الذي حمل شارة الصليب بعد مجمع اللاتيران، البحر، ووصل إلى عكا، وكان جيشاً لايعـدّ ولايحصى، معه ثلاثة ملوك هـم: ملك القدس، وملك هنغـاريا، وملك قبرص، وكان أيضـاً حاضراً بينهم، دوق النمسا وبانونيـا، وعدد كبير من الجنود من ألمانيا.

وكان ملك القـدس في ذلك الحين، اسمه جـون، وكان من قبل دوق بريين في فرنسا، وكان قـد انتخب قبل بضع سنوات ملكاً للقدس، وقد كـان تقياً ومـاهراً شجـاعاً بـاستخدام السـلاح، وقـد انحدر بنسبـه من غـودفري ذلك الانسـان الرائع جـداً، الذي كان الملك الأول للقـدس، وقد تزوج من ابنة كونراد، الذي كان مركيز صور، وقد توجا في صور، وبعـدما حمل الصليبيـون أسلحتهم قامـوا باستعدادات جبـارة من أجل القتـال ضـد أعداء الصليب، وعندمـا كـانوا جـاهزين للانطلاق، جـاء بطريرك القـدس وسط أناس محترمين جـداً من رجـال الدين والشعب، وحمل بشكل جليل في يديـه خشبـة الصليب المانـح للحيـاة، وســار في معسكر الرب، وكانت هذه القطعة النصف الأول من الصليب المقدس، وهي التي تمّ العثور عليهـا في الكنيسة في أيام غودفـري المشهور، الذي كـان الملك الأول للقــدس، فقـد كـان هذا النصف يحتفـظ به دومـاً في الكنيســة، في حين كــان القسم الآخــر يحمل دومــاً إلى الحروب وإلى

المعسكرات، وهذا النصف الأخير هو الذي استولى عليه صلاح الدين وانتزعه من غي، آخر ملوك القدس، كما ذكرت من قبل، وبعد فقدان ذلك القسم، حمل الصليبيون النصف المتبقي من الصليب المقدس وقاتلوا تحته.

ورتبوا الآن صفوفهم ، وزحفوا مع هذه العلامة نحو المكان الذي قيل بأن المسلمين موجودين فيه، عازمين على انشاب القتال معهم، ولكن ماأن سمعوا باقتراب جيشنا عن طريق عناصر الاستطلاع لديهم، حتى هربوا وهم مرعوبين، وزحفت قواتنا من دون معيقات في منطقة الجليل، ملحقة كثيراً من الأذى بالأعداء، ومقررة الاستيلاء على جبل الطور، لكن بعد كثير من المتاعب، وبناء على نصيحة بعض أفراد جيشنا، رفع شعبنا الحصار، وعاد جيشنا إلى عكا، لأن الوقت صار شتاء وكان موسم الحملات قد انقضى.

ولدى انتهاء الشتاء، أراد الجيش الصليبي حمل السلاح ثانية والزحف ضد المسلمين، إنها نتيجة لذنوبنا، انقسم جيشنا إلى أربعة أقسام، فقد قام ملك هنغاريا بالحاق أذى عظيماً بالصليبين، حيث جهز سفنا لسفره، وعاد إلى الوطن، آخذاً معه الشطر الأكبر، من الجيش الصليبي، مع غلايينه، وعتاده الحربي، ولم يصغ إلى البطريرك، الذي طلب منه البقاء، ولذلك أصدر البطريرك ضده قراراً بالحرمان الكنسي، وضد كل من يعمل مثله، وأصبح بعض الحجاج إما من خلال الترف أو الخوف جبناء جداً إلى حد عدم الرغبة بالخروج خارج أبواب عكا.

ومع ذلك تمكن ملك القدس، ودوق النمسا مع باروناته، وشطر كبير من الجيش الألماني، وفرسان القديس يوحنا، من بناء قلعة قوية في قيسارية فلسطين، وكان من غير الممكن طردهم من هناك، مع أنهم غالبا ماأعلموا بأن الأعداء كانوا قريبين منهم، وكذلك أعاد الداوية مع بيت الاسبتارية وفرسان التيوتون، بناء قلعة الحجاج(عثليت) التي كانت

مدمرة منذ وقت طويل، وعندما كانوا يرسون الأساسات هناك، كشفوا عن جدار سميك وعاري، فيه حفروا بالأدوات الحديدية، فوجدوا كميات وافرة جداً من النقود الذهبية، كانت الكتابة عليها والصور غير معروفة بالنسبة للمعاصرين، وقد أذابوا هذه النقود ودفعوا بها أجور عساكرهم، وكان شكل موقع هذه القلعة كما يلي: كان هناك ذراع صخري مرتفع وضخم وواسع ممتد في البحر، وكان هذا الذراع أو النتوء محصن بشكل طبيعي بجروف من جوانب: الشمال، والغرب، والجنوب، في حين قام على الجانب الشرقي برج قوي، بني بالأصل من قبل الداوية لحماية الحجاج، وكان بناء هذه القلعة مفيداً، لأن دير الداوية قد جرى نقله إلى هناك من عكا، التي كانت مليئة بجميع ألوان الذنوب والشرور، وقد تأسس هناك كحامية لهذه القلعة حتى يحين الوقت الذي يعاد فيه بناء أسوار القدس.

واستمر في سنة ١٢١٨م التبشير بصليبية ضد الشرقيين، في جميع أرجاء الغرب، وشوهدت صلبان رائعة في سماء منطقة كولون، وتريفس Treves، وذلك مع معجزات أخرى أثارت ألمانيا كلها لعبور البحار، وتجمع الألمان بأعداد كبيرة، وأبحروا إلى عكا في شهر آذار، وبعد عيد صعود الرب غادروا غلايينهم الحربية المنقارية وأماكن نزولهم، واجتمع جون ملك القدس، مع البطريرك، والحجاج، ودوق النمسا، والطوائف الثلاث، وحشد واسع من الصليبيين، وتشاوروا حول كيف يمكنهم تنفيذ قرار مجمع اللاتيران، الذي توصل إلى محصلة قضت بوجوب ارسال الجيش الصليبي إلى مصر، لأنه تبرهن في ذلك المجمع من قبل الخبراء أنه لن يكون من الممكن للصليبيين الحكم بسلام في سورية والأرض المقدسة، مالم تكن مصر قد ألحقت بمملكتهم.

وقد تبرهن على هذا من حقائق، أنه ماأن تحالفت الأجزاء السورية التي حول دمشق مع مصر في أيام عموري، ملك القدس، حتى

أصبحت مملكة القدس على الفور في خطر عظيم، في حين أنه قبل ذلك التحالف مامن انسان كان بامكانه ايذاء المملكة المقدسة، ولذلك قرر الآباء المقدسون الذين جلسوا في المجمع المتقدم الذكر، وجوب الاستيلاء على مصر أولا، وبعد ذلك ينبغي أن يزحف الجيش للاستيلاء على الأرض المقدسة، والمناطق الأخرى في الشرق.

وبناء عليه صار الاسطول في شهر أيار جاهزاً، وأبحر جون، ملك القدس المتقدم ذكره مع دوق النمسا وحشد كبير من الصليبيين نحو دمياط تحملهم إليها ريح طيبة، ومدينة دمياط قائمة على شاطىء البحر، وتعرف أيضاً باسم آخر هو Pachneumurus (كذا)، وكانت مدينة دمياط هي الأكثر تحصينا بمصر، كما كانت غنية ومكتظة السكان، ومليئة بالتجارات.

ووصل رجال شعبنا إلى ميناء دمياط، وانتظروا في البحر لمدة ثلاثة أيام، وصول بعض القادة، لكن قبل وصول هؤلاء نزلوا إلى اليابسة، وشرعوا بحصار المدينة من الجانب المواجه للبحر، وذلك على الرغم من المسلمين، ويوماً تلو آخر صار جيشنا أكبر، ولذلك فإن السلطان الذي كان معسكراً في الجانب الآخر من المدينة، هرب مبتعداً مع جيشه، وعبر رجال شعبنا النهر، وحاصروا المدينة كلها، وضغطوا عليها بشدة متناهية، ونصبوا في الوقت نفسه معسكرهم بين شاطىء البحر، ونهر النيل، وصنع الرب المعجزة التالية، وهي أنهم ماأن وصلوا إلى هناك حتى أصبحت مياه النهر عذبة، وذلك حيث يتصل النهر بالبحر، ولم تتدفق المياه وتفض أكثر من المعتاد، وكأنها فعلت ذلك حتى تبقي مكاناً من أجل شعب الرب، لكن بعد أمد وصلت المياه الفائضة إلى المعسكر ودخلته، ومعها انتشر الطاعون بين صفوف جيشنا.

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون دمياط بعناد، قام المعظم عيسى ابن السلطان الكبير، فحشد جيشاً من أهل منطقته،

وزحف في داخل سورية إلى القدس، ودمّر المدينة المقدسة دماراً كلياً من الداخل والخارج، باستثناء هيكل الرب، وبرج داوود، وقد فعل هذا بغرض، أن الصليبيين، بعد استيلائهم على دمياط، لن يجدوا أي مكان حصين على الأرض، يمكنهم أن يتأسسوا فيه في مملكة القدس، ولأنه لو سقطت دمياط، لن يكون لديهم أمل بالقدرة على الدفاع عن القدس، وأثناء قيام المسلمين، بتدمير القدس تناقشوا هل عليهم تدمير كنيسة ضريح الرب، لكن مامن انسان تجرأ على أن يمدّ يديه عليها، ومع ذلك انزعج شعبنا من الرسائل التي بعثها المسلمون الى معسكرنا أمام دمياط، حيث أعلنوا فيها، أننا مالم نرفع الحصار مباشرة، فإنهم سوف يدمرون دماراً كلياً، كنيسة القيامة، وبعد فراغ المعظم عيسى من تهديم القدس، حاصر ثم استولى على بعض القلاع الصليبية، التي بنيت حديثا.

وفي الوقت نفسه بما أن مدينة دمياط كانت تعاني من السيف، والجوع، والطاعون، أثناء الحصار الطويل، هنا بدأ عامة الشعب يتذمرون ضد السلطان، وضد الأعيان الذين حكموا المدينة، وأعلنوا أنهم لايستطيعون الاستمرار بتحمل مآسي الحصار، وعندما علم السلطان بهذا، منعهم من تسليم المدينة، وأعطى أوامر إلى رجاله في الداخل بإغلاق أبواب المدينة عمارة من الداخل، خشية أن يقوم سكان المدينة، الذين كانوا يعانون من الجوع والمجاعة، بهجرها إلى المعسكر الصليبي، وإخبارهم بحالة التعاسة التي كانت تعيشها المدينة، ولم تقتصر معاناة الناس من المجاعة في داخل المدينة، بل عانوا من ذلك في معسكر المسلمين، الذي قام ليس بعيداً عن معسكرنا، فقد كانت هناك مجاعة حادة، لأن نهر النيل الذي اعتاد على الفيضان على ضفتيه بعد عيد القديس يوحنا المعمدان(٢٤—حزيران)، ويستمر بالفيضان حتى عيد تمجيد الصليب(١٤ تشرين أول)، ومن ثم سقاية سهل مصر، لم ترتفع مياهه في تلك السنة إلى العلامات التي وضعها المصريون، بل ترك شطراً

كبيراً من الأرضيين دون غمـر، وجـافـة، ولذلك كـان ليس مجدياً لاالفلاحة ولا البذار في تلك السنة، وخشية من السلطان حدوث مجاعة في المستقبل، قام مـع أخيه المعظم عيسى بعـرض السلام على الصليبيين، وفقـاً للشروط التاليـة: هو سـوف يسلمهم الصليب الذي استولى عليـه صلاح الدين في نصره، مع مدينة القدس المقدسة، وجميع الأسرى الذين يمكن العثور عليهم أحياء في أرجـاء مصر وفي مملكة دمشق، كما عرض مـالاً لإعادة بناء أسـوار القدس، وأنه سـوف يعيد إليهم مملكة القـدس كلهـا، حسبما كـانـت بأيدي الصليبيين، وذلـك مع قلعتـي الكرك والشـوبك،. وهما قلعتـان قـريبتـان من القـدس، من بينهما اعتـاد تجار المسلمـون والحجـاج على المرور وهم على طريقهـم إلى مكة، وهذا كله كان السلطان على استعداد لتقديمـه وفعله، شريطة أن يقوم الصليبيون، بالتوقف عن حصار دمياط، ورفع الحصار، وسحب قواتهم إلى سورية.

ورأى جون ملك القدس مع جميع نبلائه، ودوق النمسا وجميع القادة الألمان، بأن هذه الشروط ينبغي قبـولها بكل وسيلـة من الوسـائل، وأنها نافعـة جداً للصليبيين، لكـن بيلاغيـوس، النائب البـابوي، والبطريرك، والأسـاقفـة، ورؤسـاء الأسـاقفـة، والداوية، والاسبتـارية، والبنادقـة والجنويين مع الايطاليين الآخـريـن رفضـوا هذا العـرض، وكـان هناك انقسـامـاً كبيراً في جيشنا، لأن الأمـراء العلمانيين والعـامـة كـانوا على استعـداد لقبول السـلام مع المدينة المقـدسة وجميع مملكة القـدس، ورفع الحصـار الذي هو أمـر جيـد ومفيـد عمله، لكن من جـانب آخـر نادى بصوت مرتفع النائب البابوي، وأسـاقفة الكنيسة، والتجار الطليان، من أجل الاستيلاء على دمياط، لأنهم أدركوا أنهم في اللحظة التي ينالون بها دميـاط، فإن القـدس والبقيـة سـوف تسقط في أيديهم، لكن الذي يحك بشدة متناهية يفجـر الدم، وهذا ماحدث معهم، لأن عملهم هذا انقلب في النهاية سيئاً ضدهم، وفي الحقيقة مـاكان بإمكان شره رجال الكنيسة،

والنهم الذي لاحـــدود له للتجــار، الــذين تولوا تـدبير الحملة، جلب الأمور إلى نهاية سعيدة.

وفي الحقيقة منذ أن حدث الاستيلاء على دمياط، تلك السيدة المتكبرة للبحـر، ومعذبة الصليبيين، حـدث كل مايلي بإرادة الرب، فعندمـا بات صلاح الـدين(كذا) يائسـاً من الحصول على السـلام ،قام بارسـال عدد كبير من الجنود الرجــالة إلى البلدة في الليل، لكن جــرى اعتقـال كثير منهم وقتلهم، من قبل شعبنا، ثم انه بناء على أوامر من النائب البابوي، جـرى ارسـال بعض الفـرسـان، أثناء الليل إلى باب المدينة، لرؤية كيفيـة حراسته، وقد تمكنوا وهم مغطون بترستهم من الصعود إلى أعلى الباب، فلم يجدوا أحداً فوق الباب أو قربه، فنصبوا سلالم على الأسوار، ودعوا رفاقهم وتسلقـوا إلى أعلى الأسوار، ثم نزلوا إلى المدينة، وفتحـوا الباب، وتركـوا رفـاقهم يدخلون، وقــد قتلوا المسلمين الذين صــدفـوهم، وبالضجة التي انبعثت من هذا القتـال، نهض باقي الجيش، وحمل رجاله السـلاح، وبذلك استـولوا على المدينـة، أمـام عيني السلطان، ومن دون معركة أو ضرر للصليبيين، وجاء الاستيلاء على المدينة في اليوم الخامس من تشرين الثاني لعام ١٢١٩م.

وعندمـــا رأى السلطان المدينة بأيـدي الصليبيين، استبـد بـه الرعب، فأحـرق معسكره وتراجع، ولدى دخـول الصليبيين إلى دمياط واجهـوا رائحة نتن لاتحتمل صدرت عن جثث النـاس الأموات، التي كانت من الكثـرة بمكان أن الأحيـاء كـانوا غير قـادرين على دفنهم، وكـان منظراً مؤلماً مشـاهدة رجال ونسـاء وأطفال قـد جاعوا حتـى الموت، وقد قتل الأموات الأحياء بروائح نتن جيفهم.

ففي خـلال العشرين شهـراً، الذيـن حـوصرت المدينة أثنائهم، هلك سبعة آلاف من المسلمين من الجوع والطاعون، ووجدنا في المدينة حوالي ثلاثة آلاف من المقاتلين، كان منهـم أربعمائة من أعلى النبلاء، وذلك مع

أغنى سكان المدينة من الجنسين، وجرى الاحتفاظ بهم جميعاً رهائن من أجل تخليص أسرانا من عند المسلمين، وجرى بيع البقية رقيقاً إلى الصليبيين، كما تمّ تعميد الأطفال، ولم يكن في المدينة أية أطعمة، لكن الذهب والفضة، والأحجار الثمينة، والأقمشة الذهبية والحريرية والأشياء الغالية الأخرى، كانت بلاحدود، وقد حملت كلها— تحت تهديد عقوبة اللعنة الرهيبة— إلى المستودع العام، وجرى توزيعها بين الجيش، من قبل أناس أمناء، بشكل عادل، إلى حد أن النساء الفقيرات والأطفال تسلموا حصة من ذلك.

وبعد الاستيلاء على دمياط، واعادة تنظيم الأمور فيها، استولوا على مدينة أخرى حصينة جداً اسمها تنيس، لأنهم وجدوها كلها مهجورة.

وفي سنة ١٢٢١ لتجسيد ربنا، ثار— بتحريض من الشيطان— نزاع بين بيلاغيوس، النائب البابوي، وبين جون ملك القدس، لأن النائب البابوي انتفخ عجرفة، ونسي أحكام أنظمته الكهنوتية، فأراد أن يجعل من نفسه الحاكم الأعلى لجميع الجيش، فقام بتعبئة صفوف القوات للقتال، ورغب في أن ينال وحده فخار الاستيلاء على مدينة دمياط، وأن يعزى كل فضل إليه وحده، ورأى الملك أنه من المعيب أن يقوم رجال الدين في مملكته بإدارة الأمور العسكرية، ونظراً لأنه كان رجلاً حكيماً آثر الانسحاب على الخلاف، ولذلك تعلل ببعض المعاذير من أجل المغادرة، وحمل نفسه مع عدد قليل من خدمه، وترك الجيش، وذهب إلى سورية.

وفي الوقت نفسه ازداد حجم الجيش يوميا أكثر فأكثر، ووصل عدد كبير من السفن من الغرب إلى دمياط، واستدعى بيلاغيوس الآن القادة جميعاً، وعرض رأيه بأن عليهم الزحف ضد السلطان، المقيم معسكره على ضفة نهر النيل، على مسافة سفر يوم واحد من دمياط، وعارض قائد القوات ذلك، وبين أنه لايحق للنائب البابوي تحريك الجيش في

غيـاب الملك، وبناء عليه عنـدمـا رأى النائب البـابوي أنه مـالم يكن حـاضراً، من غير الممكن تنفيـذ الحملة الصليبية، بعـث بسفارة رسميـة إليه، ورجاه بالظهور، والبرهنة إلى الجيش بـأنه ابنا حقيقياً لكنيسة روما، وأنه سوف يعود إلى الجيش الذي ينتظره بشوق.

وقام الملك العـاقل فحشد جيشاً، وزحف من سـورية، وعندما سمع باقتراح النائب البـابوي بـالهجـوم، نصح بقـوة ضـد القتـال، وقـال إذا ماتحرك الجيش الصليبي من دمياط وغادرها في ذلك الوقت، فلن تصله النجدات من دميـاط لابراً ولابوساطة الماء، ولاسيما وأن مـوسم فيضان النيل بات وشيكاً، وقـد انزعج النائب البـابوي كثيراً من نصيحـة الملك العاقلة، ومن رأيه الصائب، وأعلن عن حـرمان كنسي عام ضد كل من يعيق تنفيـذ خطتـه، وعندمـا رأى الملك أنه من المستحيل صرف النائب البـابوي عـن مقـاصـده، استجـاب وهو مكره جـداً، واذعـانا منه الى الكنيسـة، وعـرض أن يزحف ضـد السلطـان والقتـال بصحبـة النائب ضـده، لكن الذي حدث كـان ماتوقعـه الملك، فقد وقع الصليبيـون في ضيق شـديـد بسبب الجوع، وبسبب ارتفـاع النيـل، وبسبب حملات السلطان، ولذلـك أرغمـوا على صنع سـلام مع السلطـان، وتخلوا عن دمياط، وتراجعوا في فوضى من مصر إلى سورية.

وبعـد هذا عقـدت هدنة لمدة ثمانيـة أعـوام بين الصليبيين والمسلمين، وسلّم قومنا دمياط وغادروا وهم مجللـون بالعار، وتوجه كل واحد إلى مكانه، ولكم كـان مفيـداً لـو أنهم قبلوا الشروط التي عـرضت عليهم، وهي التي كان ملك القدس مع الفرنسيين والألمان على استعداد للقبول بها، لكن عجـرفـة ذلك النائـب البـابوي الملعـون، سببت فقـدان مملكة القـدس، واعادة دميـاط إلى المسلمين، وتمزيق وتدمير قومنا، وإنه لأمـر عجيب أن بيلاغيـوس أو بالحري« بحر بيلاغـوس للدناءات»، لم يمزق إلى ألف قطعة، لأننا لوكنا تسلمنا القدس في ذلك الوقت، وفق الشروط

التي كـان السلطان على استعـداد لمنحنا إياها، لكانـت الآن في أيدينا، وكان الضريح المقدس حراً.

وفي سنة ١٢٢٣م، حـزن جـون ملك القدس كثيراً لخسـارة دميـاط، وأكثر من هذا لخسارة مملكة القدس كلها، وهي المملكة التي صارت في أيدي الصليبيين، لكنهم رفضوا استلامها وبعدمـا قام بتقرير أمور دولته في سـورية بقـدر مـااستطاع، أخـذ سفينتـه وتوجـه إلى الغـرب، حتى يستجدي العـون من كنيسة رومـا ومن أمراء المسيحيين، وعندمـا وصل إلى عند البـابا غـريغـوري التـاسع وجـده غـاضبـاً جـداً ومنزعجـاً من الامبراطور فـريدريك الثـاني، وبناء عليـه قـام ملك القـدس بمصـالحة الاثنين، أي البـابا والامبراطـور، ولكي يمتن هـذه المصـالحة أعطى غـريغوري إلى فـريدريك الابنة الوحيـدة لجون المتقدم الذكـر، أي ملك القـدس، لتكون زوجة له، ووعـد الامبراطور شخصياً بأنه سـوف يعبر البحر إلى سورية بشخصه حتى يسترد الأرض المقدسة، وبعد احتفالات العـرس، بشكل مهيب جـداً في رومـا، سأل ملك القـدس الامبراطور القيـام بإعـداد جيشه، أثناء وجـوده شخصيـاً في الغرب وبقـائـه هناك، وارتحل الملك الآن إلى اسبانيا، حيث زار مزار القديس جيمس الرسول، وهناك تزوج ابنة ملك غاليشيـا، وأبحر من هناك إلى انكلترا، حيث نال كثيراً من الأعطيات من الملك ومن باروناته للمسـاعدة على نيل الأرض المقدسـة، وفي هذا الوقت نفسه أنهى الملـك فيليب، ملك فرنسـا حياته، تاركاً في وصيتـه بين منحه، مائـة ألف دولار باريسي لإعطائها إلى ملك القدس، لمسـاعدته على استرداد الأرض المقدسـة، والمبلغ نفسه لفـرسان الداوية، ونفسه أيضاً إلى فرسان الاسبتارية.

وخلف فيليب على العرش ابنه لويس، الذي جـرى تتويجه في ريمس Rheims وكان جـون ملك القدس حـاضراً أثناء تتـويجه، وبعد مضي بضع سنوات، أمكن بوسائل البابا غـريغوري جمع أسطول جرى شحنه

برجـال من مختلف الشعوب، من أجل ارسـاله إلى سـورية، ضد أعـداء الصليب، ووقتهـا دعا الامبراطور للوفـاء بوعده، بعبـور البحر لانجـاد الأرض المقدسة، والتحق الامبراطور مع حشد كبير بجيش البابا، وأقلع الامبراطور مع نائب البابا من برنديزي في أبوليا.

لكن بعدمـا أبحروا لمسافة صغيرة، أمـر الامبراطور اسطوله بالابحار عـائداً إلى أبوليـا، وعاد الامبراطور نفسـه معه، مما سبب إحبـاطاً عظيماً لرحلة الصليبيين، ولذلك قـام البـابا وهو مغضب منه، فحـرمـه كنسيـاً للمرة الثـانية، عادّا إيّاه خائناً حـانثاً بيمينه، وقالوا بأن فردريك قـد عاد لأنه سمع بأن البـابا عزم في غيـابه على إعطاء صقليـة وأبوليا إلى جـون ملك القـدس، لكي تكون تحت حكمه، وقـال آخرون بأن فردريـك قد تخلى عن الحملة الصليبية، لأن السلطان بعث برسل له، وقـد جلبوا له رسائل ورشـوات كبيرة، ووعدوه بأنه سـوف يحصل على مملكة القدس من دون حرب أو سفك للدماء، شريطة قيامه بإعاقة رحلة الصليبيين.

وبعـد هذا حشـد فـردريك المتقدم ذكـره جيشـاً كبيراً، ومضى نحـو الأرض المقدسـة، من دون أوامر من البابا، وأكثـر من هذا، من المعتقد، أنه ذهب لاستـلام مملكة القـدس، التـي منحت له، وليس صـدوراً عن غيرة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المسيحية، ولذلك بعث الامبراطور إلى السلطان، وطلب منه القـدس، وقد أعطاها له، وبناء عليـه ذهب إلى القدس مع فـرسانه الألمان، وباروناته وبقيـة أتباعه، وتدبر تـتويج نفسه ملكاً على القـدس في وسط أيام الصوم الكبير. في سنة ١٢٢٥ لتجسيـد ربنا.

وهكذا أصبح من دون أدنى معارضة متملكاً للمملكة كلها وللمدينة المقـدسـة، علماً بأنه سمح للمسلمين بـالبقـاء بمسـاكنهم، وأعطى إليهم هيكل الرب، الذي يعرف باسم هيكل سليمان، لينشدوا مدائح محمدﷺ فيـه، ولم يوافق الكاردينال، نائـب البـابا على تـرتيبـات السـلام هذه،

ورفضها أيضاً بطريرك القدس، وكذلك فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية وبقية بارونات الامبراطورية، باستثناء الألمان والصقليين، كما عارضها قادة الصليبيين، لأنهم نظروا إلى هذا السلام على أنه سلام قائم على الغش، وقد جرى اعداده من أجل ايذاء الصليبيين وإحداث البلبلة بين صفوفهم، ولكي يعيق الاستيلاء على الأرض المقدسة، وتحرك الداوية بشكل خاص، وأثاروا المؤمنين ضد الامبراطور، وحذروهم من تصديقه، ومن الاعتقاد بأن اعماله صحيحة أو صادقة، وفي الحقيقة كان الامبراطور معادياً بشكل كبير إلى الداوية، وصدوراً عن كراهيته لهم، أعطى هيكل الرب إلى المسلمين، خشية أن يقع في أيديهم.

وبعدما جرى الاستيلاء على القدس على هذه الصورة، أرسل الامبراطور رسلاً إلى البابا غريغوري يرجو تحليله من الحرمان الكنسي، لأنه قام، بعون من الرب، بالوفاء بتعهداته في سورية، لكن البابا رفض تحليله، لأنه كان يعرف بأنه كان متحالفاً مع السلطان، وأن تملكه لمملكة القدس كان صورياً فقط، وأرسل الامبراطور أيضاً رسلاً إلى ملكي فرنسا وانكلترا، وإلى أمراء الغرب الآخرين ليخبرهم عن استرداد ضريح الرب، وعن تتويجه، وأخيراً أمر البابا، بالاضافة إلى قرار الحرمان الكنسي الأعظم، الذي كان قد أصدره ضده، بوجوب دخول جون، ملك القدس، الذي كان موجوداً في ذلك الحين في لومباردي، إلى أبوليا، على رأس قوات مسلحة من قبل الكنيسة، لدعوة الناس للالتحاق به في ثورة ضد الامبراطور، وبناء على ذلك استولى على عدة مدن ومناطق في أبوليا، وعندما سمع الامبراطور بهذا ترك وكيله حاكماً في القدس وفي المملكة وعاد إلى أبوليا، واسترد مناطقه المفقودة.

وأثناء وجود وكيله حاكماً في الأرض المقدسة، جلب كثيراً من الشرور للصليبيين، واستولى على قلاعهم عنوة، وبما أنه لم يكن قادراً على تدبر أمور هذه القلاع فقد أعطاها إلى المسلمين، ثم نشب خلاف،

وحدث تمزق، وجرى طرد الوكيل وقد هلك بعد هزيمته، وبذلك سقطت مملكة القدس كلها ثانية في أيدي المسلمين.

وعندما رأى البابا بأن أوضاع الأرض المقدسة، وقد أخذت تتردى من سيء إلى أسوأ بسبب التحالفات الصديقة الزائفة للامبراطور، استدعى الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان إليه وأمرهم بالتبشير بصليبية في أرجاء بلدان الغرب، من أجل اسعاف الأرض المقدسة.

وجرى في سنة ١٢٣٠م حشد جيش عظيم، وقد ركب رجاله البحر، ووصلوا إلى عكا، وكان في هذا الجيش عدد كبير من النبلاء والرجال المشهورين ذوي المكانة، وبعدما استراحوا لعدة أيام في عكا، قرروا مهاجمة بعض الأماكن الحصينة العائدة للمسلمين، وقام كونت أوف نوربريكانيا Norbricania بطيش بالحملة مع أتباعه، فاستولى عنوة على عدد من البلدات، وأحضر معه وهو عائد كميات كبيرة من الغنائم، والأسرى والحيوانات.

وعندما رأى الآخرون هذا، حرضتهم الغيرة والمنافسة لمحاولة القيام بمثل هذا الانجاز، فنظموا قواتهم وعبأوها، وغادروا المدينة في الصباح الباكر، وزحفوا فوق الرمال خلال فلسطين النهار كله، والليلة التالية جميعها، ووجدوا أنفسهم في اليوم التالي أنهم باتوا على مقربة من مدينة غزة، التي كان فيها قد احتشد آنذاك جمع كبير من المسلمين، وعلم هؤلاء المسلمين سلفاً باقتراب رجالنا، فنصبوا كمائن، ومع اقتراب رجالنا من دون حذر، انقضوا عليهم، وأحدثوا مذبحة هائلة بينهم، إلى حد أنهم جميعاً تقريباً أسروا أو ذبحوا، وعدد ضئيل جداً منهم هم الذين عادوا إلى عكا، ووصل في الوقت نفسه رتشارد، أخو ملك انكلترا إلى عكا، مع قوة هائلة من الأتباع، لكنه وجد الجيش مصاباً بالرعب، وعندها رأى أنه لايستطيع فعل شيء ضد المسلمين، عمل هدنة معهم لمدة ثمانية أعوام.

مجمع

في سنة ١٢٤٢ صار إنوسنت الرابع بابـا، فعقد مجمعاً عامـاً في ليون، حيث جـرت منـاقشـة استرداد الأرض المقـدسـة، وأعلن عن تمرد الامبراطور، وطلب منه الحضور بشخصه، وبعث الامبراطور بمعاذيره وطلب المسـامحة، ووعد أنه في خـلال سنة سـوف ينتصر على السلطان، لاسترداد الأرض المقدسـة إلى الصليبيين، ولكن بما أنه لم يحافظ على هذا الوعـد بأي شكل من الأشكـال ولاوعـوده الأخـرى، جـرى حـرمـانه كنسياً، وادانتـه وتجريمه وخلعـه من منصبه، بأمـر من البابا، وقـد مات محروماً كنسياً، لأنه خنق من قبل ابنه.

وحدث فيها بعد في سنـة ١٢٤٤، في أيام بابوية البابا انوسنت الرابع، أن نشب خـــلاف شيطاني بين صفــوف الصليبيين في مــدينة عكا في سـورية، وكــان ذلك فيها بين الجنويين والبنادقـة، لأن كـل واحـدة من هـاتين الدولتين رغبـت في أن تكون أعظـم مـن الأخـــرى، وبلغـت الخصومة بين هاتين الفئتين إلى حد أن اسطوليهما حارب أحدهما الآخر، على مرأى من المسلمين أنفسهم، وصار البحر خطيراً جداً، إلى درجة أن مامن حاج تجرأ على زيارة الأماكن المقـدسة، لأن الفئتين كانتا قويتين في البحر والبر، وكانتا أداتا رعب لكل من الصليبيين والمسلمين سواء.

وعندمـا رأى السلطان بأن بلاده باتت عـرضـه للخطر بهذه الحروب القـائمـــة بين الصليبيين فئة ضـــد أخــــرى استـــدعـى الخراســـانيين التتار(الخوارزمية) وبداة عرب، وقـدم هؤلاء إلى مملكة القدس، وتغلبوا على الصليبيين هناك، وقتلوا عـدداً كبيراً منهم أمـام مدينة غـزة، وأخيراً شقوا طـريقهم إلى القدس، حيث تحاربوا مع الداوية والاسبتـارية الذين كـانوا قد سكنوا هناك بإذن السلطـان، وقتلوا كثيراً من بقاياهم، فضـلاً عن هذا دمـروا الضريح المجيد للـرب، ودنسوا كنيسـة المسيح بكل نوع من أنواع الدناسات.

وفي سنة ١٢٤٨م، كان القديس لويس، ملك فرنسا مريضاً بشكل خطير، فصلى إلى الرب حتى يسترد صحته، وتعهد إذا حدث ذلك، فإنه سوف يقوم بالحج عبر البحر، وعندما استرد صحته، حمل الصليب مع كثير من بارونات مملكته، وأبحر إلى سورية مع جيش كبير جداً، وقد نصحه كثير من الملوك بأن يرتحل براً خلال آسيا الصغرى، والاستيلاء على تركيا نفسها، لأن التتار كانوا قد دمروا بلاد تركيا وأضعفوها في السنة الماضية، ولو أن الملك مضى خلالها، لاستسلمت البلاد بدون شك إليه، لكن نصائح أخرى هي التي انتصرت، وأقلع الملك بحراً، ووصل إلى قبرص، وعندما سمع السلطان بهذا بات خائفاً ولذلك بعث إلى الملك عدداً كبيراً من الأطفال المسيحيين كان قد حصل عليهم، بعثهم بعد أن رشاهم حتى يقوموا بدس السم إلى الملك، وإلى امرائه، لكن بارادة من الرب، جرى اعتقالهم شخصياً جميعاً وأعدموا، ثم قام لويس بعد هذا بإقامة صلح بين البنادقة، والجنويين، والبيازنة، وانطلق إلى القتال ضد المسلمين.

وفي سنة ١٢٤٩ لتجسيد ربنا، وعندما كان اسطول الملك يستعد للابحار، وصل إلى هناك لمساعدته دوق بيرغندي، وأمير آخيا مع حشد من السفن، وجرى جمع أفراد الجيوش وأعلن لهم، بأنه بعون من الرب، سوف يتوجهون إلى مصر لحصار دمياط، ثم انهم أبحروا، ونظراً لامتلاكهم ريحاً طيبة في الأيام التالية، تمكنوا من رؤية أراضي مصر، ومن ثم بعد ذلك مباشرة رؤية مدينة دمياط، وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمسلمين على الخيول وعلى الأقدام، وكان مصب النيل في الوقت نفسه مغطى بالسفن، العازمة على اعاقة هجوم شعبنا.

ونزل شعبنا في اليوم التالي إلى اليابسة بوساطة القوارب، واستولى على مناطق حراسة النيل، حيث قتل أعداداً كبيرة من المسلمين، وعندما رأى المسلمون الذين كانوا في المدينة هذا ارتعبوا، وتخلوا عن كل أمل

بقـدرتهم على الدفـاع عن المدينة، ولذلك تسللوا من المدينة خلسـة أثناء الليل، بعد القاء النار في عدة أمـاكن، لكي لاتكون لها فائدة للصليبيين، وهكذا جـرى الاستيلاء على دميـاط للمرة الثانيـة، وأقام الملـك وجيشه فيهـا طوال الصيف كله، ذلك أنهم كـانوا غير قادريـن على القتال ضـد المسلمين، بسبب فيضان النيل.

وإثر انتهاء الصيف، عبأ الملك جيشه، وزحف خـارجاً للقتال، وهزم جميع القـوات المعـادية التي التقى بها، واستـولى على معسكرها، ونظرا لشعور قومنا واعتقادهم أنهم قد نالوا نصراً كاملاً، اندفعوا محدثين خللاً في صفوف قـواتنا وتعبئتها ونشروا أنفسهم فـوق المنطقة كلهـا، وعندما رأى العدو هذا استرد شجـاعته، وهاجم رجالنا بشـدة متناهية أرغمهم فيهـا على الفـرار، ولأن المسلمين حملوا عليهـم من جميع الجوانب، فقـد وقعت مـذبحـة بينهم، وبشكل خـاص بين النبـلاء الذين تبعـوا العلم الملكي، واستمـرت الحرب مؤلمة ضد قـومنا، إلى درجة أنه من عـددهم الكبير نجـا عدد صغير، ذلك أنهم كـانوا إمـا طعمة للسيف، أو وقعـوا أسرى بأيدي المسلمين، عـلاوة على ذلك فـإن لويس، ملك الفـرنسيين، التقي والمشهـور وقع أسيراً في أيدي الأعـداء مع اثنين من اخـوانه هما ألفونسو، وشـارل، وعندما أخذ السلطان الصليبيين وملكهم أسرى، تمّ الاتفـاق على أن يسلم الملـك دميـاط إلى السلطان، مع كل مـاوجـدوه هناك، وثمانية آلاف قطعة نقد اسـلامية ذهبية، وجميع الأسرى، وبالمقابل كان على السلطان أن يسلم الملك جميع الأسرى الصليبيين، الذين أسروا آنذاك، أو أسروا من قبل في مصر وسـورية مع جميع مقتنيـاتهم، وبعـد ابرام شروط السـلام هذه، عـاد الملك إلى سـورية، حيث بقي هناك لمدة خمس سنوات لحماية المؤمنين، لكنه عندما سمع بوفاة السيدة بلانشي، أي أمـه السيدة الأعظـم تقوى، قـرر الأمـور في سوريـة ورتبها، وعـاد إلى مملكته.

وبعـد مضي بعـض سنوات، استبـد الأسى بـالملك تجاه الوضع المؤلم للقدس المدينة المقـدسة، وامتلأ بحماسة جـديدة نحو الأماكن المقـدسة، ونسي جميع مـآسيه وتعـاساته التـي عانى منهـا في تلك المناطق، وانطلق للمرة الثـانية لاسترداد الأرض المقدسـة، مصحوباً بابنيـه وبملك نافار، والنائب البـابوي وعـدد كبير من الأسـاقفـة، والكهنة، وأشخـاص روحيين، وبناء على نصيحـة من رفاقـه ومستشاريه أبحـر نحو إفـريقية، عازمـا على الاستيلاء على تونس، ذلك أنه بعد الاستيلاء عليهـا، سوف يكون مـن السهل عليـه التمكن مـن الاستيـلاء على مصر والأرض المقدسة، ولكن حل طاعـون كبير بالجيش الصليبي، ومات الملك لويس مع اثنين من أولاده، كما مـات القـائـد العـام للجيش، وعندمـا كـان الطاعـون مستعـراً بينهم، التحق بالجيش شـارل أخـو الملك مع أسطول كبير، وألقى الحصـار على تـونس، لكن بسبب الطاعــون الذي أصـاب الجيش أقام سلماً مع ملك تونس، وعاد إلى الوطن.

وبعد وفاة الملك لويس، جرى التغرير بجميع رعاة القطعان بكتابات مـزيفة، وقـد اجتمعـوا مع بعضهم في كل من فـرنسا وألمانيـا تحت اسم واحـد منهم دعوه رئيسهم، وقـالوا بأنه أوحي اليهم من قبل مـلاك بأن الرب كان غير قـابل بتحرير الأرض المقـدسة بوسـائط الملوك والأمراء، أو الأغنيـاء، والناس النبـلاء، ولابوسـاطة العسكريين، بـل عن طريق الرعـاة المستخف بهم، فهـؤلاء هم الذين سيحـررون الأرض المقـدسـة بعصيهم، وبها سوف ينتقمون للاهانـات التي تعرض لها الملك القديس لويس ولموته.

وكان قائـد هذا العمل الفوضوي، راهب اسمه جيمـس، وكان راهباً مـرتداً من طائفة رهبـان السسترشيـان، فهو قـد ادعى بأن نجماً نزل من السماء، وقـال لـه بأنه بهذه الطريقـة لابد من تحرير الأرض المقــدسـة، ولذلك احتشد عدد كبير منهم، بحيث توفـر منهم أكثر من عشرين ألفاً

من الرجال البسطاء، ورفضوا السماح لأي واحد من الطوائف المقدسة، أولأي رجل دين، أو كاهن، أو رجل متعلم، بالدخول إلى صفوفهم، وصاروا جريئين إلى حد، عمل فيه مقدموهم كأساقفة، حيث باركوا الماء المقدس، وعقدوا القرانات وزوجوا الناس، ووعظوهم، لكن عندما بات عليهم الذهاب إلى موانىء البحر، انتهت مغامرتهم إلى لاشيء. وعادوا إلى موطنهم فارغي الوفاض، وصار عدد كبير منهم، ممن كانوا من قبل رعاة بسطاء، قطاع طرق، ولصوص، وحرامية، وقتل كثير منهم وأعدموا في مناطق متعددة بسبب السرقات التي عملوها، وعلى هذه الصورة وصلت هذه الطائفة إلى نهايتها.

صراعات أمراء الصليبيين حول لقب ملك القدس

منذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد هناك رحلات عبر البحر، لأنه بات من الصعب جداً جمع شعب الغرب للحرب ضد المشارقة بشكل عام كما كان الحال من قبل، ومع ذلك بقي هناك صراع بين الأمراء حول لقب ملك القدس، ولذلك فإن هذا اللقب محمول من قبل عدة ملوك، من ذلك على سبيل المثال، من قبل ملوك انكلترا، كما قلنا من قبل، كما أن ملوك فرنسا يتفاخرون أحيانا بأنهم ملوك القدس، ويفعل هذا ملك قبرص، وملك صقلية، ومثلهما ملك اسبانيا، وعلاوة على ذلك اعتاد دوقات سوابيا، محقين كثيراً، على إدعاء هذا اللقب لأنفسهم، حتى ماتوا، لأنه، كما قلنا من قبل، تزوج فردريك، الامبراطور الثاني بهذا الاسم، ودوق سوابيا، من يولاند، ابنة جون، ملك القدس، ومعها عبر البحر، وفي القدس أعلن عنه ملكاً، وجرى تتويجه ملكاً على القدس، ولهذا السبب، قام ابنه مانسفرد، فنصب نفسه ملكاً على صقلية، وعلى القدس، ومثله فعل بقية دوقات سوابيا من تلك الاسرة.

وفي سنة ١٢٦٤، عندما قام مانفرد المتقدم الذكر، وكونرادين، لأنهما

كانا سوابيين، بمضايقة دول الكنيسة وتهديدها، استدعى البابا كليمنت الرابع شارل، أخو القديس لويس، وطلب منه المساعدة ضد مانفرد، وكونرادين، والغبلينيين، وبعدما هزمهما شارل، وقتلهما معا في بعض المعارك، دخل إلى روما منتصراً، ونودي به ملكاً على صقلية والقدس من قبل البابا كليمنت، في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، وإلى هذا اليوم يحتفظ ملوك صقلية، بلقب ملوك القدس.

وفي سنة ١٢٧٣م، عقد البابا غريغوري العاشر مجمعاً في ليون، فيه تحاور آباء الكنيسة مطولاً حول استرداد الأرض المقدسة، وحثوا الامبراطور رودولف، وفيليب ملك فرنسا على حمل السلاح ضد المغاربة لاسترداد القدس، ولتأمين نفقات هذه الحملة، فرض البابا ضريبة عشر على جميع المسيحيين لمدة ست سنوات، وأمر بالتبشير بحملة صليبية، وأعطى غفرانات واسعة للذين حملوا الصليب، وذهبوا إلى ماوراء البحار، من أجل الحرب، أو إلى الذين استأجروا جندياً أو أكثر، من أجل الحرب.

ووجه البابا في المجمع اللوم أيضاً إلى جميع طوائف الرهبان المتسولين، وحظرها باستثناء طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان فقط، لأنهن آخر الطوائف تأسيساً من قبل الكنيسة، ولديهن القدرة على الاستمرار، وفيما يتعلق بالرهبان النساك في الأرض المقدسة، والكرمليين، فقد مدد لهما، حتى تصدر قرارات جديدة حولهما، وقد فعل هذا حتى لايتمكن الرهبان المتسولون من التدخل في جمع الأموال من أجل الذين كانوا ذاهبين للقتال فيما وراء البحر، لكنني لم أعرف فيما إذا كانت أية حملة قد عملت إلى الأرض المقدسة، وكذلك لست عارفاً كيف أخفقت هذه الحملة، والذي أعرفه هو أن ايطاليا كانت في حالة اضطراب بسبب الغولف والغبلينيين، وكذلك اضطربت أوضاع المانيا، وفرنسا، وانكلترا بحروب داخلية، ولذلك كانوا غير مؤهلين لإسعاف

الأرض المقدسة.

هذا وامتلك شارل، ملك صقلية والقدس، وأخو ملك فرنسا، الحق مضاعفاً ثلاث مرات في أن يدعى بملك القدس، فذلك أولا بسبب أن البابا توّجه، وثانيا بسبب أنه كان صاحب صقلية، التي كانت من قبل ملكاً إلى ملك القدس السالف، وثالثا بسبب أن هذا اللقب قد أضفي عليه من قبل مريم، ابنة أمير انطاكية، التي كانت الوريثة الشرعية لمملكة القدس، والتي اغتصب ذلك منها ابن اخيها(أختها)هيو.

ورفض شارل هذا بإباء أن يعين ملكاً على القدس من دون امتلاك المملكة هناك نفسها، فقد كره أن يكون ملكاً بالاسم وليس بالفعل، ولذلك فكر كيف يمكنه وبأية وسائط نيل القدس، وكان له ختن اسمه بلدوين، وقد عمل سنة ١٢٤٠م امبراطوراً للقسطنطينية، ولكن بما ان الاغريق معادين دوماً للاتين، فقد طردوه مهاناً، ووضعوا ميخائيل باليولوغوس، وهو اغريقي، مكانه، وقد اشار بلدوين الآن على شارل ملك القدس بمهاجمة امبراطورية القسطنطينية، لأنه إذا مانال بلدوين القسطنطينية، يمكنه بسهولة أن يجعل من نفسه سيداً للقدس، وكان شارل ملكاً قوياً، ولم يبد له أنه عملاً عظيماً مهاجمة القسطنطينية، ولذلك جهز عدداً كبيراً من سفن الحرب واسطولاً عظيماً، وبمساعدة من الكنيسة، ومن ملك فرنسا، ومن البنادقة، أعدّ لطرد باليولوغوس من القسطنطينية، لكنه أعيق بشكل غريب في مغامرته بسبب بعض اللاتين الذي كرهوه، ولذلك لم يحصل على مملكة القسطنطينية ولاعلى مملكة القدس.

وحدث بعد هذا أن عقد في سنة ١٢٨٢ ملك الأرمن، الذي كان مسيحيا، معاهدة مع ملك التتار ضد السلطان، وقد غزوا سورية وانتزعا كثيراً من المقاطعات من سلطان مصر، وكانت القدس بين ماتم

الاستيلاء عليه، وقد أعطيت للمرة الثانية إلى المسيحيين الشرقيين، لكن بخيانتها أعيدت مباشرة إلى المسلمين.

[وكان لملك التتار هذا أخ اسمه تنجر Tandager(أحمد؟)، وكان مسيحياً، وولداً معمداً اسمه أرغون، لكن تودغار Todagar(كذا) تخلى عن العقيدة المسيحية، وأصبح مسلماً وعذب المسيحيين بقسوة بالغة، فقام ابن أخوه أرغون فقتله، ووسع انتشار الديانة المسيحية، وفي كل مكان حارب المسلمين، وسعى جاهداً لتحرير القدس.

وفي سنة ١٢٨٨م صار واحد اسمه كاسانوس Casanus (غازان) امبراطوراً على التتار، وقد كان صغيراً في جسده عظيماً في نفسه، وكان صاحب ملامح قبيحة، لكنه امتلك عقلاً رائعاً، لأنه كان محلى بالفضائل، وعاقلاً، وحكيماً في الحرب، وصديقاً جداً نحو المسيحيين، ومليئاً بتبجيل المدينة المقدسة، وضريح الرب، كما برهنت الأحداث.

وكان هذا الرجل عندما عُمل امبراطوراً، وثنياً، لكنه صار مسيحياً بطريقة مرضية، لأنه عندما صار امبراطوراً، عمل مثل آحازوروس AHASUERUS آخر، فأمر بالبحث له في جميع أرجاء مناطق الشرق عن أجمل فتاة يمكن العثور عليها، وذلك دون الاهتمام بأصالة النسب أو الثروة، بل التركيز على الجمال فقط، وقصد من ذلك أنها إذا ماأعجبته اتخذها زوجة له، ووجد ابنة ملك أرمينيا، وعندما طلبها للزواج، وافقت الفتاة مع أبيها على شرط أن يسمح لها بعبادة ربها، والرب يسوع المسيح، وأن لاترغم على اعتناق الديانة التتارية، وتمت الموافقة على هذا الشرط، وعندما حملت إلى الامبراطور أرضته إلى أقصى الحدود، فتزوج منها على الفور، وحملت، وولدت ولداً ذكراً، ولكنه كان ولداً مشوهاً، حتى أنه بدا بصعوبة أنه بشراً، وانزعج كاسانوس(غازان) من ذلك كثيراً، وتشاور مع أعيان بلاطه حول ماينبغي فعله بهذا الطفل المقيت

جداً، وقد أجابوه إنه من غير الممكن أن يكون هذا الطفل قد جرى الحمل به من انســـان، ولذلك ينبغي احـــراق كل من الطـــفل والأم.

وعندما وضعت النار، وباتت جاهزة لهذا الغرض، وجرى إبلاغ المرأة الشابة بقرار الاعدام، طلبت وقتها منهم منحها فرصة تلقي القربان وفق الطريقة المسيحية، وأن يجري تعميد ابنها، وعندما عمل هذا، وجرى تعميد ابنها، ولدى اخـــراجه من الماء، فجأة تغير شكل الطفل، وبدا طفلاً جميلاً ونبيلاً حسب أفضل مايكون موجوداً في العالم، وكان غازان مسروراً إلى أقصى الدرجات لظهور هذه المعجزة، ولم يكتف بانقاذ زوجته وابنها من الموت، بل رسم بأن تكون امبراطورة، وأن يجري تعميده مع شعبه بشكل مهيب.

وعندما جرى تعليمه الايمان، وعرف بأن المسلمين يمتلكون الأماكن التي فيها صنع خلاصنا، قضى بأن ذلك تدنيس شنيع، وعجب كثيراً من تحمل المسيحيين لذلك، وأعلن الحرب مباشرة ضد سلطان مصر، واستعد للقيام بالاستيلاء على الأرض المقدسة، والقدس، وجاء إلى سورية ودخلها للقتال ضد سلطان مصر، وجلب معه مائتي ألف من التتر، وكان معهم جيشي ملكي أرمينيا وجورجيا، اللذين كانا عدوين للسلطان، والتقى السلطان به مع حشد كبير، وجرى قتال معركة رهيبة، وكـــان النصر من نصيب غـــازان، وأرغم السلطان على الفـــرار، وترك سورية، وذهب إلى مصر، واستولى غازان الآن على مدن سورية، التي كانت بينهن مدينة القدس المقدسة، فقد استولى عليها المسيحيون في سنة ١٢٩٩ لتجسيد ربنا، أي بعد ثمانية أعوام من طرد اللاتين من عكا، ودخل غازان إلى المدينة المقدسة، وبتقوى فائقة زار المدينة المقدسة، وأقام هناك لبعض الوقت.

لكنه عندمـــا سمع بأن الاضطراب ثار في مملكتـــه، بعث بسفراء إلى

الغـرب الأوروبي: إلى البـابـا بونيفيس الثـامـن، وإلى رودولف ملك الرومـان، وإلى ملوك الغـرب الآخـريـن، ملتمسا منهم ارسـال قـوات صليبيـة إلى سـورية تسترد وتحتفظ بـالبلدان التي طرد منهـا قبل وقت قصير، وللاستيلاء على مـدينة القدس المقدسة، وبعدمـا أوصل السفراء المتقدم ذكرهم رسائلهم، ونالوا الموافقـة من جميع الناس، بعثوا عائدين، على أساس تفاهم قوامه أن الأمـراء الغربيين سوف يلحقون بهم مباشرة مع قوات كبيرة، لكن مامن أوامـر صدرت لفعل ذلك، بسبب الحروب الداخلية بين الأمـراء الغربيين، وكانت مصـالحهم أقرب إلى قلوبهم من حـرب الرب، وذلـك كما سنوضح في القسم الثـاني، وعلى هذا إنه في الوقت الذي كانت نفقة متـواضعة وقوة صغيرة، يمكن بها الحفاظ على سـورية والقدس، التي استـولى عليهما غازان، لصـالح المسيحية، مـامن محاولة جرت، ولعـار المؤمنين، ولعدم اهتمامهم الاجرامي لاتتـوفر الآن أية امكانات لاستردادهما.

وعندما انسحب غازان من سورية مع قواته، استرد المسلمون سورية بسهولة لأنـه مامن أحد اعترض سبيلهم، وقـد قتلوا وطردوا المسيحيين الشرقيين الذين وضعهم غازان في المدن التـي احتلها، وذلك مثلما فعلوا من قبل مـع المسيحيين اللاتين من الغـرب، وبناء عليـه، حـدث سنة ١٢٩١ لتجسيـد الرب، وذلك بعـدمـا كـان السلطان قـد استـولى على أنطاكية، وصور وطرابلس، ومدن اللاتين الأخرى، أنه صرف نواياه إلى طرد الصليبيين طرداً كـامـلاً من الأرض المقدسـة، وكـان الذي يمتلكه اللاتين في سـورية كلهـا، مدينة واحـدة، هي مـدينة عكا، وكـانت هذه المدينة ثرية جـداً، ومكتظة بالسكـان، لأنه سكن فيهـا ملك القـدس مع بلاطـه، ومقـدم الداوية، ورئيـس الاسبتـارية، والسيـد البطـريرك واكليروسـه، وكـان جميع الذين يسكنون في المدن التي استـولى عليهـا السلطان، ونجوا منها، قد هربوا إلى هاهنا مع مقتنياتهم، وكان في المدينة

عســاكــر يدفع لهم ملك انكلترا، وملك فــرنســا، والملوك الآخــرين والأمـراء، وحوالي ثمانيـة عشر ألف حـاج يحملون شـارة الصليب، من مختلف الشعوب والبلدان.

ولهذا السبب كــان في عكا سبع عشرة هيئة قضـائيــة منفصلة للنظر بالجرائم وبسفك الدماء، وغالبا ماقامت فوضى بالنسبة لقرارات الحكم على مقترفي الآثام، وامتلك الـدومينيكان مع الفــرنسيسكـان هناك ديرة جيــدة، لكل من الـرهبــان والراهبــات، وعندمــا أقلـع المعلم المبجل جوردان، خليفة القديس دومينيك، بوساطة البحر لزيارة الدير في عكا، غرقت سفينته ومات ميتة مباركة أضاءت بصليب إعجازي.

وهذه المدينة قائمة على واجهة بحرنا، وذلك في وسط ساحل سورية، وهي لاتبعد أكثر من أربعين ميلاً ايطاليـا عن القدس، وقد بنيت بشكل رائع ومكان مـوائم جداً، ولذلك كـانت مليئة بالتجـار من الشرق ومن الغرب، لأنها كانت نبعـاً لجميع التجارات المحمولة بالبحـر، وقد غدت مدينة فخمـة جداً، إلى حد أنه لم يكن في العـالم كله مدينة قيل هي أغنى منها.

كما أنه لم يكن هناك مدينة توازيها بالشرور والآثام، وعندمـا كانت في ذروة ازدهارها، حـدث أن بعضـا من عسـاكـرنا اعتقلوا بعض التجـار المسلمين، وذلك في أيام الهدنة، وعندمـا سمع السلطان بهذا، حشـدقـوة هائلة، وحاصر المدينة، وفي تلك الأثناء فوّق واحـد من المسلمين قوسه وأقـدم على رمي قائـد المدينة، فقتله، وهو القـائـد الذي بأوامره كـانت الأشياء كلها تعمل هناك، وعندما مات، انعدم النظام هناك، وبدأ الناس يفـرون بالسفن عبر البحـر،وعندمـا مـا لم يعـد هناك من يعترض سبيل المسلمين، دخلوا إلى المدينة، وقتلوا جميع الصليبيين، ونهبوا كل ماوجدوه هناك، وفي أثناء عمليـة السلب هـذه، قيل بأن ستين ألفـاً من الصليبيين قـدباتوا طعمـة لسيــوف المسلمين في عـام ١٢٩١م، وهكذا هلك جميع

اللاتين وطردوا مـن الأرض المقـدسـة، باستثناء الذيـن صـاروا رعيـة للمسلمين، وهم الذين جرى حرمانهم من قبل الكنيسة.

وعندما وصلت أخبار ماحدث إلى الغرب، كان هناك حزن عميق في بلاط روما، ومنح البابا نيقولا الرابع غفرانات كبيرة، لأي انسان سوف يحمل شارة الصليب، أو يرسل آخرين لمساعدة الأرض المقدسـة، وقام بمسيرات مهيبـة، وأصـدر قـرارات حـرمـان كنسي ضـد جميع التجـار المسيحيين، أو آخرين يجلبـون إلى الاسكندرية وأي بلد آخـر خاضع إلى السلطان، ليس فقط الأسلحـة والخشب، وهـو مـاكـان محرمـاً منذ زمن بعيد، بل يجلبـون أية تجارات مهما كان نوعهـا، ويعد هذا صدر حـرمان ضد الأماكن المقدسة نفسهـا، وصار ممنوعاً، مع عقوبة الحرمان الكنسي، على أي انسان، عبـور البحر لزيارة الأماكن المقدسـة، حتى لو كان ذلك صـادراً عـن التقـوى، وذلك دون الحصـول على إذن من البـابـا، وقـد وجدت هذا في واحد من كتب الحج].

وبعـد ثمانية أعـوام من خروج الصليبيين من الأرض المقـدسة، جـاء امبراطور التتـار، المسيحي الجيد الذي تقـدم ذكـره، واستولى على مـدينة القـدس، التي قـدمهـا منحـة إلى أسـاقفتنا وأمـرائنا، لكن لم يكن هناك واحداً منهم، قد رفع يده للعبـور إلى هناك، كما قلت، وهكذا من خلال هذا العقـوق تمت خسارة الأرض المقـدسـة خسارة كـاملة بالنسبـة لنا، حتى لم يعـد هناك من يفكر بـاستردادها، ولم يعـد هنـاك من سبيل إلى استردادها، مالم يتفضل الرب فيعمل معجـزة ما في سبيل ذلك، وفي هذا الخروج الأخير للصليبيين من الأرض المقـدسـة، لم يبق أي لاتيني في سـورية، إلا الرهبـان الدومينيكان، عـلاوة على ذلك تسلم الرهبـان الفرنسيسكان والكـرمليون بعض الأماكـن في سورية، وبقيوا فيهـا، بناء على أوامـر من البـابا، وقـد مكثـوا فيهـا حتى جـرى قهـرهـم، وقتلهم وإبادتهم من قبل المسلمين.[٢٩٠].

كيف كانت حال المدينة المقدسة بعد طرد الصليبيين اللاتين، وكيف أمكن للرهبان الفرنسيسكان الاستقرار هناك، وأيضاً ما هي المبالغ التي قدمها الصليبيون من أجل استرداد الأرض المقدسة.

بعد طرد اللاتين بقيت مدينة القدس المقدسة لسنين كثيرة من دون أي لاتيني أو مسيحي روماني، لأنه كما قيل من قبل، عندما غادر اللاتين القدس، دخل المسيحيون الشرقيون، الذين كانوا هراتقة رهبيين، ومنشقين، دخلوا إلى هناك، وحلوا محل اللاتين، وصاروا متملكين للكنائس التي بناها اللاتين، ولم يسمح للاتين بامتلاك أية أماكن في المدينة المقدسة، لابل لم يسمح لهم حتى بدخول الأرض المقدسة ومدينة القدس من دون حراستهم من قبل المسلمين مع احتياطات عظيمة، ومع جواز سفر (أمان)، وأيضا مع دفع ضرائب ثقيلة جداً، وعندما وصلوا إلى القدس، لم يجدوا خدمات أو طقوس ربانية، إلاّ طقوس المنشقين والهراطقة، كما لم يجدوا أية مواساة مهما كان نوعها.

ولم يكن هذا محمولاً من قبل الكنيسة اللاتينية وشعب الغرب، الذي كان يشعر بحماسة ملتهبة جداً نحو الأماكن المقدسة، وعندما جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، وصلت هذه المسألة إلى مسامع البابا نيقولا الرابع، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان، وهو الذي اختير بابا في سنة ١٢٨٧ لتجسيد الرب، قبل سقوط عكا، وبعد خسارة عكا، وطرد الصليبيين، أرسل سفراء إلى السلطان مع هدايا. ورجاه السماح لبعض رجال الدين اللاتين للسكنى في القدس من أجل حماية ضريح المسيح، وقال له بأنه ربما لن يهتم بمنحه ذلك من أجل حب المسيح، أو بسبب صلوات البابا الصادقة والأمينة، إنه عليه أن يفعل ذلك من أجل انتشار مجد اسمه في الخارج، على أساس أنه إذا ماترك بعض اللاتين يدخلون إلى المدينة، فإن عظمته ستصبح معروفة في جميع أرجاء الغرب،

وكذلك في الشرق.

ومنح السلطان موافقته على مطلب البابا هذا، وطلب منه ارسال بعض رجال الدين والرهبان ورجال سلام إلى القدس، علاوة على هذا عين صدقات يومية تعطى للمشفى المسيحي في القدس، ولذلك اختار البابا بعض الرهبان من طائفته، ممن كانوا مستقيمين، ومتعلمين، وأمناء، وكانت طائفته هي طائفة الفرنسيسكان، وبعث بالذين انتقاهم إلى القدس، ليقيموا قداسات ربانية في كنيسة قيامة الرب، لصالح جميع أعضاء كنيسة روما، وذلك خشية منه بقاء تلك الكنيسة المقدسة جداً مهجورة من قبل اللاتين، وعندما قدم أولئك الآباء المقدسون إلى القدس، لم يكونوا يمتلكون أية بيت فيها، ولذلك ذهبوا إلى المشفى العام العائد للحجاج، وأقاموا فيه، في حالة عوز عظيم، وتعاسة، لبضع سنوات، وظلوا بدون بيت خاص بهم، يعيشون على بعض الصدقات التي كانوا يتلقونها من الحجاج.

وفي سنة ١٣٠٠م، صار القديس لويس، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان أسقفاً لطولوز بأمر من البابا بونيفيس الثامن، وكان القديس لويس هذا حفيداً للقديس لويس ملك فرنسا، وكان ابنا لشارل، وأخاً لروبرت، ملك أبوليا، وكالبيرا، وصقلية، والقدس، وعندما سمع هذا الأسقف بسوء أوضاع الرهبان الفرنسيسكان، والشقاء الذي كانوا فيه يعيشون في القدس، ذهب إلى صقلية إلى أخيه روبرت، ملك القدس، لكي يساعد إخوانه الرهبان، وجذب قلب الملك نحو محبة الطائفة، بإخباره كيف أنهم كانوا يعيشون في عوز وفاقة في مدينة القدس، حيث يرعون مصالح الكنيسة اللاتينية كلها، وليس لديهم حتى بيت هناك، بل يسكنون في المشفى.

وعندما سمع الملك بهذا، رتب شؤون مملكته، ثم أخذ عدداً من الرهبان الفرنسيسكان، معه، وأقلع بحراً نحو سورية كحاج عادي

بسيط، وذهب إلى القدس بموجب جواز أمان من السلطان، وشاهد الأماكن المقدسة وقبّلها، ثم إنه ذهب إلى مصر إلى السلطان ورجاه أن يعطيه كنيسة جبل صهيون مع الأبنية المجاورة، وبيعة مريم العذراء المباركة في كنيسة ضريح الرب، مع القاعات المجاورة، وقاعة ضريح الرب، وكنيسة مريم العذاراء المباركة في وادي شعفاط، وكهف ميلاد الرب في كنيسة مريم العذارء المباركة في بيت لحم مع الأبنية المجاورة، وذلك لإعطاء ذلك كله إلى الرهبان الفرنسيسكان، الذين وافق من قبل على سكناهم حيثما أرادوا في القدس، وذلك من أجل إقامتهم فيهم.

وعقد الملك روبرت اتفاقاً مهيباً مع السلطان حول هذه الأماكن، وتسلمهم منه ودفع إلى السلطان مقابيلهم اثنتين وثلاثين ألف دوقية من العين المدفوع، وبعدما دفع الملك هذا المبلغ، ذهب إلى القدس، ومنح الأماكن المتقدم ذكرها إلى الرهبان الفرنسيسكان ليتملكوها تملكاً أبدياً هم ومن يخلفهم بشكل أبدي عوضاً عنه، وعندما تسلم الرهبان الفرنسيسكان تلك الأماكن، بنوا عليها ثلاثة أديرة، كان الأول منها على جبل صهيون، وذلك حيث كان هناك من قبلهم دير للرهبان القانونيين النظاميين، وكان الثاني في كنيسة قيامة الرب، إلى جانب بيعة العذراء المباركة، من أجل أن يستخدم من قبل الأوصيباء على ضريح الرب المقدس، والثالث في بيت لحم، وجميع هذه الديرة كأنها دير واحد.

وعندما رأى رهبان الدومينيكان بأن السلطان قد أخذ مالاً، وباع أماكن مقدسة، جمعوا مبلغاً صغيراً من المال من خلال الصدقات واشتروا حقل حق الدم، الذي يطل من الأعلى على وادي صهيون، على طرف جبل جيحون، واشتروا كذلك كهف القديس جيمس عند سفح جبل الزيتون، فوق بركة قدرون في وادي شعفاط، وأقام الرهبان هناك لبعض الوقت، لكن بما أن تلك الأماكن كانت مكشوفة تماماً، وليست مغلقة بأية جدار، كان عليهم التحمل باستمرار الاهانات من المسلمين

ومن البداة العرب، ولذلك كان من غير الممكن بالنسبة لهم البقاء هناك، ولهذا هجر الدومينيكان هذه الأماكن وارتحلوا عائدين إلى العالم المسيحي.

هذا وتوفر لدى الفرنسيسكان أديرة محمية بأسوار قوية، أعطاهم السلطان إياها عن نفسه وعن خلفائه على أساس مبلغ المال المتقدم ذكره، ومع ذلك عانوا من كثير من الأذى، وغالباً ماتعرضوا لاضطرابات قاسية من قبل المسلمين، وكانوا - كما يمكن القول- عرضة للازعاج يومياً، وجاء المسلمون في سنة ١٣٦٨ إلى دير جبل صهيون، وقتلوا اثني عشر راهباً، ودخلوا بعد هذا للمرة الثانية، وهدموا البناء المقبب لمهجع النوم، وخربوا قلايات الرهبان، وفي وقت آخر فيما بعد، أخذ السلطان منهم، بتدبير من اليهود، وانتزع موضع ضريح داوود وملوك اليهودية الآخرين، وهدموا الـ Coenaculum في المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس على الرسل في يوم عيد الحصاد، وهو مكان بني بنفقات كبيرة من قبل ملك فرنسا، وذلك بناء على موافقة من السلطان، ولم يسمحوا بإعادة بنائه، ودمروا أيضاً أماكن أخرى حول كنيستهم، دون مبالاة بأن هذه الأماكن قد شريت من قبلهم، علاوة على ذلك، جرى قتل عدد كبير منهم على أيدي غير المسيحيين، وجرى تعذيبهم، ولم يشعروا بالأمان لاحول الأماكن المقدسة التي بأيديهم، ولاحول حياتهم.

وفي سنة ١٣٠٠ لتجسيد الرب، وقبل إعادة تنظيمهم، ازداد هؤلاء الرهبان وتناموا حتى أصبحوا لايمكن تحملهم، وصاروا عدوانيين تجاه المسلمين والمسيحيين سواء، لكن الطائفة قدمت إلى عون الدير، فوضعت رجالاً مستقيمين وحكماء فيه، ولذلك يحافظون حتى هذا اليوم على ممارسات قلبية للخدمات الربانية، ويخدمون الحجاج باخلاص، أي الزوار الذين يقدمون إلى هناك، ويزودونهم بكل ما

يحتاجون إليه، ويأخذون المرضى من دار الضيافة إلى المعالجة لديهم، ويحيطونهم بالعناية والرعاية المثلى، وهذا أمر جربته أنا شخصياً عندما كنت مقيماً بينهم، ولهذا السبب نالوا لأنفسهم محبة جميع الأمراء المسيحيين، والبارونات، والنبلاء، ولذلك يضفون الصدقات عليهم، ويدعمون هؤلاء الرهبان بمساعدات كبيرة، ويرسل جميع الملوك صدقاتهم إليهم سنة فسنة، حيث يرسل بعضهم إليهم خمسمائة دوقية، وبعضهم أربعمائة، وبعضهم أكثر أو أقل تبعاً لعاداتهم، أو وفقاً لمدى عمق مشاعرهم واخلاصهم تجاه الأرض المقدسة، ومثل هذا هناك كثير من الصدقات تمنح إليهم يومياً من قبل الحجاج، ومن قبل الذين يتلقون شارات الفروسية في ضريح الرب، وهم يحتاجون إلى هذا كله، لأنهم لايجمعون أية صدقات من المسلمين ولا من الشرقيين، ولا من المسيحيين، بل يحصلون على جميع وسائط عيشهم من الغربيين، ولذلك على الناس النظر إلى هذا الموضوع بعناية وأن يتدبروا عدم وقوع هؤلاء الرهبان في حالة فاقة قاسية، وذلك من أجل أن تبقى أبنية الكنائس مصانة ومرممة على حساب صدقات المؤمنين ولكي يمكن إعادة المشفى للغرباء وللحجاج، ومن أجل شراء الإذن بزيارة الأماكن المقدسة من المسلمين بالدفع من قبل الكنيسة.

وفي الحقيقة حدث منذ انطلاق الايمان وبدايته، وفي أيام العهد القديم، أن اعتاد الملوك من الأمم والأمراء على إرسال المال والأعطيات إلى القدس من أجل استخدامات الذين كانوا يمارسون القيام بالطقوس الدينية هناك، وهذا واضح مرئي من اسدراس:١/١/٦—٧. ومن نحميا: ٢و٣، ومن اسدراس:٤، ومن المكابيين:٢/٣، وفي العهد الجديد اهتم الرسل المباركون اهتماماً خاصاً بجميع الصدقات من الأمم الأخرى، من أجل استخدامات الذين كانوا في القدس، ونقرأ في رسالة الكورنثيين:١/١٦، بأن القديسين بولص وبرنابا انشغلا بشكل خاص

بهذا العمل، وانظر ايضاً شروح القديس توما الأكويني، وبطرس أوف ثارنتاسيا Tharentasia ، ونيقولادي ليرا، وكذلك غلاطية:٢/ ٨، وروما:١٥، حيث قال الرسول:« ولكن الآن أنا ذاهب إلى أورشليم لأخدم القديسين، لأن أهل مكدونية وأخائية استحسنوا أن يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين الذين في أورشليم»، لأنه وجد في جميع الأوقات في القدس، رجال ونساء يعيشون في فقر انجيلي، ومن أجلهم سعى الرسول للحصول على صدقات.

هذا وعندما قدم الأعمدة الأولى للكنيسة: بطرس، وجيمس، ويوحنا أيمانهم بالتبعية لبولص وبرنابا، ورسموهما رسولين إلى الأمم، وبعثوا بهما للتبشير، على شرط أن يتذكروا الفقراء الذين كانوا في القدس، ويجمعون المال من أجلهم، ويرسلونه إليهم كما قرأنا في غلاطية:٢، ففي هذه الرسالة كلها تقريباً، نصح بولص بجمع المال وأن يكون ذلك في أيام السبت، من أجل جميع الذين كانوا في القدس، والحرص تماماً على ارسال المال إلى هناك بأمان، ولهذا ذهب هو حتى بنفسه إلى القدس، لإعطاء المال الذي جمعه وتوزيعه على الناس، كما رأينا في روما:١٥، وفي أعمال الرسل:٢٤، حيث أشار إلى هذا إلى الحاكم فيلكس.

وبقيت هذه العادة في جمع المال وارساله إلى القدس، لمدة طويلة في الكنيسة، وقام في احدى المرات ناسك اسمه فيجيلانتوس Vig-ilantius، كان من بين أخطائه إعلانه أن هذا الجمع للمال وارساله إلى القدس عمل عابث، وبلا فائدة، لكن جيروم بطل الكنيسة تصدى له، وهزمه بشكل كامل، وسحقه فيما يتعلق بمسألة هذه الخطيئة، فهذا مانقرأ عنه في الرسالة ضد فيجيلانتوس، ومثل هذا أطرى واحداً اسمه ليسينوس Licinius ، وكان رومانياً غنياً جداً، قد بعث كثيراً من الصدقات إلى القدس، وأعطاه كثيراً من الذهب، حتى كان قادراً على

تدبر حاجيات أناس كثيرين، وذلك حسبما نقرأ في الرسالة إلى الأرملة ثيودورا.

فضلاً عن هذا نقرأ بأنه توفر لدى القديس غريغوري عناية خاصة برجال الدين في القدس، الذين إليهم بنى ديراً، وبعث إليهم بالمال، وعلاوة على ذلك، إنه من أجل هذه الغاية جرى تأسيس الطوائف الثلاث، أي: فرسان الداوية، وفرسان الاسبتارية وفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد تمكنت هذه الطوائف من بناء بيوت لها في جميع البلدان، ومن تكويم الممتلكات وجمع الثروات الأخرى، من أجل ارسالها إلى القدس، وقد أثرت الطائفة الأولى(الداوية) وازدهرت كثيراً في الأمور الدنيوية، إلى درجة أن الكنيسة الغربية لم يعد بامكانها استيعابها، وقد زالت هذه الطائفة وتلاشت، مع أن شطراً من ممتلكات الداوية قد أعطيت إلى الاسبتارية، الذين اسمهم الآن فرسان القديس يوحنا، الذين جميع ممتلكاتهم عائدة إلى القدس، لكن عندما انتهى سبب ارسال المال إلى هناك، فمن المتوجب كذلك انتهاء جميع الثروات التي جمعت لهذه الغاية، لكن الاهتمام بهذا الأمر كان ضئيلاً، ولهذا تتحمل الكنيسة طوائف بلا فائدة، وفي الوقت نفسه مامن انسان هو مهتم بارسال المساعدات إلى الأوصياء على الضريح في القدس، من أجل امتلاك مايكفي من مال للدفع من أجل نفقاتهم، ومن أجل إبقاء الأماكن المقدسة وكنائس المسيح في حالة منتظمة، وهذه مسألة ينبغي على المؤمنين منحها اهتمام خاص، لأن إيماننا قد تأصل هناك، وقداساتنا هناك اكتملت.

الشعوب التالية هي التي تسكن القدس في هذه الأيام

مدينة القدس المقدسة في هذه الأيام موضع الاستقرار والسكنى لمختلف شعوب الدنيا، وهي لهذا، كما كانت، مجمعاً لجميع أنواع الآثام:

١ — المسلمون

السكان الرئيسيـون هناك هم المسلمـون، الـذين هم محمـديون، وهـم ملوثون بحثـالة جميع الهراطقـة، وهم أسوأ مـن الوثنيين، وممقوتين أكثـر من اليهـود، وهم ينكرون التثليث، ويؤمنون بعقيـدة الطبيعة المزدوجـة، وهي عقيـدة لاهوتية شـائنة، غير أنهم يعترفون بطبيعـة الجوهر الرباني، ويعلنون أن الله لايمكن أن يكون له ولد، لأنه ليـس له زوجة، عـلاوة على ذلك هم يرون بأن الله ليس مـركبـاً، لأنه لم يكن عرضـة للتغيرات والحوادث، وهو لايعيش مثل الناس لأنـه لايأكل، ويقـولون أيضـاً بأن الله وملائكته يصلون على محمـد ﷺ وعلى بقية المسلمين، وهم ينكرون تجسيـد الكلمـة، ويعلنون بأن المسيح ليـس رباً، كما أنه ليس من طبيعـة وتركيب الأب، بل يقولون بأنه كـان مجرد روح الله، وهم يعلنون أيضاً بأنه كان مقـدساً جـداً، ورجلاً فضيلاً، وهو دون سـواه من الناس ولد من العذراء من دون أي أب، ويقولون بأنه لم يتألم مطلقاً، ولم يصلب أو يمت، بل نقل من قبل الله، وأنه في نهاية الدنيا سـوف يموت، بعد قتله المسيح الدجال.

وهـم يعلنون بـأنه ليست هناك قـدّاسـات، ولاعجـب في هذا، فهـم ينكرون الصليب نفسـه، وهـم يقـولون بأن المسيح سـوف يحكم العـالم، لكن مع الله ومـع محمـدﷺ وفيما يتعلق بما كتب حـولـه، هم يعترفـون بجميع أمجاده، ويعظمونه، ولايقرون بما قيل حول اذلاله وعاره.

وفيما يتعلق بمريم العذراء، هم يعتقـدون باخلاص بأنها كانت أخت هرون، وهـم يقـولون بأن للملائكة أجسـام، وأنه من هؤلاء الملائكة تم صنع أولئك الشيـاطين الذين رفضـوا السجود لآدم، وهم يقـولون بأن البطاركـة(الآباء) المقدسين والأنبيـاء كـانوا مسلمين، وأن الناس هلكوا بالطوفـان لأنهم رفضـوا أن يكونوا مسلمين، وأن الحواريين أيضـاً آمنوا بالاسـلام وسموا أنفسهم مسلمين، وهـم يلومـون المسيحيين لأن لديهم

أساقفـة وكهنة وقد جعلوا منهم أربابا، عـلاوة على ذلك هم يضحكون منا، ويستخفون بنا لأننـا عملنا مريم العذراء رباً، ويقـولون بأن المسيح اعتـذر في حضرة الله، وأنكر أن تكون أمه ربة، وفيها يتعلق بقـرآنهم هم يقـولون أنه لاالانسـان ولاالشيطان يمكنه أن يصنف مثل هذا الكتـاب الفصيح والعـذب، والعجيب المدهش، وهم يقولون بأن أعلى درجـات السعادة موجودة بالمسارّ الجسدية، والشرب، وماشابه ذلك مثل الثياب، الخ، وقالوا بأن السموات قد صنعت من بخار، وهذا البخار قد تصاعد من البحـــار، وهم يسمـــون البحـــر Mote capffوأنه هو الذي يحيط بالعالم، ويمسـك السموات، وقالوا بـأن الشمس والقمر كانـا في البداية متساويين بالإضـاءة، ولم يكن وقتها هناك تمييـز بين الليل والنهار، لكن عندما كان الملاك جبرائيل يطير عبر السماء، أصاب بجناحه فلك القمر، وبذلك جعله مظلماً، وفيها يتعلـق بالموت، يقـولون هناك مــلاك اسمـه عزرائيل، هـو الذي سوف يتولى في نهايـة الحياة إماتة جميـع المخلوقات، حتى الملائكة، وفي الأخير سوف يميت نفسـه أيضاً، وعندما يحدث هذا كله الله سوف يقيم جميع المخلوقات ويبعثهم من الموت، وذلك باستثناء الموت نفسـه علاوة على هذا هم يقـولون بعض الأشيـاء حول فضـائل النفس، ونهاية جميع الأشياء، وهـم يتزوجون بأكثر من زوجة، ولايقبلون الاعتراف بممارســة السـدوميــة، وهم يخطئون بلا حـــدود في كثير من المجالات، قد كتب حولها في «حصن الايمان» وفي ترجمة القرآن.

٢ــــ *الروم الأرثوذكس*

هناك كثير مـن الروم الأرثوذكس يسكنـون في القـــدس، وكـــانت الكنيسة الأرثوذكسية تمتلك في الأيام الخالية رجالاً متعلمين عظماء جداً، لكنها الآن مظلمة بذنوب لاتحصى، وبشكل خـاص بأربع نقاط رئيسية هي:(١) هم لايعتقدون بأن الروح القدس قد صدرت من الابن، أو أن ذلك له أي وجود،(٢) هم يعلنون بأن أرواح الموتى هي ليست في الجنة

ولافي النار، وذلك قبل أن يصدر عليها الحكم في يوم الحساب، وبذلك هم ينكرون عقيدة التطهير،(٣) هم يقولون بأن جسد المسيح لايمكن تدميره أو ايذائه،(٤) هم لايعترفون بأن كنيسة روما هي رأس جميع الكنائس، كما أنه لاتنبغي اطاعتها، وهم يفسخون الزواج على أسس تثليثية، ولايقيمون وزناً للسيمونية، وهم يحتفظون بجسد المسيح المصنوع في يوم خميس العهد طوال السنة، ويرون أن له تأثيراً عظيماً وغالباً مايقومون بحرمان البابا كنسيا من أساقفتنا، وجميع رجال الدين الرومان، وهم يولون قليلاً من الاهتمام لقداس المسح الأقصى، ويقولون بأن حلق اللحية ذنب من الذنوب، وهم يرون بأن أساقفتهم أعلى من السادة الدنيويين، وهم يمتلكون كراهية حادة تجاه كنيسة روما، ولذلك سلموا جميع بلاد الاغريق إلى الأتراك، وبذلك ضيعوا أنفسهم وبلادهم بسبب كراهيتهم للكنيسة اللاتينية.

٣ــ *السريان*

ويوجد في القدس سريان، هم في الحقيقة ليسوا مسيحيين، بل أبناء الشيطان، لأنهم كذابين، وغير جديرين بالثقة، ويرون أن سرقة اللاتين ليست أمراً محرماً ولاخيانتهم، وهم مثل الروم الأرثوذكس يتبعون عقيدتهم، وبعدوى أخطائهم قد أصيبوا، علاوة على هذا إنهم فيما يتعلق بيوم السبت، هم يتبعون اليهود باتخاذه عيداً، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، وفي القداسات الدينية السريانية، ولهم لحى طويلة ويكرهون الذين بلا لحى، وهم ضعفاء، ولافائدة منهم البتة في الحروب.

٤ــ *اليعاقبة*

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم اليعاقبة، كان قد جرى طردهم منذ زمن طويل من الكنيسة الإغريقية بقرارات من بطريرك

القسطنطينية، ويقوم هؤلاء القـوم بختان أولادهم وفق طريقة المسلمين، وهم يخفون اعترافاتهم الشخصية، ويعترفون بطبيعة واحدة للمسيح وفي قداساتهم يستخدمون اللغة السريانية.

٥— الأحباش

ويوجد في المدينة المقدسة أحباش أو هنود، وهؤلاء لهم ملك مسيحي منه حتى المسلمين يخافـون خوفـاً عظيماً، ولذلك فإن الذي يحمل جـواز سفره يمكنه أن يسافر خلال الشرق من دون اعاقة، وهؤلاء القوم أيضاً يختنون أطفالهم ويكوون على وجوههم بقطعـة حديد محماة، ويعمدونهم باسم المسيح، ويكرسـون القـربان بخبـز مخمـر، ويعملون القـربان بكلا النوعين لأطفالهم، وهم يهلكون أجسـادهم بصيام شـديد يصل إلى حد الهلاك من الجوع.

٦— النساطرة

ويوجد في القـدس مسيحيون اسمهم النساطرة، اقتيـدوا إلى الضلال بأخطاء مـن أســوأ الأنواع، ويتمسكون بآراء كثيرة خــاطئـة تتعلق بأم الرب، وبابنهـا، وهم يعتقدون أنه كـان في المسيح طبيعتان وشخصـان، ويقولون بأن مريم العذراء المباركة كانت أم المسيح الانسان، لكن ليس ابن الرب، وهم يستخدمـون اللغة الكلدانية في صلواتهم، ويستخـدمون الخبز المخمر في قداس العناصر.

٧— الأرمن

ويوجـد في القـدس مسيحيـون اسمهم الأرمـن، قـد غـرقـوا في آثام متنوعة، وبين هؤلاء وبين الاغريق دوماً اعظم الخلافات. وذلك بسبب الخلافات الدينية، وهم يمتلكون لغة وأبجدية خاصة بهم، ويعدون يوم الميلاد يوم صيام، ولايحتفلون بقداس فيه، لكنهم يمنحون تشريفاً عظيماً ليـوم عيـد الغطاس، بسبب تعميـد المسيح، وهم يحافظون على الصـوم

الكبير بصرامة عظيمة جداً، إلى درجة يمتنعون فيها عن أكل السمك، والزيت وشرب النبيذ، ومع ذلك إنهم يأكلون الخضار والفواكه كما يريدون وبشكل دائم، لأنهم لايرون بأن هذه الأشياء تفسد صيامهم، وهم لايمزجون الماء مع خمرة القربان، ويأكلون اللحوم في أيام الجمعة، وهم لايسهرون كصوم، ولا في أيام Ember(الجمرة)، ولاأثناء الصوم الكبير، الذي يصومون أيامه بصرامة متناهية، ويشمل ذلك حتى يوم الرب، وهم لايأخذون بعقيدة التطهير، ويشاركون اليعاقبة في أخطائهم فيما يختص بالمسيح.

٨— *الجورجيون*

ويوجد في القدس جورجيون(كرج)، يُدعون بمسيحيين، وهؤلاء رجال حرب منذ ولادتهم، إلى حد أنهم يُخشون في جميع أرجاء الشرق، ويعبرون إلى حيثما أرادوا دونما إعاقة، ودون دفع أية جزية، والنساء لديهم يستخدمون السلاح مثلهن في ذلك مثل الرجال، وبينهم وبين الأرمن هناك حروب إلى درجة الفناء، وهم ملوثون تقريبا بجميع آثام الاغريق، ويطلقون لحاهم ويجعلونها طويلة مثل بقية الشرقيين.

٩— *الموارنة*

ويسكن في القدس مسيحيون اسمهم الموارنة، وهم هراطقة، ويعتقدون أن للمسيح ارادة واحدة، وطاقة واحدة، وهم يقرعون النواقيس كما نفعل، في حين يدعوا المسيحيون الآخرون الناس إلى الكنيسة بالقرع على لوح من الخشب، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، لكن في طقوسهم الكلدانية، وعادوا مرة فيما مضى إلى الكنيسة الواحدة، لكنهم انفصلوا عنها منذ زمن طويل.

١٠— *التركمان*

ويوجد في المدينة المقدسة أناس يعرفون باسم التركمان، وهم

متوحشـون متنقلون، وقد استولوا على جميع آسيـا الصغرى، وعلى شطر كبير من آسيا الكبرى، وهم أتراك.

١١ — البدو

وهناك بداة من الشعـب العـربي، منهم جـاء.... محمـدﷺ، ويعتقـد هؤلاء أن يوم موت كل انسـان، والطريقة التي سوف يمـوت بها، أمور مقضي بها من اللـه، ولايمكن لـذلك أن يتقـــدم أو يتجنب، ولـذلك يزجــون أنفسهم في أعظـم المخــاطر من دون خــوف، ويمضــون إلى الحروب دون حمايـة بـالـدروع، وهـم مكــروهـون مـن قبـل المسلمين والمسيحيين سواء، ويعبد بعضهم الشمس.

١٢ - الحشيشية

وهناك يوجد الحشيشة، الذين هم مسلمون، ويطيعون مقدمهم طاعة عمياء، لأنهم يؤمنـون أنهم بطاعتهم له وحده سوف ينـالون السعادة في الآخـرة، ويتـدبر مقـدمهم تعليـم فتيـانهم مختلف اللغـات، ويرسله إلى الممالك الأخـرى، ليخـدمـون الملوك هناك، مـن أجل أنه عندمـا يتطلب الوقت، يقـوم خـادم كل ملك بقتله بالسم أو بطريقـة أخـرى، وإذا مـا تمكن الخادم القــاتل للملك من النجــاة والعـودة إلى بلاده، فـإنه يكافأ بتشريفـات، وثروات، ومراتب عليـا، وإذا مـا اعتقل وأعدم، عـدّوه في بلاده شهيداً.

١٣ - المحمديون

وفي القــدس نوع من المحمــديين يعبأون قليــلاً بشرائع المسلمين، ويقـولون بأن لديهم شريعـة سرية خـاصـة بهم، مـامن أحـد يبـوح بها، باستثناء الأب، وهو على فراش موته، إلى ابنه، وإذا ما أفشى الابن ذلك إلى أمه، وتبرهن بأنه عمل ذلك، يجري اعدام الأم على الفور.

١٤ - المماليك

ويوجد في القدس مماليك، هم مسيحيون مرتدون، وهم هناك بأعداد كبيرة، وهم مكروهون من المسلمين ومن المسيحيين سواء، وهم يمتلكون الشرق كله بقوة سلاحهم، وملك مصر، الذي هو السلطان، من بينهم، ومثل ذلك جميع رجال بلاطه، ولايعبأ هؤلاء الناس لا بشريعة محمد(ﷺ) ولابانجيل المسيح، بل سلموا أنفسهم إلى المتعة فقط.

١٥ - اليهود

يعد اليهود بين هؤلاء جميعاً ملعونون إلى حد أن الشقاء والرفض الذي عانوا منه قد أظلم عقولهم وعطل فهومهم، لأنهم ممقوتون في جميع أنحاء الدنيا، ويعدون لاشيء يستحق الاهتمام، وفيهم عدة طوائف، مثل السامرة والاسينيين، وتنشأ بينهم باستمرار هرطقات جديدة، حولهم لا أستطيع القول أكثر.

١٦ - المسيحيون اللاتين

يسكن في القدس مسيحيون لاتين، ورهبان فرنسيسكان في الكنيسة والدير على جبل صهيون، وهم يعيشون حياة انجيلية في ظل نظام دقيق، وقد تحدثت عن هؤلاء مطولاً، ويتطلع هؤلاء وحدهم من قلوبهم كلها إلى الأمراء المسيحيين للقدوم واخضاع البلاد كلها، إلى سلطة كنيسة روما، التي يمكن أن تمنح السلطة إلى أبد الآبدين.

وفيما يتعلق بالطوائف والشعوب المتقدمة الذكر، انظر ص ٢٣٩ -٢٤٨ من رحلة بورتشارد (ج ٣٧ من موسوعتنا هذه)، وذلك في نهاية وصفه للأرض المقدسة، وفي رحلة حج صاحب النيافة، عميد مينز، وفي Speculum Hisotoriale، وفي تاريخ أنطونيوس، وكثير ممن كتبوا حول هؤلاء المسيحيين الشرقيين، قالوا بأنهم بريئين من الهرطقات، ومدحوا بساطة حياتهم، وهذا بالفعل كان حقيقياً في الأيام الخالية، أي

-٥٤١٨-

منذ مـــائتي سنة خلت، لكن منذ ذلـك الحين صـاروا جميعـاً -باستثناء اللاتين - ملوثين بأسـوأ الآثـام، وصـاروا كل يوم ملوثين أكثر، لأنهم ليس لديهم لاهـوتيين أو مبشرين بالايمان الكاثـوليكي، كما أنهم ليسـوا على استعـداد لاستقبـال مثل هؤلاء، ذلك أنهم راضين بأن يمـوتوا بآثامهم.

القسم الثاني

من

كتاب رحلات وجولات فيلكس فابري من أولم ومن طائفة الرهبان المبشرين

الحج من مدينة القدس المقدسة إلى حوريب، وإلى جبل الرب، وإلى جبل سيناء إلى الضريح الملائكي لكاترين العذراء المباركة

مرة أخرى سوف أتجول وأرتحل خلف خطوات شعب موسى في الجزء الداخلي من القفار،باتجاه حوريب، وجبل الرب (الخروج: ٣/ ١)، لأنني الآن أنهيت وختمت وصفي لجولاتي ورحلاتي في حجي إلى القدس، والذي بقي هو أن أقوم بوصف جولاتي ورحلاتي في حجي إلى سيناء، وهو الموضوع الذي سوف أركز عليه فيمايلي:

ويحتوي القسم الثاني من كتاب جولاتي ورحلاتي، وصف حجي إلى الصحراء الكبرى في العربية، وإلى مدين، وإلى جبل سيناء، وإلى قمته التي هي أقصى نقطة عملت في سبيلها في حجي كله.

ثم يحتوي بعد ذلك حجي في أرض بلاد مصر، ورحلتي عبر النيل مع وصف ماهناك، والعودة من حجي بالبحر وبالبر حتى أولم، التي هي مدينة نقطة الانطلاق، وهي التي سوف أصفها بعد الجميع.

ويحتوي هذا القسم على ستة فصول، وذلك مثلما حوى القسم الأول.

ويبدأ هنا الفصل الأول، الذي هو الفصل السابع في ترتيب كل كتاب الرحلات والجولات، وهويحتوي على وصف للحج خلال القفار مع وصف لجبلي: حوريب وسيناء.

ويحتوي الفصل الثاني، الذي هو الفصل الثامن، على وصف الحج في مصر في شهر تشرين الأول.

ويحتوي الفصل الثالث، الذي هو الفصل التاسع، وصف الحج فوق البحر،ووصف الجزر فيه في شهر تشرين الثاني.

ويحتــوي الفصل الرابع، الذي هــو الفصل العــاشر، وصــف الرحلة البحـرية في شهــر كـانون الأول. ويحتـوي الفصــل الخامس، الذي هو الفصل الحادي عشر، وصف الحج في البندقية، ووصف البندقيـة وعودة الحجاج إلى أوطانهم في شهر كانون الثاني.

ويحتــوي الفصل الســادس، الذي هو الفصل الثــاني عشر، وصف فـائض جـداً لألمانيـا ولمدينة أولم، لكن بما أن هـذا الفصل فصل طويل، وقد ملأ كتـاباً قائماً بذاته، لم ألحقه بكتاب جـولاتي ورحلاتي، بل عملت منه مجلداً منفصلاً.

هنا يبدأ

الفصل السابع من كتاب الرحلات والجولات ، وبه نبدأ رحلتنا الثانية من القدس إلى جبل سيناء

هناك ثلاثة أشياء ينبغي الفراغ منها، قبل الانطلاق برحلة الحج إلى جبل سيناء، وهي: الأول: هو أن الحج يحتاج إلى ترتيب مع الحكام المسلمين للقدس، لعقد اتفاق مع الترجمان، عليه بموجبه أن يؤمن لنا مرافقة، وجواز سفر (أمان) خلال القفار حتى مصر، وكنا قد عقدنا هذا الاتفاق كما أوضحنا من قبل، والثاني: يحتاج الحجاج إلى اعداد المؤن وتزويد أنفسهم وشراء الطعام اللازم للبقاء أحياء أثناء رحلتهم عبر القفار، (وهذا أمر قد تحدثنا عنه من قبل)، والثالث: هو أن على الترجمان الرئيس -وفقاً لشروط الاتفاق -تقديم الجمال وسائقي الجمال، وحمير وسائقيهم، وتعيين يوماً محدداً وساعة لمغادرة الحجاج، وهذه الأشياء كلها عملت، وعين لنا اليوم الرابع والعشرين من آب -وهو يوم عيد القديس بارثلميو الرسول -من أجل مغادرتنا، والسفر من القدس، عند ساعة العشاء.

وبناء عليه خرجنا في الصباح الباكر من كنيسة ضريح الرب، في ذلك اليوم نفسه، وبعد تناولنا لطعام الافطار، ذهبنا جميعاً إلى جبل صهيون، حيث وجدنا الكالينيين هناك بانتظارنا مع الجمال وسائقي الجمال والحمير وسائقي الحمير، ولذلك بادرنا مسرعين، وأخرجنا جميع حقائبنا من دير الرهبان، وكومناها في مكان واحد، بناء على طلب سائقي الجمال، حتى يروا حجمها ولكي يوزعوها بين الجمال بالتساوي، ذلك أن الجمال ينبغي تحميلها بدقة، ومتوازن بشكل جيد، أي أن تكون الأوزان متساوية، وعندما حملنا كل شيء ووضعناه في مكان واحد وفي

كـومـة واحدة، كـونوا حملاً ثقيـلاً، لأنه كـانت هناك أكيـاس كثيرة من البقسماط، وجرار كثيرة مليئة بالخمر، كانت موضوعة داخل أكياس من الشعـر، حتى لايـراهـم المسلمـون مكشـوفين، ويزعجـونـنا من أجلهـم، وكانت هنـاك أوعية كثيرة مليئة بالماء، وسلال مليئة بـالبيض، وأقفاص فيهـا ديكة ودجـاج أحيـاء، وكـانت هناك فـرشنا ومـلابسنا ومـزاودنا، وصناديق وسـلال فيها أواني المطبـخ والأباريق، والصحون والأطبـاق، وقـد تكون من هؤلاء والأنواع الشبيهـة كـومـة كبيرة، ولذلك اندهش سـائقونـا تجاهها، لأن من الصعب على الانسـان أن يصـدق أن عشرين رجـلاً سـوف يحتاجـون إلى مثل هذه الكميـة من الحقـائب لدى عبـور الصحراء، هذا ويتوجب على الانسـان أن يحمل كميات وافرة من الزاد، حتى لايعـاني من العوز أثناء اثنين وستين يومـاً، وليكون بإمكانه اعطاء خبز وبقسماط، ولحم مـدخن وجبن إلى البداة العـرب، والمدينيين الذين يقابلهم، لأن هذا يطفيء غضبهم، وبذلك يستطيع شراء السلام منهم.

وعندمـا جلبت جميع الأشياء إلى الخارج، اقتـاد سائقـوا الجمال جمالهم نحو كومة الأشياء، وأناخـوها واحداً تلو الآخر، وحملوها، وأثناء القيام بهذا العمل، وقفنا إلى جـانبهم، وراقبنا بعناية أيديهم، خشية أن يسرقـوا أي شيء منا، وأيضاً لكي نتعلم كيف يحملون الجمال، وكيف يتدبرونهم، وبعدمـا جرى تحميل اثنين وعشرين جملاً مع كثير من التعـب استدعينا من قبل سـائقي الحمير إلى قطيع الحمير، حتى يقـوم كل واحد باختيـار حمار لنفسـه، على ظهره سـوف يركب خـلال الصحـراء كلها ووصـولاً حتى مصر، وكان السـائقون قد اتفقـوا فيما بينهم، من أجل الحفاظ على السلام، أن لايشير أحد على أحـد من الحجاج بأخذ هذا أو ذاك، أو أن يقول شيئاً حول الدابة، سيئاً كان أم جيـداً، بل تركوا الأمر إلى اختيارنا، وهكذا فإن كل من قام باختيار سيء، لن تكون لديه حجة للتخاصم مع أي واحـد أو توجيـه اللوم إليه، كما أنه لـن يكون بامكانه - لسبب من

الأسبـاب- دفع أقل ممن جـرى تزويـده بدابة جيـدة، وعندمـا قمنا بالاختيـار، توجب على الذي اختار أفضـل دابة أن يدفع الأجور ومـال الشرب لجميع رفاقه.

وكـان سائقـوا الحمير أنفسهم يعرفـون أي الدواب كان جيـداً، وأيها كـان سيئاً، ذلك أن السرج على ظهـورهـا كـانت متشـابهة، وبناء عليـه ركض مـوالي الفـرسان إلى هنا وهنـاك بين الحمير، وجربواأحـدها بعـد الآخـر، وسعى أحيـانا اثنان مـن الحجـاج أو ثلاثة وراء حمار واحـد، وعندمـا رأيت هـذا، وكنت راغبـاً في عـدم ازعـاج أي انسـان بالقيـام باختيـاري، تركت القطيع، وتسلقت الدرج الحجـري حتى باب كنيسـة صهيون، وجلست فـوق عتبةالبـاب، وتطلعت نحو قطيع الحمير، حيث راقبت الآخرين وهم يختارون دوابهم، وكـذلك قدرت في نفسي أية دابة سـوف أختـارها، ورأيت وقتهـا بين الحمير واحـداً كبيراً أبيض، أذناه متـدليتان نحـو الأسفل، وقد بـدا لي أنه يمتلك رأساً ثقيـلاً، وبدا وكأنه دابة باهته، وأن مـا من واحد من الحجـاج سوف يلمسها، وقـد ركزت على تلك الدابة، ليس لأنني رأيت أية جودة فيها، بل لمجرد أنني رغبت بعمل مباراة ما مع موالي في اختيار دابة نظر الجميع إليها بامتهان.

وهكذا بعدمـا اختار النبـلاء جميعاً دوابهم بعناية كبيرة وتفكير عظيم، وتوقفـت الضجـة، نـزلت وقمت بـدون أي فحص باختيـار الحمار المستخف به، واقتـدته إلى الجانب، وأعددته لامتطاء ظهـره، فما كان من سـائقـي الحمير إلاّ أن ركضـوا نحـوي، وهـم يضحكـون ويصرخـون، وطلبوا مني إعطائهم مالاً، وفي البداية أنا لم أفهـم ماالذي كانوا يقولونه لي، وقد انزعجـت لطلبهم المال مني، في حين لم يطلبوا فلسـاً واحداً من أي انسـان آخـر، لكن المترجم أخبرني بأنني قـد اخترت أفضل الحمير جميعـاً، ولهذا السبـب كـانوا يطلبـون أجـورهم، وعندمـا سمعت هذا اخـرجت أربعـة مندوسـات وأعطيتهم لهم، وعلى هـذا تزودت خـلال

الرحلة كلها بأكثر الدواب أمانا بينها جمعاً، وهذه الدابة لم تعرف التعب، وكانت بلامساويء، ولم تقع قط معي، ولم تجعلني أتخلف وراء الركب، وهي لم تخف قط، ولم أحثها، ولم تعضني، لكنها كانت تمضي أمام الجميع من دون أي ضرب، وعندما سألت سائقها عن المبلغ الذي يمكن أن يبيعها به، قال بأنه لن يبيعها بأقل من عشر دوقيات، هذا ولقد كنت دوما محظوظاً في حجي في اختيار الدواب، وهذا ماكنت قد ذكرته وأوضحته من قبل، ولا يمكن للانسان أن يكتب عن المتاعب وعن المصاعب، والمخاطر التي يتعرض لها الحجاج الذين يختارون دواب غير أمينة، وبطيئة وسيئة.

وعندما جرى تحميل الجمال، وجرى اختيار الحمير، ووضعت السرج على ظهورها، ذهبنا إلى كنيسة صهيون، وتلقينا مباركة الحجاج من الأب المبجل المسؤول في جبل صهيون، وعانق كل واحد منا، وباركه، وودعه بقبلة، هذا وقد توجب عليّ لدى المغادرة، أن أقدم أكثر من غيري الشكر للأب الجيد، وللدير كله، حيث أنني تلقيت منهم لطفاً زائداً، وكانوا جميعاً جيدين جداً نحوي، وذلك كما أوضحت من قبل.

ولدى مغادرتنا لكنيسة صهيون، نزلنا إلى حيث كانت حميرنا، وعندما امتطينا ظهورهم، تولت الجمال القيادة على الطريق ونحن تبعناهم خارجين من المدينة، لكن ليس من دون حزن في قلوبنا، وليس من دون دموع، غادرنا من مدينة القدس المرغوبة، فلقد غادرناها بآهات وبكاء، ومن جانبي لم أكن قط أكثر سعادة في أي مكان في العالم مما كنته في القدس، فلقد أمضيت فيها ساعات ممتعة جداً وأيام هناك، وعندما كنا نازلين من جبل صهيون حاول بعض الشبان المسلمين والفتيان والأطفال اعتراض سبيلنا وازعاجنا، وسعوا إلى سحب بعض الحمولات من على ظهور الجمال والاستيلاء عليها، وبصعوبة بالغة تمكن أدلاؤنا من ابعادهم عنا.

وفي تلك الأثناء، وقبل أن نصل إلى قعــر هضبــة صهيــون، انكسرت احــدى جــرار الخمــرة، وســالت من خــلال كيس الشعــر الذي كــانت ملفوفة به إلى الأرض، وقد انزعجنا كثيراً لهذا الحادث، لأنها كانت خمرة جيدة، شريت بسعر مــرتفع، وأخفيت بعناية كبيرة، خوفاً من المسلمين، ومع ذلك لم يكن الذي أزعجنا خسارة الخمرة، بل كنا نخشى كثيراً من غضب المسلمين، حيث أنهم ماأن يشموا رائحة الخمرة كانوا سيهاجموننا ويكسرون الجرار الأخرى، ولو أننا حرمنا من خمرتنا ماكنا لنحاول الحج إلى جبل سيناء، كما أنه ماكان بامكاننا العيش في الصحراء من دون خمرة نشربها.

وهكذا تركنا الخمرة تسيل على الأرض، لأنه لم يكن لدينا وعاء آخر، والذي قمنا بــه أننا اتخذنا حيطة خـــاصــة لنحــول بين ســـائقي الجمال وسائقي الحمير القدوم إلى ذلك المكان وشرب الخمرة وهي تنصب نحو الأسفل، بسبب أنهم لو تذوقــوها، لصاروا سكارى على الفــور ولسببوا بذلك كثيراً من المتــاعب لأنفسهم ولنا، ولأهملوا حقائبنا، وقــد أعطيت حماري إلى واحد من الفــرسان وركضت إلى جانــب الجمل، حيث كانت الخمـــرة تنصــب نحــو الأسفل، ولم أدع أحـــداً من المسلمين يقترب، وملأت قارورتين كبيرتين كانتا معي، بالخمرة التي كانت تنصب وهكذا تابعنا سيرنا ببطىء، هذا ومن الصعب عليّ أن أكتب عن جميع المصاعب التي عــانينا منهــا فوق تلك المســافــة القصيرة، بسبب هجمات المسلمين، وبسبب متاعبنا.

ولقد أعقنا كثيراً أثناء سفرنا وتعرضنا لمضايقات كبيرة، إلى درجة أننا احتجنا إلى سبع ســاعــات لنعبر فــوق ذلك الطريــق، مع أنه من الممكن عبوره خــلال أربع ساعات، ولذلك كان الليل ظلامــاً عندما وصلنا إلى بيت لحم، وبمشقــة كبيرة أنزلنا الأحمال من على ظهــور الجمال والحمير، في رواق كنيسة بيت لحم، وسحبنا كل أشياءنا إلى قاعة مجاورة للكنيسة،

وجلسنا نتولى حراسة القاعة.

ودخلنا الآن إلى الكنيسة ونحن نحمل مصابيحاً، ونزلنا إلى مكان ميلاد ربنا، وهو المكان الأعظم عذوبة، وعندما كنا نصلي هناك جاء الأب المسؤول مع رهبانه، واستقبلونا بترحاب، وأخذونا إلى المكان الذي يمكننا أن نأكل فيه، وأن ننام، لأنهم كانوا على معرفة بقدومنا، ولذلك كانوا قد أعدوا كل شيء، وجهزوه من أجل عشائنا ونومنا، وبمتعة تناولنا عشاءً جيداً، جرى إعداده على حسابنا، وبعد ذلك تمددنا بأنفسنا للاستراحة، والمجد للرب في الأعالي.

ونهضنا في الخامس والعشرين من آب بعد منتصف الليل، أي أن تقول، قبل انبلاج الفجر، وذهبنا إلى كهف ميلاد الرب، وقرأنا صلواتنا هناك في كل من الساعات القانونية وعلى شكل قداسات، وعندما أشرقت الشمس نزلنا إلى وادي الرعاة إلى «المجد في الأعالي»، وغنينا هناك مع الملائكة تلك الترنيمة السماوية، وتفحصنا المكان بدقة، هذا وكنا قد تحدثنا عن هذا الوادي ووصفناه من قبل، وبعدما فرغنا من صلوات الشكر في الوادي، ذهبنا صاعدين إلى بيت لحم من أجل تناول طعام الافطار، وبعد أكلنا لافطارنا، تجولنا في أرجاء دير القديس جيروم، وتعجبنا من خرائبه، كما وسرنا حول بلدة بيت لحم، وذهبنا إلى بركة داوود، وأثناء قيامنا بهذا أعدنا إلى الذاكرة جميع نصوص الكتابات المقدسة التي أشارت إلى هذه الأماكن، وهكذا أمضينا ذلك اليوم بسرور في ذلك المكان الممتع والأعظم قداسة.

وكانت إقامة ممتعة قرب مزود الرب، بسبب قداسة المكان والغفرانات، وكذلك بسبب جمال الكنيسة، وضخامة خرائب ذلك الدير الفخم جداً، الذي لم يكن ديراً للرهبان فقط بل قصراً وقلعة للأباطرة، ويعتقد بسطاء الناس بأنه كان دير القديس جيروم، مع أن جيروم كان قد أقام في كوخ، في دير بسيط، تأسس في أيامه، وعلى هذا الأساس قال

في رسالته إلى فابيولا Fabiola : «أنا محب لنزل بيت لحم، وللمزود الذي وضعت فيه الأم العذراء الطفل»، وقال كذلك في «نظامه القانوني»: الفصل ٣٦: « ما من مهابة يمكن أن تكون أعظم هيبة من بيت لحم هذه، ففي هذا الصدع ولد باني السموات»، لأنه قبل أيام القديس جيروم كان مكان ميلاد المسيح، مجرد كهف، ولم يكن هناك دير، ولهذا نقرأ في «نظامه القانوني» الفصل: ٢٠ «نحن حريصون على بناء دير ونزل إلى جانبه، خشية أن تقدم مريم ويوسف إلى بيت لحم، ولايجدان غرفة في النزل»، وجاء الخبر في «حكاية القديس جيروم»، بأن سيرل، رئيس أساقفة القدس، قد أعطاه أبرشية بيت لحم، التي فيها بنى بمساعدة الجيران ديراً، لكنه احتاج إلى المال، فبعث بأخيه بولينيانوس Paulinianus إلى بلاده ليبيع ممتلكاته القليلة هناك، قاصداً انفاق مال البيع في بناء الدير في بيت لحم، وهذا ما قرأنا عنه في «نظامه القانوني»،الفصل: ٢٠.

وبقدر ما أستطيع تخمينه، لا أعتقد أن الكنيسة الجميلة القائمة هناك في هذه الأيام يمكن، أن تكون قد بنيت في أيام القديس جيروم، ويتحدث الناس الجهلاء على أنها بنيت من قبل القديسة هيلانه، غير أن ترتيب البناء الحديث تجعل هذا ليس ممكنا، لأنه روي لنا بأن القديس جيروم قد نحت لنفسه ضريحاً عند فم كهف الميلاد، وأن فم الكهف كان ضيقاً، لكن في هذه الأيام ضريح القديس جيروم موجود خارج الكنيسة، والمدخل إلى الكهف ليس في الكنيسة نفسها، والكهف فخم جداً، وله مداخل واسعة، منها يتم الدخول إليه، والذي أعتقده أن هذه الكنيسة قد بنيت في أيام آخر الملوك اللاتين في القدس، ومثل ذلك هذا الدير الكبير، وهذا يفيد بأن كوخ جيروم الصغير، قد أزيل، وأعيد ترتيب المكان من جديد، وتبان مصداقية ذلك، بالنقوش، والرسوم، والتماثيل في ذلك المكان.

جبل راما وبلدته الحصينة جداً

وفي اليوم السادس والعشرين، وبعد قداس عند مزود الرب، طلب الفرسان من كالينوس الرئيس، أن يقتادهم إلى برك سليمان، وإلى بساتينه وحدائقه، وإلى كنيسة القديس جرجس، وعلى هذا اعتلوا ظهور حميرهم، واقتيدوا إلى هناك، لكن بما أنني قد كنت في هذه الأماكن من قبل، كما سلف لي وتحدثت، قمت بحج آخر في ذلك اليوم، وخرجنا خمسة من بيت لحم، حيث كان هناك أربعة رهبان فرنسيسكان قد قدموا معنا من القدس، وأنا شخصياً، ومضينا باتجاه الجنوب إلى سفح جبل مرتفع، واقف هناك في السهل بشكل مستدير ورأسه مرتفع مشرع في الهواء بسطح مستو وواسع منه يستطيع الانسان أن يشاهد الأرض المقدسة بالطول وبالعرض، وتسلقنا ذلك الجبل بصعوبة وتعب، ووصلنا إلى قمته، حيث شاهدناالمنطقة من حولنا، وحدقنا هنا وهناك عبر الأرض المقدسة، وقام فيما مضى فوق هذا الجيل هناك قلعة حصينة، وكانت مليئة بالناس، وكان اسمها راما، وإليها أشار القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، هذا وبشكل عام أطلق على جميع القرى التي قامت فوق مكان مرتفع اسم راما، وهذا أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان هذا الجبل مرتفعاً إلى درجة أن الانسان يمكن من عليه أن يشاهد البحر الميت، وجبال العربية، وجبلي سعير وجلعاد، ويمكن للانسان أن يشاهد جبال عين الجدي، والأماكن التي أخفى داوود فيها نفسه، وقفار تقوع، وشيلوه، وجبل الزيتون، مع جزء من جبل صهيون خلفه، وهكذا دواليك حتى البحر المتوسط.

وهذا مايمكن للانسان أن يراه من قمة الجبل العارية، إنما في العصور الخالية، حيث كانت هناك أبنية عالية مشادة في ذلك المكان، كان بإمكان الانسان أن ينظر بشكل أوسع، وذلك حتى الجليل، وفلسطين، وحدود مصر، وقد كان هنا قلعة كبيرة مع أبراج عالية، اسمها راما، وحول هذا

المكان ورد النص الموجود في إرميا —الاصحاح: ٣١، وفي متى —الاصحاح:٢، قوله: «صوت سمع في الرامه نوح وبكاء»، وحول هذا المكان كتب هذا النص، لأنه عندما قتل هيرود الأطفال في بيت لحم، وفي المنطقة من حولها، سمع بكاء الأطفال، ونواح أمهاتهم في راما هذه، ولذلك قال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: «راما مكان قرب بيت لحم، وعنها كتب: صوت سمع في الرامه».

وكان يوجد في اطارها مسافة كافية خارج أسوارها، لزراعة وانتاج ما يكفي من قمح، ليقدم خبزاً لسكان القلعة طوال السنة،وقد بنيت هذه القلعة من قبل واحد من الملوك اللاتين في القدس، وعندما استولى صلاح الدين، ملك مصر، على القدس والأرض المقدسة بقوة السلاح، وطرد الصليبيين اللاتين من هناك، استولى على جميع القلاع الأخرى والبلدات والقرى، لكنه لم يستطع -بأية وسيلة من الوسائل -نيل قلعة الرامة هذه، التي جرى الدفاع عنها برجولة من قبل الصليبيين، ولذلك رفع الحصار، واستمر المسيحيون اللاتين يسكنون في القلعة لمدة ثلاثين سنة بعد الاستيلاء على القدس، وبيت لحم، ولم يستطع المسلمون طردهم، ولكانوا مايزالون هناك حتى هذا اليوم لولا أن الرب قاتل ضدهم، لأنه مع نهاية الثلاثين سنة، أرسل الرب وباء إلى داخل القلعة، وفي وقت قصير ماتت النساء جميعاً من الطفلة الصغيرة إلى المرأة العجوز، كما مات الجزء الأكبر من الرجال، ولدى رؤية البقية ماحدث، هجروا القلعة، وهربوا، وعندما عرف المسلمون بذلك، تسلقوا الجبل، وهدموا القلعة، وسووها بالأرض، ولذلك لايوجد في هذه الأيام، أو بالحري لايمكن العثور على أية أثر للجدران، ونظرا لحصانة هذه القلعة، ولأنها كانت لاترام، سماها الصليبيون بيت أوليا، على اسم قلعة يهودت، بيت أوليا، الموجودة في الجليل.

وأثناء النظر من هذا الجبل إلى جبل آخر يواجهه، رأينا هناك بناء

قديماً، إلى جانبه ضريح الأنبياء الاثني عشر الصغار.

وقام فيما مضى عند سفح هذا الجبل دير راعي الدير القديس أغاثون Agathon ، الذي كان رجلاً صاحب سلطة واسعة، وأبا لكثير من الرهبان، ولحبه للصمت حمل حجرة في فمه لمدة ثلاث سنوات، فهذا ماورد خبره في «حياة الآباء».

علاوة على ذلك، في هذه المنطقة كان ديـر القديس خاريتون -Khari ton، الذي كان أباً لكثير من الرهبان، حيث أنه عندمافارق الحياة، فارق جميع رهبانه معه الحياة، ودفنوا جميعاً في قبر واحد، وهو قبر مشاهد هناك حتى هذا اليوم.

وليس بعيدا عن هذا المكان، رأينا الجزء العلوي من بناء دير القديس سابا، الذي كان راعي دير، والذي تحدثت عنه مطولاً من قبل.

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، نزلنا من الجبل، وعدنا إلى بيت لحم من أجل تناول طعام العشاء، ووجدنا هناك السيد فكردنيوس Vaccardinus (فخر الدين) وكان مسلماً صاحب سلطة كبيرة، من القدس، وكانت معه حاشيته، وقد بعث وراء الترجمان، ولامه لوماً شديداً لسماحه لنا بإمضاء ذلك اليوم هناك، وأمره باقتيادنا نحو الأمام على طريقنا في الصباح التالي بالتحديد.

مغادرة بيت لحم

في السابع والعشرين، جاء كالينوس الرئيس، بعد منتصف الليل، إلى مكان إقامة الحجاج وأيقظهم من أجل رحلتنا، وبناء عليه استيقظنا مسرعين، وذهبنا إلى كهف ميلاد المسيح، حيث قرأنا صلوات مع قداسات في ذلك المكان المقدس للغاية، الذي كنا نكره مغادرته، وأثناء انشغالنا بالاحتفال بالقداس جاء كالينوس المسلم إلينا وحثنا على الاسراع، وصرخ لنا للخروج، وأخرجنا الآن جميع أثقالنا التي كانت

الجمال ستحملها، وشرعنا بتحميلهم، ولم نكن حتى ذلك الحين نعرف طرائق التحميل، كما أننا لم نكن نعرف عادات، واشارات، وكلمات سائقي الجمال، كما أنهم لم يفهموا عاداتنا، واشاراتنا وكلماتنا، ولذلك قمنا لعدة أيام بتحميل دوابنا مع كثير من الخصام والاضطراب، وصدرت المشاكل من سائقي الجمال، حيث أخذوا أولاً غرضاً واحداً من كومة الأثقال، ثم غرضاً آخر، من أجل جعل الحمولات على الجمال متوازنة، وكان هذا غير موائم لنا،، لأننا انقسمنا إلى ثلاث مجموعات، وكان لكل مجموعة أغراضها، ولم نمتلك أثقالاً واحدة لنا جميعاً، مع أن الجمال كانت لنا جميعاً بشكل عام، وهذا أمر لم يفهمه المسلمون، بل اعتقدوا أن جميع الأشياء لنا جميعاً بشكل عام، وقاموا بالتحميل دونما اهتمام بمن عاد الشيء إليه، وعلى هذا كان جمل واحد يحمل أحيانا أشياء عائدة إلى الجماعات الثلاث كلها، أو إلى ست أو ثمانية من الحجاج، ولهذا كان يحدث أثناء إنزال الأثقال فوضى واضطراب، وركض إلى الأمام وإلى الخلف، حيث توجب على كل انسان جمع أثقاله من ثلاثة أو أربعة أماكن، وكنا على هذا سعداء جداً بتعيين بعض الجمال لحمل أثقال الفئة الأولى، وبعضهم لحمل أثقال الفئة الثانية، وبعضهم الآخر لحمل أثقال الفئة الثالثة، لكن هذا مالم يفهمه سائقوا الجمال، وما كانوا ليفلعوه، ومن هنا -كما قلت- ثارت خلافات كثيرة حول تحميل الجمال، لاسيما وقت الانطلاق.

وبعدما حملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، امتطينا ظهورهم، وانطلقنا من الدير باسم الرب، وقد عبرنا من وسط البلدة، وتابعنا سفرنا على حافتها القصوى باتجاه الجنوب، نحو جانب جبل بيت أوليا، أو راما، الذي ودعناه على جانبنا الأيسر، ووصلنا أثناء سيرنا إلى قمة وادي رفايم Raphaim، وسرنا مجتازين لتخومه خلال ساعة تقريباً، وكان من الممكن لهذا الوادي أن يكون خصباً، لو توفر من يقوم بفلاحته،

ومن ثم كـان سيمتلىء بالقمح كما جاء في (سفـر اشعيا: ١٧/ ٥) قـوله: «ويكون كجمع الحصـادين الزرع وزراعه تحصـد السنابل، ويكون كمن يلقط سنابل في وادي رفايم».

وفي هذا الوادي هـزم داوود الفلسطينيين، الذين كـانـوا قـد نشروا أنفسهم هناك مثل الجراد، كما جاء في سفـر صموئيل الثاني: ٥، ويفصل هذا الوادي منطقـة اليهـودية التليـة عـن سهل الفلسطينيين، أو عن فلسطين، وذلك حتى نهايته هناك، ولذلك كـانوا قادرين على الصعـود من خلاله إلى أرض اليهودية.

وأثناء متـابعتنا لسفـرنا، خلفنا بيت لحم بعيـدة جـداً عنا، إنما كـان بامكاننـا رؤيتهـا خلفنا حتـى الظهـر، وعند الظهـر وصلنا إلى منطقـة خصبة، حيث كـانت هنالك حقول مليئـة بأشجار الفواكـه،مع كثير من أشجـار الـزيتـون والتين، وهنا انسحبنا جـانبـاً، وخـرجنـا عن الطريق ودخلنا إلى غـابة كثيفـة من أشجـار الزيتـون، حيث جلسنا في الظل، وأكلنـا الذي جلبنـاه في جعبنـا مـن بيت لحم، لكـن لم يكـن بـامكاننـا الشرب، لأن الجمال التي كـانت تحمل روايـا الماء سـارت أمـامنا، وبناء عليه بعدما تناولنا وجبة سريعة، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مفرق للطرقـات، حيث يمضي الطريق القائم على يمين الانسـان إلى غـزة عبر السهل في فلسطين، وهو يمـر خـلال البلدة التي اسمهـا ثيرين thyrin ، والقلعـة التـي اسمهـا قلعـة القـديس صموئيل(الجيب الأعلى).

وهناك طريق آخـر، قائم على يسار الانسـان، يقود من خـلال المنطقة التليـة نحـو حبرون، ومن حبرون يستدير، ويمضي إلى المنطقـة السهليـة لفلسطين ومن ثم إلى غزة، والطريق إلى غزة بوساطة الطريق القائم على جهـة اليســار، هو أقصر بميلين ألمانيين، من الطريق القـائم على جهـة اليمين، وبناء عليه أمرهم كـالينوس الرئيس أن يقتادوا الجمال على طول

الطريـق المنخفض والأقصر، وهو طـريق لانمـــر عبره بحبرون، لكن عندمـا سمعنا بهذا صرخنا بأصـوات عاليـة جـداً وكثيرة، وأصررنا على اقتيـــاد الجمال على طـول الطريق الآخـــر، الذي يـذهب إلى حبرون، وتخاصمنا بعنف مع أدلائنا حول هـذه المسألة، لأنهم أرادو أخذ الطريق الأقصر، ذلك أننا أردنا رؤية مـدينة حبرون، والأمـاكن المقـدسـة حيث مـدفـن البطارقـة، والحقل الـذي من ترابه جـرى صنع أبوينا الأولين، ولولا أننا ذكـرنا بشكل واضح في عقـدنا معهم وجـوب أخـذنا إلى حبرون، لما كان بإمكاننا تحقيق هذه الرغبة.

وفي الحقيقـة إنني أنا وحـدي كنت السبب في ادخـال هذا الشرط في العقـد، لأن الأب المبجل لـودويغ فـوشي، رئيس دير أولم، قـد رجـاني عندمـا كنت على وشك السفـر أن لا أغـادر الأرض المقـدسـة من دون رؤية مدينة حبرون، التي كـان يشعر نحوها بعـاطفة تقوية خـاصة، وأنا شخصياً كنـت متشوقاً كثيراً لرؤيتهـا، وتصديت إلى جميع الأعـذار التي قدمت لاعتراض ذهابنا إلى هناك، لأن كالينوس الرئيس تحدث عن كثير المخاوف التي يمكن أن نصدفها ونقع بها، بالاضافة إلى إطالة الطريق.

وتقع حبرون على بعـد ستة فـراسخ فقط عن بيت لحم، وهكذا بعـد نقـاش طويل ربحنا نحن وأقنعنـا أدلاءنا، وأعــادوا الجمال إلى الطريق الأعلى خـلال المنطقـة التليـة،وعندمـا مضينا على الطريق، رأينا مـاكـان بالحقيقة أرضاً جيدة، لكن قليل منهـا كان مفلوحاً، كما لم تكن هناك أية قرية ورأينا فـوق الجبل وفي الوادي جدران قـديمة من الحجـارة الجافة، بهم كانت الجبـال محاطة من أجزائها الدنيـا حتى قممها، وفي داخل هذه الجدران من الحجارة الجافة كان فيما مضى بساتين كروم عنب، وزيتون، وبرتقال، ورمـان، وأشجار فواكه أخرى جيـدة، قد نبت في مكانها الآن أشـواك، وقُراص، وشـوك سناني، وعـوسج، وعليق، وأعشاب أخـرى بلافائدة، تنمو ذاتيا.

دخول الحجاج إلى مدينة حبرون

وأثناء متابعتنا سيرنا وصلنا إلى واد فائق الجمال، اسمه وادي حبرون، وعلى طرفيه، كانت الأطراف مغطاة بأسيجة معمولة من جدران أحجار جافة، من أجل كروم العنب والبساتين، غير أن كل شيء كان ناميا هناك كان برياً، وبينهم كان هناك كثيراً من أشجار البطم، تعطي كميات كبيرة من زيت البطم، ولو أنه كان في هذا الوادي أي أناس يتولون زراعته، لكان مليئاً بجميع أنواع الأشياء الجيدة، وتابعنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان مليء بأشجار الزيتون، إلى حد بدا المكان وكأنه غابة منهم، وفي المكان الكثيف من هذه الأشجار، أمرنا قائدنا كالينوس بالترجل من على ظهور دوابنا، وانزال الأثقال عن ظهور الجمال، وقد فعلنا ذلك، وأفادتنا الأشجار وكانت بالنسبة لنا بمثابة خيم وسُتر ضد الحرارة الهائلة للشمس، التي بدت لي أنها أكثر حرارة في هذه المنطقة منها في القدس، وجلسنا في الظل وأكلنا بقسماطنا من دون أي شراب منعش، لأن الخمرة في الجرار، والماء في الروايا، كانت ساخنة، وبلا فائدة في اطفاء العطش.

ولم نكن بعيدين عن مدينة حبرون المقدسة، لكن لم يكن بإمكاننا رؤيتها، لأنه كانت هناك رابية بيننا وبين المدينة، على الذي يود الدخول إلى المدينة الالتفاف قليلاً حولها، هذا ويقال بأن مدينة حبرون القديمة جداً، التي عنها تتحدث الكتابات المقدسة، كانت قائمة فوق البقعة ذاتها حيث كنا، ذلك أن شطراً من المدينة كان قائماً على منحدرات الرابية، والشطر الآخر فوق أرض منبسطة تحت، وحدث بعد ذلك أنه بسبب الكهف المزدوج، وضريح ابراهيم، الذي هو موجود على الجهة الأخرى من الرابية، انتقلت المدينة إلى حيث كان الكهف، وهذا ماسوف أتولى شرحه.

وعندما كنا جالسين هناك، ركب Sabathytanco أي

كـاليـنوس الرئيـس حصـانه مع واحـد من المرافقين، وذهـب إلى مـدينة حبرون، لإخبـار حـاكم المدينة، وسكـانها بأن هناك حجـاجـا مسيحيين لاتين، من بلدان ماوراء البحـر، قد جـاءوا، ويرغبون— بعـد الحصول على إذنه— برؤية المدينة، والمكان الذي جرى دفن البطارقة فيه، وعندما سمع الحاكم هذا، وبخ كـالينوس بحدة لأنه تركنا، وقت ارتفـاع حرارة الشمس، في السهل المفتوح، حيث لايوجد مـاء ولاخبز يمكننا الحصول عليه، وأمره بالعودة سريعاً، وجلبنا مع جميع أثقالنا إلى النزل العام التابع للمـدينة، وأخبره كـالينوسينا، بأن الجمال قـد أنزلت أثقـالها للتـو، وقـد تركت تـرعى، ولايمكن إعـادة تحميلهـا من دون كثير مـن المتـاعب والاضطراب، ولذلك اقترحا إرسال خدمه إلى المسلمين ولجلب الحجاج لزيارة الأماكن المقـدسة، وبعد القيام بذلك، أن يعيـدهم ثانية إلى حيث أثقالهم مـوضوعة، وامضاء الليل هناك، والانطلاق في الصبـاح، وعندما سمع الحاكم هذا، انفجـر غاضبـاً من كـالينوس، وقـال بأنه كان خـائن الحجـاج وليس دليلهم، لأن المنطقـة كـانـت مليئة بلصـوص من البـداة العرب، وقـال:« لايمكن للحجاج امضـاء الليل في الحقل في ظل خطر النهـب، لذلـك أحضرهــم إلى هنــا، وإذا لم تحـضرهم، أنـا سأفعـل ذلك».

ولذلك عـاد كـالينوس وهـو مغضب جـداً، وأمـر بتحميل الدواب، وعندما أنجز هذا، امتطينا نحن ظهـور حميرنا، وعندما دخلنا إلى المدينة، كان هناك تدافع كبير للناس لرؤيتنا، لأنه لم يكن هناك حجاج لاتين منذ كثير من السنين، وكـان أمراً عجيباً رؤية مسيحيين غـربيين لاتين هناك، وقد أخـذونا إلى النزل العام للمدينة مع جميع دوابنا، وقـد وجدنا مكاناً رحباً لإيواء دوابنا، وغـرفـاً للـرجـال في الأعلى وفي الأسفل، وكـذلك ساحة كبيرة كانت مغلقـة بإحكام بباب، وكان هذا المبنى عظيماً وواسعا مثل دير من الديرة، والنزل الشرقية، لايسكن فيهـا أحد، وهي مخصصة

فقط لاستخدام الغرباء، ومن أجل وصف وترتيب النزل ودور الضيافة في الشرق، انظر ماسلف وقدمناه في القسم الأول.

وعندما وصلنا إلى النزل، أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، ووضعناهم في القسم الأسفل من المبنى، في حين اخترنا لأنفسنا غرفاً وقاعات في القسم العلوي، ووضعنا في هذه الغرف فرشنا وأعددنا مكانا لطبخ أطعمتنا، وحصلنا على حطب للنار، ووضعنا جميع أغراضنا، وكأننا على نية الإقامة هناك لأيام عدة، وفيما نحن منشغلون هكذا، جاء كالينوس الرئيس مع بعض مسلمي المدينة، وقالوا بها أنه لايزال هناك شطر كبير من ضوء النهار، سوف يكون مفيداً القيام بزيارة الأماكن المقدسة، في ذلك المساء، حتى نتمكن في الغد من الانطلاق باكراً في الصباح، قبل أن تصبح حرارة الشمس كبيرة، وقد وافقنا على هذا بسرور، لأننا كنا نخاف من الإقامة الطويلة في ذلك المكان.

الحقل الذي صُنع آدم منه والذي اسمه حقل دمشق

وهكذا خرجنا من النزل، وعبرنا من خلال الشارع الطويل للمدينة، الذي فيه يسكن عمال حرفيون من مختلف الصناعات، وبشكل خاص الحرفيون الذين يعملون بالزجاج، والزجاج الذي يصنع في هذا المكان، ليس زجاجاً نقياً، بل أسود، مع ألوان أخرى بين الأسود والأبيض الشفاف، وقد سار خلفنا حشد كبير من الناس، وقد ركضوا وراءنا، لأنه كان منظراً عجيباً رؤية غربيين هناك، وهكذا وصلنا إلى باب المدينة، الذي عبرنا من خلاله، وسرنا على طول الطريق العام، فوصلنا إلى حقل مطوق بسور من الحجارة الجافة، وهناك توقفنا، وشرعنا ننظر من خلال السور إلى داخل الحقل، الذي هو جميل ومتميز، لأن هذا، كان يعرف باسم حقل دمشق، فيه جرت صناعة آدم، أبونا الأول، وعندما سمعنا بأن هذا كان بالفعل الحقل المقدس، تسلقنا السور

ودخلنا إليـــه، حتى يمكننا تقبيـل الأرض، وتلاوة الصلوات المناسبـــة، واخبار أحدنا الآخر عن المعجزات التي عملت هناك.

لكن فجأة حدث بينما كنا نقفز من فـوق السور المصنوع من الحجارة الجافة إلى داخل الحقل، واجهنا مسلم حاد، صرخ بصوت مرتفع علينا، والتقط كثيراً من الحجـارة ورمـــاها نحـونا، وطردنا بـالقـوة من الحقل وبصعوبة، أمكننا تسلق الجدار دون أن نصـاب بأذى، وعند وقوع ذلك رغب كـالينوس مع أدلائنا في اطلاق العنان لغضبهـم، وشرعوا بالعـودة إلى البلدة، لكننا لم نكن بأي حال من الأحوال راضين بمغادرة مثل هذا المكان الهام بمثل هذه السرعـــة، بل رغبنا بإطفـاء غضـب ذلك الرجل، حتى نتمكن من امضـاء بعض الوقت بالصـلاة في ذلك المكان، ولذلك دعـونا كـالينوس إلى الرجعـه، وأخبرناه بعمل اتفـاقيـة مع الرجل، بأن ندفع مـايستحقه قانونيـا مقابل دخـولنا إلى حقله، لأنه كان مـالك ذلك الحقل، وقد طالب بأربعة مندوسـات، وعندما جرى تنفيذ هذا الطلب، هدأ الرجل، وتسلق على السـور، ومـدّ يده إلى الحجاج الذين وقفـوا في الخارج، وسحبهم واحـداً تلو الآخـر، وسمح لهم بالدخـول إلى الحقل، واقتادنا إلى المكـان الذي من المعتقد أن الطين أخذ منـه لصنع آدم، وفقاً للحقيقة الكاثـوليكية، فهناك جرى صنع الانسـان الأول، ونحن لانولي أدنى اعتبـــار، إلى ترهات شعـــراء الأمم، الـــذين يغنون وينشـــدون بأن واحـداً اسمـه فـورونيـوس Phoroneus كــــــان الأب الأول لجميع الأحيـــاء، وذلـك كما حـــدثنا يـوسبيـــوس في De Evangel prae-parat— الكتـاب العـاشر، ويقـول الأثيـوبيـون بأن البشر الأوائل قـد نشأوا من طهـــارة التربة، ولدى الشكوكيين المصريين أثر بـأن الانسـان الأول قد خلق في بلادهـم، أولاً بسبب جودة التربة، وثانيا بسبب النيل، الذي يولد كثيراً من المخلوقات التي ليست مـوجودة في أي مكان آخر، لكننا نرى أن هذا كله لاقيمة له، ونتجه للأخذ بالإيمان الأصح والأكثر

ثبـاتاً، ولقـد انكببنـا بأنفسنا، وبوجـوهنـا على الأرض في هذا المكان المقـدس، بخشـوع كبير وبدمـوع، وقبلنا الأرض، وتفـوهنا بصلواتنا المحددة في هذا المكـان المقدس، بخشوع كبير وبدمـوع، وقبلنا الأرض، وتفـوهنا بصلواتنا المحـددة في مسيرات الأرض المقدسـة، وحصلنا على غفرانات (+)، وبعد هذا انتقلنا نحو التأمل حول هذا المكان.



وعند الفـراغ من تأملنا، تفحصنا المكان والأرض بكل دقة، فـالقشرة العليـا للأرض خشنة ولونها بني، إنها عندمـا تحفـرها تعطيك طيناً أحمر، وقاسيا، من الممكن صناعة فخـار رائع منه، وقد أخذنا بعض الصلصال وبعض الحصا من هذه الأرض لتكون آثاراً مقـدسة، ويقال بأن كل من يضع حـولـه بعضـاً من هذه الأرض لن يشعـر بالتعب أثناء سيره على طريقه، أو اذا كان راكبـاً على دابة فإنها لن تكبو أبداً، إنها إذا وقع انسان أو دابة فلن يصـابا بـأذى، بل سينهضـان من دون ضرر، وفيها إذا كـان هذا صحيحـا، يمكـن لكل انسـان أن يبرهن على الذي يرضيـه، فأنا لم أشعر بأية آلام، كما أنني لم أتعرض لالتعب ولالسقوط.

موضع الشوك أو الأعشاب الكثيفة حيث قُتل هابيل من قبل أخيه قابيل

وسرنا من هنـاك بعض الشيء في الحقل نفسـه، وذلك وراء الأرض المفلوحة فوصلنا إلى منطقة كثيفة الأعشـاب، وفيها نباتات شوكية، بينها شـاهدنا المكان الذي انبعث فيـه قـابيل ضـد أخيـه هابيل وقتله، وذلك حسبما قـرأنا في سفـر التكـوين:٤، وانحنينا هنا بأنفسنا نحـو الأرض المقـدسـة وقبلناها وهـي الأرض التي فتحت فمهـا وتلقت ذلك الدم المقدس من يدي قاتل أخيه[٨].



الكهف الذي سكن فيه آدم مع حواء لسنوات طوال وحيث عرف آدم للمرة الأولى زوجته

في الجزء الجنوبي من هذا الحقل هناك رابيـة، ليست كبيرة الارتفـاع، على قمتهـا يوجد في هذه الأيام مسجـد، قائم في المكان الذي يعتقـد أن آدم وحـواء وأولادهما قـدموا فيـه أضـاحي وصلوات إلى الله، لأن آدم علّم أولاده تقــديم الأضـاحـي لله، وعلمهم عبــادته، وفي هذا المكان نفسه، حـدث أنه عندما كان قـابيل وهابيل يتعبدان، ويقدمـان قرابينهما معـا، نزلت نار من السماء وأكلت قـربان هابيل، لكنهـا لم تلمس قـربان قابيل، لأن تقـدمته لم تكن مقبولة لدى الرب مثل تقدمـة أخيه، ولذلك أصبح حســوداً لأخيـه، وقتلـه فيما بعـد، وفي هذا المكـان عمل ابراهيم مـدفنـه(كـذا) وهنا بنى مــذبحـا، فهــذا مـاورد الحديث عنـه في سفـر التكوين:١٣، وذلك في نهاية الاصحاح.

وهنا أيضــاً رأى ثلاثة وعبـد واحـداً، وذلك كما جـاء الخبر في سفـر التكوين:١٨، وفي جـزء آخر من الرابيـة هناك وادي ممرا، المتصل بوادي حبرون، وقـامت عمليـة الاتصـال هذه قـرب مـدينة حبرون، ففي هذا الوادي كـان ابراهيم سـاكناً، عندما رأى ثلاثـة رجال عند باب خيمتـه وتلقى الـوعــود من الرب، التي جــرى الحديث عنهــا في سفـــر التكوين:١٥و١٧، غير أنه عندمـا كان يقـدم قـرباناً كان يصعـد الجبل، وكـذلك عـاش البطريركــان يعقـوب واسحق هناك، وعـدنا أخيراً إلى مـوضع مــوت هابيل في حقل دمشق، وخـرجنا مـن هناك من الجانب الغربي، عبر سـور من الحجارة الجافـة، ووصلنا من هناك إلى جـزء آخر من وادي حبرون، على طرف جبل، حيث وجـدنا كهفاً صغيراً ومظلماً، ودخلنا إلى هذا الكهف واحــداً تلو الآخــر، ونظرنا إلى المكان بمتعـــة عجيبة، فهذا كان هو الكهف الذي عرف فيه آدم حواء بعد طردهما من الجنة.

★★ ★★ ★★

وبعدما رأينا الكهف المتقدم ذكره، خرجنا من هناك، وسرنا مسافة أخرى على طرف الجبل، وسرنا بالوقت نفسه صاعدين، فوصلنا إلى كهف آخر، لم يكن كهفا صغيراً، بل كان كهفاً واسعاً، ففي هذا الكهف بكى آدم وحواء وناحا على ابنهما هابيل لمدة مائة سنة، وهابيل هو الذي قُتل من قبل قابيل، ومن الممكن في هذه الأيام رؤية آثار، حيث جلس كل واحد منهما، ويوجد في هذا الكهف نفسه نبع كانا منه يشربان، ولهذا يعرف هذا الكهف باسم كهف البكاء، وبعدما فرغنا من رؤية هذا الكهف، نزلنا من الجبل إلى واد ضيق، وهو الذي يسمونه وادي الدموع، وهم يقولون بأن آدم وحواء قد سكنا معا في هذا الوادي لمدة تسعمائة وثلاثين سنة، وكان كل واحد منهما يقوم يومياً بممارسة أعمال توبة قاسية، بسبب عدم الطاعة التي أُدينا بها، ولطردهما من الجنة، ولفقدانهما طهارتهما الأصيلة، وللعنة ذريتهما، وبعد ذلك لم يحصلا فقط على رحمة الرب، بل اعتقد أنهما جديران بتلقي هبة النبوة، ولذلك أخبرا أولادهما بكثير من الأمور المقبلة، مما يتعلق بموضوع اتحاد المسيح مع كنيسته، وبخصوص الطوفان الذي سوف يأتي، ونيران يوم الحساب، وقد ماتا هنا، ومن هنا حملا إلى الكهف المزدوج، كما سنوضح فيما بعد، وفي هذا الوادي يقوم قبر لوط[ابن] أخي ابراهيم.

الكهف المزدوج الذي اشتراه ابراهيم ليكون قبراً له ولأسرته

ومن وادي الدموع هذا وصلنا ثانية إلى مدينة حبرون، ووقفنا أمام بيت حاكم المدينة، الذي على مقربة منه جلس عدد كبير من المستشارين من الشيوخ المسلمين، فلقد رغبنا بزيارة ورؤية الكهف المزدوج المجيد، وهو الذي فيه مدفون آدم وحواء، وابراهيم، وساره، واسحق، ورفقه، ويعقوب وليه، أي البطارقة الأربعة الأعظم قداسة مع زوجاتهم المباركات، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين:٢٣، وكنا نعرف بشكل

جيـــد أننا لن نستطيـع الوصـــول إلى الكهف المقـــدس، إلاّ إذا وافق المسلمـون على ذلك، وهم لايعطون موافقتهم بسهـولة لهذه الزيارة، إلاّ إذا أمكن نيل رضـاهم بالتـوسـلات والوسـاطات، أو بالهدايا، لأن هذا الكهف موجود داخل مسجد، لايسمحـون لنا بالدخول إليه، وقد بعثنا ترجمانا، الرئيس كـالينـوس، مع بعض الحجـاج من النبـلاء، إلى الحاكم وإلى الســادة المسلمين الذين كـــانـوا بحضرته، وسألوهـم السماح لنا بالدخـول إلى الكهف المقـدس، وأعلنوا أننـا بالمقـابل على استعـداد عن طواعيـة القيـام بأي عمل يرضيهم ويـأمـروننا بعمله، وعندمـا تقـدم كالينوسنا بهذ الالتماس، سـألوه هل سمحوا لنا في القدس بـالدخول إلى هيكل الرب، الذي يسمـونه هيكل سليمان، وعندما أجـابهم«لا» قالوا:« ونحن أيضـاً لن نغـامـر بالسماح لهم بالدخـول إلى مسجـدنا، الذي هو برأي المسلمين، ليس أدنى قـداسة مـن مسجد القـدس، لابل أعلى منه، وعلى كل حـال إذا مارغبـوا بإبداء احترامهم نحـو البطارقـة في الكهف المزدوج، نحن نسمح لهم بالوصول حتى درجات سلم المسجد، والتعبد من هناك، إنما لايجوز لهم بأي حال من الأحـوال الصعود عليهم» وبناء عليـه عـاد كـالينوس إلينا، وجلب لنا هذا الجواب السلبي، واقتـادنا إلى درجات سلـم المسجد الذي فيه الكهف المزدوج، وتعبدنا باتجاه الكهـف، وقبلنا آثار البطارقة المقدسين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وعندمـا فرغنا من عملنا هـذا، حملنا أنفسنا حتى نتأمل المكان، الذي كـان معروفـاً في أيام ابراهيم بـأن مدينة حبرون كـانت فيـه، لأن المدينة وقتـذاك لم تكن في مكانها الحالي، بل على مقـربـة منه، فقـد كـان المكان الحالي حديقـة، منها جرى اقتطاع صخـرة حمراء حوت الكهف المزدوج، وكـــان ابراهيم قــد اشترى هذا المكان مع الصخـــرة، ليكون ضريحاً له شخصياً ولأولاده، وإذا رغبت في معرفـة المعني بكهف منفرد، وبكهف مـزدوج وبكهف ثلاثي، يمكنك رؤية ذلك فيما تقـدم في القسم الأول،

ولاسيما لدى وصف ضريح الرب في القدس.

وحدث أنه بعدما جرى دفن البطارقة الأربعة مع زوجاتهم في هذا الكهف، بدأ الناس يترددون على المكان، وشرعوا يبنون لأنفسهم بيوتاً من حوله، بدافع التبجيل للمكان نفسه، ولاحترامهم للبطارقة المقدسين، وهكذا تشكلت مع الأيام مدينة هناك، وهجرت حبرون القديمة، وكان ذلك قبل أيام الملك داوود، وقد حكم داوود لمدة سبع سنوات في حبرون الحديثة، علاوة على ذلك بنى اليهود مصلى فوق صخرة الكهف، وقد دمر المسيحيون فيما بعد مصلى اليهود هذا، وبنوا كنيسة كبيرة فوقه، وقد عينوا فيها أسقفاً وكهنة، وبعد ضياع الأرض المقدسة، عمل المسلمون من الكنيسة مسجداً، وأحاطوه بأسوار عالية وبأبراج، وهو قائم في هذه الأيام في وسط المدينة، مثل قلعة حصينة، وهو بالحقيقة لايبدو شكله شكل كنيسة، بل شكل قلعة أو قصر عظيم، وأخبرنا المسلمون بأن ذلك المسجد مليء بالمصابيح المضاءة، وكذلك هناك مصابيح في الكهف المزدوج، موضوعة داخل آنية ذهبية، وهي معلقة بحبال من حرير، أو بسلاسل من فضة، ويوجد كثير من رجال الدين في هذا المسجد من كل من ا لـ Saquis (الصوفية؟) والـ Al-hages(الفقهاء؟) وبذلك مامن ساعة تمر في النهار أو في الليل من دون قراءة وإنشاد بجانب الكهف المزدوج، ذلك أنهم يتناوبون أحدهم مع الآخر، وعندما كنا واقفين على هذه الصورة على درجات سلم المسجد، تجمع كثير من الناس من شباب وشيوخ للنظر إلينا.

مشفى حبرون، وبركة حبرون، والأماكن الأخرى

وبعدما فرغنا من مشاهدة المسجد، والكهف المزدوج، سرنا نازلين مسافة قصيرة، فوصلنا إلى باب المشفى المخصص للناس الفقراء، وهو موجود تحت المسجد، ودخلنا إليه، فشاهدنا مكاتبه الجميلة، وفي مطبخه وفرنه كانت هناك استعدادات عظيمة معمولة لصالح الحجاج المسلمين،

الذين يزورون بأعـداد كبيرة كل يوم الكهف المزدوج، وقبور البطارقـة، ولهذا المشفى ميزانيـات سنوية تصل إلى مايزيد على أربعـة وعشرين ألفاً من الدوقيـات، ففي كل يوم يخبـز فيـه ألف ومـائتي رغيف من الخبـز، ويعطى هذا الخبـز إلى كل طالب، ولاترفض الرعـاية والضيـافـة إلى أي حاج، من أي دولة كان، أو شعب، أو عقيدة، أو طائفة، وكل من يسأل طعـامـاً يتسلم رغيفـاً من الخبـز، وبعض الزيـت، وبعض الـ Me-nestrum، الذي نسميه معجنات.

وتدفع قلعة النبي صموئيل [الجيـب الأعلى] لوحدها ألفي دوقية في السنة إلى هذا المشفى، ويرسل أغنياء المسلمون والأتراك يوميا الصدقات إليه لدعم الحجاج، ولابداء الاحترام نحو البطارقة، كذلك عندما يكون أغنيـاء الناس على وشك الموت، يوصـون بـأشيـاء تذكـارية دائمـة عن أنفسهم لهذا المكان، ويتركـون أعطيات إلى المشفـى، وعند حلول ساعـة صرف الصـدقات، يصـدرون صوتاً مخيفـاً بالطبل، حيث خفنا منه لدى سماع صوته، وخشينا أن ذلك الصراخ معناه شيء ما ضد أنفسنا، وأثناء توزيعهم لأرغفة الخبـز، أرسلوا لنا سلة مليئة إلى نزلنا، مع أننا لم نطلب منهم شيئاً مطلقاً.

وبعـدمـا فـرغنا من رؤية المشفـى، نزلنا وسرنا على طول الشـارع الطويل، إلى أول أبواب المدينة، وتحت هـذا البـاب يوجـد المكان، الذي قتل فيـه يوآب— قائد جيـش داوود— أبنير قائد جيـش شاؤول، ولهذا السبب تـولى داوود لعن يـوآب(صمـوئيل الثـاني:٣/ ٢٩) وسرنا متجاوزين البـاب، ووصلنا إلى البركة، المحاطـة بسور جميل، وهي التي تتلقى الماء الـذي يجري في وادي ممرا، وسرنـا حـول هذه البركـة، وشـاهدنـاها بعناية، لأن ذكـرها قـد ورد في الكتـابات المقـدسـة القانونية(صموئيل الثاني:٤/ ١٢)، فعندما قام القاتلان: بعنه وركاب ابنا رمون البئيروتي، بقتل إيشبوشث، ملك إسرائيل، وجلبا رأسه إلى داوود

في حبرون، وفي ظنهما، أنهما كانا يحملان إليه بشائر طيبة، أمر داوود باعدامهما، وبتعليق أيديهما وأقدامهما فوق البركة، أي فوق بركة حبرون، ويوجد بين البركة وسور المدينة ضريح أبنير، الذي احتفل داوود بجنازته بشكل مهيب، حسبما قرأنا في سفر صموئيل الثاني:٣، وفي هذا الضريح جرى دفن رأس إيشبوشث بن شاؤول، ملك اسرائيل، كما وصلنا الخبر في سفر صموئيل الثاني:٣.

وبعد ماشاهدنا هذه الأماكن، عاودنا الدخول إلى المدينة، وتوجهنا إلى نزلنا، وقد شرينا بعض الحطب للنار، وأوقدنا ناراً، وطبخنا بعض المعجنات والبيض وأكلناهم، وبعد العشاء جاء المشرف العام على النزل، وأطفأ نارنا، وطلب منا بالاشارة أن نكون هادئين وصامتين خلال الليل، وذلك خشية أن يسمع بنا اللصوص من البداة العرب، لأن النزل قائم إلى جانب سور المدينة، وفي بعض الأحيان، عندما يعرفون بوجود ضيوف هناك فيه، يتسلق اللصوص فوق السور إليهم، وأضاء مصباحاً معلقاً إلى جانبه، وجلس أرضاً ليتولى السهر والحراسة إلى جانب الباب، وكنا نحو هذا كله ممتنين كثيراً، واندهشنا من لطف المسلمين نحونا، ومع ذلك خشينا أننا قبل أن نغادر المدينة سوف يجعلوننا ندفع مبلغاً كبيراً، مقابل اللطف الذي أبدوه نحونا، وهكذا بما أن الدنيا كانت قد أظلمت تمددنا للنوم، كل واحد في قلايته مثل الرهبان.

وصف مدينة حبرون وكيف أنها كانت مسكونة منذ أقدم العصور

حبرون أو Erius مدينة قديمة جداً، وقد تأسست مباشرة بعد الفيضان، وسبع سنوات قبل مدينة تنيس(صوعن) (العدد:١٣/ ٢٢)، وكانت مدينة تنيس هذه قد تأسست من قبل تيتانس Titans—وهم

عمالقة— نزلوا من حبرون إلى مصر، وكانوا أبناء تيتان، وكان تيتان هذا هو ابن كولوم Coelumوفستا Vesta، أخو ساتورن، وقد قاتل أولاده ضد جوبيتر، وحاولوا طرد الآلهة من السماء، لكنهم ضربوا بصاعقة، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين(؟)، وسببوا الاضطراب في جميع أنحاء العالم تقريباً، وذلك حسبما ورد في أغاني الشعراء، وعلى هذا كانت تنيس مدينة قديمة للعمالقة في مصر، وقد بنيت من قبل عمالقة قدموا من حبرون، ولحبرون أربعة أسماء: أولها جميعا؛ أنها دعيت أربعة (التكوين:١٣) اشتقاقاً من اسم الأربعة المؤسسين الأوائل لها، وثانيا عرفت باسم « قرية أربعه»[يشوع:١٤/١٥]، وهو الاسم نفسه« مدينة أربعة» أو« مدينة الأربعة»، لأن معنى كلمة« قرية» هو« مدينة» و Arba هو « أربعة»، وكان اسم حبرون معروفاً في العصور القديمة من قبل جميع الناس سواء من المؤمنين أو غير المؤمنين، وعرفت باسم« قرية أربعة» أي« مدينة الأربعة» لأسباب مختلفة، فقد كان الكفار سموها هكذا، بسبب العماليق الأربعة الذين دفنوا هناك وهم: عناق، وأخيمان، وشيشاي، وتلماي(العدد:١٣)، لكن المؤمنون دعوها بهذا الإسم بسبب البطارقة الأربعة: آدم، وابراهيم، واسحق، ويعقوب، الذين دفنوا هناك مع زوجاتهم الأربع، وثالثاً عرفت باسم حبرون، نسبة إلى ابن كالب، ورابعاً: إنها تعرف باسم أربعة [اقرأ الخليل] في هذه الأيام من قبل المسلمين، بسبب ابراهيم الذي دفن هناك، وسماها أيضاً مصنف Speculum Historiale «الابراهيمية» وكذلك«سرّه»، كما أنها غالبا ماعرفت باسم Ericus.

وذكر هذه المدينة جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، حيث قال بأنها كانت فيما مضى المدينة الرئيسية لدى الفلسطينيين، ومكان اقامة للعمالقة، وملوك سبط يهوذا، ومدينة كهنة، ومدينة إلتجاء، وهي تبعد عن القدس حوالي أربعة وعشرين ميلاً، باتجاه الجنوب، هذا

بالنسبة للقديس جيروم، وكانت هذه المدينة— أي المدينة التحتا— قد استولى عليها يشوع، الذي شنق ملكها هوهام(يشوع:١٠)، لكن الجزء الأعلى من المدينة جرى الاستيلاء عليه فيما بعد من قبل كالب، الذي قتل أشجع عماليقها، كما قرأنا في يشوع: ١٢، وفي القضاة:١/ ١٠.

وكان بسبب كالب أن استمر تذمر الناس، في القفار، ضد الرب، ولأنه اتبع الرب، وقدم برهانا على جودة الأرض المقدسة، انه بسبب ذلك قدم الآخرون تقريراً شريراً، بأن الرب قد وعده بجبل حبرون كحصة رئيسية في جميع البلاد(العدد:١٣—١٤، يشوع:١٤)، فضلاً عن هذا، قال نيقولادي ليرا بأنه عندما جرى ارسال الجواسيس من قبل موسى، ووصلوا إلى البلاد، كالب وحده صعد الى حبرون، الى الكهف المزدوج، وأدى بعض الصلوت أمام البطارقة المقدسين، وبذلك بات جديراً، لأن يكون متملكاً لهذا المكان المقدس.

وموقع هذه المدينة قائم جزئياً على سفح رابية، وجزئياً في وادي، وهي ليست كبيرة جداً، لكنها مكتظة بالسكان وحصينة، وقد عملت مدينة بعد الطوفان مباشرة، مع أنه قبل الفيضان كان هناك سكان من البشر، انما من دون مدينة، فقد سكن هناك أبناء آدم، ومن هناك توزعوا وتفرقوا في جميع أرجاء الدنيا، وعلى ذلك ارتحل قابيل، بعد قتله لأخيه، إلى الهند، مع زوجاته وأولاده، فراراً من وجه الرب.

علاوة على ذلك، ينبغي أن نعرف بأن هذه المدينة قد ورد الحديث عنها، والاشارة اليها بأسماء أخرى اضافية للأسماء التي تقدم ذكرها، فهي في بعض الأحيان عرفت باسم Arba أي أربعة، بسبب العماليق الأربعة الذين دفنوا فيها، وجاء اسمها مصحفا Arbeth ، كما قال جيروم في رسالته إلى بماخوس De optimo genere Interpertandi ، وورد ذكرها أحيانا باسم« قرية أربعة» أي« مدينة أربعة»، وذلك بسبب البطارقة الأربعة الذين دفنوا هناك، كما عرفت

أحيـانا باسم«ممـرا» بسبب« وادي ممرا» المتصل بالمدينة، وبسبب بلوطة ابراهيم في ممرا، التي كـانت مـوجودة ومـرئيـة حتى أيام طفولة المبـارك جيروم، وذلك كما أخبرنا جيروم نفسـه في كتـابه« حول المسـافـات بين الأماكن»، وإلى أيام الامبراطور قسطنطين كان يشـاهد هناك شجرة بطم معمّـرة جداً، حيث أن حجمهـا يبرهن على سنينهـا الطويلة، وهي التي سكن ابراهيم تحتهـا، وتحتهـا احتفى بكرم بـالملائكة، وآبدتها من الممكن رؤيتهـا في هذه الأيام، وقـال القـديس جيروم:« ان المكان الذي تقـوم الشجـرة فيـه متعبـد بشكل مـدهش وهائل من قبل جميع الأسبـاط من حوله، وينظر إليه— كما هو بالفعل— بأنه قد تقدس باسم مجيد.

وبالمناسبـة ، ان اسم ممرا، كـان الاسم الاصيل للمكان، وقـد اطلقـه عليه آدم، لأن معنى كلمـة ممرا بالعبرية«وضوح»، فلقـد ذكرنا من قبل، أنه في هذا المكان تلقى آدم المعـرفـة بكل الأشيـاء ورأى الأشيـاء كلهـا بوضـوح، وعرف هذا المكان أحيـانا باسم Chebronالذي يعني«عبر»، بسبب أنه من هذا المكـان عبر آدم إلى الجنة، وفي بعض الأحيـان عـرف أحيانا باسم«عبرون» الذي معناه«معبر»أو« تراجع» لأنهما تراجعا إلى هنا وعادا بعد الذنب الأول، كما أنه عرف أحيانا باسم حبرون، أي«الوادي الفقير»، بسبب المآسي التي تحملهـا آدم في هذا المكان، وخسارته للحيـاة الأبدية.

وفي اليـوم الثـامن والعشرين، الذي كـان يوم عيـد أبانا المبـارك أوغسطين، نهضت مستيقظاً بعـد منتصف الليـل، وذلك حسب عـادتي، أي قبل البقيـة لأداء صلواتي، ونزلت نحـو الباب لاشعـال شمعتي من المصبـاح المعلق هناك، غير أن المسلـم الحارس عند البـاب، أوقفني، وطردني من قـرب المصبـاح مع صرخـات عـاليـة، ومـن جهتي أنا، لقـداقتربت من المصبـاح لأشعل الشمعـة، كما كنت غـالبـاً أفعل، لكنه أطفأها، وصدر عنا معاً كثيراً من الصراخ، جعل الترجمان يستيقظ ويأتي

إلينا، وقد تولى لومي بالايطالية لأنني لم أحافظ على الهدوء والسكينة، وسألني ماالذي أريده بالشمعة في مثل هذا الوقت المبكر، فقلت له:« انني أرغب في حمد الرب، وأنوي قراءة شكره من كتاب»، وعندما سمع المسلم بهذا، طلب من الحارس اشعال شمعتي، وقد فعل ذلك، هذا وأنا متأكد من أنني لو سألته اشعالها لمقصد آخر، مهما كان نوعه، لما كنت قادراً على الحصول على ذلك بأي شكل من الأشكال.

وهكذا بعدما حصلت على الاضاءة لشمعتي، صعدت إلى مكاني، وقرأت صلواتي، وماكدت أفرغ من صلواتي لما بعد منتصف الليل، حتى جاء الترجمان كالينوس، وصعد وتولى ايقاظ الحجاج الآخرين، حتى يقوموا بالاستعداد للمغادرة وبناء عليه حزمنا حقائبنا، وحملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، ومضينا خارجين من المدينة مع ضوء الفجر، ونزلنا إلى حقل هو الذي كان اسحق يسير فيه وهو مستغرق بالتفكير، فوصل وقتها دمشق، خادم ابراهيم، وجلب له زوجته رفقه الشابة(التكوين:٢٤).

وأثناء متابعة سيرنا، وصلنا إلى قرب دبير، وهي«مدينة أحرف كتابة»، وهي على كل حال لم نستطع رؤيتها، لوجود جبل بيننا وبينها، وحول هذا الجبل انظر يشوع:١٥، والقضاة:١.

وعرفت باسم«مدينة أحرف كتابة»، لأن فيها جرى اختراع الكنعانية للمرة الأولى، أو لأن العماليق القدماء كان لديهم نوعاً من أنواع مدارس الكتابة هناك، أو لأن سكانها كانوا كتّاباً كما قال صاحب Speculum Historiale ، أو كما يقول العبرانيون— عندما استولى عثنئيل عليها، اثناء البكاء على موسى، قام هناك بإعادة كتابة بعض الاصحاحات من كتاب الشريعة، التي كانت قد غدت باهتة وممسوحة، وعن هذه المدينة قال جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»: دبير موجودة في ديار سبط يهوذا، وتعرف باسم«مدينة أحرف كتابة»، وكان قد استولى

عليها عثنئيل، أخـو كالب، وهو الذي قتل العماليق الذين سكنوا هناك، وتلقى عكسة ابنة كالب، لتكون زوجة لـه وذلك بمثابة جائزة له، ومن الممكن حتى الآن أن نرى هنـاك أرض الينابيع العليـا والينابيع السفلى، التي أعطاها كـالب إلى ابنتـه عكسـة، عندمـا اشتكـت اليـه بأنه أعطاها أرضاً جافة وعطشى، كما قرأنا في سفر القضاة:١.

وتابعنا سيرنا، فتجـاوزنا«قـرية سفـر» أودبير، ومضينا على طريقنا في وادي حبرون، الذي من الممكـن أن يكون وادياً خصبـاً لو أنه جـرت زراعتـه، والذي هو محتفظ حتـى الآن على جـانبيـه بجـدران الأحجـار الجافـة للبسـاتين القديمـة، وقـد رأينا بين الأعشـاب بعض المخلوقـات البرية القـابلة للأكل، والحجل والدراج، وبعـدما قطعنـا مسافـة طويلة، وصلنا إلى مكان فيه وادي آخـر يقود من الشمال إلى الغـرب، وهذا كان وادي اشكول نيل، أي وادي عنقـود العنب، وكـان وادياً خصبـاً جـداً، منه أرسل مـوسى جواسيسـاً لاستطلاع البـلاد، وقد حملوا في عـودتهم عنقـوداً كبيراً من العنب، قـام بحمله رجـلان على عصـا، ومن الوادي جمعوا بعض الرمـان وفواكه أخرى، وأخـذوهم إلى بني اسرائيل في قفار ماوراء الأردن، وذلك كما قرأنا في سفر العدد ١٣.

وغـــادرنا هـذا الوداي، وتابعنا سيرنـا في وادي حبرون، عبر الطريق الذي عبر عليـه يوسف عندما أرسـل من قبل أبيه، يعقـوب من وادي حبرون، ليطلب أخـوته في شكيم(التكوين:٣٧)وعلى هذا الطريق نفسـه نزل أخوه يوسف إلى مصر لشراء قمح(التكوين:٤٢)، ومن المفترض أن عيسو اصطاد في الشعراء في هذا الوادي، لكثرة الحيوانات البرية هناك، وكان ذلك عندمـا بعث به أبوه اسحق حتى يجلب إلى البيت بعض لحم الطرائـــد، ويصنع منهـم لحومـاً محفـــوظـة،وبذلك ينال مبـــاركـــة أبيه(التكوين:٢٧). وسرنا لسـاعات كثيرة على طول الجانب الأيمن من الوادي، الذي كـان عميقـاً وضيقـاً، ووعـراً في قعـره، وكثير الحجـارة،

ومليئا بالأشجار البرية، وكان رطباً وفيه مياه، وهو أمرغير طبيعي في تلك البلاد.

وفي منتصف النهار خرجنا من المنطقة التلية، إلى السهول، واستدرنا هنا بأنفسنا باتجاه الجنوب، عند سفوح بعض الهضاب، ووصلنا إلى حقول خصبة جداً، وهي مليئة بأشجار الزيتون وأشجار التين، وقد رجونا الترجمان منحنا بعض الوقت حتى نجلس ونتناول وجبة تحت ظل هذه الأشجار، لكنه رفض، قائلاً بأن الجمال المحملة لايجوز إفراغ حمولتها لأجل هذا الغرض، كما لايمكنها الوقوف وأحمالها على ظهورها، كما لايمكنها الذهاب من دوننا، ولقد كان هذا صحيحاً، ولذلك مضينا متابعين السير على طريقنا، وأثناء ركوبنا لظهور حميرنا أكلنا وشربنا، مما وضعنا أيدينا عليه، وكل الذين يسافرون مع جمال محملة لابد أن يفعلوا هذا، لأن الجمال لايمكنها الوقوف تحت أحمالها، الأمر الذي سوف نشرحه بشكل أفضل، لدى حديثنا عن عبورنا للصحراء.

ومع وقت العشاء شرعنا نغادر بشكل تدريجي المنطقة التلية، ووصلنا إلى سهول فلسطينية واسعة جداً مقابل أشدود، وتمتد هذه السهول بشكل اعتراضي من المنطقة التلية حتى البحر المتوسط، وهي مسافة ثلاثة أميال ألمانية، كما أنها بعيدة عن يافا وجبل عفريم نزولاً حتى منطقة جيرار Gerar في بئر السبع، ويوجد في هذا السهل كثيراً من المدن، إنما بشكل خاص خمسة منها، التي هي مدن ملكية ورئيسية لدى الفلسطينيين وهي: جت، وعقرون، وأشدود، وعسقلان ،وغزة، وكان قد سكن في هذه المدن خمسة من أقطاب الفلسطينيين(صموئيل الأول:٦/ ١٨)، وهذه المدن كلها قائمة على شاطىء البحر، وليست بعيدة عن البحر.

وكانت جت مدينة قديمة وحصينة من مدن العماليق، لم يستطع

يشـوع ذلك المقـاتـل العظيم الاستيـلاء عليهـا كما هو وارد في سفـر يشـوع:١١، وكـان جـالوت الذي قتله داوود مـن جت(صمـوئيل الأول:١٧) وفي صموئيل الثاني:٢١ هناك خبر عن رجل من جت، كان قوي البنيـة، كان له أربع وعشرون اصبعاً وأظافر، وهناك أشيـاء أخرى كثيرة عن جت وردت أخبارها في الكتابات المقدسة.

وذكـرت أسـاطير القديس كـريستـوفـر بأنه كـان من جت، وفي هذه الأيام يقـال بأن الرجال الذيـن يلدون هناك أقوى ومقـاتلين أفضل من الآخرين، وهي مدمرة منذ زمن طـويل، وباقية الآن بمثابة قرية صغيرة، واسمهـا في هذه الأيام جبرين، وهي قـائمة ليس بعيـداً عن يافـا، وعن الطريق إلى ذلك الميـناء، وإذا مـاسـار الانسـان نازلاً على طـول سـاحل البحر الكبير، من جت، مسافة ميلين ألمانيين، يصل إلى مدينة أخرى من مدن الفلسطينيين، اسمها عقرون وقد كانت فيها مضى مدينة عظيمة من مدن الفلسطينيين، وقـد كان فيها هيكـل كبير لبعل أو بعل زبوب، وقد عرف باسم رب عقـرون، ولهذا فإن احزيا ملك اسرائيل، عنـدما سقط من كوة عليته، أرسل يسأل بعل زبوب وقـد عرف باسم رب عقرون[الملوك الثاني:١]، ولام أيضاً اليهود الرب يسوع بأنه عمل اتفاقا مع هذا الشيطان نفســـه، وقـــالوا:« ببعلـز بوب رئيس الشيـــاطين يُخرج الشيـاطين»[لـوقـا:١١/ ١٥]، وقـد أعطيـت هذه المدينة إلى سبط يهوذا، لكن أفـراد السبط لم يتمكنوا قط من السيطرة عليها، لأنهم لم يستطيعـوا غلبة العماليق الذين سكنوا فيها.

وإذا مـاتابع الانسـان نازلا على طول سـاحل البحـر، فـانه يصل إلى أشـدود،التي كانت المدينة الثـالثـة للفلسطينيين، وكان يشـوع قد عينهـا لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يتمكنوا قط من الاستيلاء عليها، لأنهم لم يستطيعـوا طـرد سكانها الأصليين منهـا، وكـان في هذه المدينة هيكلاً كبيراً لداجون، إليه جلب الفلسطينيـون تابوه رب اسرائيل عندما

استولوا عليه، ولذلك سقط صنم داجون، وأصيب الناس بطاعون عظيم(صموئيل الأول:٥).

ويتابع الانسان سيره فيصل إلى المدينة الرابعة للفلسطينيين، التي هي عسقلان، والتي عنها قال جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»:« عسقلان مدينة جليلة للفلسطينيين، وهي كانت في القديم واحدة من المدن الرئيسية لدى الفلسطينيين، وعينت حصة لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يستطيعوا السيطرة عليها، لأنهم عجزوا عن غلبة سكانها»، وكانت هذه المدينة حصينة جداً في العصور الحديثة، لأن صلاح الدين، سوط العذاب المسلط على الصليبيين، والمحارب العظيم جداً، قدم إلى عسقلان لحصارها مع جيش عظيم، لكنه لم يستطع فعل شيء ضدها، مع أنه كان قد هزم الصليبيين في كل مكان، وطردهم من الأماكن التي كانت بأيديهم، وأسرغي ملك القدس، مع مقدم الداوية، وجميع النبلاء، ولذلك رفع الحصار عنها، وذهب إلى مدينة القدس المقدسة، واستولى عليها، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وبعدما استولى على القدس، عاد ثانية، وحاصر عسقلان ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، إلاّ على شرط إخلاء سبيل ملك القدس، ومقدم الداوية وجميع النبلاء، وكانوا على هذه الشروط مستعدين لتسليم المدينة، ووعد صلاح الدين بالقبول بهذه الشروط، ونفذ وعده، وحصل على عسقلان.

ولدى متابعة الانسان سيره نازلاً على طول شاطىء البحر، يصل إلى المدينة الخامسة للفلسطينيين، التي اسمها غزة أو غزرة، ولقد كنا نحو هذه المدينة مسرعين عبر هذا الطريق، مخلفين المدن الأربع المتقدم ذكرها على يميننا، وغزة هي المدينة التي سوف أتولى وصفها فيما يلي، ويوجد تحت سلطة هذه الحواضر الخمسة في بلاد الفلسطينيين هذه، مدن كثيرة، وهكذا تابعنا سفرنا عبر المنطقة السهلية لفلسطين، ونحن متجهون نحو الجنوب، وجبال اليهودية على يسارنا، والبحر المتوسط على طرفنا

اليمين، وتابعنا السفر طوال اليوم في حرارة الشمس حتى غيابها، وعند الغياب وصلنا إلى قرية اسمها زخاريا، وقد دخلنا إلى نزل قام خارج القرية، وقمنا هنا بانزال الأثقال عن ظهور دوابنا وعملنا مايلزم من اعدادات لإمضاء الليل هناك فيه، وكان نزلاً واسعاً، يشبه قلعة،فيه اسطبلات كثيرة، وقاعات، وهو مسور من جميع الجهات، ولم نجد أي انسان فيه، وبعدما وضعنا دوابنا في الاسطبلات، ورتبنا اغراضنا، شرعنا بالإعداد لعشائنا، ولكي نجمع حطباً للنار سعينا نبحث في الحقول واقتلعنا عصياً من أسيجة الحقول والبساتين، ولذلك قام أهل المنطقة من المسلمين بالركض نحونا ورمونا بالحجارة، وطاردونا حتى النزل، هذا وقدم إلى هناك بعض من أهل المنطقة، وجلبوا معهم دجاجاً وطيوراً، وخبزاً وماء، وقد اشترينا ذلك، وذبحنا الطيور، وتوفر لدينا عشاءً جيداً وبهيجاً، وبعد العشاء أغلقنا أبواب النزل بدحرجة حجارة كبيرة إلى هناك، ووضعنا حارساً على السور، خشية من حدوث طارىء في الليل، ذلك أننا خفنا من وصول فئة أخرى إلى هناك، تكون أقوى منا، وتقوم بإخراجنا من الخان، لأن العادة في تلك البلاد: تقوم الفئة الأقوى بطرد الفئة الأضعف من الخان، ولذلك أعددنا أنفسنا للدفاع، وحملنا كثيراً من الحجارة إلى السور لنقاوم كل من يحاول التدخل بشؤوننا.

وكان هناك مسجد جميل ملاصق لخاننا، وكان بامكاننا رؤية مافيه من خلال الفتحات في السقف، وفي الحقيقة قام واحد من الحجاج أثناء الليل بتلويثه من خلال إحدى هذه الفتحات، فعرضنا بذلك إلى خطر عظيم، غير أننا غادرنا قبل أن يأتي أي انسان الى المسجد، وإلى جواره كان هناك بركة عميقة جداً، نضحنا منها بعد صعوبات جمة ماءً جيداً، والبرك ثمينة جداً في هذه المناطق، والماء قليل جداً، وعلى هذا قرأنا بأن البطاركة: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، حفروا كثيراً من الآبار، وقد

نشبت نزاعـــات بين الملوك حـــول الآبار(التكويـن:٢٦)، وعند حلول ا الظلام مددنا أنفسنا، وأخذنا بالنوم فـوق ذروة السور المحيط، تحت قبة الـ سماء، لأن الغرف كانت قذرة.

صقلغ بلدة داوود وأماكن أخرى

واستيقظنا عند الفجـر في اليـوم التـاسع والعشريـن، وحمّلنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، وانطلقنا عبر منطقة مستـوية وجرداء، حيث رأينا كثيراً من القرى مع خرائب مدن قديمة، وعند الظهيرة وصلنا إلى منطقة متـلأت بالجبـال وبالروابي الصغيرة، بينهـا انتصب جبل كـان عـاليـاً، مرتفعـاً أكثر من البقيـة، وهو جبل مناسب جـداً لإقامة قلعـة وحصن به، وعلى هذا قـال تبلاؤنا: لو أن هناك رجال حـرب في هذه المنطقة، انوا ليتركوا هذا الجبل من دون إقـامة قلعة، وعندما وصلنا إلى سفح الجبل، ونظرنا إليـه نحو الأعلى، بدا لنا وجـود أحجار على السفح أحجـار أسـوار مخربة، وبناء عليـه قمـت أنا وبعض من الآخـرين ميرنا بالأسفـل، وبادرنا مسرعين فتسلقنا حتى قمـــة هذا الجبل، جدنا بقايـا وخرائب أسوار قوية، ليست أسوار قلعـة، بل مدينة ذلك أنه بالحقيقـة قـامت مـدينة صقلغ فيما مضى هناك، وهي لسطينيين أعطاها أخيش ملك جت إلى داوود، عندما كان فاراً ـاؤول(صموئيل الأول:٢٧)، هذا وهناك المزيـد من الأخبار في(صمـــوئيل الأول:٣٠) ولدى جيروم في كتـابـه«حـــول بين الأمـاكـن» حيث قـال عن هذا المكـان بأن صقلغ في إلى الجنوب من حصـة يهوذا وشمعون، التي هي مـوجودة

فـــوق ذلك الجبل، ونظـرنا بالطول وبـالعـرض، عبر 'بحـر الكبير، وباتجاه جبال حبرون، وأيضـاً باتجاه جبل ك باتجاه الصحـــراء المصرية، والجهـــات الأربع من

السموات، ولدى فراغنا من رؤية هذه المشاهد، غادرنا صقلغ، وتوجهنا نازلين نؤم غزة، وقد رأينا عن بعد كبير، جماعة من الجمال والحمير قادمة نحـونا، وقـد ارتعبنا كثيراً ظانين بأنهم بداة عـرب أو مـدينيين، ولذلك أحضر أدلاؤنا قسيهم، وأعـدّ الحجـاج النبـلاء سيـوفهم، لكن عندمـا واجهـونا تجاوزونا مسرعين وبسـلام كامـل، ولم يحركوا اصبعـاً ضـدنا، فلقـد كـانوا مصريين راغبين بالذهـاب إلى القـدس للصـلاة بالأقصى حسب عادة المسلمين.

وحوالي المسـاء اقتربنا من غزة أو غزرة، لكـن لم نفكر بدخول المدينة بشكل مكشوف، خشيـة أن نتعرض للمضايقات وقيـام أطفال المسلمين برمي الحجـارة علينا، وتكسير جرار خمرتنا، ولذلك سرنا بشكل جـانبي بعيـداً عن الشارع العـام، في حقل مليء بأشجار التين، وتحت الأشجـار هذه أنزلنا أثقـالنا من على ظهـور دوابنا عـازمين على البقـاء هناك حتى انتهـاء النهـار، وجلسنا في هذا الحقل وأكلنا وشربنـا الأشيـاء الحاضرة لدينا، ذلك أننا لم نتجـرأ على اشعـال نار لطبخ أي شيء سـاخن، فلقـد أكلنا خبزاً وجبنا، وقطفنـا تينا من الأشجار، حيث كانـت هناك كميات وافـرة، ولقـد أكلت من ذلك التين كثيراً جـداً، ولم أهتم مطلقـاً بالذي كنت أفعله، لأنني بعـدما أكلت التين، تورمت شفتاي بشكـل مفاجىء، وصـار حـول فمي حبوب مقيتـة مثل المصـاب بالجذام، ولذلك لم يعـد بامكاني فتح فمي لتناول مـااحتاجه من الطعـام والشراب وبقيت هكذا لأيام عديدة أعاني من ذلك كثيراً، وأخبرني بعض الناس المتعلمين، أنني من خلال أكلي كثيراً من التين، أدخلت إلى جوفي مواد وعصارة الحمى، وهذه ظهـرت على شفتي، ولولا أنها فعلـت ذلك، لعـانيت من هجـوم حمى حادة، والذي أعتقده أنني أكلت تينة مسممة من قبل إحدى الهوام أوالزواحف.

وعندمـا غـابت الشمس أعـدنا تحميل جمالنـا وحميرنا، وانطلقنا نريد

غزة، ودخلنا المدينة والظلام قد انتشر، وسرنا عبر طريق طويل إلى خان الحجاج، وعندما وصلنا إليه، لم نستطع أن نتحرك بسبب ضيق المكان، وكان من غير الممكن لهذا المكان استيعابنا شخصيا من دون اثقالنا، ولذلك خرجنا منه مغضبين، وأخبرنا الترجمان أننا لايمكننا الإقامة في هذا المكان ولانريد ذلك بأي حال من الأحوال، وأنه إذا لم يوفر لنا مكانا أوسع للاقامة فيه، سوف نرفع شكوى ضده في بلاط حاكم غزة، لخرقه العهد ولعدم وفائه بما التزم به في البند الخامس من الاتفاق المعقود بيننا وبينه، والذين كنا قد ذكرناه من قبل.

وعندما سمع هذا، تناقش معنا لبعض الوقت، ثم طلب منا انتظاره، وركب يبحث في المدينة هنا وهناك عن مكان لنا، وهكذا وقفنا لوقت طويل على هذه الحالة في الظلام، ونحن محشورين في طريق ضيق بين الحمير والجمال، وقد فقدنا صبرنا وكنا متخوفين من حدوث هجوم مفاجىء ضدنا، وجاء الترجمان أخيراً، واقتادنا عبر طريق طويل من ذلك البيت إلى مكان آخر، حيث لم يكن هناك في الحقيقة بيت، بل ساحة محاطة بجدار، ومن الممكن اغلاق الساحة بباب، لكنها كانت بلاسقف لننام تحته، وكان هناك على الطرف الأول غرفتان قذرتان جداً، ومليئتان بالغائط البشري، أما الساحة فكانت مبلطة ببلاط طيني، كان معداً من أجل شوي القرميد، وأشعلنا شموعنا هنا، وأنخنا جمالنا في الطريق، وأنزلنا الأثقال عن ظهورهم وعن ظهو الحمير، وأعطينا الدواب إلى أصحابها، وجلبنا في الوقت نفسه جميع أغراضنا إلى الساحة، وأخرجنا منها جميع سائقي الجمال مع سائقي الحمير، وأبقينا معنا الفحل فقط، أي كالينوس الأصغر، وأغلقنا الآن الباب بالمزاليج والأحجار، خشية التعرض لهجوم من قبل المسلمين، وبعدما قمنا بهذا، أوقدنا النار، وطبخنا بعض الفطائر حتى نتمكن من أكل أي شيء، أو بالحري أن نتملك طعاماً ساخنا مطهيا لأجوافنا، لأننا لم نتذوق شيئاً ساخنا طوال

ذلك اليوم، وفرغنا من تناول طعامنا بسرعة، ومددنا أنفسنا كي نرتاح داخل معلف طويل، بني من الحجارة والملاط على طول جدار الساحة، لكن الذين لم يجدوا متسعاً في المعلف، تمددوا في مكان آخر من الساحة، وهكذا نمنا تلك الليلة في الهواء الطلق، متعرضين لندى السماء.

كيف حصلنا على إذن من الحاكم للإقامة بغزة

واستيقظنا في اليوم الثلاثين عند شروق الشمس، وقبل أن نفتح باب الساحة، نقلنا أغراضنا كلها إلى قاعة صغيرة بائسة، وقسمنا الساحة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم إلى إحدى جماعاتنا الثلاث، وهي الجماعات التي تحدثت عن توزعها من قبل، وعلى هذا امتلكت كل فئة مكانها الخاص، وعملنا ستائر من ملابسنا وأقمشتنا لندفع عنا حرارة الشمس والندى في الليل، وذلك إلى أن أعطانا الترجمان الخيم التي كنا سوف نستخدمها أثناء عبور الصحراء، وقد نصبناها في الساحة وعشنا فيها، علاوة على ذلك اشترينا من المدينة الأشياء الأخرى التي كنا بحاجة إليها من أجل الأيام التي كنا سنقيمها هناك، لأننا عرفنا أنه متوجب علينا الاقامة هناك عدة أيام.

وبعدما أكلنا ذهبنا مع الترجمان إلى حاكم المدينة ورجوناه السماح لنا بالاقامة في غزة لبضعة أيام، ولأن نسير حول المدينة وفي داخلها لشراء ماسنحتاجه من أجل رحلتنا في القفار، ولكي نشاهد المدينة، ولندخل حماماتها الساخنة، وقد سمح لنا بالقيام بهذه الأشياء وبعملها، وتعامل بلطف زائد معنا، مع أنه لم يكن مسيحيا، وبعدما أنجزنا هذه الأعمال عدنا إلى ساحتنا مع الترجمان، ورجوناه أن لايدعنا نقيم طويلاً في تلك المدينة، وقد وعد أنه لن يدعنا نقيم وقتاً طويلاً.

خساسة الروم الأرثوذكس

وفي اليوم الحادي والثلاثين، الذي كان اليوم الأخير من شهر آب،

والذي كان أيضاً الأحـد الرابع عشر بعد التثليث، استيقظنا عند شروق الشمس، وأدينا صلواتنا المتأخـرة، وفكرنا في أي مكان يمكننا أن نسمع فيه قداس يوم الأحد، لأنه لم يكن هناك كنيسة لاتينية في تلك المدينة بل الذي توفر فقـط كنيسة للروم الأرثوذكس، قامت على مقـربة منا، وبناء عليه أخـذنا كأس قرباننا، وكتبنـا، وملابسنا الكهنوتيـة، وأغطية المذبح، وهذه الأشيـاء كنا قد جلبناها معنـا من القدس، وحملنا هذه الأغـراض جميعـاً معنا، وذهبنا إلى كنيسـة الـروم الأرثوذكس، عـازمين على إقـامـة قداس هناك، وبعثنا خلـف كهنة الكنيسة، ورجوناهم بتـواضع بالسماح لنا بالدخـول، وتعيين مذبح لنا، عليـه يمكن أن نقيم قداسـاً دينيا، لكن الروم الأرثوذكس الذيـن أثيرت الآن كـراهيتهم المتجـذرة، التي حملوها دومـا نحـو أبنـاء الكنيسـة اللاتينيـة، رفضـوا السماح لنـا بالدخـول إلى كنيستهم، ولم يهتمـوا بطلبنا أكثر مما لو أنه مقـدم من يهود، وأعلنوا أنهم لايرغبون بتدنيس كنيستهم، وتلويثها بقداساتنا.

وتحمل الحجـاج جميعـاً هذه الإهانات القـذرة بصبر رجل واحـد وبدهشة، ولـذلك عدنا ثانيـة إلى ساحتنا مع شيء من الإرباك، وبعـدما قلّبنا القضية وتفحصناها، عزونا هذا الصد الذي تلقيناه من الاغريق إلى فضل رباني، لم يأذن لنا بإقـامة قـداس في كنيسة منشقة وهـرطقية، حتى لانبدو أمـامهم وكأننا نشارك في القداس بشكل مضـاد لشرائع الكنيسة الكاثوليكيـة، حسبما هي موجـودة في الفتاوى البـابوية:٢٩/ ٩/ ٢، تحت عنوان«انشقاق» Siquidem، الخ، ذلك أن الروم الأرثوذكس هراطقة، لأنهم مصرين على انشقـاقهـم، ومن الممكن رؤية عقـائــدهم في القسم الثاني— الفصل:٣.

وبعدما عوملنا هكذا باستخفاف من قبل الروم الأرثوذكس، اخترعنا طريقة أخـرى من أجل إقامة قـداس ديني، حتى لانخسر أحدنا، حيث حملنا كومـة من الأحجار العادية، ووضعناها في زاوية سـاحتنا، وعمرنا

مذبحاً من دون ملاط، ووضعنا فوقه مذبحاً متحركاً، وغطيناه بمتدليات، وربطنا حبلاً من حوله، علقنا عليه زرابي وأقمشة، وبذلك عملنا نوعاً من أنواع البيع، وهنا بعد ذلك أشعلنا شموعاً، وأغلقنا باب الساحة، وأقمنا قداس أحدنا، بسلام، وهدوء، وخشوع، وخشية من أن يقوم أحد الناس بقرع الباب أثناء الوقت المهيب للقداس، مركزنا الفحل المسلم، أمام الباب، ليمنع الناس من القرع على الباب حتى انتهاء القداس، وهكذا أقمنا قداساً بدون معيقات في كل يوم، وكان المعيق الوحيد هو الزنابير، لأنه كانت هناك حفرة على شكل فتحة في الجدار قرب المذبح منها دخلت وخرجت أعداد كبيرة جداً من الزنابير من الحجم الكبير، وكانت تطن حول الكاهن المقيم للقداس، ولدى محاولتنا اغلاق الفتحة، هاجوا، وعملوا فتحات لأن الجدار كان معمولا من الطين، وكانوا يندفعون بقوة مرعبة أكثر، وبأعداد أعظم من ذي قبل، وجربنا طرائق عديدة لتدمير هذه المخلوقات، لكن تعذر علينا ذلك من دون هدم الجدار كله، هذا، ومع أنهم كانوا يطيرون حولنا باستمرار، مامن انسان قرص من قبلهم.

ولقد كان هناك ثلاثة كهنة هم: الأب باولوس من طائفة الفرنسيسكان، والمعلم جون، وكان رئيس شمامسه من ترانسيلفانيا، والراهب فيلكس، من طائفة الدومينيكان، وهكذا نظمنا الأمور فيما بيننا، بشكل أقمنا فيه قداساً في كل يوم، وبعد سماعنا للقداس، تناولنا طعام الافطار، وبعد طعام الافطار، زارنا حشد كبير من الشبان ومن الأطفال، وألصق واحد من الشباب المسلمين نفسه بواحد من الفرسان، أي من رفاقنا، ورجاه اعطاءه قارورته الفارغة، ووعده أنه سوف يعيدها إليه مليئة بالخمر، وأعطاه الفارس قارورته، وذهب الشاب وغادر وهي معه، وانتظرنا عودة الشاب بفارغ الصبر، لأننا نعرف أن المسلمين ليس لديهم خمرة، وذهب الشاب، وطلب الحصول على خمرة

من بعض الأماكن باسمنا، وحصل عليها، لكنه قام على الفور، بعد تسلمه للخمرة بتذوقها، فأغري بحلاوتها، فشرب القارورة كلها، وكانت تحتوي على سعة قدرين من قدور أولم، ولذلك بات مخموراً، وفقد عقله وصار مجنوناً، يركض في الطرقات وهو يصرخ ويرمي بالحجارة، وجرى ارسال عبيد الحاكم خلفه، ولحقوه وهو في حالة هياجه وثورته، ولدى رؤيته ذلك تصرف بعقل وهرب إلى ساحتنا، للحصول على مكان للالتجاء والحرية، لأنه كان هناك مرسوم من السلطان، أنه حيثما كان هناك حجاج من بلاد ماوراء البحر، مقيمين، هناك حيث أقاموا ملجأ أمين، أي أن تقول موضع للالتجاء، وكل من التجأ هناك لايمكن لأحد أخذه من هناك، وهكذا بقي ذلك الشاب معنا حتى تعافى من سكره، لكن حاكم المدينة أرسل إلينا وحظر علينا إعطاء أية خمرة لأي مسلم آخر، وأعلن، أنه إذا ماحدث مثل هذا الأمر ثانية، فلسوف يلقي بنا في السجن، وينتزع منا خمرتنا، لأن هذا الحاكم اعتقد بأننا عن عمد جعلنا ذلك الشاب يصبح مخموراً، مع أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولقد عدّت جريمة عظمى بينهم إذا ماظهر أي انسان بينهم علنا بين الناس وهو سكران من شرب الخمر، مثلما هي جريمة عظمى بيننا لدى اعتقال أي انسان والتشهير به، لأنه اعتقل وهو يزني، ولقد كانوا لدى تناول أحدهم لجرعة من الخمرة يصير سكراناً وهائجاً، فيصبون جام غضبهم أولاً على الذي أعطاه الشراب.

هنا نهاية الفصل الخامس.

هنا بداية الفصل السادس

وهو يغطي شهر أيلول، ويحتوي على أعمال الحجاج في ذلك الشهر، ووصف للأماكن المقدسة التي زارها الحجاج في أيام ذلك الشهر.

وعندما حلّ اليوم الأول من إيلول، سمعنا قداساً في مكاننا، وتناولنا طعامنا بعد ذلك مباشرة، وبعد تناولنا لطعامنا، استدعينا واحداً من المسلمين إلينا، ورجوناه أن يأخذنا إلى المكان الذي عمل فيه شمشوم الأعمال التي برهن فيها على قوته، وهي التي حدثنا عنها سفر القضاة، وأنه عملها في هذه المدينة، وهكذا سرنا عبر طريق طويل، ووصلنا في داخل المدينة إلى ميدان واسع، رأينا على جانبه خرائب بيت كبير أو قصر، وأكوام هائلة من جدران مهدمة، وهذه الخرائب من المعتقد أنها بقايا هيكل قديم جداً، هو هيكل داجون، وهو الذي هدمه شمشوم، بتحطيمه الأعمدة المتوسطة التي عليها اعتمد، وبذلك قتل نفسه مع سادة الفلسطينيين وكثير من الناس، وهذا مايمكن أن نقرأ عنه بشكل مسهب في سفر القضاة:١٦، ورأينا بين خرائب الجدران عمودين من الرخام، عظيمين جداً، ولونها رمادي، وهما من المفترض كانا يحملان البناء كله، وبتحطيم هذين العمودين تمكن شمشوم من تدمير البناء كله، وبذلك قتل أعداءه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، سرنا مسافة طويلة حتى وصلنا إلى بوابة المدينة، التي حمل مصراعي بابها شمشوم مع المزاليج والعوارض والأقفال، في منتصف الليل، ونقلهما إلى الرابية القائمة أمام المدينة، وبذلك نجا من أيدي أعدائه، الذين سجنوه في المدينة، وخرجنا من المدينة من خلال تلك البوابة، وتسلقنا الرابية المتقدمة الذكر، وذلك إلى المكان الذي حمل إليه شمشوم مصراعي باب غزة، وشاهدنا المكان، وجميع المنطقة من حوله، ورأينا هناك تمنة، التي كانت بلدة للفلسطينيين

منهــا اتخذ شمشـــوم زوجــة فلسطينيــة، وهناك فعـل أشيــاء كثيرة(القضــاة:١٤)، وشــاهدنا أيضــاً وادي ســورق، الذي فيـه زرعت تلك الكرمـة المختارة، التي عنهـا نقرأ في إشعيـا:١١، وفي هذا المكان سكنت دليلة الخائنة، وهـي التي غلبتـه، مـع أن مــامن إنســان كــان يمكنه غلبته(القضاة:١٦)، ورأينا أيضاً سهولاً واسعة، وحقولاً وسفوحاً جميلة جداً، فيها ينمو القمح، والكرمة، وفي حقول القمح هذه أرسل شمشوم ثلاثمائة ثعلب، مربوط إلى أذنابهم حزماً مشتعلة، وأحرق القمح، وكروم العنب، وأشجـار التين، ورأينا أيضاً خلفنا جبـال بني اسرائيل، وأمـامنا البحر المتوسط، وبعدما فرغنا من مشاهدة هذه الأشياء كلها، نزلنا ثانية، وعاودنا الدخول إلى المدينة من خلال البوابة المتقدمة الذكر.

وليس بعيداً عن تلك البوابة هناك مسجد اسلامي، فوق البقعة، التي كان عليهـا في أيام شمشوم خـاناً للغرباء، كانت صـاحبته عـاهرة، وقد ذهب شمشوم إليها ونام هناك، وقـام الفلسطينيون في تلك الليلة نفسها بإغلاق أبواب المدينـة، قاصدين اعتقـال شمشوم في اليـوم التالي وقتله، لكنه استيقظ في منتصـف الليل، وحمل مصــاريع الأبـواب، كما قلنا من قبل، وبعدمـا زرنا هذه الأماكن ورأينا هذه الأشياء، عـدنا إلى موضعنا، حيث جلسنا مع بعضنا، وبحـزن تحدثنا حول المأسـاة المحزنة لشمشـوم بعد نجاحاته المدهشة.

★★ ★★ ★★

حمام ساخن جيد فيه استحم الحجاج بسرور مع المسلمين

وفي اليـوم الثاني، أرسلنا بعـد القداس، خلف ترجماننا، ورجـوناه أن يقتـادنا إلى القفار، إلى نقطة حـددناها له، ووعـدنا بأنه سـوف ننطلق في اليـوم التـالي، وقـد سررنا تجاه هذا الـوعـد سروراً عظيماً، وبعـد تناولنا للطعـام ذهبنا جميعـاً إلى الحمام الإسـلامي السـاخـن، مثل الذي كنا قـد

تحدثنا عنه من قبل، وهذا الحمام الموجود في غزة هو أجمل الحمامات التي شاهدتها قط، ويوجد أمام الغرفة الساخنة بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال، وفي هذا البناء عدد من الغرف الصغيرة، من دون فرش، لكن الأرض كانت مفروشة بالحصر، وبسعف نخيل مضفورة، وكانت كل غرفة مغلقة بستارة فقط، وفي هذه الغرف يمكن للانسان لمن يرغب أن يستحم وهو بدون ملابس، أو وهو لابس، وفي الغرفة نفسها قد جرى تعليق ثياب نظيفة، يتغطى بها الذين يودون التجول في الحمام، والتغطية هي من السرة حتى الركب، عوضاً عن السراويل والأحزمة، وبذلك يتغطى الانسان من الأمام ومن الخلف، ويوجد في وسط هذا الرواق هناك فوارة ماء، يسيل خلال عدة أنابيب صدوراً عن أعمدة رخامية، وجميع الأرضيات والجدران مكسوة من الداخل ومن الخارج في قلب الغرف الحارة، بمختلف أنواع الرخام الأبيض المصقول، لذلك يتوجب على الذي يسير فوقهم أن يكون حذراً، وأن يسير بانتباه، خشية الانزلاق، وذلك مثل الانسان الذي يسير فوق جليد.

والغرفة الساخنة نفسها تشبه برج مربع،والقبة، أو القنطرة التي تغطيها ليس لها سقف فوقها، بل لها فتحات كثيرة، كل واحدة بحجم رأس الانسان، وهي مغلقة بزجاج النوافذ من مختلف الألوان، يدخل من خلالها ضوء باهت، ولكن فيه كفاية، ولايوجد في الغرفة الساخنة أتون نار، ولايشعر الانسان بحرارة النار أو الدخان، بل يوجد في واحد من الأماكن موقد نار تحت البلاط، وبه يسخن رخام البلاط الأرضي، ويملأ الماء الذي يجري خلال أقنية محفورة في الصخر، الغرفة كلها بالسخونة، ومن جانب آخر تجري مياه باردة، وكما قلت الغرفة مربعة، وليس فيها اضاءة، إلاّ التي تأتي من الفتحات في القبة، ويوجد على الطرف الأول سخونة فائقة وماء ساخن، ويوجد على الطرف الآخر

برودة وماء بارد، أما الطرف الثـالث ففارغ وهادىء، وفي الطرف الرابع الباب، وفي الوسط حرارة مقبولة.

وصـاحب الحمام نفسـه لطيف جداً، ويقـوم بتـواضع وكـرم بخدمـة المستحمين، وغـالبـاً مـايتـولى دلكهم، وتغسيلهـم ودهنهم بـ -Se megma، أو بدهون أخرى مناسبة، لأنهم يعـالجون الضعفاء بأطرافهم في الحمام، وإذا كـان أي انسـان يشعـر بألم من أي سبب، يقـوم الحمامي بتدليكه، ودهنه، وبالضغط وبشد المكان الذي يشعر فيه بالوجع، وذلك حتى يتعافى مـن وجعه أو يسكن بعض الشيء، وبطريقة ممـاثلة، إذا كان هناك أي انسـان يعـاني من آلام في أي من أطـرافـه من ذلك على سبيل المثال في ذراعه، أوسـاقه، أويده، أوقدمه، أورقبتـه، فإنهم يتولون معالجة مثل هذه الأشيـاء، بطرائق رائعـة مـدهشـة، وبذلـك تزيل التقلص عن الأعضـاء المتشنجـة، وكـذلك تزيل النقـرش في الأقـدام وفي الأيدي، والحصا من المثانة والرمل، فهذا كله يعالج في الحمام بفن عظيم.

ومثل هذا اذا كـان أي انسـان يشكـو أو يعـاني من ضيق في صـدره، وقصر في تنفسـه، تراهم يعملـون بجـد ونشـاط لعـلاجـه وبراءته، ولايفعلون هذا فقط بمجـرد الجلوس إلى جـانبـه، بل إنهم يأخـذون المريض ويجلسـونـه ثم يمـددونه على البـلاط في وسط الحمام، إمـا على ظهـره، أو على وجهـه، أو على جـانبـه، وذلك حسبما يتطلب الألم، ثم يجلس الحمامي فوقـه، ويتولى معـالجة موضع الألم، وبلطف يحرك الذراع المصاب نحو الأمام ونحو الخلف، ويضغطون على الرقبة اما بهذا الاتجاه أو ذاك.

ورأيت مـرة حبشيـا طلب معالجتـه في الحمام، قـائـلاً بأن لديه ضغط بالصدر، فمـدده الحمامي على ظهره فـوق البلاط، وجلس فـوق معدته، وضغط على رقبتـه بيديه معـا، بقسوة بلغت حـداً أن وجهه بدأ يتـورم، لأن نفسه كله توقف، وقـد أبقاه هكذا لوقت طويل، حتى أنني خشيت

من أن يلفظ أنفـاسه، كما أنه أغلق أذنيـه بحـرير، وأخيراً أطلقه وتركـه يذهب، وقد استرد الرجل أنفاسه، وأظهـر سروره وفرحه الكبير، وقال بأنه من الآن فصاعداً سوف يكون بحالة جيدة.

وإنه لأمر يبعث على السرور، أن تجد أمراضاً كثيرة تجري معالجتها في الحمام، وهي أمـراض كنـا نقـدر أنها غير قـابلة للمعـالجة، أو التي من أجلهـا كنا نزور الينابيـع الحارة، وهناك نبـذل جهـوداً لكثير من الأيام، وندفع نفقات عظيمة، في حين أن هؤلاء الرجـالَ يتولون معالجة الأمور كلها في نصف ساعة، ومع ذلك يبـدو لي أنهم يستخدمون تعاويذ أيضاً، أثناء عملهم في معـالجة أي انسـان وفق الطريقـة المتقدمـة الذكـر، وهم يقومـون باستمرار بالتمتمة في أنفسهم، ويتفوهون بكلمات لاأعـرفها في آذان المرضى، ويتصرفـون في جميع المجالات مثل الذين يمارسـون أعمال التعاويذ.

ولايلتقي الرجال والنساء في الحمام مطلقاً، فللنساء حماماتهم الخاصة، وكذلك للـرجال حماماتهم، كما أن الرجـال ليس لديهم نساء لتـدليكهم، ومثل ذلك ليس لدى النساء رجال لتدليكهن، بل يخدم الرجال الرجال، والنســاء النسـاء، وهم لايسمحــون بأي شكل من الأشكال لليهــود بدخــول حمامـاتهم، والتحمم معهم، لكنهم يقبلـون بأن نستحم معهم، وغالباً مـاتساءلت عن السبب الذي سمحوا به لنا بالاستحمام معهـم من دون اعتراض، في حين إنهم لايقابلوننا في أماكن أخرى بطريقة صديقة، ويخيل لي أن هناك ثلاثة أسبـاب لذلك: أولها، إنهم وإن قـابلونا بالعـادة بطريقـة غير صديقـة، هم عندما يعـرفون بأن هناك مكاسب ومـال منا، لايقومـون فقط بمقابلتنا فقط بطريقـة صديقـة، بل يذلون أنفسهم حتى العبـودية أمامنا، وعلى هذا الأسـاس عندمـا يعرفـون بأننا سـوف ندفع للحمامية بشكل جيد، تراهم على استعداد لتحمل رفقتنا، والسبب الثاني هو أنه قد قيل بأن المسلمين يصدرون رائحة كريهة، وبسببها يستخدمون

باستمرار محاليل من مختلف الأنواع، وبما أننا ليس لدينا روائح كريهة، لايبالون إذا قمنا بالاستحمام معهم، لكنهم لايشملون بهذا السماح اليهود، الذين تصدر عنهم روائح أكثر نتانة، وهم بالعادة يكونون مسرورين جداً برؤيتنا في حماماتهم، وذلك مثلما يفرح رجل مجذوم باستحمام رجل معافى معه، لأنه غير مزدرى، ولأنه يأمل أنه بوجود الرجل الصحيح معه ، سوف هو نفسه يغدو أحسن صحة، وهكذا فإن المسلمين ذوي الرائحة الكريهة يفرحون أن يكونوا برفقة انسان ليست له رائحة كريهة، والسبب الثالث لسماحهم لنا أن نكون بينهم هو أن محمداً(ﷺ) لم يحرم عليهم اللقاء بنا في الحمام، بل فقط في المساجد، لأنه قال في قرآنه بأن المسيحيين أصدقاء أفضل بالنسبة له من اليهود، كما قرأنا عند نيقولا دي كوسا الكتاب الثالث، الفصل الثامن، ولهذا السبب هم يسمحون لنا بالدخول إلى حماماتهم، ولايسمحون لليهود، غير أن هذا لم يُعمل من أجل مدح المسيحيين، بل لإرباكهم كثيراً، ولذلك إنهم لايسمحون لنا بأي شكل من الأشكال بالدخول إلى مساجدهم.

وهناك سبب آخر، هو سبب لاهوتي، ذلك أنه غير لائق بالمسيحيين الاستحمام مع غير المسيحيين، فهم بإثارة من الشيطان على استعداد للقبول بأمور غير معقولة من هذا النوع، وفي الحقيقة إنه عمل غير لائق بالنسبة للمسيحي، الاستحمام مع غير مسيحي، بمجرد، القاء نظرة على مايلي: ان اليهودي لايجوز له الحديث مع السامري، ومثل هذا لايجوز للمسيحي الحديث مع اليهود ومع غير المسيحيين، وهذا أيضاً واضح مما يلي: حرم الرب في متى:١٨ على المسيحيي أن تكون له أي اتصالات مع انسان فاسد لاسبيل إلى تقويمه بقوله:« فليكن عندك كالوثني»، أووثنيا كما تقول:« فرّ من المسيحي المحروم كنسيا، كما تفر من الوثني»، وهذا أيضاً مأخوذ من مثل القديس يوحنا الانجيلي، الذي عنه قرأنا في« التاريخ اللاهوتي»، أنه عندما ذهب مرة إلى الحمام في إفسوس ليغسل

نفسه، رأى في الحمام سيرينثيوس Cerinthus ، الهرطقي، فقام على الفور بالفرار والخروج قائلاً:« دعونا نفر من هذا المكان، خشية أن يقع الحمام علينا، لوجود عدو الحقيقة هذا به»

ومحرم على المسيحيين التعايش مع اليهود في كثير من القضايا، من جملتها ورد ذكر مشاركة الحمام مع اليهود، وأي واحد يخرق هذا الأمر، إذا كان رجل دين يجرد من ثوبه الكهنوتي، وإذا كان رجلاً علمانيا، فانه يحرم كنسيا، ويجعل من نفسه مساوياً للذين هم أدنى منه شخصيا بالتعايش معهم، هذا وإن رجلاً محروماً كنسياً مثله مثل أي انسان مطرود أو مسلم.

وينطبق القرار نفسه على غير اليهود مثلما ينطبق على اليهود، وعلى هذا يبدو أنه قد تبرهن بهذه الأمثلة أنه غير لائق بمسيحي دخول حمامات يهود أومسلمين، وانظر حول هذه القضية ماورد في .Sum Anca. Sarracenus

وأملي بأننا نحن الحجاج سوف لن ننال عقوبات القانون هذه، بسبب حاجتنا الماسة، التي فيها غير محرم علينا أكل خبز اليهود غير المخمر، واللحم المقدم إلى أوثان الكفار، وأيضاً بسبب سماح البابا، لأنه منحنا إذنا بالارتحال داخل بلاد المسلمين، وبسماحه لنا نحن الحجاج بالسفر إلى بلاد غير المسيحيين، سمح لنا بالجلوس مع غير المسيحيين إلى مائدة واحدة، وأن نستحم معهم، وكذلك بتناول الدواء منهم، وعلاوة على ذلك، أنه لن ينجم أي خطر عن مثل هذا الاستحمام، كما أنه ليس هناك أي اقتراف لأي ذنب من أي نوع، على أساس أن التعايش معهم ليس مستمراً، وليس عاديا، بل إنه يمر بسرعة، ثم إننا لايمكننا الحديث معهم على أساس أننا لانفهم لغتهم، ذلك أن اللغة هي أكبر روابط الوحدة، وهكذا انقضى ذلك اليوم.

قدوم المماليك وحديثنا معهم

وعملنا استعـداداتنا في اليـوم الثالث مـن أجل المغادرة، لكن عـائقـاً كبيراً اعترض سبيلنا، لأن جيشـاً من الاف كثيرة من المماليك قـدم من مصر إلى تلك البـلاد، ولذلك غـدت المدينـة كلهـا والمنطقـة التي من حولها، مليئـة برجال مسلحين، ونصبت خيـامهم من حول غـزة، وكان عددهم ثمانية الاف، وقد جـرى ارسال هؤلاء الرجال من قبل السلطان للقتـال ضد التركمان في سـورية، ولكسر شـوكتهم، وقـد أقـاموا حـول المدينة، وعدد كبير منهم دخلوا إلى المدينة لمشاهدتنا، وجاء بينهم هنغار، سألوا عما إذا كـان هناك أي حـاج مـن هنغـاريا بيننا، وعندمـا وجـدوا المعلم جون، فرحـوا كثيراً وجلسوا في خيمنا معنا، وأكلوا وشربوا معنا، لابل حتى شربـوا خمرة، لكن بشكل سري، وكـان بعضهم مماليك من صقليـة، وبعضهم من كاتالونيـا، أي أنهم مـرتدون عن المسيحية، وقـد قـدمـوا إلينا وطلبـوا أن يُسمح لهم بالحديث معنا، وطلبنـا منهم جميعـاً الدخـول، وتحدثنا معهم بشكل اعتيـادي، الأمـر الـذي أزعج ترجماننا كثيراً، وكـالينوس المسلـم، لأنه يكره المماليـك بشكل سري كثيراً، لأن المماليك يمتلكون السلطـة عليـه وعلى الترجمان، ولـذلك نادراً مـاملكا الجرأة على رفع رأسيهما بحضـورهـم، ولهذا صـار المسلمان: الـ Sabathytanco والفحل، أي دليلينا، غـاضبين منـا، لأنهما خـافـا من أن نسبب لهما مزيداً من الكراهيـة من قبل المماليك، لأننا كنا في ذلك الوقت على خلاف معهما، لأنهما أخّرانا في ذلك المكان، وحاول هذان الرجلان، بحكم براعتهما وخبرتهما أن يبعـدانا عن معـاشرة المماليك ووجهـا اللوم إلينا، فقـد خـاطبنا Sabathytanco متسـائـلاً: « هل أنتم حقـاً مسيحيين»؟« فكيف يمكن أن تكونوا مسيحيين، ولاتستحون من الأكل والشرب مع أناس تخلـوا عن الايمان المسيحي بأيمان رهيبـة»؟ وقـال الفحل وهو المسلم الآخـر: « أنتم بلا شك من المسيحيين، الذين سـوف

ينقــذهم إيمانهم، وهؤلاء المماليك، بـدون شك، ســوف يدانون، لأنهم تخلوا عن ايمانهم بعقيدتكم، وبناء عليه، أي شأن لكم بالتعامل معهم»؟ وكـان هذا الـرجل يعتقـد— كما تحدثت من قبل— أن كـل انسـان من الممكن انقاذه بالايمان الذي ولد عليه، وليس بايمان آخر، وقدمنا في هذه المناقشات ماأمكننا من أجوبة، إنما بعد تناولنا للطعام جاء المماليك ثانية، وتحدثوا معنا، وعندما أخبرناهم بـأننا نود أن نرى جيشهم، وخيولهم ، وخيمهم، وعتادهم الحربي، أخذونا إلى المدينة إلى اسطبلاتهم التي وقفت فيهـا أجمل الخيـول، وأخـذونا إلى خـارج المدينـة، حيث كـانت خيمهم منصوبة وشاهدنـا هذا كله باعجاب، وما من أحد تسـاءل حولنا عندما كانوا يقـودوننا، لأنهم بدوا بالنسبة لنا رجـالاً لهم مكانتهم وسلطتهم في الجيش، وبعـدمـا فـرغنا من مشـاهدة جميـع هذه المناظر، عـدنا إلى مقـر اقـامتنا في مكاننا حيث وجــدنا أدلاءنا غير مسرورين كثيراً منا، الأمـر الذي لم نهتم به إلاّ قليلاً.

واجتمعنا في الصباح الباكر لليـوم الرابع، واتفقنا على تمضية النهار في العمل من أجـل تحضير أنفسنا في سبيل رحلتنا عبر القفـــار، وفي شراء الأشيـاء التي كنا مانزال بحـاجـة إليها، وذلك بالاضـافـة إلى ماكنا قـد اشتريناه في القـدس، وعليّ وقعت مسؤولية أعمال الشراء لجماعتنـا كلها، وبناء عليــه أخـذت مــالاً من رفــاقي، وانطلقت مع رئيسي الجماعتين التاليتين، إلى السوق لشراء المؤن، لكن للمفاجأة لم نجد شيئاً في السوق، ووجـدنا جميع أكشـاك وبيـوت التجار، وحـوانيت الطبـاخين، ومحلات اللحـامين، كلها مغلقـة، وعندمـا سألنا عن سبب ذلك، أخبرونا أنه لن يكون هناك سـوق طوال الوقت الذي يبقى فيـه المماليك في المدينة، لأنه بسبب جشعهم مامن أحد يتجرأ على عرض بضائعه للبيع، لأن المماليك يقدمون ويتناولون كل مايعجبهم،. ويـأخذونه دونما دفع، ومامن انسان يتجـرأ أن يقــول لهم لا، وأبقى شعب غـزة دوابهم أيضــاً في بيـوتهم،

وكـذلك حميرهم وأبقـارهم، وأغنامهم، ومـاعـزهم، تحت اشرافهم، ولم يتركـوهم للذهاب إلى المرعى، لأنه كان سيتم الاستيـلاء عليهم من قبل العسـاكـر، وبناء عليــه[١٧] لم نستطع في ذلك اليــوم الحصــــول على شيء.

وقـدم في ذلك اليوم بالـذات إلى ساحتنا بعض العقيـلات المسلمات، مع خادماتهن، ووجـوههن مغطاة كما هي عادتهن،وقد رغبن في رؤيتنا، وهكذا خـرجنا من خيمنا وأكواخنا ووقفنا في حضرتهن، وقـد ضحكن وتكلمن بلســـان المسلمين، وبما أننا لم نستطع رؤية وجـــوههن بسبب حجبهن، رجوناهن— من خـلال المترجم— إزاحة حجبهن، حتى نرى وجـوههن، وعندما سمعن هذا ضحكن كثيراً، وأمـرن خادمـاتهن برفع حجبهن، وعندما فعلن ذلك، ظهرت وجـوههن سوداء كالفحم، لأنهن كن حبشيات، وعندما رأيناهن، تظاهرنا بالخوف من سوادهن، وابتعدنا عنهن مع القـرف، وسألنا سيداتهن رفع حجبهن، وقـد فعلن ذلك، فإذا بهن شقراوات وسيدات جميـلات، ولطيفات ومحترمات، وغالبـا مارأينا هذه الأشيـاء في غـزة، وفي الحقيقـة غـالبــاً، مـاقـدمت بعض الفتيـات الحبشيـات إلى سـاحتنا، وتصرفن بشكل غير لائق، وحـولهن لن أقـول أكثـر مما يكفي الآن، ذلك أن عــدداً كبيراً من الأحبــاش يسكنون في الأرض المقدسة، من الجنسين، أرقاء وأحرار.

شراء الأشياء المحتاجة

وفي اليــوم الخامس، وقبل بزوغ الشمــس، زحف المماليك وغــادروا غزة، ومع ذلك لم تفتح الحوانيت أبوابها قبل الظهر، كما أنه لم يكن هناك أي ســوق للبضائع، لأن اليـوم كـان يوم جمعة، وهو يوم نظر المسلمـون إليـه بقـداسـة وقد حـافظوا عليـه كـذلك، وتسلمت بعـد تناول طعـام الافطار ثمان عشرة دوقية من رفاقي، وذهبت أنا والفارس بطرس، وهو ولزي، وقد ارتديت رداء طائفتي الأبيض، الذي عليـه علامة الصليب،

وذهبنا معـا خـلال الشـوارع والأزقـة، والسـوق، والحوانيت، واشترينا أشياء كثيرة، كنا بحـاجة إليها، وفي الحقيقـة تحتاج الرحلة خـلال القفار إلى عناية عظيمـة، وإلى استعـدادات أعظم من الاستعـدادات للسفـر في البحـر، لأن الأشياء التـي لايجدها الانسان في البندقيـة، يمكنه أن يجهـز نفسه بها في أي ميناء وجزيرة، يقف بها، لكن لايوجـد في القفار موانىء ولاخـانات، بل فقط مناطق شـاسعـة معـزولة، فيهـا لايمكن حتى لحيوانات الحمل العثور على طعام، حسبما سنرى فيما بعد.

كما أننا لن نتسلم أي من، من السماء، مثل بطارقـة الأيام الخاليـة، كما أنه لن تكون هناك مياه من الصخـرة، كما أننا لن نتلقى زيتاً من الصخر الأصم، ولاالحجل مـن مصر، وأحـذيتنا وثيـابنا لن يكـون بالامكان الحفـاظ عليهـا من أن تكون باليـة، كما أننـا لن نمتلك عمـوداً من نار، ليضيء لنا في الليل، لـذلك توجب علينا تجهيـز أنفسنا لمواجهـة هذه الحاجيات جميعاً لأيام كثيرة، لاتقل عن خمسة وأربعين يوماً، وذلك حتى نصل إلى الاسكندرية، حاسبين هنا الأيام التي سـوف نمضيها في مصر، بسبب أننا لن نبقى في القفار أكثـر من خمسة وعشرين يومـاً، وبناء عليه شرينا كثيراً من أرغفة الخبـز، والسلال، وقد شرينا لكل حـاج كمية من الخبز تكفي ثلاثة، وذلك من أجل أن نعطي البداة العرب، الذين سوف نلتقي بهم في الصحراء، ونشتري بذلك مضـايقاتهم، وشرينا أيضاً المزيد من جـرار الخمرة، والروايا لحمل الماء، وسـلالاً كبيرة لنضع فيها قـدور الطبخ، وأدوات القلي، وكـل شيء يحتـاجـه المطبخ، واشترينا أيضـاً مناصب، وأدوات شـوي، وسفود، وثلاثـة أقفاص كبيرة مليئة بالطيـور والدجـاج، مع ديك كبير أبيض وقف فـوق القن، ووظيفتـه إخبـارنا بسـاعـات الليل في القفـار، وشرينا أيضـاً سـلالاً مستطيلة، لنضع فيهـا الزجاج والصحون والأطبـاق، من أجل الاستخدام على المائدة، وشرينا أيضا جبنـا، وأشياء أخرى، كما شرينا سـلالاً صغيرة مع كلاليـب، فيها

يمكننا أن نحمل خبزاً، وأشياء قاسية أخرى، قابلة للأكل، ونعلقها على سرج حميرنا، وجرار ماء، ودوارق مع كلاليبها، واشترينا أيضاً جوالق مليئة باللحم الجاف، وجبنة، وزبدة، وزيت، وخل، وقمح مجروش من أجل الحلوى، وبصل، ولوز، ولحم مملح، وأطعمة محفوظة منوعة، من كل من الحلو والمالح، وأدوية للقوم المرضى، وشموع وأحذية، وسلتين مليئتين بالبيض، وأشياء أخرى من أنواع مشابهة، مما يحتاجه الانسان بشكل عام، واشترى سائقو الجمال جوالق من الشعير لإطعام الجمال، وكذلك لإطعام الحمير، وهكذا زودنا أنفسنا في ذلك اليوم من غزة بجميع الأشياء التي نسينا أن نحصل عليها من القدس، ووقع في هذا اليوم بعضاً من الحجاج مرضى بشكل خطير، إلى حد أنه لم يعد هناك أمل كبير بحياتهم.

مرض جميع الحجاج

وفي أمسية اليوم السادس، عندما حان وقت مغادرتنا، وكان أدلاؤنا جاهزين للانطلاق، وضع الرب يده على الحجاج، ولمسهم، وقهرهم جميعاً تقريباً، لأننا فجأة بتنا جميعاً مرضى بشكل كبير، ووقفت خيامنا مليئة بالمرضى، وكان عدد الذين كانوا مرضى أكبر من الذين كانوا أصحاء، وكان بين هؤلاء المعلم بطرس الولزي، فقد بلغ به المرض إلى حد الهذيان، واللورد فرديناند بارون فون وورنو، الذي كان حتى الآن يشجع كل انسان انبطح مريضاً وبلا حراك، وفي الوقت نفسه عانيت أنا من صداع مخيف، ومن عدم قدرة على التوازن، ومن حرارة عالية في جسدي كله، ومع ذلك لم ألجأ إلى الفراش، بل توليت— بقدر ماأستطيع— خدمة المرضى، وكذلك صار اللورد برنارد فون بريتنباخ— الذي هو الآن عميد مينز— مريضاً جداً إلى حد فقد فيه مظهره الخارجي وعقله، ولم يكن لدينا أمل بشفائه قط، وهكذا أمضينا ذلك اليوم في كثير من الاضطراب والتعاسة.

خصومات الحجاج وتمزقهم

وفي اليوم السابع، الذي كان الأحد الخامس عشر، بعد التثليث، سمعنا قداساً قرأه المعلم جون، رئيس الشمامسة، الذي كان أقوى مما كناه، لأنني كنت أنا والأب بولوس الفرنسيسكاني، ضعفاء ومرهقين، إلى حد تعذر علينا فيه قراءة صلواتنا الساعية الرسمية، وتوجس الحجاج أشياء كثيرة أن تكون سبب هذه الأمراض، وبعضهم وضع المسؤولية على الماء، وبعضهم على الطعام، وبعضهم على القمر الجديد، لكن الشطر الأكبر شك في أن يكون Sabathytanco ترجماننا قد وضع بعض السم في طعامنا، حتى إذا مامتنا يمكنه الاستيلاء على جميع مقتنياتنا وبضائعنا، لكنني رأيت وقتها، ومازلت أرى حتى هذا اليوم بأن المرض أرسل من السماء، لمعاقبة فضولنا.

وعندما كان الحجاج في هذه التعاسات، بدأ كل واحد منهم يعمل خططاً متنوعة، وتراجعوا جميعاً عن نيتهم بالحج، فقد رغب بعضهم بالعودة إلى القدس ثانية، وهناك إما أن يشفوا أو يموتوا، وأراد بعضهم الذهاب من خلال فلسطين إلى فينيقية السورية، ومن ثم إلى بيروت، الميناء البحري، والعودة من هناك إلى بلدانهم في أوروبا بالغلايين التجارية التالية، في حين تخلى بعضهم عن جميع هذه المشاريع وأرادوا الذهاب على طول الساحل إلى الاسكندرية والانتظار هناك للابحار، وطلب بعضهم الذهاب إلى القاهرة، والسفر من القاهرة على طول ساحل البحر الأحمر إلى سيناء من خلال أرض مدين، وبعد زيارة سيناء العودة إلى مصر، ومن ثم إلى البحر، وأراد بعضهم البقاء في غزة حتى تتحسن أحوالهم، ومن بعد ذلك يتابعون السير على طريقهم، وحافظ البقية على النية الأولى، وهي الانطلاق مباشرة في الغد، على الرغم من كونهم مرضى.

وبحدوث هذا كله حدث انقسام كبير بين الحجاج، وتمزقت فئاتهم،

لأن أحدهم رغب في تأييد آخر، كان قد اخترع خطة أرضته، وبذلك انعزلا عن البقية، وفي الوقت الذي كان فيه هذين يفكران بهذا، كان آخران يخططان لشيء آخر، والبقية لأمر آخر أيضاً، وكل الوئام الذي كان متوفراً بين رفاقنا تبدد تماماً، وعلى هذه الصورة مضى ذلك اليوم التعيس في تلك المخاصمات المؤلمة، وطوال ذلك اليوم لم نشاهد ترجماننا مما زاد في شكوكنا التي توجسناها حوله.

الميثاق الجديد الذي عمل بين الحجاج بعد تخاصمهم ثم تصالحهم

أطل فجر اليوم الثامن بسرور، وجلب لنا يوماً سعيداً، ولذلك قرأنا في سفر المكابيين الثاني:١/ ٢٢:« وأشرقت الشمس التي كانت من قبل مخفية بالنجوم»، فقد قامت مريم العذراء الأعظم مباركة، في يوم عيد ميلادها، بطرد جميع الظلام، والاضطراب، والمرض، منا جميعاً، ولاأقول بأن هذا على سبيل الإثارة والحكايات، لكن هذا ماحدث بالحقيقة، فعند الفجر استيقظنا نحن الكهنة وأدينا صلواتنا الليلية، والأولى، وجهزنا مذبحنا لإقامة قداس، وقمنا نحن الثلاثة واحداً تلو الآخر بقراءة صلوات القداس من أجل يوم العيد، وصلينا من أجل شفاء قومنا المرضى، ومن أجل توفيق رحلتنا.

وبعد هذه القداسات كان جميع الحجاج حاضرين، حتى كان بينهم الذين كانوا في اليوم الماضي وفي اليوم الذي تقدمه وكأنهم على أبواب الموت، فقد غادروا فرشهم بخشوع كبير، مع الشكر والحمد، وبقيوا حاضرين خلال الصلاة كلها، ورقابهم منحنية، حتى النهاية، ولدى فراغنا من القداسات، قمنا بالاستعدادات من أجل طعام الافطار، الذي طبخناه وأكلنا كالعادة، ولم يكن هناك أدنى ذكر لخلافاتنا الماضية، بل أقسم كل واحد منا للآخر من جديد بأننا سوف نقوم جميعاً بالسفر مع

بعضنا خلال القفار إلى جبل سيناء في العربية، وأن نعيش معا، وأن نموت معاً، وأننا لن نترك رجلاً مريضاً خلفنا، بل سوف نحمل في سلال فوق الجمال الذين لايمكنهم الجلوس على ظهور الحمير، وأبرمنا في ذلك اليوم ميثاق سلام أحدنا مع الآخر، وبتنا أصدقاء لايمكن تفريقهم، وإخواناً، بقلب واحد، وروح واحدة في الرب

وبعد منتصف النهار جاء ترجماننا، الذي لم نره عندما كنا مضطربين، ولدى رؤيته لنا أننا كنا مسرورين، وشفينا تقريباً، جلب سائقي الجمال مع الجمال، وكذلك سائقي الحمير مع الحمير، راغباً في اقتيادنا على طريقنا، غير أننا لم نوافق على هذا بأي شكل من الأشكال، وبوقاحة وقسوة رددنا عليه، بأننا في ذلك اليوم كنا نحافظ فيه على عيد مهيب وهو عطلة بالنسبة لنا، ولايجوز لنا مغادرة المكان، حيث كنا يومذاك في يوم مقدس، وعلاوة على ذلك أخبرناه بأننا مكثنا في ذلك المكان لأيام عديدة ضد إرادتنا، وأننا لن نغادر في ذلك اليوم، ولالسبب من الأسباب، صدوراً عن الاحترام للعذراء المباركة، وتجاه هذا كان الرجل مزعوجا، وغادر سائقو الجمال والحمير وهم يتمتمون ويزمجرون، وأعلنوا أنهم سوف لن ينتظرونا بعد الغد مهما كانت الأوضاع.

وبشأن ماحدث في اليوم التالي، وهو اليوم التاسع، انظر الرواية حوله في ص٢٦ظ.

وصف منطقة فلسطين وفي كم من الطرق جرى استخدام كلمة «فلسطين»

وقبل أن نغادر الأرض المقدسة، ونذهب إلى القفار، سوف أتولى وصف غزة مع منطقة فلسطين، فقد ورد لفلسطين ثلاثة معاني في الكتابات المقدسة، فهي في بعض الأحيان تعني جميع الأرض المقدسة، وبناء عليه فإن القدس وجبالها اسمها فلسطين، وهذا غالباً مانجده

مستخدماً في« حياة الآباء»، وكذلك نجد أن الأرض المقدسة كلها تدعى باسم سورية، لأن كل من اليهودية وفلسطين ها جزئين كبيرين من أجزاء سورية.

وثانيا: يطلق على جزء محدد من منطقة الجليل، قرب جبال جلبوع، اسم فلسطين.

وثالثا: يقال بالعادة للمنطقة القائمة على شاطىء البحر فلسطين، أكثر من سواها، وهي المنطقة القائمة مابين سفوح جبال بني اسرائيل، التي تحدها من جهة الشرق، كما يحدها البحر الكبير من جهة الغرب، ومن الشمال بجبال افرايم وبغزة من الجنوب، وأطلق على هذه المنطقة بشكل صحيح اسم فلسطين، وقد قال ايزودورس حول فلسطين:« هي منطقة واسعة، فيها يجري البحر الأحمر من الشرق، وهي المحدودة من جهة الجنوب باليهودية، ويحدها من الشمال بلاد صور، ومن جهة غروب الشمس بالبحر وبمصر»، وفي العصور القديمة عرفت بفلسطين صدوراً عن اسم مدينة عسقلان، التي عرفت باسم فلسطين، واشتقاقاً من ذلك أطلق على سكان تلك المنطقة اسم الفلسطينيين.

وكانت عسقلان في الأيام الخوالي حاضرة فلسطين كلها، وبعد ذلك، صارت قيسارية القائمةعلى ساحل البحر الحاضرة، والآن غزة هي المدينة الرئيسية.

وفي العصور القديمة، كانت هذه البلاد كلها مليئة بالعماليق، وكان شعبها قوياً في كل من البحر والبر، لأنه امتلك موانىء بحرية، ففي القديم امتلكت البلاد خمس مدن رئيسية وحواضر، وهذا ماكنت قد ذكرته من قبل، وبسبب قوة العماليق وشجاعتهم لم يكن بنو اسرائيل قادرين على تدمير الفلسطينيين، ومن ثم تملك هذه المدن الخمس، وكانت فلسطين فيما مضى تمتلك كثيراً من الديرة والرهبان، وقد قرأنا

عن معجزات عملت من قبل الرهبان الذين سكنوا في فلسطين

غزة أو غزرة مدينة الفلسطينيين أو شعب فلسطين

لمدينة غـزة اسمين، فبـاسم غـزة معـروفـة بشكل عـام في الكتـابات المقـدسـة، وجاء الحديث عنهـا باسم غـزرة في سفـر المكابيين الأول:٧، وبالغالب بعـد ذلك، وهي بهذا الاسم تدعى الآن من قبل جميع الناس، وغزرة، هي الحصـن، والقلعة التي اقتحمها يهوذا المكـابي(سفر المكابيين الثـاني:١٠/ ٣٢....)، ومعنى كلمـة غـزة هو الكنز، لأن الملك قمبيـز، عندمـا كان ذاهبـاً للإستيلاء على مصر، أبقى جميع كنوزه في غـزة، ومن هنا نالت المدينة اسم غزة أو غزرة، لكن مـالذي كانه اسمها قبل قمبيز، هذا مالم أكتشفـه، ولربما كانت تعـرف بهذا الاسم حتى قبل قمبيز، لأن أقـدم الكتابات المقـدسة تدعـوها باسم غزة، من ذلك على سبيل المثـال ماورد في يشوع:١، والقضاة:١.

وكـانت المدينة في القـديـم ملكاً للعناقيين، فهـذا مـاذكـره جيروم في كتـــابه« حـــول المســـافـــات بين الأمـــاكن»، وقـــد سكن فيهـــا الكفتـوريون(التثنية:٢/ ٢٣)بعـدمـا قتلوا سكانها الأصليين، وقد كـانت غـزة من حصة سبط يهوذا، لكن ذلك السبط لم يستطع السيطرة عليهـا، بسبب أن العمالقة قـد قاومـوا بشجاعة عظيمـة، وقد قـال الأنبياء كثيراً حـــول هذه المدينة، كما قـرأنـا في:إرميـا:٤٧/ ١ وفي زكـريا:٩/ ٥، وفي صفنيـا:٢/ ٤، وقـد وردت أخبـاراً كثيرة حـــول تدميرها، وتدمير المدن الفلسطينيـة الأخرى، وهكذا نجـد إرميـا في السفر المذكـور أعلاه، قـد تساءل في احدى النبوءات، وقال بأن غـزة سوف تكون كومة إلى الأبد، لكن هذا القـول تعلق بغـزة القـديمـة، الذي تعـرضت في الـــقديم إلى دمـــار كـــامل، وصـــار اسمهـــا«صحـــراء»، كما جـــاء في أعـــــمال الرسل:٨/ ٢٦.

وغزة في هذه الأيام مدينة متميزة في فلسطين، وهي كبيرة بقدر حجم القدس مرتين، ومكتظة بالسكان، ومزدهرة، وإذا ماأردنا وصفها بالعامية هي خندق مليء بالزبدة، وكل الأشياء التي يحتاجها الانسان من أجل الحياة البشرية وافرة، ورخيصة هناك، وهناك كثيراً من أشجار النخيل، إلى حد بدت فيه المدينة وهي قائمة في غابة، وبيوتها بائسة ومبنية من الطين، لكن مساجدها وحماماتها فخمة جداً، وهي محاطة بسور، وفي السور كثيراً من الأبراج العالية، وهي مدينة ساحلية وإن كانت ليست قائمة على شاطىء البحر، بل تبعد عنه مسافة ميل واحد، وفي الليل عندما يكون كل شيء ساكناً، اعتدنا ان نسمع في ساحتنا أصوات هدير البحر الهائج.

ويسكن في غزة أعداد كبيرة من التجار، وهناك كثيراً جداً من الطباخين، كما أن هناك مزيجاً مدهشاً من الشعوب، ويوجد فيها أعداد كبيرة من الأحباش، مع كثير من البداة العرب والمصريين، والسوريين، والهنود، والمسيحيين الشرقيين، لكن لايوجد فيها لاتين، وفي أواخر أيام الصليبيين، كان هناك كرسياً جيداً ومحترماً لأسقف، ولقد لاحظت وجود أمرين في مدح هذه المدينة: أنا لاأعتقد أنني رأيت أي مكان أو مدينة يرغب الانسان بها— لأنها رخيصة— مثل غزة، والأمر الثاني هو أن الناس هناك مسالمين جداً، فما من أحد سبب لنا أي ازعاج أو عذبنا مثلما فعلوا بنا في الرملة ويافا، ذلك أننا تجولنا يوميا في شوارعهم ونحن نرتدي صلباننا، وقمنا بأعمال معهم دون التعرض لأدنى درجة من المضايقة، وسرت في بعض الأحيان مسافة طويلة من ساحتنا، وحيداً، مرتديا ردائي الأبيض، ومع ذلك لم أسمع أية كلمة عدوانية، لكن هذا لم يحدث لجميع الحجاج الذين أقاموا هناك قبلنا، ذلك أنني قرأت في كتب حجاج بأن بعضهم قد تعرضوا لمضايقات كبيرة هناك. ويكفي ماقلناه عن هذه المدينة.

مقال حول ثلاثة موضوعات هي: الحمير، والجمال، والقفار نفسها، وضعته هنا قبل الدخول إلى القفار

قبل أن أدخل إلى القفار، ولكي يكون حجاجنا في القفار فاهمين بوضوح أكثر، يتوجب وصف ثلاثة أشياء، وهي أشياء ترد الاشارة إليها الآن وفيما بعد: وأول ماينبغي وصفه هو الحمير وسائقي الحمير، وثاني مايتوجب وصفه هو الجمال وسائقي الجمال، والأمر الثالث، هو وصف القفار، أي الصحراء وسكانها.

الحمير حيوانات لها طبيعة خاصة موائمة من أجل عبور الصحراء أكثر من الخيول، فالحمار دابة يمكنها حمل الأثقال، وتحمل التعب، والاكتفاء بالطعام العام وبالقليل منه، وهو يلتقط طعامه من بين الأشواك، والقتاد، والعوسج، ويشق طريقه بين النباتات الشائكة والكثيفة، ولهذا السبب تكره الطيور الصغيرة الحمار، ويمقتونه مثل مقتهم للبوم، لأنه يعبث بأعشاشهم، وببيوضهم وبصغارهم في النباتات الشائكة، لأنه يلتقط كل شيء ويأكل ويبحث بين النباتات الكثيفة، ويرمي بالأعشاش، وعندما ينهق يخيف صغار الطير، وشرابه هو الماء، وهو يفضل الماء العكر، والكثيف، والمليء بالعلق، والذي يشربه هو قليل، وإذا لم يكن قد شرب من ماء خاص من قبل، فإنه يرفض الشرب، مع أنه قد يكون في غاية العطش، ويمكنه أن يعيش وأن يعمل لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال من دون شرب، ولايمكنه تحمل البرد الشديد، ولذلك هو لاينجب في البلدان الباردة مثل بلاد بنطش Pon-tus، لكنه يتكاثر كثيراً في البلدان الحارة، ويخاف من عبور المياه وتلويث حوافره بالماء، ولايقوم بعبور الجسور التي منها يستطيع رؤية المياه دون أن يرتجف، وإذا مارأى المياه من خلال العوارض يحرن ويقف دونما حراك، ولايمكنه السير بشكل جيد في الأراضي الموحلة، لكنه يسير على الأراضي الجافة بشكل جيد وأمين، حتى وإن كانت الأرض وعرة جداً،

ويمكن أن تكون خطرة جداً للخيول، وهو في المناخ الماطر باهت وبلا اندفاع، ولذلك يوجد في الشرق وفي مصر كثيراً من الحمير الجيدة، لأنه لايوجد هناك لابرد، ولامطر، ولاوحل، ولايمكن أن يتوفر في بلادنا حمير جيدة، لأن جميع هذه الشروط معاكسة، ويعرف الحمار صاحبه، وراكبه، وطريقه، وأماكن توقفه، وصوت صاحبه، ومعيار وحدود رحلته اليومية، وعمله، والساعة من أجل العمل، والساعة من أجل الراحة، وذلك بشكل أفضل من أي حيوان آخر، ويحافظ على ذلك كله بشكل دقيق جداً، وهو حيوان لطيف جداً، وهو موائم لمرافقة الانسان أكثر من الحصان والبغل، والمظهر الخارجي للحمار يغش كثيراً من الناس أثناء اختيارهم لحميرهم، لأنه في الغالب الحمير القبيحة أكثر في مظهرها هي الأفضل، وقد يكون العكس صحيح، ومن أجل مثال على هذا، انظر ماتقدم حول اختياري لحماري.

أي نوع من الناس هم سائقي الحمير

ويطلق على الذين يمتلكون حميراً للإيجار اسم سائقي الحمير، وكان سائقوا الحمير الذين ذهبوا معنا خلال القفار من المسيحيين ذوي الزنار، ويعرفون باسم آخر هو الكرج(جورجيون)، وهم هراطقة مثل الاغريق، ومنهم هناك حشوداً كبيرة في البلدان الشرقية، ذلك أن جميع الناس يخشونهم، وأثناء تجولهم من منطقة إلى أخرى، يفعلون ذلك بلا خوف، ولايدفعون خفارة أو مكوس، وبلادهم الأصيلة وأراضيهم واقعة قرب جبال القوقاز، على مسافة بعيدة من الأرض المقدسة، وهم أناس ذوي لياقة، ومظهرهم حضاري، وهم باردون بطباعهم ليسوا سريعي الغضب وفقدان الصبر، ويتم إكتراء هؤلاء لتوجيه الحجاج وقيادتهم من القدس إلى مصر، على حميرهم، لأنهم مسيحيين، ويعرفون لغات وعادات الشعوب، وهم يرتحلون بحرية في بلادهم، وهكذا فإن كل من الحمير وسائقي الحمير، كلّ في مجاله، موائم بشكل خاص من

أجل عبور القفار، فهذا مايعلمك الحج إياه أثناء قيامك بالسفر.

طبيعة الجمال وخصائصهم

الجمال حيوانات حسنة المواءمة بشكل جيد ومناسبة بشكل خاص لعبور الصحراء، وهذه الدواب غريب وجودها وشاذ في بلادنا، ولكنها عامة كثيراً في بلدان ماوراء البحر، وترعى بقطعان كبيرة جداً مع بعضها، ويطلق على الجمل هذه التسمية اشتقاقاً من كلمة Camyn التي معناها« قصير»أو« منخفض»، لأنه ينوخ أثناء تحميله، وبذلك يجعل نفسه منخفضاً، أو أن الاسم مشتق من Camyn، الذي معناه« محدودب» لأنه يتحدب عندما يكون محملاً، أو لأن له ظهر محدودب، وهناك نوعان من الجمال، هما البختري والجمل العربي، وللجمل العربي سنامين(كذا) على ظهره وهو أصغر وأبطأ من النوع الآخر، وللجمل البختري سنام واحد على ظهره، عليه يحملون الأثقال، وسنام آخر على صدره، وعليه يرتاح، وهذا الجمل أصغر من الجمل العربي، وهو سريع جداً، وأعتقد أن الجمال البخترية عرفت أيضاً باسم الجمال الوحيدة السنام، بسبب سرعة خطواتها، لأن Dromedus تعني«طريق» أو «منحى»، ويمكن لهذا النوع من الجمال أن يسير مائة ميل في اليوم، وورد ذكر الجمل الوحيد السنام في إشعيا:٦٠، ولكل جمل وحيد السنام سائق واحد، ونقرأ عن معجزة حول جمل بختري كان له حجم هائل، في« حياة القديس هيلاريون»، الفصل:١٩،وقال فنسنتوس في مصنفه Speculum Naturale— الكتاب١٩، الفصل:٢٧، بأن من الممكن أن الذي له سنام واحد على ظهره يسمى جمل، لكن النوع الآخر يدعى باسم الجمل ذي السنام الواحد، ويجري بسرعة مدهشة، وله سنامين على ظهره(كذا)، وعلى هذا من الواضح أن الجمال بسنام واحد تسمى أحياناً الجمال ذات السنام الواحد، وذلك مثلما يسمى النوع الآخر بذي السنامين، وهناك أنواع كثيرة من الجمال، تختلف كثيراً بالحجم وبالخطوة.

والجمل حيوان مشوه، له سنام، وله رقبة طويلة، بسبب طول أرجله، ومع ذلك يمكنه الوصول إلى الأرض، والتقاط طعامه، وهو يسير ببطيء، لكنه يتحرك بسرعة، وهو لايركض مثل الحصان، لكنه يعمل خطوات طويلة بأرجله الطويلة، مادام الانسان قادراً على أن يفرق بين قدميه، وأثناء ترحاله بشكل متواصل، لاتتورم أخفافه قط، وأرجله مغطاة دوماً بلباد جسدي، لذلك لايمكنه تحمل السير فوق الحجارة، وإذا توجب عليه السير لمسافة طويلة فوق أرض صخرية لابد أن يحتاج إلى صنع نعل له، لأنه إذا جرح نعله يفقد الحيوان قدرته كلها وتوازنه، وعلى هذا يسير الجمل بشكل جيد فوق الرمال، وبشكل سيء فوق الحجارة، ذلك أنه يمشي فوقها ببطيء شديد في خطواته مع كثير من الخوف، ومثل هذا تراه يسير بسرعة فوق أرض جافة عطشى، لكنه يسير بشكل سيء فوق أرض مبللة أو منزلقة، وهو يسافر بشكل جيد في المناخ الجاف الدافىء، لكنه يرتحل بشكل سيء في البرد، ولذلك لايمكنه العيش طويلاً في البلدان الباردة والرطبة.

وللجمل رأس صغير، لابل صغير جداً، بالنسبة لجسده، وهو بدون قرنين، غير أنه يمتلك أنيابا في الفك الأعلى مثل الحيوانات القرنية، وللجمل عينان كبيرتان ومخيفتان، ويبدو دوماً حيواناً حزيناً ومنزعجاً، وعيناه مثل منارة ملتهبة، واشعاعات كثيرة تنعكس منهما، وكل شيء ينظر إليه الجمل يبدو له عظيماً وضخما، ولذلك يظهر أنه ينظر إلى كل شيء بدهشة وحذر، على هذا عندما يتوجه انسان نحوه، يبدأ الحيوان بالارتجاف، ولهذا يتصور الانسان بأن الحيوان يرتجف، لأن الانسان المقبل عليه يبدو بالنسبة إليه أكبر بأربعة أضعاف مما هو حقيقة، ولولا أن الرب قد أمر هذا الحيوان لما أمكن تدجينه وجعله منضبطاً كما هو الآن، وله فم قذر وغير نظيف، وواسع جداً، مع أسنان منخفضة طويلة، وعندما يصرخ، لأنه واقع في اضطراب، يفتح فمه، ويهز رأسه،

ويرفع رقبتـه الطويلة، ويحركها نحـو الأمام ونحـو الخلف، ولذلك فإن الانسان غير المعتاد على هذا يضطرب ويخاف.

ووفقـاً لشريعة الرب، الجمل حيـوان غير نظيف، لأنه له حافـر غير مشطور، مثل الحصان، وهـو مجتر مثل الأغنام، وهو يأكل طعامـاً قليلاً، ويعلف على القش، وعلى لحاء الأشجـار وأوراقهـا، ويأكل الشعير أثناء العمل، ويبتلع طعـامه بسرعـة، ويضعـه جانبـا حتى يتمكن من مضغـه ثانية طوال الليل كله، وللجمل أكثـر من معدة، ففي المعدة الأولى يتلقى الطعـام غير المهضوم، ويشرع في الثـانية بهضم الطعـام نفسه، ويقـوم في الثالثـة بهضم الطعام بكمال أكثر، وينهي الهضم في المعـدة الرابعة، وهذه المعـد الأربع ضرورية بسبب خشونة طعـامه، ولأنه يمضغ الطعـام، إنما قليلاً بأسنانه، وتحب الجمال المياه القذرة، وتتجنب المياه الصافية، وعندما تكون الميـاه ليست مـوحلة بمافيـه الكفـاية، يقـوم بإثارة الطين بالضرب بقـدميـــه وبتحـريكهما حتى تصبح الميـاه كثيفـــة، ويمكن للجمل تحمل العطش لأيام كثيرة، وإنه لأمـر مـدهـش أن أقـول إنه يمكنه السير اثني عشر يوماً من دون ماء، لكن عندما يعطى الفـرصة للشرب، يملأ نفسه بما فيـه الكفـاية، لاطفـاء العطش الماضي، وليعـــد نفســه لبعض الوقت المقبل.

ويعيش الجمل عمراً طويلاً، ويمتـد هذا أحياناً إلى مـائة سنة، وذلك مالم يؤخد إلى مناطق أجنبية، وأن يصاب بمرض من خلال تغيير المناخ، والعيش بمناخ غير معتـاد عليـه، ويقـولـون بأن السبب في عيش الجمل لمدة طويلة هكذا لأنه ليس له مـرارة، فـالمرارة— تبعـاً لأناكساغـوراس Anaxagoras— هي سبب جميع الأمـراض الصعبة، وللجمل ذاكـــرة ثابتة تجاه الأعمال السيئة التي تعمل لـه، وإذا ضرب سوف يحتفظ طويلاً بحقده حتى يجد الفـرصة المناسبة فينتقم للأذى الذي كان قـد تلقاه.... ويقال بأن الجمل له طبيعة عاطفية وحنونة إلى حد أنه لووجد في القطيع

أو بين مجموعة جمل مريض ولايمكنه الأكل، يمتنع الآخرون عن الأكل تعاطفاً معه.

والجمل دابة للحمولة، ومعين لحمل الأثقال، وهو يفرح بفعل ذلك، ولهذا لديه كراهية طبيعية وعدم محبة للخيول، وللبغال، وللحمير، لأنهم يأخذون الأثقال ويحملونها وهي الأثقال التي يعتقد أنها عائدة له وحده، ولذلك إذا ماسار حمار محمل أو فرس أمام جمل، لن يتقدم ذلك الجمل بأي حال من الأحوال، بل يقف دونها حراك، وهو يبدو منزعجاً، ثم انه لن يتحرك حتى تؤخذ الدابة الأخرى وتزاح من أمامه وتوضع خلفه، وبما أن الحمير تسير أسرع من الجمال، وإذا كانت هناك رحلة تحتاج إلى اسراع بالخطى، يمدون مقود كل جمل بحبل إلى رقبة حمار، وبذلك يمكن للجمل أن يُجر من قبل الحمار الذي يسير قبله، وذلك حسبما قرأنا في اسطورة القديس جيروم.

وعندما يراد تحميل الجمل، يربت بلطف على ركبتيه، فيقوم على الفور بحني مفصليه، وينوخ ويتلقى حمله، أو إذا ماوضع انسان يده على رقبة الجمل، وصفر، ينوخ نحو الأرض ليجري تحميله، ويجلس بهدوء لمدة طويلة، ويسمح لأحمال ثقيلة أن توضع عليه، وأثناء ذلك لايحرك جسده، بل يهز رأسه، ويرفع صوته عالياً عندما يشعر بأنه جرى تحميله أكثر مما ينبغي، وهذا ماتفعله الجمال الصغيرة، لكن لاتفعله الجمال الكبيرة.

وعندما يجري تحميل عدد كبير من الجمال في وقت واحد، يصدر عنها هدير مخيف، يمكن سماعه من مسافة بعيدة في الصحراء أثناء الليل، والأثقال التي تحملها الجمال لايجري حزمها على ظهورها بأحزمة من تحت بطونها، كما أن قتبها لاتثبت مثل سرج الخيول والحمير، بل يوضع القتب بكل بساطة فوق السنام، من دون أي رباط، وفوق القتب توضع الأثقال التي تتدلى نحو الأسفل من على الجانبين بوزن متساوي،

وإذا ماشعر الجمل بأن الوزن أثقل على أحد الجانبين، لايتقدم سائراً، بل يمدّ عنقه، ويشير بصراخه إلى الجانب الذي يحمل وزناً أثقل، وإذا لم يتوفر شيء لمعادلة الوزن، يتناولون حجارة، يعيدون التوازن بها.

وإذا ماشعر الجمل بأنه محمّل بوزن أعظم مما اعتاد أن يحمله، وقتها لن يتحرك نحو الأمام مالم يجري تخفيف الحمل، لأنه لايتقبل حملاً فوق طاقته، وعندما توضع الأثقال على ظهور الجمال يقوم سائقوا الجمال بالحداء بأصوات عالية لتهدئة الدواب، ولدى الفراغ من التحميل، ينبعث الجمل قائماً بسرعة، ليأخذ طريقه مسرعاً، وكأنه مسرور، ويسير من دون توقف حتى مكان الاستراحة المعتاد، فهو عندما يصل إلى هذا المكان، يرفض التقدم، ويطالب بانزال الأثقال من على ظهره، ولاتساق الجمال على الطريق لابالعصي ولابالأسواط، بل يسير سائقوا الجمال خلفها وهم يحدون هكذا: Han na yo yo on ho ho oyoo ho وعندما يشرد جمل ويبتعد عن الطريق، يعود إلى طريقه باشارة خفيفة، باليد، لأنه لايتحمل الضرب ولاسوء المعاملة، وعندما يضطرب الجمل يصدر صوتاً غريباً، وفي بعض الأحيان— مع أن ذلك نادراً جداً— يصبح هائجاً فيرمي بأحماله، ومن ثم يركض هارباً بسرعة كبيرة، ونادراً مايسمح لنفسه بالامساك. وواضح أن الجمل يعتني عناية كبيرة بحمله، خشية أن يقع، ذلك أنه يسير بحذر شديد، خوفاً منه أن يجرح قدمه، أو أن يسقط حمله، لأنه يوجد تحت قدم الجمل خف لبادي من الجلد واسع، وهناك عبر قسم الظلف قطعة من الجلد، مثل التي هي موجودة على قدم الأوز، ولذلك تراه يسير باحتراس، وهو دوما يعرف الطريق الذي سار عليه من قبل، من دون أي دليل، حتى وإن كان الطريق مغطى بالغبار أو بالرمل المنقول من قبل الريح، وهذا أمر محتاج في القفار، حين لايكون هناك طريق قد بقي مرئياً، بسبب تحرك الرمال، وهذه الحيوانات ليست فقط مدربة لحمل الأثقال، بل هي معتادة على

الحروب، ولهذا القصد وجدوا أن الناقة أقوى من الفحل، ويكفي ماقلناه عن الجمال.

سائقو الجمال

سائقوا الجمال هم أصحابها، وكان سائقوا الجمال الذين قدموا معنا عبر الصحراء، قد جرى اكترائهم من قبل ترجماننا من قرى فلسطين، الموجودة على حدود العربية، ولقد كانوا قوماً من الريف، وسود مثل البداة العرب، وكانوا عبيداً للمسلمين وللبداة العرب، وقد تحالفوا معهم فيما بعد، وكانوا يدينون بديانة محمدﷺ، وفي الحقيقة لايقبل البداة العرب الذين يسكنون في القفار أن يكون سائقوا الجمال، أو الذين يتولون تربيتها والعناية بها من دم عربي خالص، بل انهم يدعون هؤلاء الناس يعبرون بسلام لأنهم كانوا متحالفين معهم، ومتفقين معهم بالدين، والملبس، والعادات، ولهذا السبب وجدنا أن سائقي حميرنا، الذين كانوا مسيحيين شرقيين، قد ربطوا أنفسهم— أثناء عبور الصحراء— بالملبس وبالمظهر، بسائقي الجمال، حتى يكونوا أقل عرضة للازعاج من قبل البداة العرب، وكان سائقوا الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، دائمي التخاصم أثناء رحلتنا، ومع ذلك لم يضرب أحدهم الآخر، وقد حافظوا على سلام عميق معنا، وذلك بسبب المال الذي يأملون بالحصول عليه منا، وبشأن سائقي الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، سوف أقول المزيد فيما بعد، وسوف أتولى الآن وصف القفار.

وصف للقفار، المكان المنعزل أو الصحراء، وطولها وعرضها، وقحلها وفي سياق وصفها سنتولى شرح الاستخدامات الأربعة للكلمة

من المتوجب وصف القفار الشائعة، التي على الانسان العبور خلالها أثناء سفره من الأرض المقدسة إلى جبل حوريب، وينبغي أن نعلم أن

هذه القفـار هي جـزء من العـربيـة الكبرى، لأن هنـاك ثلاث مناطق، متصلة إحـداها بالأخرى، يطلق عليهـا اسم العربيـة، وأولها جبل لبنان ولبنان الشرقي، مع جميع المنطقة من حولها، والتي تدعى العربية العالية، لأن تلك البـلاد تنتج البخـور، والأشجـار التي تعطي البخـور، ثم إن العطور الأخـرى وافـرة هناك، ويجد هـذه المنطقـة من الشمال الإيطورية والطرخونيـة، اللتان تشكلان شطرين من الجليل، كما يجدها من الجنوب دمشق، ولهذا السبب يقال أحيـاناً لسورية الدمشقية، العـربية، وعلى هذا الأسـاس قبل للحارث(كـورنثـا الثانيـة:٣٢)ملك العـربية، مع أنه كـان ملك دمشق.

ثانيا: يطلق على بلاد أبناء مآب، وعمون، وحبشون، ومملكة سيحون، ومملكة عوج، وملك باشان، وجميـع جبل جلعاد، وكل المنطقة فيما وراء الأردن، اسم العربية الثانية، وهي تتصل بالأولى إلى الجنوب منها.

ثالثـا: تبـدأ من هذه النقطة العـربيـة الثـالثة، التي يقـال لها العـربيـة الكبرى، وهي تمتد خلال قفار واسعة جداً من نهر الفرات العظيم حتى البحر الأحمر، ونهر النيل في مصر، وفي هذه العربية باتجاه الشرق، توجد مكة مدينة محمدﷺ، وهناك باتجاه الجنوب جبلي سيناء وحوريب، وهذه العـربيـة واسعـة جـدا، وتحوي على أضخم القفـار التي تشكل مناطق متنوعة.

وفي الحديث بشكل عام عن العـربية، فإنه يمكن للانسـان أن يقول، حسب الخرائط التي وضعها بطليموس، بأن المنطقـة جميعها، التي تعرف باسم سـورية الدمشقيـة، وذلك فيما وراء لبنان، هي العـربيـة الأولى، واسمها عربيـة سورية، أوعربية دمشق، ويجد هذه العـربية من الجنوب، العربية الحجـرية، أو العربية الثانية، وتتصل هذه العـربية بذلك الامتداد الواسع جداً، أي العـربية الصحراويـة، الذي هو العربية الثـالثة، ومجدداً يجد هذه العربية، العربية المباركة، وهي منطقة واسعة وجليلة، فيها تقوم

مـدينة محمـدﷺ المتقـدم ذكـرها، وتضم هذه العـربيـات الأربع مناطق واسعـة جـداً، وتحوي بين حـدودها: البحـر الكبير، والخليج العـربي أو البحـر الأحمر، والخليـج العـربي، ويمـر بها أنهار الجنة الأربعــة: النيل، والفرات، والدجلة، وPison ، هذا وكما أن العربيــة الصحراوية هي أرض بلاثمرات، وهي بلاد سيئة جـداً، ومع ذلك فإن العربيـة الأخرى التي اسمها العربيـة المباركة هي مثمرة جداً، وأرض فـائقة الجودة، وقد كان اسمهـا فيما مضى جيـدروسيا Gedrosia، وهي ليست بعيدة عن مصر ، فيهـا الذهب بكميــات وافـرة، وهو يستخـرج بعــد الحفـر من أخـاديد، مصنعـاً من دون أي فن، وعلى هذا لايجري تذويبـه بالنار، بل يوجــــد في الأرض بوضـع نقي طبيعـي، على شكل قطـع على حجم الجوزة، واسم هذه العــربيــة أيضـاً سبأ، ومـن بلادها يتم انتــاج جميع الاشيـاء التي تعـدّ في بلادنا ثمينة جـداً، وهي غنيـة جـداً بجميع أنواع القطعان والأسراب.

فضلاً عن هذا هي متفوقة على جميع الدول بالعطور والروائح الطيبة، التي تنتجهـا تربتها في كل مكان، وينمـو في الأجزاء القـريبة من البحـر البلسم والسنّا، ويوجــد في الغـابات أشجــار كثيرة من المرّ، والبخـور، ومثل ذلك هناك أشجـار النخيل، والقصب، والقـرفة، ومـاشـابه ذلك، وفي الحقيقة مـامن أحد يمكنه القول كـم من مختلف أنواع الأشجار هي التي جمعتها الطبيعة بكرم هناك، وحول هذا الموضوع يمكن للقارىء أن يعود إلى ديودور، الكتـاب الثالث، الفصل:١٢، والكتـاب الرابع، وهذه البـلاد المباركـة والخصبة تختلف عن العربيـة المجـاورة لها، أي العربيـة الحجرية والقفار، وكأنها تبعد عنها ألف ميل.

وتتطلع عربيـة الصحراء هذه نحـو الغرب، وهي مليئة بالـرمال، إلى حد أن الذين يعبرونها يقودون أنفسهم بنجم القطب، وذلك مثلما يفعل البحـارة في البحـر، وفي هذا المكان سـوف أتحدث فقط عن قفـار سين،

التي تبـدأ عند الأرض المقـدسـة، وسفـوح جبل سينـاء، وتنتهي عند شـاطيء البحـر الأحمر في أرض مـدين، وكـون جبل سيناء مـوجـود في العربيـة واضح من كلمات الرسول في غـلاطية:٤، حيث قـال بأن جبل سيناء في العـربية، وهو يقـابل القـدس الحاضرة وبالطريقـة نفسها قـال هيمو Haymo(ت٨٥٣) في شروحه(على نشيد سليمان وسفر الرؤيا): « سيناء جبل في العـربيـة، وهو بسبب ضخـامتـه يتـاخم مناطق متعـدده، وتتصل حـدوده بجبال أرض الميعاد، التـي فيها القدس»، وهـذه القفار كلهـا اسمها سين، ومـع ذلك هناك كثير من القفار المتميـزة مثل قفـار: إيشـام، ومـارة، وإيليم، ودفقـة، وقفـار فيـديم، وحضيروت، ورثمـه، وقادش، وهكذا دواليك، حسبما ورد في سفر العدد:٣٣.

ولهذه القفـار الآن أسماء عـربيـة أخرى، كما سـوف يظهـر في سيـاق الرحلة لدى الحديث عن الأماكن التي استراح فيها الحجاج، ونصبوا بها خيـامهم، وتحدثنا الكتـابات المقدسـةفي أمـاكن كثيرة عن هذه القفـار، وعن أنواعها وأوضاعها، وعن الأشياء التي تنقصها، ولنلاحظ الآن أن المكان يقـال له قفـار، بطرائق أربعـة— أولاً: يقـال للمكان قفـر أو صحـراء، عندمـا تستطيع القطعـان أن تسكن هناك، إنما ليس كما قـال اشعيـا:٣٥« تفـرح البرية والأرض اليـابسـة، ويبتهج القفـر ويزهر كالنرجس»، فهذا قد يحدث عندمـا يأتي الذين سوف يفلحونها، وكذلك بنى ملوك الأرض ومشيريها فيها أماكن منعزلة لأنفسهم(أيوب:٣/ ١٤) ذلك أنهم حـرثـوا الأمـاكن المهملة، وشقـوا الأراضي المراحـة، وذلك حسبما قال الرب في(إرميا:٤/ ٣):« افلحوا أرضكم المراحة».

وهكذا أمـر يوشع أبنـاء يوسف بتسلـق الجبـال غير المزروعـة والمهجـورة، وقطع الأشجـار، وتنظيـف المكان، واعـداد مكان للسكنى فيه(يسوع:٢١٧/ ١٥ , ١٧—١٨)، علاوة على ذلك إن الأماكن والمناطق التي كانت من قبل مسكونة، لكنها الآن غير مسكونة، يطلق عليها اسم

القفار، كما ورد في نحميا:٢، فقد قيل عن المدينة المقدسة، حين لم تكن آنذاك مدينة:«القدس خراب»، وجاء كذلك في اشعيا:١:« بلادكم خربة، مدنكم محرقة بالنار»، وقد حدث هذا بسبب الناس الآثمين، ولذلك جاء في المزمور قوله:«والأرض المثمرة سبخة من شر الساكنين فيها»(المزمور:١٠٧/ ٣٤)، وبناء عليه نقرأ في متى:٢٣:« هوذا بيتكم يترك لكم خراباً» ، وفي المزمور:٦٩/ ٢٥:« لتصر دارهم خراباً».

والطريقة الثانية التي يمكن للمكان أن يسمى بها قفراً، هي فقط لأن الناس لايسكنون هناك، مع أنه قد تكون هناك بساتين، وحقول، ومروج، ومراعي، وحدائق، وماشابه ذلك، كما جاء في لوقا:١٥، قوله:« يترك التسعة والتسعين شاة في البرية»، أي في مكان المرعى، وقد اقتاد موسى شعبه إلى الجانب الخلفي من الصحراء(الخروج:٣/ ١)أو إلى المراعي الخصبة، وعن مثل هذا النوع من القفار قال إشعيا:« سوف أعمل من القفار هناك(أي قفار الأرض المقدسة) مثل أماكن البهجة، ومن أماكنها المقفرة مثل جنات الرب»(اشعيا:٤١؟).

وثالثا: ان المقصود بالقفار، أماكن الغابات أو الحقول، المغطاة إما بالحشائش أو الجرداء، التي لايسكنها الناس، بل التي تسعى فيها الأسود، والدببة، والغزلان، والذئاب، والحيوانات الأخرى، من وحوش البرية، وذلك حسبما قرأنا في انجيل مرقص:٣:« ودفعت الروح يسوع إلى القفر.... فكان مع وحوش البرية»، وبمثل هذه القفار لايمكن للناس العيش، لكن يمكنهم ذلك، إذا نمت هناك أشجار، وتوفرت هناك مياه تمكن الحيوانات من العيش هناك، مثلما كان عليه الحال في قفار يوحنا المعمدان، وفي قفار القديس جيروم، لأن من المؤكد أنه حيث وجد في أي مكان، أسد، ودب، وذئب، ووعل، وأمكنهم العيش فيه، يمكن للانسان أن يعيش هناك، وفي أي مكان يستطيع الانسان أن يطعم نفسه، يمكن لحيوانات البرية أن تفعل مثل ذلك،

والفارق موجود فيما يلي: ليس من الضروري للحيوانات استخدام النيران في أطعمتها، في حين لايستطيع الناس العيش من دون نار، هذا وقال بليني في الكتاب السادس، بأن النار لم يُعرف استخدامها في الشرق من قبل عدة شعوب حتى أيام بطليموس، ملك مصر، فوقتها حصلوا على النار، لكن المعلم أنطونيوس لايعتقد بأن أولئك كانوا بشراً حقيقيين، لأنه لم يؤمن بأن الانسان يمكنه العيش من دون نار(التاريخ— الجزء الأول، العنوان الأول، الفصل الخامس، الفقرة الأولى).

ورابعا— وهو الأكثر احتمالاً— أن شطراً من العالم يدعى باسم قفار، لأنه لاينمو هناك شيء من أجل الانسان أو الحيوان ليأكله، كما لاتنمو هناك لاأشجار ولاأعشاب، وبذلك لايمكن لاللبشر، ولاللحيوانات، ولاللطيور أن تعيش، وذلك بسبب الحاجة إلى الماء، وبسبب حرارة الشمس التي لاتحتمل، من ثم بسبب جفاف الأرض، وبكلمة موجزة بسبب انعدام جميع الأشياء المرتبطة بدعم الحياة، ومثل هذه القفار، هي التي تمتد من غزة إلى جبل سيناء، ولايوجد مثل هذه القفار في ألمانيا، أو فرنسا، أو ايطاليا، مع أنه من الممكن أن يوجد هناك أماكن صحراوية، وفقاً للمعنى الأول للكلمة، أو الثاني، أو الثالث.

وهناك انعدام لكل شيء في هذه القفار الكبرى، وورد ذكر التعاسات التي من الممكن تحملها هناك في أجزاء كثيرة من الكتابات المقدسة، من ذلك جاء في سفر التثنية:٨/ ١٥، قوله:«الرب سار بك في القفر العظيم المخوف مكان حيّات محرقة وعقارب وعطش حيث ليس ماء»، وقال أيضاً في سفر التثنية:٣٢/ ١٠:«وجده في أرض قفر»: وقال في اشعيا:٢١/ ١ عن القفر بأنها«أرض مخوفة»، وعندما تذمر بنو اسرائيل، نقرأ في سفر العدد: ٢٠، بأنهم قالوا:«ولماذا أصعد تمانا من مصر لتأتيابنا إلى هذا المكان الرديء. ليس هو مكان زرع وتين، وكرم، ورمان، ولافيه

ماء للشرب».

ووردت أخبار شكاويهم في سفر الخروج:١٦، وفي سفر العدد:١١، حيث تبرهن في هذه النصوص عن الحاجة لجميع الأشياء في القفار، وأجمل ارميا(٢/ ٦)وصف العوز في القفار أثناء توجيه الملامة إلى اليهود لنكرانهم للاحسان بقوله:« صار اليهود باطلاً(أي ناكرين للاحسان) ولم يقولوا أين هو الرب الذي أصعدنا من أرض مصر، الذي سار بنا في البرية في أرض قفر وحُفر في أرض يبوسة وظل الموت في أرض لم يعبرها رجل، ولم يسكنها انسان»؟، ودعيت هذه القفار في يشوع:٥(؟) باسم القفار الطويلة جدا، والعريضة للغاية، وعلاوة على هذا نقرأ في سفر التثنية:١/ ١٩«وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف»، وفي الإلهيات:٦/ ٣:«أنت سوف.... تترك نفسك جافاًمثل شجرة في الصحراء»، وفي١٣/ ١٩:«الحمار الوحش هو صيد الأسد في القفار»، وأطلقت المزامير أيضاً على الصحراء اسم القفار بقولها:« حطم الرب الصخرة في القفار»، وقال الرب لموسى في الخروج:٣:« الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة»، وغالباً مادُعي جبل حوريب باسم جبل الرب.

ودعيت القفار أيضاً من قبل الشعراء، باسم أرض الملح، وأرض المن، وأرض فونس Fauns،وأرض ساطيرSatyrs، ومن هذا كله يمكن للانسان أن يستخلص بعض الأفكار عن مزايا وأوضاع هذه الأرض الجيدة والسيئة والقفار.

أوضاع الصحراء أو القفار

أولا: تدعى هذه المنطقة أولا باسم صحراء مهجورة، لأنها— كما يمكن القول— مهجورة من قبل الرب، ومن قبل السموات ومن قبل الدنيا، فهي مهجورة من قبل الرب، لأنها فارغة وخاوية، وكأن الرب

قد استخـدمها لتحسين بقيـة الكون أو تزيينه، وتبدو هذه المنطقـة أيضاً وكأنها مهجـورة من قبـل السمـوات، لأنها تفتقـر إلى التأثير اللطيف للنجـوم، وتبدو وكأنها مغـاضبة لهم، وكأنها تحولت إلى حـديد، في حين السماء من فوق قـاسية، وبلاعـاطفة، ولاشفقة، ونتيجـة لهذا فإن المنطقة مهجورة أيضاً من قبل بني البشر، الذين يتخلون عنها كأنها يتخلون عن شيء بلا فائدة.

وثانيـا: تدعى هذه المنطقـة باسم المكان المنعـزل، من كلمـه«يشتـاق» الذي يطبق على البلدان، بسبب أنه لايوجـد أي انسـان يشتـاق إلى تلك الأرض، وبسبب أنها أيضاً تفتقر إلى كل ماهو لطيف وجيد، ولأنه ليس فيهـا مـايبعث على السرور، فما من انسـان يشتاق إليهـا، أو ربما جـاءت تسميهـا من«شـدة التحمل»، وذلك بسبب قسـوة تربتهـا، المتـلاحمة مع بعضها بشدة متناهية، حتى أنه لايمكن تكسيرها لابالمسحاة ولابالفأس، ولابأي أداة حديدية.

وثالثـا: يطلق على هذه المنطقـة اسـم مكان منعـزل، لأنها منعـزلة، ولايطرقهـا الناس، وهي أيضـاً منعـزلـة لأنه مـامن واحـدة من البلدان القائمة من حولها ترغـب في أن تكون لها علاقة بها، أو ان تكون مشابهة لتلك المنطقة، وغـالباً مـاورد ذكرها في الكتـابات المقدسة بـاسم«القفار الواسعة»، التي هي غير موائمـة لأي نوع من أنواع الفلاحة، وعلى هذا الأسـاس قـال بنو اسرائيل عندما كـانوا يتـذمـرون:« ليتنا متنا في أرض مصر وليس في هذا القفـر العظيم»(العـدد: ١٤)، وورد الحديـث عنهـا أيضاً في الكتابات المقـدسة باسم«القفار الكبيرة»، أو هي غايـة الوساعة في الطول وفي العرض، لأنها بالفعل، في كثير من الأجـزاء عظيمة جداً، وطويلة جـداً، وعـريضـة بلاحـدود، إلى حـد أنه لايمكن عبـورها، ولايمكن العثـور على انسـان، قد وصل إلى حـدودها نحـوالشرق، لأنه طالما لايوجد فيها مـاء، مامن انسان يمكنه أن يحمل روايا كبيرة من الماء

تكفيه لعدة أشهر.

هذا ويبدأ خلف هـذه الصحراء بالقيام جبـال مرتفعـة جداً، التي إذا ماتمكن انسان من تسلقها، فإنه يصل إلى أرض الجنة، غير أن الرب أقام على الطريق سيفـاً ملتهباً بحرارة لايمكـن قياسها، لأن حـرارة الشمس هناك عاليـة جداً، وكـذلك الجفاف في ذلك المكان، إلى حـد أنه من غير الممكن بالنسبـة لأي انســان المرور خـلاله، حتى لـو كـان معــه جميع ضروريات الحيـاة، التي هي منعـدمـة كليـاً هناك، ومع ذلك بذل بعض الآباء المقـدسين من آباء الكنيسة— مـن ذلك على سبيل المثال القـديس مكاريوس مع بعض الآخرين— جهوداً—كما يقال— فوق طاقة البشر، ووصلوا إلى مناطـق جيـدة خلف هذه القفــار، إنما لم يستطيعـوا شق طريقهم إلى الجنة.

وعــرفت أيضـاً بـاسم القفـار الـلامحدودة، لأنها لم تكن، ولن تكون مفيـدة للحـاجـات البشرية، وهي أيضــاً تعـرف باسم القفـار المخيفـة والمرعبـة، وهي مخيفة بسبب ارتفـاع جبالها وشكلهم الغـريب، ومرعبـة بسبب عمق وديانها الذي لايمكن قياسه، وكذلك جروفها السحيقة.

ورابعـا: عـرفـت هذه المنطقـة باسم صـورة الموت، لأن كـل مـايراه الانسـان في تلك القفار يهدده بالموت، لأن هـذه المنطقة ليس فيهـا شيء يمكن للحيـاة البشرية أن تعتمـد عليــه، بل إن جميع الجبـال، والتـلال، والوديان، والطرقات بلاقع، تعـرض علامات الموت، ولون الأرض هنا ليس مثل لون الأرض المسكونة، بل إن ظل الموت منتشر فـوقها كلهـا، لأنها سوداء، محروقة، ثم انه لايوجـد شيء في تلك البلاد إلاّ ماهو خطر على الحياة البشرية، عـلاوة على ذلك ينمو في تلك الـوديان القرع البري الســام، فهـو ينمــو بغـزارة، ولذلك قيـل عنه في سفـر الملوك الثـاني: ٤ / ٣٩:«في القدر مـوت»، لأنه كان فيه يقطينـا من أكل منه مات، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى أطلق على هذه المنطقة اسم صورة الموت.

وخامساً: وللسبب نفسـه، دعيت تلك المنطقة باسم الأرض القاحلة، لأن مامن شيء ينبت هناك(العدد:٢٠).

وسادسا: انها دعيت باسم الأرض التي بلاماء، بسبب أن الماء منعدم فيها، وإذا تمّ العثور على أي مـاء في مناطقها العميقة، تجده مليئاً بالعلق وآسن، ولذلك عرفت باسم أرض العطش، وإذا مـاتوفر على السهل أية مياه جارية من أي نبع، فإن هذه المياه تكون مليئة بالزواحف، إذا كانت عـذبة أو أنها تكون مـالحة وغير قـابلة للشرب، هـذا وهناك في بعض الأماكن وديان تجلب مياها من نفسها وتحتفظ بهذه بالمياه لنفسها، عاملة سبخـة عميقـة، خطيرة على العابرين لها، وغـالبـا مـاتشكى بنو اسرائيل بسبب الحاجـة إلى ماء، وعـانينا نحن أنفسنا من العطش، كما سنتحـدث فيما يلي.

وســـابعـــاً: عـــرفت هـذه الأرض لدى إرميـــا بـاسم أرض الملح(ارميـا:٦/١٧)في قوله«ويكون مثل العـرعر في البـادية ولايرى إذا جـاء الخير بل يسكن الحرة في البرية أرضـاً سبخـة وغير مسكونة»، وفي الحقيقـة نجـد أن الندى الذي يتسـاقط على تلك الأرض، يرش عليهـا الملح ويغطيها بـه، ويلوث الأعشاب والحشائش، وذلك لـدى توفر أي شيء من هذا النوع.

عـلاوة على ذلك، إن أي مـاء يتم العثـور عليـه بالحفـر في الأرض، يكون شـديدالملوحة، وتـم العثـور هناك على واد، ينتج الملح الرطب منه نفسـه، ومـاأن تتعـرض هذه الرطوبة إلى حـرارة الشمس حتى تتحـول مباشرة إلى ملح، ويحدث أيضـاً أن الرطوبة تتحـول في الشتاء إلى صقيع أشيب اللون، فتقـوم الشمس بصنـع خـوازيق حـادة من الملح الصرف، وبذلك يصبح المكان كله وعـراً يجرح أقدام الذين يرتحلون فـوقه، حتى وإن كانوا مرتدين لأحذية.

وثامنا: عـرفت تلك المنطقـة بـأنها بلاممرات، حيث جـاء في المزمور(٦٣/ ٢)قـوله:«في أرض بلاممرات(ناشفـة)ويابسة بلامـاء»، وقد قيل لها أرض لايمكن عبـورها، لأنه لايوجد ممر فيهـا وخلالها، وهكذا قال جيروم في رسالتـه«حول الاحتفال بالفصح» بأن الذين يسيرون من دون ممر مطروق في الأجـزاء الداخليـة مـن القفـار الجنوبيـة، يوجهـون مسيرهم بالنجـوم، لأنه لايمكن توفـر ممرات ثابتة في القفـار، حتى وإن طرقت يوميـاً من قبل الناس والحيـوانات، وسبـب ذلك أن في القفـار رياحاً شديدة، وزوابع عنيفة، يجري بها حمل الرمـال ونقلها بقوة شديدة تجعلهـا تغطي وجـه الأرض كلهـا، وهكذا تتحـرك الرمـال مع الريح وتتنقل مثـل الميـاه الجارية، ولهذا السبب أطلـق بعضهم على القفـار اسم«بحر الرمال»، وعلاوة على ذلك نجد هناك جبالاً عالية من الرمال تتـولى الزوابع نقلهـا من مكان إلى آخر في ليلة واحـدة، وبناء عليـه فإن الذي هو اليـوم سهل منبسط تجده في اليوم التـالي جبلاً عـالياً قـد تكوم هناك، ويحدث تنقل الجبال على هذه الشـاكلة يومياً في الأنواء العـاصفة، ومع ذلك لايحدث نقل الكتلة المتجمعـة كلهـا دفعـة واحـدة، بل الذي يحدث هو نسف القمـة أولاً بالريح ثم البقيـة حتى الأسـاسـات على الأرض، ومن ثم تتجمع في مكـان آخـر، وبذلك يتشكل جبل جـديد، على بعد أربعة أميال أو خمسة من المكان الذي وقف فيه الجبل السالف.

ويحدث أحيـانـاً امتـلاء وديان عظيمـة بـالرمـال، واذا مـااستمـرت العاصفـة في مكان من الوادي، يقوم هناك جبل، وهكـذا نجد في المكان الذي قـام فيـه قبل ثلاثة أيام مضـت واد عميق، قـد انبعث هناك جبل مـرتفع، ومثل هذا فإن الجبـال الصخـرية غير القـابلة للتحـرك تتغطى بالرمـال المتدفقـة، وبذلك يصير الجبل الذي رآه الانسان بالأمس جبـلاً من الصخـور، اليوم لايراه ولايجده بل يرى جبـلاً من الرمـال، ولذلك لايمكن أن يتوفر في القفار ممر ثابت، لأن هناك عواصف رملية كل يوم

تقريباً، وذلك مثلما هنـاك عواصف مائية في البحر، والعـواصف الرملية خطيرة جـداً، لأنه وقتهـا يكون وجه الأرض كله جيشـان، والإنسـان لايستطيع رؤية شيء إلاّ رمـال مندفعة بسرعـة عالية، وذلك مثـل المياه، ومع هذا كله الهواء كلـه مليء بالغبـار، وكأن هناك سحبـاً منه، ولذلك لايتجرأ الانسان على ابقاء عينيه مفتوحتين، بسبب دخول الرمال إليهما، غير أنه من جـانب آخر مـرغم على فتحهما ليرى أين هو ذاهب، وتطير الرمـال بقوة إلى حـد أنها لاتؤذي العيون فقط، بل تجرح جسـد كل من يعرض جلده لها.

وإذا كـانت الريح قذرة، وكـان الرحـالة يسيرون في مواجهـة الريح، فإنهم يصـابون بالعمى، ويختنقون أحيـانا، وفي الحقيقـة تكون العاصفـة أحياناً قوية إلى درجة أنهم لايستطيعون السير في مواجهتها، بل يرغمون على مسـايرة الريح، وطوال استمـرار العـاصفـة، تجدهم مكرهون على إدارة ظهورهم لأميال كثيرة إلى المكان الذي إليه كانوا ذاهبين، ولولا أن الطبيعة علمت الجمال، استطاعة السير بدون توقف فوق أرض لاممرات واضحـة عليهـا، وذلك دونما خطأ، لما تمكـن الناس من العبـور خـلال القفـار، هذا وهناك خطـر آخـر اضـافي، هو أنه عندمـا يكون هناك أي وادي، أو هوة، أو منحـدر، قـد امتـلأ حـديثـاً بـالرمل، يمكن للدواب والناس عندمـا يعبرون فـوقهم مع حمولاتهم أن يغطسـوا في الرمـال، ويحدث في بعض الأحيان غرقهم تماما، لأن رمال الصحراء ناعمة جداً، وبناء عليه هي أفضل أنواع الرمل، لوضعه في الساعات الرملية.

وتولى ديودور، العميق المعـرفـة، الذي تجول حـول آسيـا لمدة ثلاثين سنة، الحديث عن خطر آخر للصحـراء، في الفصل الخامس من الكتاب الأول من«تاريخه القـديم»حيث قـال يوجـد بين سـورية ومصر سبخـة عميقة جـداً، اسمها سبخة السربونيـانيه Serbonian، التي هي ضيقة جداً، وتمتد أكثر من مائتي غلوة طولاً، وهي في بعض البقاع غير المعلمة

تستــدرج الناس إلى الخطر، وهــم الذين لاينظرون نحــو الأمــام، لأن السبخة ضيقة، وهي محاطة من جميع الجهات بتلال رملية، وعندما تحرك الرياح هذه التلال تنقل إلى المياه كميات كثيفة من الرمال، وعندما تمتزج هذه الرمـال بالماء، تبـدو وكـأنها أرض قـاسيـة، ويعـود من غير الممكن إخبـار أية بقعـة هي مـاء وأيها أرض يابسـة، ولذلك فإن كثيرين ممن لم يعـرفوا طبيعـة المكان، ولم يتعلمـوا كيف يرتحلون على هذا الطريق، قـد وقعوا في السبخة وغرقـوا هم ومن كان معهم، لأنهم مجرد ماأن يدخلوا الرمـال— الـرمـال التي تبـدو عـن بعـد كأنها أرض صلبـة وثـابتـة— يغـوصــون فيهــا أعمق فأعمـق، ولايستطيعــون بعــد ذلك التراجع بخطواتهم، أو الثبات فـوق ماهم عليه، بل يغوصـون في رمالها السريعة، وعندمـا يغوص انسـان في الرمال الناعمـة يفقـد الأمل بالسلامـة، لأنه لايستطيع الصراع أواستخـدام قواه، بل إنه يغـرق في الرمـال الممزوجـة بالماء، التي تشبـه الصلصـال، والتـي لايمكن السفـر عليهـا لابالأقـدام ولابالقوارب، ولذلك تعرف باسم المتاهة. فهذا ماذكره ديودور.

وبسبب هذه السبخـة، فإن الذين يعبرون الصحـراء، لابد لهم من أن يجلبوا معهم بوصلة عريضة، خشية الـوقوع في المخاطر، ولسوف نتوسع بهذه القضيــة فيما بعـد، ذلـك أن مـاقيل فيــه كفـاية لتبيـان لماذا قيل للقفار «بلاممرات».

وتاسعــاً: لقــد قيل بـأن هذه هي الأرض التي لايمكـن لانســان عبـورها(ارميا:٢/ ٦، يهوديت:٥؟) ومن الممكن فهم هذا بطريقتين: إمـا أنه في البـدء، أي قبل بني اسرائيل، مامن انسـان عبر فوق هذه القفـار، على الطريق الذي اقتيدوا عليه، وهذا أمر صحيح، أوعلينا أن نفهمه بأن مامن انسـان سار على قدميه فـوق هذه القفار، وهذا مثل ذلك صحيح، لأن الانسان لايستطيع العبور على هذه القفـار مالم تكن لديه دابة يمكنه أن يركـب عليهــا، وحمل زاده، وذلك بسبب حـرارة الأرض، وأيضـاً

بسبب انعدام الطرق، والأشياء التي يحتاجها لبقائه حياً، وهي أشياء لايمكنه أن يحملها هو نفسه.

وهكذا عندما يئس النبي إيلياء من انجاز رحلته، ألقى بنفسه تحت ظل شجرة رتمه، وتوسل أن يموت هناك، ولولا أن ملاكاً جلب له طعاماً وشراباً منعشاً، لم يكن ليحاول القيام بهذه الرحلة بنفسه(الملوك الأول:١٩/ ٤—٧)، هذا ومن الممكن أن يقوم كثير من الناس بالارتحال خلال الصحراء، وليس شخصاً بمفرده، ومع ذلك من الممكن لكثير من الناس أن يضيعوا طريقهم، لأنه غالباً مايحدث أن تثير الرياح العنيفة الغبار، بشكل كثيف يبلغ حداً، أن لايستطيع الانسان رؤية رفيقه، كما لايتمكن من سماعه، وإذا حدث وأخذت الدابة التي يركبها طريقاً آخر، فإن ذلك الانسان يهلك، وإذا—على هذا— كان هذا يحدث، عندما يكون كثير من الناس مرتحلين مع بعضهم، فكيف يمكن لانسان، مهما كان، أن يرتحل لوحده؟.

وعاشراً: لقد قيل بأن مامن انسان يستطيع السكنى في الصحراء، ولهذا عرفت بالأرض غير المسكونة، وهذا صحيح كقاعدة، ومع ذلك لقد عاش بعض الآباء المقدسين للكنيسة هناك، عاشوا حياة الملائكة، وليس حياة البشر، وفي هذه الأيام يقطن البداة العرب هناك، لكنهم يعيشون حياة البهائم وليس حياة البشر، هذا وعندما قيل بأنه حتى البهائم لايمكنها العيش هناك، ومع ذلك يعيش البداة العرب هناك، فإن هذا لايعني أنهم يعيشون بوساطة معجزة، مثل بني اسرائيل، ولامثل الملائكة مثلما فعل النساك المقدسون، كما أنهم لايعيشون مثل البهائم من دون عمل بشري، بل مثل الشيطان، لأن الشيطان يتجول هنا وهناك وهو يبحث عمن يمكنه إلتهامه، وهكذا تجدهم يتجولون حول تخوم القفار، ويقومون بنهب وسلب الذين يعبرون هذه القفار، وعلى هذا هم شياطين مجسدين، لايعيشون حياة بشرية، كما سنرى فيما

بعـد، وفي الحقيقـة هذا المكان غير مـوائم لأن يعيـش به الذين يرغبـون بممارسـة حياة حضـارية، ولهذا قيل:« لايمكن أيضاً لأي ابن انسـان أن يسكن هناك فيهـا»، لأنه كما هو مشـاهد الأرض كلهـا تقـريبـاً رمليـة، وصخـرية، أو مثل كلس محترق، وبذلك هي غير مـوائمة للحـدائق، أو الحقول، أو الكروم، أو للسكنى.

وأحد عشر، عرفت هذه المنطقة باسم بلاد الأفاعي، والعقارب، والـ Dipsades[من أنواع الأفـاعي التي يسبب لدغهـا عطشـاً لايحتمل]، والهوام، والتنينات، وبما أن هذه البـلاد واسعة جـداً، فيها أنواع متنوعـة من المخلوقات السامة في مناطق مختلفـة، ولقد جرى إرسال أفاعي نارية على بني اسرائيـل بسبب تذمـــرهم(العـــدد:٢١/٦، أخبـــار الأيام الأول:١٠/ ٩)، وكثير من الأمـاكـن في القفـار مليئة بحفـر جحـور الأفـاعي، وبعضهـا الآخـر مليء بالعقـارب وفي المناطق التي فيهـا الماء، هناك بعض التنينات والتماسيـح، وأنواع أخـرى كثيرة من الحيـوانات، وذلك حسبما قـرأنا في «حياة الآباء»، وعـانينا نحن— على كل حـال— من نوع واحـد فقط، وكـان ذلك ديداناً مـدورة، كل منهـا بحجم حبـة البندق، وكـان لونها أسود، ولها أقـدام كثيرة، ولذلك يطلق عليهـا اسم قملة فـرعون، والأرض في بعض الأمـاكن مليئة بهذه الديدان، وعندمـا يكون الانسـان نائماً يأتون إليـه سراً، ويمتصون دمـه مثل القمل، وبعـد قـرصتهم تبقى هناك ندبة، وتبقـى هناك عـلامـة زرقـاء مشـوبة باللون الأحمر، وحجمها مثل حجم البنس، الـذي عليه علامـة الصليب، ومالم تعالـج الندبة على الفـور بالدهن، وبحكها بعصير الليمـون، فإنها تتحول إلى جرح قذر لايمكن علاجه.

وإلى جانب هذه الـديدان تنتج الأرض أنواعاً متعددة مـن الحيوانات الصغيرة جـداً، التي تعيق استراحـة الناس، عـلاوة على ذلك تتجمع في كل لحظة أعـداد لاتحصى من القمل من مختلف الأحجام، على مـلابس

الانسان.

واثني عشر: عـــرف هذا المكان بـاسم« المكان الـردىء»، أو«المكان الشرير»(العدد:٢٠/ ٥)، وقد عرف هكذا بسبب الشرور المتقدمة الذكر، وبسبب سـوء الهواء وكـونه ملوثاً، ذلك أن الهواء في القفـار سيء جـداً، وقـاسيـاً للغـاية، مع أنه قـد يكون في بعض الأحيـان نـاعماً إلى أبعـد الدرجـــات، كما أن الحرارة لاتحتمل، والبرد لايمكن قيـاســه، ويجد المسافـرون أنفسهم في ساعة من السـاعات في أحد الأماكن وقـد كادوا يحترقون من الحر، أو بالحري كأنهم في أتون، وتجدهم بعد أمد قصير من ذلك وهم يعانون من برد شديد جداً.

وثالث عشر: هذه المنطقة هي موطن فونس وساطير ، اللذان هما إلها القفـار والبساتين، وذلك وفقـاً للديانة الزائفة لعـامة الناس في القـديم، وقد اعتـادا في الأيام الخالية أن يعلنا للناس عن أشيـاء سوف تحدث في المستقبل، لكن ليس بوسـاطة العـلامات، بل بصـوتيهما، كما كـانا يبينان الطريق للذيـن تاهوا في القفـار، وعلى هـذا نقـرأ في«حيــاة الآباء»، بأن القـديس أنطوني، عندما كـان يبحث عن بولص في القفـار رأى أمامـه رجلا ملتصقـاً إلى فرس، من نوع المخلوقات التي أطلق عليهـا الشعراء اسم سنطور Centaur، وعند رؤية ذلك، شجع نفسه بعـلامة الصليب وقـال:« من أنـت، أيها السيـد الشـاب، وفي أي مكان مـن هذه القفـار يسكن عبد الرب»؟ وبعـد مالاك الوحش بعض الكلمات غير المفهـومة بين أسنانه ونهشها بدلاً من أن يتفوه بها، نطق أخيراً بصوت ناعم جداً، وبمدّه ليـده اليمنى، أشار إلى الطريق المطلوب، وبعد ذلك عـدا مبتعداً، كأنه يطير فـوق السهل المفتــوح، واعترت انطوني الدهشـة تجاه مـارآه، ومضى سـائـراً على طريقه، وبعـد قليل رأى في واد صخـري رويجل له أنف معكوف وقـرنين خشنين على جبهتـه، والقسم الأسفل من جسـده انتهـى بظلفـي تيـس، ولـدى رؤيـة انطـوني لهذا أمسـك بترس الإيمان،

وأعطاه المخلوق المتقـــدم الذكـــر ثمار التمـــر، ليكون لـه زاداً من أجل رحلتـه، وكأن ذلـك عهـد سـلام، وعندمـا فهم أنطوني هذا، أسرع في سيره، ولدى ســؤاله له من هـو، تلقى منه الجواب التــالي:« أنا مخلوق فـاني، وواحـد من السكان في القفـار، اقتـاده الكفـار، وأضلوه بذنوب كثيرة، فـدعوت فـونس وسـاطير وبت مسكوناً، وأنا أحمل إليك رسـالة عهد إليّ بحملهـا من قطيعي، حيث أننا نرجـوك أن تصلي إلى ربنا العام وذلك لصـالحنا، لأننا نعرف بأنـه نزل منذ وقت طويل مضى، من أجل خلاص العالم».

وعندمـا فـرغ الوحش من كلامـه هذا، بكى انطوني بـدموع الفـرح، وضرب بعصاه على الأرض وقال:«الويل لك ياالاسكندرية، لأنك عبدت هذه الوحـوش كـآلهة، مـالذي يمكنك قـولـه لوحش تحدث هكذا عن المسيح»، ومـاكاد يفـرغ من كلامـه حتى هرب ذلك المخلوق المسلوب، واختفى بسرعة كأن له جناحين، وفي احـدى المرات تمّ جلب واحد من هذه المخلوقـات إلى الاسكنـدرية، وشكل بذلك منظـراً هائــلاً للناس الذين كـانوا هناك، وعندمـا مات جـرى تمليح جسـده، خشية التـلاشي والزوال في حـرارة الشمس، وأرسل إلى انطاكيـة حتى يراه الامبراطور، وأنا لاأعتقد بأن هذه المخلوقـات هي أبناء فونس وســاطير، على أساس أن هؤلاء من البشر، في حين أن هذين كـانا من الحيـوانات المتـوحشـة، هذا ومن الممكن أن الخطيئة قد قـامت حولهم في أيام فـونس أوساطير، وأنه في تلك الأيام شرعت النساء تتقول حولهم.

رابع عشر: ان القفـار أو الصحراء، هي مكان الشيطان، وهكذا نقـرأ في توبت:٨، بـأن رئيس الملائكة رفـائيل قــد بعث أسمـــوديوس -As modeus إلى القفار في أعالي مصر، وكذلك جُلب الرب إلى القفار، حتى يتمكن الشيطان من أن يجده هناك.

وفي الأيام الخوالي، عندما كان الناس يرغبون في ممارسـة حياة مقدسة

كانوا يذهبون إلى القفار، بسبب توفر الصفات الستة التالية هناك، وبناء عليه قام القديس جيروم في«أحكامه»: الفصل التاسع بمدح القفار قائلاً:«أيتها الصحراء المزدهرة بعشر وردات، ماأجمل مكانك المنعزل حيث نمت الصخور والحجارة التي منها بنيت المدينة المقدسة، فماأروع فضائلك العادي المبتهج بالرب» وهكذا إلى أن قال:« بالنسبة لي المدينة سجن، والقفار جنة، ولأن القفار غير مكتظة، فإن الحقيقة غير مشوهة»، فهذا ماقرأناه هناك ولذلك أقنع جيروم كثيراً من الناس بالدخول إلى القفار، وبشكل خاص الشماس بريسيديوس Presidius، الذي إليه كتب في رسالته حول هذا الموضوع:« لقد رأيت مؤخراً الأماكن المهملة في مصر، ورأيت أسرة الملائكة، وشاهدت كم هنا كثيراً من الورود وهناك، وكم من المروج المزينة باللآلىء الروحية، وأكاليل تتوج بها الرب، والنار تلتهب في صدرك، ولذلك فكر يومياً حول هذه الأشياء، وتأمل حولهم، واشتق اليهم».

وتشوق جيروم نفسه شوقاً عظيماً إلى الصحراء، وبناء عليه قال في رسالته إلى ثيودوسيوس وإلى النساك الآخرين:« هل ياترى سوف يمكنني رؤية القفار، التي هي أكثر بهجة من أية مدينة، وهل سأتمكن من رؤية تلك الأماكن الخالية من السكان»الخ، ومثل هذا قال أوغسطين في Epistola ad pastores:« هناك قفار مليئة بآلاف من عبيد الرب».

وخامس عشر: الصحراء مكان للاغواء، حيث تحدث ربنا أنه لم يتعرض للإغواء في أي مكان إلاّ في القفار(مرقص:١،ومتى:٤)، ومثل هذا أغوى الرب البطارقة القدماء، وبني اسرائيل، بطرق متنوعة، حسبما جاء في سفر الخروج:١٦، وفي سفر التثنية:٨، حيث قال:« سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر لكي يذلك وليجربك»، كما قال أيضاً في التثنية:٨:« وقد جربك الرب ليعرف مافي قلبك أتحفظ وصاياه

أم لا»، عــلاوة على ذلك أغــوى بطارقــة الأيـام الخوالي الرب هنك، ولذلك قـال المزمور:« في القفار أغـواني آباؤكم»(المزمـور:٩٥/ ٩) وقال ثانيـــــة:« وجـــــربـوا الرب في قلـوبهم بســـــؤالهم طعـــــامـــــاً لشهـواتهم»(المزمـور:٨٧/ ١٨)، وجاء مـن جهة ثانيـة مكتـوباً في(سفـر التثنيـة:٦/ ١٦):« لاتجربوا الرب إلهكم»، وقام جيروم في رسـالته حـول الإغواءات، بتعداد عشر إغواءات تعرض لها بني اسرائيل في الصحراء.

وسـادس عشر: القفار مكان يمكـن الحصول فيـه على سرور عظيم، وبناء عليه حصل البطارقة المقدسون بعد توبتهم في القفار، على الأرض المقدسة، واعتاد قديسوا العهد الجديد على الذهاب إلى القفار، من أجل الحصول على السرور الأعظم.

وسـابع عشر: إن القفـار هي المكان الذي أعطيت فيـه الشريعـة، وكذلك الوصايا، وذلك حسبما جاء في سفر الخروج:١٩/ ٢٠.

وثامن عشر: القفـار هي مكان المن ، والمواسـاة السماوية، حيث أننا نقـرأ في المزمـور: ٧٨/ ٢٤ قولـه:« وأمطر عليهم منّا للأكل، وبّر السماء أعطاهم»، وقـال أيضاً في سفـر الخروج:١٦:« وفي هذا اليـوم إن الندى الذي يتسـاقط حـول جبل سيناء هو منّ حلو، وبنـاء عليـه رأيتـه أنا شخصياً، وأكلت كثيراً منه»

وتاسع عشر: القفار مكان للتأمل، وللابتعـاد عن الدنيا، ولذلك كان الآباء المقدسون للكنيسة عندما يـرغبون بالاستغفار، يذهبون إلى القفار، ويفرون من الدنيا.

وعشرون: هذه القفـار مكان للخشـوع وللتفكر، وعلى هذا نقـرأ في المزمور قوله:«يشتاق إليك جسـدي في أرض ناشفة ويابسة بلاماء. لكي أبصر قـوتك ومجدك كما قـد رأيـت في قـدسك»[المزمـور:٦٣/ ١—٢]، وقـال مـرة أخـرى:« فقلت ليت لي جناحـاً كـالحمامـة فأطير وأستريح.

هاأنذا كنت أبعـد هاربـاً وأبيت في البرية»[المزمـور:٥٥/ ٦]، وليكن فيما قلناه كفاية عن وصـف القفار، والخبرة من الآن فصاعـداً سوف تُحدّث القارىء أكثـر حولها، وانظر رواية أخـرى عن القفار في ص١٣٦ـــظ، وماتلاها.

البداة العرب الذين يسكنون في القفار، عاداتهم، ووقاحتهم وتعاستهم

إن سكان القفـار أو الصحـراء هو بـداة عـرب، وهـم أناس تعسـاء، ويشبهـــون البهـــائـم، وعن هؤلاء يقـــول بعضهم بـأنهم أبناء اسماعيل وهاجر، وهـم يسمـون أنفسهم مسلمين، ويمنحهم بعضهـم أسماء مشتقة من المنطقـــة الأقـرب إليهم، فيطلقـــون عليهم اسم المدينيين، ويسميهم آخرون البدو، في حين يدعوهم آخرون باسم الجزيري؟ Zigeri اشتقاقا من اسم الكلدانية Chaldaea ، وهي بلاد متصلة بالصحراء العربية الكبرى من الجهـة الشماليـة، ويقول آخـرون بأنهم قـد طردوا من مصر، وبين هؤلاء ديودور، في الكتـاب الثاني من« تاريخه القديـم» حيث يقول بأنه عندمـا حكـم أكتيسانس Actisanes، الذي كان ملكاً لمصر، بعدل عظيم، أنهى أعمال السرقة، وفق طريقة جـديدة، فهو لم يعاقب المجرمين بالموت، ولم يتركهم مـن دون عقـــوبة، بل إنه جمع المجـــرمين كلهم مع بعضهم، وأنزل بهم عقـــوبة خفيفـــة، فقـد قطـع آنافهم، وأرغمهم على الذهاب إلى القفـــار، وبذلك باتوا غير قـــادريـن على إيذاء الشعـــوب المجـاورة بشرورهم، كما لايمكنهم إخفـاء الأخطاء التي اقترفـوها بحق بقيـة الناس، ثـم إنه بإرسـالهم، أو لنقل بنفيهم إلى القفـــار، حيث هناك الحاجة إلى كل شيء، وقتهـا كانوا سيرغمـون بالضرورة على السعي من أجل عيشهم، ويعـرف هؤلاء بشكل عـام بـاسم«العـرب»من قبل جميع شعوب البلاد.

وليس لهؤلاء الناس مكان ثـابت للسكنى، بل يتنقلون نحـــو الأمـام

ونحو الخلف في أرجاء هذه القفار، متسلحين بترستهم ورماحهم، ليس في الحقيقة من أجل القتال لأنهم نصف عراة، بل من أجل السرقة، والخوف منهم جعل المسافرين خلال تلك المنطقة يتجمعون على شكل حشود كبيرة، لأنهم بمساعدة أحدهم للآخر يمكنهم تجنب المخاطر المهددة، لأن هؤلاء الناس يسكنون فقط في القفار النائية وليس في القفار الداخلية، أو يسكنون في الأماكن التي لايمكن لاللانسان، ولاللحيوان ولاللطير أن يحصل فيها على عيشه، وهم ينصبون خيمهم في الأماكن التي يعتقدون بأن التجار أو المسافرين الآخرين سيمرون بها، وأيضاً حيث هناك سبخ لتأمين الشراب لهم ولقطيعهم، وهناك يسكنون في الكهوف في الصخور، أو في أكواخ معمولة من أغصان الأشجار.

وعندما يرون أي انسان قادم، يمتطون خيولهم، وحميرهم وجمالهم، ويصفون أنفسهم فوق الطريق، مع ترستهم ورماحهم، وتخرج نساؤهم من كهوفهم، وهن نصف عاريات مثل الرجال، وهن في غاية البؤس والقذارة، ويركضن والحجارة في أيديهن، ويتبعهن أولادهن، وهن جاهزات للحصول على حصتهن في السلب والنهب، وهم جميعاً يزحفون لمقابلة الغرباء بشكل هم متعطشون فيه للدماء، وهم أيضاً يصرخون، ويهزون رماحهم، وفي تلك الأثناء تقوم النساء ويقوم الأطفال، وهم يسيرون على أقدامهم برمي الحجارة، إنما عندما يلتقي الجمعان، يُحيّد البداة العرب حدتهم، ويطالبون بسلام بالخفارة، قائلين بأنهم سادة القفار وأصحاب جميع الأماكن التي ليست موجودة داخل أسوار، أو مغطاة بسقوف، أو محاطة بخنادق، وهكذا دواليك، وإذا رفضت الفئة الأخرى دفع الخفارة، لايسمحون لها بالمتابعة والسير مالم تكن أقوى منهم أنفسهم، وإذا ماشاهدوا ذلك، يتوقفون عن طلب الخفارة، ويتوسلون بتواضع من أجل الحصول على الصدقات، وهم

يقنعـون بدريهمات، وإذا مـامنحوا بعض البقسـاط يتلقـون ذلك بسرور بالغ، ويسمحون للمسافرين بمتابعتهم ترحالهم.

إنما مـامن انسـان يمكنه مـواجهتهم من دون اضطراب، أو يستطيع التخلص منهم من دون أن يدفع لهم، لأنهم يتجـولون حـول الصحـراء على شكل مجموعات كبيرة وكثيرة، وإذا ماانتشر خبر بينهم، بأن رفاقهم قد قتلوا، أو عـوملوا بقسوة، تراهم يحتشـدون، ويتجمعون مع بعضهم ويضغطون بشـدة على الذين تصـدوا لهم، حتـى يتمكنوا من قهـرهم وسلبهم كل شيء كان معهم، ولهذا السبب قـال عنهم جيروم في رسالته إلى دار دانوس Dar danus وسماهم برابرة حيـث قـال:« يوجـد فيما وراء الأرض المقـدسة صحـراء واسعـة، مسكونة ببرابرة أشـداء»، وهم يقـولون بأن هـذا المكان، وكـل مكان في الهواء الطلق هـو ملك لهم، ولذلك يطالبـون على كل طريق بالخفـارة، من العـابرين، وليس فقط في القفار.

هذا وإنهم يمكن أن يقولوا بأن القفار هي بلادهم، وملك لهم، ذلك أنهم يسكنون فيها من دون وجود أي مدينة، أو قرية، أو قلعة، أو بيت، يسكنون في كهـوف بالصخـور، وفي خيـام، وليس لديهم أية وسـائل للعيش غير النهب والسلب، ذلك أنهم يعانون من عوز ومن فقر، حتى الكلب بيننـا لايستطيع تحمل ذلك، وإذا لم يمكنهـم الحصـول على أية منهوبات، يلجأون في سبيل دعم حيـاتهم إلى اعتماد السرقة، ولهذه الغاية يتركـون القفـار، ويتجـولـون ليس فقط في البلدان الشرقيـة، بل إنهم يصلون حتى إلى المناطق الداخلية للغـرب، وبناء عليه أنا لا أعرف لأي سبب عـرفـوا باسم«العـرب»أو«الكلدانيين»، بل اسم« جـزري»، أوكما يقول عامـة الناس جزريين Zigeuner (نور)، لأنهم قوم قـدموا من الكلدانية، وذلـك حسبما وردت الأخبار في Primo phys. supp. IV chron. lib ، ومن الكلدانيـة نزلوا إلى المناطق المجـاورة للعـربيـة

الصحراوية، ومن هناك انتشروا في جميع البلدان، انظر الصفحة ٨٠ من القسم الثاني.

ويعيش عرب القفار هؤلاء أعماراً طويلة جداً، وذلك على الرغم من تعاستهم، ويركض رجال ونساء لهم من العمر مائة سنة فوق الصحراء بخفة ورشاقة مثل الكلاب، وتجدهم دوما جائعين، وعطشانين، ونادراً مايطفئون جوعهم بالخبز، لكن عندما يقومون بصومهم المهيب، يخبزون الأرغفة في الرماد، ويأكلون لحومهم والدم يتقاطر منها، وإذا لم يكن بإمكانهم الحصول على نار من الحطب، يأتون بلحومهم النيئة فيضعونها فوق صخرة عريضة(ويضعون صخرة أخرى عليها)، وبذلك تجف اللحوم، وتصبح ساخنة بين الصخرتين، وإثر هذا يزيلون الصخرة العليا، ويحتفظون بالتحتا، لتكون بمثابة مائدة، وهكذا يأكلون لحومهم من دون أي طبخ.

وعلاوة على ذلك يقتاتون ويتعيشون على بعض الحشائش والجذور، ويشربون حليب الجمال والحمير، ويلوكون بأفواههم بعض البقسماط القاسي جداً، وعن هذه القضية تحدث جيروم في رسالته ضد جوفينوس Jovinus:«البداة هم عرب يأكلون الأسماك، وهم اسماعيليون، ويعيش جميع المتوحشون في القفار على حليب الجمال ولحومها، لأن هذا الحيوان من السهل تربيته، وهو يعيش بينهم في أنواء تلك المنطقة القاحلة، ويعدّون أكل لحم الأوز ذنباً من الذنوب»، وفي الحقيقة إن الأوزة التي تعيش على القمح، والجوز، والجذور، والخنشار، والشعير، ليست موجودة بينهم لأنهم لايمتلكون أي طعام من هذاالنوع، فهم يصطادون الأسماك من البحر الأحمر، ويطبخونهم على الصخور الملتهبة من حرارة الشمس، وهم يعيشون على هذا الطعام فقط.

زد على هذا، بما أنهم لايمتلكون مكان سكنى ثابت، يتجولون هنا وهناك خلال الصحراء، ويترحلون وقد نظموا أنفسهم على شكل

فئات، من أجل أن يساعد أحدهم الآخر في سبيل تجنب المخاطر التي تهددهم، ومن هذه الاقتباسات، من الواضح أنه في الأيام الخالية، كان غير مأمون المرور خلال القفار، مثلما هو الحال في هذه الأيام، وذلك بسبب هجمات البداة العرب، التي منها عانى مالوخس Malchus، كما ورد لدى جيروم في« رسالة الراهب الأسير»، حسبما جاء في« حياة الآباء».

ويبدو أن هؤلاء التعساء قد أومىء إليهم في سفر أيوب:٣٠، حيث قال:« الذين كنت استنكف من أن أجعل آباءهم مع كلاب غنمي»، وفي الحقيقة لقد اعتقد شخصياً أنهم غير جديرين بالحياة نفسها فقال:« في العوز والمحل مهزولون عارقون اليابسة التي هي منذ أمس خراب وخربة. الذين يقطفون الملاح عند الشيح وأصول الرتم خبزهم. من الوسط يطردون، يصيحون عليهم كما على لص، للسكن في أودية مرعبة وثُقب التراب والصخور، بين الشيح ينهقون، تحت العوسج ينكبون»، ويبدو أن هذا النص قد قصد به أن يفهم حرفيا على أنه يعني هؤلاء البداة العرب.

وعندما لاتتوفر لديهم أسلاب، ولايمكنهم الاستمرار بالعيش في القفار، ويرغمهم العوز، يتجمعون على شكل جيوش، ويتركون نساءهم وأولادهم في القفار، ويقومون بالإغارة على بعض المناطق المجاورة، حيث يتمكنون أثناء الليل من اقتحام إحدى المدن أو القرى، فيفتحون أبواب البيوت، ويستولون على كل شيء يجدونه، ويعودون بعد ذلك إلى زوجاتهم وإلى صغارهم، وهم لايقتلون الناس، إلاّ إذا حدث ذلك صدفة، وهم يقترفون هذه الغارات في سورية وفلسطين ومصر، ويدخلون أحياناً إلى المدن الكبيرة، وينهبون عدة بيوت ثم يعودون مع أسلابهم، وأثناء اقامتي بالقدس قاموا بذلك في الظلام، وشقوا طريقهم مرتين إلى داخل المدينة للنهب، وقاموا باحداث شغب

وفوضى هائلة، وما من أحـد رد عـاديتهم، ذلك أن جميع الناس قـد خافوا منهم، وهذا ليس غريباً بالنسبة لإنسان عرف الكتابات المقدسة، لأنه في أيام الملوك الأقـوياء جـداً، وعندما كـانت البـلاد تعيش في ظل نظام قوي جـداً، قام البداة العرب بالافسـاد في الأرض، حيث قرأنا في سفـر أخبـار الأيام الثـاني:٢١، كيـف أن البـداة العـرب قـد دخلوا إلى القـدس، ونهبوا كل شيء، حتى أنهم حملوا زوجـات الملك والأولاد من بيته، وأزعج هؤلاء البداة العرب نحميا كثيراً أثناء اعادة بناء القدس مع الهيكل، حيث نقـرأ في سفر نحميا(الاصحـاح الثاني) بأن جشـم العربي كان بين الذين منعوه من إعادة بناء القدس، كما نقرأ عند نحميا نفسه في الاصحـاح الرابع بـأن البـداة العـرب حشـدوا أنفسهم وتجمعـوا ضـد العاملين على إعادة بناء المدينة المقدسة.

وأعتقـد انه إذا مـاحـاول أي انسـان في هـذه الأيام إحـاطة القـدس إحاطة كاملة بالأسوار، والأبواب، والمغـاليق، سوف يبذل البداة العرب كل مـايستطيعـون لإعـاقتـه، وعن هؤلاء البـداة العـرب نقـرأ في سفـر المكابيين الثـاني:١٢، بأنهم حشدوا جيشاً مـؤلفاً من خمسـة آلاف رجل، وخمسمائـة فـارس، وزحفـوا ضـد يهوذا المكابي، لكنهم« هزمـوا من قبل يهوذا، وطلبـوا منه السلام، ووعـدوه بإعطائـه ماشيـة، وبجعله مسروراً بطرق أخرى، ثم إن يهوذا وجد أنهم سوف يكونون بالفعل نافعين له في أشيـاء كثيرة، لذلك أعطاهـم السـلام، وبناء عليـه تصـافحـوا وغـادروا ذاهبين إلى خيـامهم»، ونجـد من هذا النص أنهم اعتـادوا على إزعـاج البـلاد في القـديم مثلما يفعلون الآن، هذا وقـد ورد ذكـرهـم في سفـر المكابيين الأول:٢.

ومامن ملك أوحـاكم كان قط قـادراً على قهر هؤلاء البـداة العرب، وكما قال ديويور في الكتاب الثالث من« تاريخه القديم»الفصل:١٣:« بين سـورية ومصر صحـراء العربيـة، التي هي بلامـاء، وفيهـا ثمار في بعض

المناطق القليلة فقط، ولـذلك يقـوم شعبهـا بسلب الشعـوب المجـاورة، وهم لايمكن غلبتهم بالحرب، وهم يسكنون في منطقة بلاماء، ويحفرون آباراً معـروفـة من قبلهم فقط، هي التي تنقـذهم من جميع المخـاطر من أعدائهم، لأن الذين يطاردونهم إمـا أن يموتوا عطشاً، لأنهم لايعـرفون مـواضع الآبار، أوأن يعـودوا وهم أحيـاء بعـدمـا هدّهم التعب، ولهذا السبب إن البـداة العـرب الـذين يسكنون هذه المنطقـة لايمكن إلحاق الهزيمة بهم في الحرب، وهم يعيشـون أحراراً، ولم يكونوا قـط خاضعين لأي ملك أجنبي، من الآشوريين، أو المدينيين، أو الفرس، ومثل ذلك لم يكن الملوك المقدونيين قـادرين على اخضاعهم، مع انهم امتلكوا جيـوشاً جـرارة»، كما وذكـر بأنهم كانوا يهاجمون القـوافل الملكيـة، أثناء عبـورها لبـلادهم، مثل مهاجمتهم لقـوافل الناس العاديين، ذلك أنهم لايوفـرون أحداً.

وضـد هؤلاء البـداة العـرب وضع الرب ثقله كله(اشعيـا:٢١)، وفي الحقيقة انهم غالبـاً ماأرغموا على مغادرة القفـار بسبب الحاجة إلى المياه، ووقتهـا كـانوا يأتون مع أزواجهم وأولادهم إلى احـدى البلدان، حيث كـانـوا ينصبـون خيمهم إلى جـانب الميـاه في مـراعي خضراء، ويبنون لأنفسهم أكـواخـاً، ويسكنون هناك، مجحفين بحق شعب البـلاد، حيث كانوا يستـولون على القطعان التي يصدفونها في طريقهم، ومـامن انسان يتجـرأ أن يلمسهم، وهـم لن يعـودوا إلى القفـار إلاّ إذا كـانوا محملين بالأسلاب، وذلك بعد استيلائهم على منهوبات كثيرة.

وهم يذهبـون إلى مصر، مثلما يذهبـون داخلين إلى البلدان الأخـرى، وذلك على الـرغم مـن السلطان ملـك مصر والمماليك، الـذين ينظـرون إليهم نظرة كراهية عظيمة، ولقد رأيتهم منتشرين متفرقين في كل مكان، في كل من سورية ومصر، وهم أيضاً يتجولون حول منطقتنا كما سنرى، وهم لايحاولون الاستيـلاء على أية مـدينة، أو على أية قـرية، مع أنهم

بإمكانهم فعل ذلك، لأنهم يقولون بأنهم وحدهم نبلاء حقيقيون، يعيشون على النهب، وليس على العمل، ويمضون أوقاتهم خارج الأبواب في الحقول وفي الغابات، وهذا مايميز النبلاء عن الناس الآخرين، وهكذا دواليك، وهذا أيضاً هو موقف نبلاء سوابيا، الذين يرفضون قبول أي انسان يسكن في مدينة في مبارزاتهم، وبناء عليه، صحيح أن البداة العرب، تعساء كما هم، لكنهم أصحاب شموخ ونظرة عالية إلى أنفسهم، ويتفاخرون جداً بأنفسهم، وترى أزواجهم مزينات بالذهب والفضة والأحجار الثمينة، مع أن ثيابهن مهلهلة، ووجوههن قذرة للغاية، لأنه ليس لديهم ماء للاغتسال به، ويسكنون في خيام وأكواخ مليئة بالدخان، فقد جاء في سفر أيوب:٣٩/٦ قوله:« الذي جعلت البرية بيته، والسباخ مسكنه».

وإلى هؤلاء الناس الأشقياء.... توجه محمدﷺ بدعوته، وجذبهم إلى جانبه، وبذلك تمكن فيما بعد من اخضاع الشعوب الأخرى بالقوة إلى نفسهﷺ بالسيف والرمح، والقوس، وبذلك تمكن من قيادة العالم كله.... بمساعدة هؤلاء الأشقياء، مثلما فعل روملوس وروموس حين جمعا إليهما اللصوص، وقطاع الطرق، ورعيان القطعان، ومزيج مختلط من الناس من الأنواع المتدنية، وبوساطة هؤلاء أوقع روملوس المملكة اللاتينية بالفوضى، ولوث مملكته بالدم البريء.

هنا بداية الحج خلال القفار حيث جرى وصف الطرق الثلاثة عبر القفار، ورحلة العذراء المباركة مع الطفل يسوع إلى مصر

رحلاتنا الآن خلال صحراء ضخمة جداً، سوف يكون من السهل وصفها، على أساس أن القارىء بات عارفاً بكل شيء حول الحمير، وسائقي الحمير، والجمال وسائقي الجمال، والقفار والبداة العرب الذين يسكنون فيها، هذا ومن أجل فهم أفضل، تتوجب الملاحظة أننا نجد في الكتابات المقدسة ثلاثة طرق وجرى الحديث عنها، على أنها موجودة، في القفار، فالطريق الأول، هو الطريق الذي وصل عليه بنو اسرائيل إلى الأرض المقدسة، والطريق الآخر هو الذي سافر عليه ابراهيم، عبر القفار إلى مصر، والذي عبره ذهب يعقوب وأولاده عليه وسافروا بناء على دعوة يوسف، ومن المعتقد أنه بوساطة هذا الطريق ذهب يوسف وزوجته، مريم العذراء الأعظم مباركة مع الطفل يسوع، وذلك لدى الهرب من هيرود(متى:٢)، والطريق الثالث، هو الذي سافر عليه النبيان الياس واليشع في القفار إلى جبل سيناء، انما ليس في وقت واحد بل واحداً بعد الآخر، حسبما ورد الخبر في سفر الملوك الأول:١٩.

ولم يجر اقتياد بني اسرائيل[٢٦—ظ] لدى خروجهم من مصر، مباشرة على طول الطريق الذي يقود إلى الأرض المقدسة، بل ذهبوا إلى جبل سيناء، عبر طريق البحر الأحمر، وذلك بناء على أوامر الرب إليهم، كما أنهم لم يجلبوا إلى جبل سيناء بوساطة أقرب الطرق، بل اقتيدوا عبر طريق طويل في القفار الشاسعة، ثم اقتيدوا ثانية عائدين، وملتفين حتى انتهاء الأربعين سنة، وسبب عدم اقتيادهم عبر الطريق الأقصر إلى فلسطين وهي البلادالتي تتاخم مصر، قد قُدّم في سفر الخروج:١٣، هو أن فلسطين كانت تمتلك مدناً عظيمة، مليئة بالعماليق، ولو أن بني اسرائيل رأوا هؤلاء لدى أول وصولهم، لرجعو ثانية إلى مصر، من

خلال الخوف، كما أن آثام الفلسطينيين لم تكن قد اكتملت وانتهت بعد، كما هو الحال مع العموريين، لذلك لم يكن بالامكان طردهم منها.

وعلى هذا كان ممر بني اسرائيل طويلاً جداً، ووعراً، وقد مضوا خلال القفار، وعبروا شواطىء البحر الميت القصوى، من خلال مملكة عوج، ملك باشان، ومملكة سيحون ملك العموريين، وتابعوا سيرهم حتى المكان الذي يصب فيه الأردن في البحر الميت، وهناك جف نهر الأردن في مواجهة أريحا، وهكذا وصلوا إلى الأرض المقدسة، لكن ابراهيم، ويعقوب ابنه، ويوسف ومريم، والبقية نزلوا إلى مصر، عبر طريق التجار العام، إلى جانب شواطىء البحر الكبير، حيث كان البحر على يمينهم، والقفار على يسارهم، وفي هذه الأيام هذا هو الطريق العام، والطريق السلطاني، للذين ينزلون من غزة إلى مصر، مع أن الطريق رملي وطريق متعب، وعليه من الممكن رؤية بعض آثار رحلة العذراء المباركة، ويوسف مع الطفل يسوع، من ذلك على سبيل المثال، المكان الذي هوجموا فيه، وأسروا من قبل اللصوص، فقد حدثنا أنسلم Anselm أنه عندما كان يوسف مع العذراء مريم والطفل يسوع، سائرين على ذلك الطريق، وعندما كانوا يرتاحون في أحد الأماكن لانعاش أنفسهم، حدث فجأة أن البداة العرب انقضوا عليهم من الأجزاء الداخلية للقفار، وحاصروهم، قاصدين اعتقالهم وسلبهم، لكن أحد الشباب وكان ابن زعيم اللصوص، عندما رأى الطفل في حضن أمه، استولى عليه بشكل اعجازي حب نحوه، ولم يشك بوجود بعض القداسة الربانية فيه، وسأل الأم أن تعطيه الطفل، وتسلم الطفل وحمله بين ذراعيه مع أعمق الاحترام والتقدير، وقبله قائلاً: «أيها الطفل المجيد، ارحمني في وقت الحاجة»، وبفراغه من قوله هذا أعطى الطفل إلى أمه وأعاده مع الدموع، وانتزعهم من أيدي أصحابه، وبعدما بين الطريق الآمن لهم، سمح لهم بالمغادرة، ويقال بأن هذا الشاب كان هو

اللص، الذي عندمـا كـان معلقـاً على الصليب مع المسيـح، قـال له:« ياسيد تذكرني عندما تأتي إلى ملكوتك».

ويقـود الطريق الثـالث من غزة إلى القفـار، مبـاشرة إلى جبل سيناء، وعبره سار الياس والـرجال المقدسون الآخرون، عندمـا ذهبوا إلى جبل سيناء، وهذا كان طريقنا، وقد انطلقنا وفق الطريقة التالية.

سفر الحجاج من غزة نحو الصحراء الكبرى على طريقهم إلى جبل سيناء

في الصباح البـاكر من يوم التـاسع من أيلول، جاء سـائقوا الجمال مع الترجمان، وأخرجوا جميع أثقـالنا إلى وسط الساحة، وجعلوها على شكل طرود ذات أحجام متساوية، ووزنوها حتى يعرفوا كم من الجمال سوف نحتـاج، وقد وجـدوا أثقـالاً تفـوق حمولة اثنين وعشرين جملاً، وأنه من غير الممكن حمل هذه الأثقـال من دون استئجـار ثلاثة جمال زيادة، وهنا نشب خلاف شديد بيننا وبين الترجمان، حيث كانت رغبتنا هي أن يقوم بتأمين الجمال الإضـافيـة على حسابه، وفقـاً لما جـاء في البند الخامس من عقدنا، الذي تقدم لنا ذكره، لكنه رفض ذلك، قائلاً بأن لدينا كثيراً جداً من الأثقـال التي هي بلافائـدة، وإذا ماقمنا بالتخلص من هذه الأشيـاء ورميهـا، هو وقتهـا مرغم على تقـديم الجمال المحتـاجـة، لكن ليس غير ذلك، وفي الحقيقة نظر هو إلى أشيـاء كثيرة على أنها فائضـة لانحتاج إلى استخدامها، لكنها كـانت في الحقيقة ضرورية جداً، وبدلاً—على هذا— من رمي هـذه الأشيـاء والتخلص منهـا، اكترينا ثـلاثة جمال زيادة على حسابنا، وبناء عليـه بات الآن لدينا خمسة وعشرين جملاً، وثلاثين حماراً، وسبعـة سـائقي جمال، وستة سـائقي حمير، واثنين من القـادة من البـداة العـرب، وأدلائنا، واثنين من المسلمين هما الفحـل، كـالينوس الأدنى، وشـاب حبشي، وبذلك بلغ تعـداد جماعتنا إلى أربعين شخصاً، وعندمـا فـرغنا من هذه الأمـور، كان قـد حان وقـت تناول طعام الغـداء، وبناء

عليه أكلنا بسرور، لأن وقت مغادرتنا قد حلّ، وفي الختام شربنا رماناً من كل من النوعين الحلو والحامض،كل واحد بقدر مارغب وأراد، وذلك من أجل امتصاصهم في القفار ونحن على طريقنا، وكانت هذه الفاكهة رخيصة جداً، إلى حد كان يمكن فيه للانسان شراء أربعين أو خمسين رمانة كبيرة، حديثة القطف مقابل مندوس واحد.

وبعد الظهر جاء الترجمان على ظهر فرس، وقدم معه سائقوا الحمير مع حميرهم، ومع أن سائقي الحمير كانوا مسيحيين، فقد ربطوا رؤوسهم وفق الطريقة العربية، حتى يكونوا أقل عرضة للأذى من قبل البداة العرب العابرين للقفار، وجلب سائقوا الجمال أيضاً جمالهم وحملوهم بأثقالنا، لكنهم تركوا سلتين كبيرتين فارغتين، وضعنا فيهما اثنين من الفرسان الحجاج المرضى، بناء على طلب الترجمان تمنطقا بسيفيهما، فضلاً عن هذا جلب بعضهم قسياً، وأسلحة اسلامية، في حين حصل بعضهم على بنادق، وبذلك تسلحنا بأسلحة دفاعية، ومن ثم امتطينا ظهور حميرنا، وزحفت جماعتنا كلها خارجة من غزة، تحت السلاح، وبما أننا كنا ذاهبين إلى العربية، سمح لنا المسلمون بتسليح الحجاج الفرسان، وسائقي الجمال، وسائقي الحمير، فكل واحد منهم كان لديه قوسه، وكذلك سيفه، وخنجره، وكانوا اثناء سفرنا من سورية إلى فلسطين لم يسمحوا لنا بأي شكل من الأشكال، بترك المدينة حاملين للسلاح.

وبعد مغادرتنا للمدينة نزلنا من الرابية، التي عليها تقوم المدينة، إلى أرض منبسطة، وسافرنا باتجاه الجنوب، جاعلين على يميننا مدينة بئر السبع، التي تشكل الحد الجنوبي الأقصى للأرض المقدسة، وبعدما سرنا قليلاً على الطريق العام بين بساتين مسيجة، اقتاد سائقونا جمالنا إلى خارج الطريق، إلى قلب حقل من الحقول، حيث أناخوا الجمال، وأنزلوا الأثقال من على ظهورها، وقرروا إمضاء الليل هناك، وتجاه هذا كنا

منزعجين كثيراً، لأنه كـان مـايزال هناك كثيراً من ضـوء النهـار، لكن كـالينوس الرئيس أخبرنـا بأن الأحمال لم تكن مقسمـة بالتسـاوي بين الجمال، وأن سـائقـي الجمال كـانوا يتخـاصمـون حـول ذلك، ولذلك يتوجب في ذلـك المساء تنظيم كل شيء، لأننا كنا نحتـاج إلى سلام أثناء رحلتنا، وكـان اسم الحقل الذي تحولنا إليـه«قسمه»، وبناء عليـه ترجلنا من على ظهـور حميرنا، ونصبنا خيماً حتى نتمكن من الاستراحـة تحتهم، وعمل بعضهم لأنفسهـم وحـدهم أمـاكن منعـزلـة، بتعليق أرديتهم وجعلهـا ستائـر، ناموا تحتهـا، وبعدمـا نصبنا خيمنا، انتزعنا عصيـاً من الأسيجـة، وطبخنا طعامـاً لعشائنا تلك الليلة، ولغـدائنا في الغد، فهـذا مايحتـاج الانسان القيام به وعمله، لأنـه عندما تكون الجمال محملة تسير بشكل متـواصل من الصبـاح حتى المسـاء، ولايمكنهـا تحمل التمهل أو الوقوف على طريقها، وبناء عليه فإن الذين يصاحبون هذه الجمال عليهم الارتحال دون توقف، ومن ثم تناول غذائهم وهم على ظهور حميرهم.

ولايستطيع الانسـان مطلقاً خـلال وجـوده في القفـار تناول طعـام ساخن، أو الجلوس لتناول طعام الغداء، بل يتـوجب عليه أكل ماطبخه في الليلة المتقدمة، وأخذنا أيضاً من جرارنا مايكفي من خمر لعشائنا تلك الليلة، ولغدائنا في الغد، وأخذنا أيضاً مايكفي من بقسماط، وقسمنا هذه الأشيـاء ووزعناها بيننا بالتسـاوي، فكل انسـان كان لديـه قارورة فيهـا تسلم حصته من الخمرة، وعندمـا بات طعام العشاء، الذي طبخناه على نار واحدة، جاهزاً، جلسنا تحت خيمنا وأكلناه.

وحُذرنا بعدم وجوب نومنا جميعـاً في آن واحد، بل ينبغي بقاء واحد من الحجاج ساهراً بشكل دائم، وأن يقوم بالحراسة وأعمال الدورية أثناء نوم البقية، وذلك خشية أن يقوم اللصوص مع قاطعي الطرق بالدخول إلى مخيمنا ونحن نائمين، وسرقـة حـاجيـاتنا، وفي الحقيقـة كـانت هذه الحراسـات مطلوبة من قبلنا، ضـد خـدمنا، وسـائقي الجمال، وسـائقي

الحمير، أكثر منها ضد الغرباء، لأن هؤلاء القوم سرقوا بقسماطنا، وبيضنا، وسرقوا كل شيء استطاعوه، ولم نكن قط قادرين على مداومة الحراسة بشكل جيد، لأننا وجدنا في الصباح بأن سلالنا سرقت وتركت مفتوحة، وانتزع البقسماط منهن، ومثل ذلك سرق بيضنا من سلالنا، وغالباً ماأمسكناهم وهو يقومون بأعمال السرقة، وتجاه ذلك لم يخجلوا، بل بالحري سخروا منا، ولهذا السبب اجتمعنا معا بعد العشاء، ورتبنا نظاماً لحراستنا، وكان نصيبي البقاء ساهراً بعد منتصف الليل، في الليلة الأولى، وعندما غابت الشمس، تمددنا تحت خيمنا، واستعدينا للنوم، وجرى تنظيم جماعتنا أثناء الليل وفق مايلي: نصبنا أولاً خيمنا، وأكواخنا، ووضعنا أثقالنا في الوسط، ومن حولنا جلس سائقوا الجمال والحمير مع أثقالهم ودوابهم، وترجماننا، الذي كان لايسمح لأي انسان بالتمدد بنفسه خارج المعسكر، أو السير بعيدا عنه، إلاّ لمسافة قصيرة، لمقاصد ضرورية، ووفق الطريقة هذه نظمنا الأمور كل ليلة، فقمنا بحراسة الأطعمة والأشربة، وأيضاً استرحنا.

وعند منتصف الليل، قام الفارس الذي كان يتولى الحراسة قبلي بإيقاظي، لأتولى تنفيذ حراستي، وهكذا سرت حول حشد الرب، وأنا أغني المزامير، وممسكاً عصا في يدي، وفجأة انفجر على مقربة منا صراخ وأصوات مرتفعة، وولاويل صادرة عن عدد كبير من الناس يصرخون ويولولون مع بعضهم، ولم أعتقد أن الأمر كان سوى أصوات أناس قد ارتفعت بالبكاء، ولذلك وقفت حيث أنا وأصغيت، وأنا ممتلىء بالخوف والدهشة، وظننت أن المسألة هي أن المسلمين كانوا يقيمون احتفالاً مامع ألعاب مأساوية أو ساخرة، أو أن مصيبة مرعبة أووباء قد نزل بهم فجأة، أو أن ساطير أو بعض المخلوقات المخيفة، الموجودة في القفار، تولول بقصد منعنا من دخول الصحراء، وإلى هذا اليوم لست أدري ماالذي كانه الأمر، غير أن بعضهم قال لي، بأن ذلك قد صدر عن

مجموعة من الذئاب كانت تعـوي، وهذا كان من الصعب عليّ تصديقه، لأن الصراخ بدأ فجأة، وبعد وهلة توقف فجأة، ثم بعد مرور وقت من السكون انفجــر ثانيــة، وبدت الأصـوات وكـأنها صراخ ناس يتألمون، ولدى انتهاء الصراخ، سرت متـابعاً حراستي، فـوجدت ترجماننا المسلم، كـالينوس الأكبر، يقـوم بالصـلاة وبالركـوع والسجـود، وفقـاً لطريقـة المسلمين، وعندما سمعني توقف عـن الصلاة، وسألني لماذا أنا لست في خيمتي، وعندمـا أخبرته أنني مستيقظ للقيام بالحراسـة رضي بذلك، ثم استدار نحو الجهة الجنوبية من القفـار، وأراني نجماً كان لامعاً جداً، كان قد أشرق للتـو، وقال لي: ان هذا نجم القـديسة كاتـرين، وهكذا يعرف بهذا الاسم من قبـل جميع الناس، ثم استطرد فجـأة يقــول:« تحت هذا النجم يوجد جبل سيناء، الذي نحـوه نحن مرتحلون، وعندما نسير أثناء الليل، لن نأخذ طريقاً سـوى الطريق المباشر نحو هذا النجم حتى نصل ونحن تحتـه إلى ظهـر جبل سيناء»، وبعـد مغــادرتنا لجبل سيناء غـالبـاً مـاكنت أقوم بالنظر نحـو الخلف، نحـو هذا النجم، ولقـد رأيته عندمـا كنت في مصر، وفي الاسكندرية، وعبر مسافة طويلة، عندما كنا مبحرين على ظهـر البحر، لكن بعـد جوازنا لقبرص، ووصـولنا إلى مابين جـزر السيكلاد، لم يعــد بإمكـاني رؤيتــه، بسبب بعــده الكبير، وبسبب تغيّر الأنواء، وهكذا انقضت تلك الليلة.

الاستمرار بالسفر في القفار

في اليـوم العاشر، استيقظنا مجدداً عند بزوغ الفجـر، فقوضنا خيـامنا، وأزلنا أكواخنا، وجمعنا جميع أثقالنـا مع بعضها، وهيأنا أنفسنا للمغادرة، وكـان سـائقـو جمالنا بطيئين، وحمّلوا الجمال وكأنهم متعبـون من العمل، ويعملون ضـد رغبتهم، وعـلاوة على ذلك تركـوا أشيـاء كثيرة على الأرض، حـولها كـان هناك صراخ كثير، ونشبت خصـومـات فيما بيننا، ولعناهم بـالألمانيـة، ولعنـونا بالعـربيـة، مـن دون أن يفهم أي الطرف الآخر، وفي الحقيقة أنا متعب من الكتـابة عن الاحراجات التي آلمونا بها كل صبـاح، أثناء تحميل الدواب، لأنهم اعتـادوا عن قصد ترك فـراش، أوسلة، أوحقيبـة على الأرض، عـارفين بأننا سـوف نتفقـد مثل هذه الأشيـاء ونراقبهـا، وقـد فعلوا هذا مـع غـاية أن يقـوم الحاج الذي هو صـاحب الحاجة المتروكـة والذي هو صـاحبها، بـرجائهم لحملهـا، لأنه مرغم على ذلك، وعند ذلك يقـومون من جهتهم، فيطلبـون منه مالاً أو خبزاً، أوأن يتظاهروا أنهم عن عمد سوف يتركونها مالم يدفع لهم، وبناء عليه، قمنا في البـداية، قبل أن نختبرهم، وقبل أن يعرف أحـدنا الآخر، فأعطيناهم كثيراً من المال ومن البقسماط، لكن بعدمـا عرفناهم، وعلمنا أي نوع كـانوا، كنا نأمـرهـم حـول هذه الأمـور، ونرغمهم على تنفيـذ رغباتنا.

وبناء عليـه استيقظنا قبل طلوع الشمس، وتخاصم أحـدنا مع الآخـر حتى اشراق الشمس، ذلك أنهم تظاهـروا بأنهم ينوون العـودة إلى غـزة مع جمالهم، وكان هذا أمراً مـزعجاً جدا بالنسبة لنا، وقـد ضايقونا كثيراً بهذا الادعـاء، لكن أخيراً تحدث ترجماننا مغضبـاً إليهم، وأرغمهم على أخذ جميع أثقالنا، وهكذا غادرنا ذلك المكان، وحقل قسمه، وسرنا فوق أرض منبسطة، كـانت في الغالب رملية وجرداء، وبعـدما سرنا حـوالي الميل ألماني، قـام ترجماننا، المعلم Sabathytanco الذي هو كـالينوس

الرئيس، والذي هو رئيس مشفى القديس يوحنا في القدس، وهو أيضاً المسلم الذي قادنا وحكمنا خلال جميع رحلاتنا من يافا حتى هذا المكان، قام بتوديعنا مع ابنه، وسلم قيادتنا إلى كالينوس الأدنى، أي الفحل المسلم، وإليه أوكل أمور سائقي الجمال مع سائقي الحمير، وعاد إلى القدس، لأنه لم يكن ملزماً بالسفر عبر القفار، حسبما ورد في البند السادس من عقدنا الذي ذكرناه من قبل، يضاف إلى هذا، كنا تحدثنا من قبل عن هذا الرجل، الذي هو كالينوس الرئيس، وعن كالينوس الأدنى، الذي بقي بصحبتنا، وقد سمعت فيما بعد، بأن كالينوس الرئيس قد مات، وأن ابنه، الذي اسمه إبراهيم قد خلفه في منصبه، ويبدو لي بأنه شاب جيد ولطيف، مع أنه متكبر بعض الشيء، وصاحب أخلاق متشامخة.

وبعد مغادرة كالينوس، الذي كان حتى الآن حامينا، واسى أحدنا الآخر، وشجع كل منا صاحبه من أجل تحمل اضطراباتنا بصبر، وهكذا مضينا سائرين على طريقنا، وقد رأينا على جهة يميننا البحر الكبير، الذي لم نكن قد رأيناه منذ اليوم الذي غادرنا فيه يافا، ورأينا في هذا اليوم مدينة بئر السبع، التي هي نهاية الأرض المقدسة، وعلاوة على ذلك رأينا القفار وجبالاً ضخمة جداً، نحوها كنا نسير مع شيء من الخوف، لأنه بدا لنا بأن الأرض كانت مظلمة، والجبال مغطاة بالغيوم، وليس بالندى أو بالأبخرة كما هو معتاد، وأن سبب ذلك ومرده إلى عزلة البلاد، وأثناء متابعتنا لسيرنا وصلنا إلى حقل مليء بمختلف أنواع الأشجار الضخمة، وفي هذا الحقل من المعتقد أن الياس قد جلس تحت شجرة عرعر، وأُنعش من قبل ملاك، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول:١٩/ ٥—٦، وانتصب هنا كثير من أشجار الصنوبر، إحداهن كانت ذات أوراق سميكة، وقد وقفت إلى جانب الطريق، وكانت مزهرة، وصدر عن أزهارها رائحة طيبة جداً، لكن لن تكون هناك ثمار

بعد هذه الزهور الرائعـة، بل الذي سيكون بعض الأشواك الحادة، التي هي بيضــاء حتى الرأس، الـذي لونه أحمر، وكأنه مغمس بـالدم، وهذه الشوكة حادة جداً إلى حـد أن أخف وألطف لمسة بها تجرح اليد، ويعتقد بعضهم أن رأس الشوكـة بطبيعتها مسممة، وهـذا هو سبب أن الاصابة بالجراحة بها سهل جداً وأعلن بعضهم أن تاج الرب يسوع المصنوع من الشوك، كان قد حيك من هذه الأشواك، لأنها تنمو حول القدس أيضاً.

ورأينا كثيراً من أشجـار الأشـواك هـذه في أرجـاء القفـار، غير أنني أرغب في أن أقوم بذكـر خاص لهذه الشجرة بسبب الممارسـات الخرافية الغيبية للمسلمين وللبـداة العرب المتعلقة بها، ذلك أنه مـامن أحد منهم يمر بها من دون أن يمزق قطعة من ثيـابه ويعلقها على الشجرة، ولذلك الشجرة مليئة بقطع الأقمشة، إلى حد لو أن انسانا رآها عن بعد لظن أن لها أوراقاً بيضـاء، وحول هذه الممارسات انظر ص١٣١٦، وجـرى تبيان أسباب هذه العادة في ص٦٣، وإلى جانب هـذه الأشجار قامت أشجار تين كثيرة، مثل البلوط، محملة بأنواع مختلفـة من التين وذلك بالاضـافـة إلى التين العادي، ولذلك جمعنا بعضاً من هذا التين وأكلناه، ويطلق على هذه الأشجار اسم أشجار تين فرعون، وهن يحملن الثمار سبع مرات في السنة، وثمارهن ليست ثماراً بائسة، بل ثماراً في غاية الجودة.

ومع حلول المسـاء وصلنا إلى قـرية اسمهـا لبهم Lebhem، حيث أنزلنا الأحمال عن ظهــور دوابنا، ونصبنا خيـامنـا، وأمضينا الليلة، وكنا نحن الحجاج لدينا الرغبة في السير مسـافة أطول، لكن أدلاؤنا لم يرغبوا بذلك، وطلب منا كـالينـوس أن نكون هادئين، على أسـاس أننا سـوف نصل على الفـور إلى أمـاكن وأيام، سـوف — نحن ودوابنا — سنعـاني خلالها من التعب والشقـاء، لذلك يتوجب علينا عـدم التسرع في البداية بل أن ندخل إلى المتـاعب والشقاء بالتـدريج، ونصبنا خيامنا إلى جـانب بركـة، وبئر عتيق، كان عظيماً وعميقـاً، وكان يحتـوي فقط على قليل من

الماء القذر، واسم هذا البئر لدى المسلمين، بئر القديسة مريم، ويقولون أنه عندما كان يوسف آخذاً العذراء إلى مصر مع الطفل يسوع، أرغم بسبب الحاجة إلى الماء على التحول عن الطريق السلطاني العام، وحصل هنا على الماء لأجل ابنه المسيح، ومن أجل أمه، ومن أجله شخصيا، وحيث أننا لم نجد ماء فيه، أرسلنا سائقي حميرنا مع الحمير وروايا الماء إلى بركة أخرى على مسافة بعيدة، وقد جلبوا لنا ماء، وعلى مقربة منا قام مسجد، كان هو المسجد الجامع للقرية، وإليه دخلنا، ونظرنا إليه، وضحكنا وسخرنا من خرافات وحماقة دين المسلمين.

وتخلف واحد من الفرسان الحجاج وراءنا في المسجد، فبعدما هرب بقيتنا منه لخوفهم من المسلمين، بقي هو، ذلك أن النوم قد غلبه، فقد تمدد هناك وراح نائماً، ولدى حلول وقت العشاء لم يظهر بيننا، وشرعنا بالتفتيش عنه بالسهل، لكننا لم نستطع العثور عليه بأية طريقة من الطرق، ولم نكن نتصور أنه كان نائماً في المسجد، بسبب خطورة فعله ذلك، لأنه لو رآه أي مسلم في المسجد، لأقدم إما على قتله، أوأخذه أسيراً، ولقد انزعجنا كثيراً بسبب ضياع رفيقنا، لكن أخيراً بعدما اكتمل نومه، خرج من المسجد، وقدم إلينا، وقد سررنا بشكل مضاعف من أجله، أي أن تقول، بسبب عدم ضياعه، ثم بسبب أن مامن مسلم عثر عليه، وانتشرنا جميعاً فوق السهل لجمع حطب للنار، لنطبخ عشاءنا، وغداءنا من أجل الغد، كما تقدم بنا القول، وبعد تناول العشاء حملنا أنفسنا إلى الاستراحة، إنما عيّنا من يتولى الحراسة، كما فعلنا من قبل.

السفر إلى قفار قادش برنيع

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان عيد الشهيدين: بروثوس Pro-thus وهيسينثوس Hyacinthus، والشهيدين فيلكس وريغولا Reg-ula المدفون في ثورغو Thurgau، استيقظنا قبل ضوء النهار، واستعدينا للانطلاق، وقد حملنا دوابنا مع قسط كبير من الخصام

والصراخ، وكنا غـاضبين جـداً من سـائقي جمالنا، وهم أيضـاً كـانوا غاضبين منا، لأنهم تعاملوا معنا من دون اخـلاص وصدق، مثلما حدث في البـارحة، ولدى مغـادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى سهل واسع جـداً، وأجـرداً، كـان مـن غير الممكن بالنسبـة لنا تحديد نهايتـه إلاّ من الجهـة الغـربية، حيث كـان يحده البحر الكبير، والـذي كان على مسـافة بعيـدة عنه.

ولم نر في هذه السهـول لابشر ولاحيـوانات، ولاقـرى، ولابيـوت، ولاأشجـار، ولاأعشاب، ولاشعـراء، بل شاهدنا فقط الأرض الرمليـة، قد شويت بحرارة الشمس، وسرنا فوق هذه المساحات الشاسعة متعبين لساعات طوال، ونحن نعاني من حرارة الشمس، ووصلنا بعد الظهر إلى بقعـة فيها عـدد من التلال، وكـانت غير مستوية، وقـاحلة، ونصبنا هنا خيمنا بين رابيتين، وكان ذلك في المساء، وكان اسم هذا المكان بالعربية: الحواطة Chawatha، ووجدنا هنا أدلة كثيرة، على وجود سكنى بشرية قديمة، لأننا وجدنا فوقنا اثنتي عشرة بركة مسورة، كان من حولها كثيراً من القرميد المكسر، وآنية محطمة، ورماد مع مواقد حدادين، وقد بدا لنا بأن هـذه البرك لم تعمل من أجل احتـواء مـاء للشرب، بل لتحضير صلصـال من أجل صنع قـرميـد وفخـار، ورأينا في هذه البرك أجسـاد أفاعي ميتة كبيرة ومخيفة، وحيـوانات غير معروفة بالنسبة لنا، ومثل هذا وجـدنا مقبرة لغير المسيحيين، ووجـدنا في أمـاكـن تجاويف وخنادق محفورة من قبل قوم بحثاً عن رخام أبيض، الذي من الممكن استخراجه من جوف تلك الأرض، ومن المشهد العـام لذلك المكان أعتقد أن تلك المنطقة لابد أنها قادش برنيع، ونصبنا هنا خيمنا بسرعة حتى نتمكن من أن نطبخ لأنفسنا بعض الطعـام، لأننا لم نكن قـد تغدينا في ذلك اليـوم، وكنا في اليـوم المتقـدم قـد أعـددنا لحماً لغـداء هذا اليـوم، لكن عندمـا أخـرجناه من جعبنا، وجـدناه قـد فسـد، ولـذلك رميناه، وتغـدينا جبناً

وبقساطاً، ذلك أن الحر الشديد الذي شعرنا به عندما كنا نعبر ذلك السهل الشاسع قد حول لحمنا وأفسده، وأرسلنا سائقي حميرنا مع جرار وروايا ليحضرو لنا ماء من صهريج موجود على مسافة بعيدة، وفي الوقت نفسه نشرنا أنفسنا فوق المنطقة بحثاً عن عصي وحطب للنار، والذي وجدناه فقط بعض الحشائش الجافة، التي نمت مع مطر الشتاء، وجفت الآن تماماً، واقتلعنا هذه الحشائش من جذورها، وعملنا كومة كبيرة من أجل النار، ولم يكن هناك واحد بيننا كان معفياً من القيام بهذا العمل، بل سعى رجال الدين، والكهنة، والكونتات، والبارونات والفرسان جميعاً بكل اتجاه لجمع الحطب أو العصي للاحتراق، وعندما جمعنا جميع مااحتطبناه، انتظرنا طويلاً، ونحن نتطلع إلى الماء، لكن سائقي الحمير تأخروا كثيراً حتى رجعوا، لأن رعاة ذلك الموضع أبعدوهم عن البئر، فضلاً عن هذا، كان البئر بعيداً جداً عنا، وحصلوا أخيراً على الماء بعد صعوبات، وعادوا إلينا مع غياب الشمس مع الروايا وهي مليئة.

وفي البداية كان الماء الذي في الروايا الجلدية مقرف بالنسبة لنا، لأن الماء داخل الأوعية الجلدية يأخذ لوناً مثل لون الدم، ويكتسب طعم الملوحة من الجلد، ويفقد كل خواص عذوبته، ولذلك كان الطعام الذي يطبخ بذلك الماء يحصل على لون وطعم جلد مدبوغ حديثاً، علاوة على ذلك، غدت جرارنا، ودوارقنا، وقواريرنا، التي وضعنا فيها ماء من الروايا الجلدية ملوثة بالرائحة نفسها، ومع ذلك إنه على الرغم من ذلك، غالباً ماأصبحنا عطاشى إلى أبعد الحدود، ذلك أن الماء الذي كان في قواريرنا قد ذهب كله، لذلك كنا نضع أفواهنا على الروايا الجلدية، ونعدّ من الرفاهية امتصاص الماء القذر من القرب الملوثة، وكنا في غاية الامتنان لسائقي الجمال ولسائقي الحمير لمنحنا تلك الشربة لابل غالباً مادفعنالهم نقوداً فضية مقابل السماح لنا بامتصاص الماء من الجلود غير

المدبوغة ذات الروائح المقيتة.

وبعد العشاء استلقينا في خيمنا ونمنا، إنما ليس من دون خوف، لأن الأرض كانت مليئة بحفر جحور الأفاعي، وكنا نخشى من لدغهم، لكن بحماية الرب، لم نتعرض لأي أذى في ذلك المكان.

الاستمرار بالسفر نحو الجزء الداخلي من القفار

وفي اليوم الثاني عشر حملنا جمالنا باكراً قبل ضوء النهار، وأسرجنا على حميرنا، وغادرنا الحواطة في الظلام، لكننا أرغمنا على السير ببطيء شديد مع الجمال والحمير، لأن الأرض كانت مثل خلية نحل، مع حفر جحور الأفاعي والثعابين، ففي كل مكان كان الموضع مليئاً بالحفر الصغيرة، لذلك كان من الصعب على الدابة أن تقوم بخطوة، أو تضع حافرها دون أن تغطس عميقاً في الأرض، وفي ذلك الصباح لم يكن بين الحجاج واحداً لم يسقط ثلاث مرات أوأربع مع دابته، ورأى واحد من سائقي جمالنا ثعباناً كبيراً وطويلاً ، فرماه بنشابه جرحه بها، ونصب الثعبان المجروح نفسه وأعدّ نفسه للانتقام من عدوه، لكن السائق امتشق سيفه، وقطع الثعبان إلى قسمين، ثم إنه رمى هاتين القطعتين بعيداً عن بعضهما، وطلب منا أن نسير فيما بينهما، خشية أن تتحدا ثانية، لأنه اعتقد أن القسمين سوف يتحدان ثانية مالم يعبر الناس فيما بينهما، ولست أدري فيما إذا كان هذا وهم فقط، غير أنني رأيت الشيء نفسه يفعل في بلادنا عندما جرى قطع ثعبان إلى شطرين، وسرنا لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات فوق هذه الأرض الملغومة، التي لايمكن عبورها في أيام الربيع لأن الأفاعي والثعابين تكون خارجة من جحورها.

ووصلنا من هناك إلى منطقة مهجورة وصحراوية، لأن البقعة غدت قاحلة أكثر فأكثر وغير مسكونة، ووصلنا إلى موضع، بدا وكأن ينابيع كثيرة قد تدفقت فيه، أوأنه كانت هناك بحيرة، فقد كانت هناك كثيراً

من الأقنية العميقة، عملت من قبل المياه أثناء جريانها، ومع أن الأرض كانت منبسطة، لكنها كانت غير مستوية أبداً، ولذلك أرغمنا بشكل مستمر على الصعود إلى تله والنزول منها مع كثير من التعب، وعند الظهر وصلنا إلى القفار الحقيقية، وإلى مكان مهجور، حيث لايمكن لإنسان أن يعيش، وحيث أيضاً ليس هناك من سكان، ذلك أننا خرجنا من السهل إلى منطقة تلية كانت مشوية بحرارة الشمس، وكلها كانت قاحلة، مليئة بجبال صخرية، وروابي رملية، وأودية صخرية ومرعبة.

وعندما صرنا في القفار، واجهنا قافلة، أي جماعة من الناس، مع جمال وحمير، وكنا خائفين جداً، من أن يكونوا من لصوص الصحراء، لكن عندما تقابلت الفئتان مرت كل واحدة بالأخرى بصمت، وكنا دوما نرتعب كثيراً لدى مقابلة أية أناس مهما كانوا، لأننا أخبرنا من قبل بأننا لابد من أن نعاني من كثير من الشرور على أيدي البداة العرب في القفار.

ووصلنا بعد هذا إلى منطقة، رأينا فيها عن بعد خياما وأكواخاً واقفة على طريقنا، ولدى رؤيتنا لها شعرنا بإحباط كبير، وقررنا بأنفسنا تحمل الاضطرابات، لأن القفار ليست مكانا يستطيع الانسان الدفاع فيه عن نفسه، أوأن يقوم بصدّ عدو واحد، بل هي مكان على الانسان أن يتحمل فيه بصبر ماينزلوه به، وأن يتنازل لهم، وعندما وصلنا إلى هذه الخيم، رأينا أنه قد وقف أمامها رجال شرقيون سود، يحملون رماحاً، وجاهزين للدفاع عن أنفسهم، لكن ليس للهجوم علينا، ولقد نظروا إلينا، غير أنهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة لنا، فتجاوزناهم بصمت وبسرعة، وكنا مسرورين نحو تصرفهم الهادىء، ولعلهم كانوا كذلك مثلنا، على افتراض أنهم كانوا أيضاً خائفين منا.

وبمتابعتنا السير وصلنا إلى سهول عريضة، قد أحرقتها الشمس، عبرها لاقينا تقدماً جيداً عبر القفار، ورأينا في أماكن كثيرة، قريبة منا

وبعيدة، دخاناً صاعداً من نيران، وقد ارتعبنا تجاه ذلك رعباً شديداً، لأننا ظنناهم نيران معسكر حشود من البداة العرب، لكن كالينوس أخبرنا، وكذلك التجربة والخبرة علمتنا، أنه لم يكن هناك لاانسان ولانار في تلك الأماكن، لكن الرياح أثناء هبوبها تشكل زوابع، يرتفع بها الغبار والرمال الناعمة، وبذلك تبدو وكأنها دخان صادر عن نار.

وعند المساء وصلنا إلى منطقة، حيث الجبال، والتلال، والأرض المنخفضة، وجميع الأماكن التي أمكن رؤيتها بيضاء، ووصلنا أخيراً إلى قعر وهدة وعرة، أسموها غين Gayan حيث نصبنا خيمنا فوق أرض شديدة البياض، وهنا تمكنا بعد صعوبة بالغة وسعي إلى هنا وهناك من جمع مايكفي من حطب لاشعال النار، ولم يتجاوز ذلك حجم عصاتين، لأنه لم يكن هناك سوى بعض النباتات الجافة القليلة، التي خرجت من الأرض في أيام الرطوبة، وعندما كان الحر ليس شديداً، ثم إنها جفت عندما تعرضت لحرارة الشمس، وكان ماجمعناه أشبه بالأعشاب، وكان جميع ماوجدناه شوكياً وله رائحة طيبة، لذلك صدر عن النار دخان له رائحة عطرة، وطبخنا وتناولنا عشاءنا، وفي الوقت نفسه كان سائقو جمالنا وسائقو حميرنا قد جمعوا كومة من الحطب، لعمل معجنات على الموقد، وكانوا يتصرفون كمايلي: كانوا يوقدون ناراً عظيمة، إلى جانبها يمدون جلداً فوق الأرض، ويضعون فوق الجلد طحينا كانوا قد حملوه معهم، ويصببون الماء فوق الطحين، ويعملون من ذلك عجينة، وعندما تصبح العجينة جاهزة، وبعدما يعملونها على شكل خبزة واسعة ورقيقة، وتكون الأرض قد احترقت بالنار، يكشطون الرماد المحترق عن المكان الذي كانت فيه النار، ويمدون العجينة فوق ذلك المكان الحامي ثم يغطونها ثانية بالرماد والفحم، وبذلك يتم خبزها، وتصبح خبزة طيبة مطبوخة في الموقد بشكل جيد، وبعد حصولهم على الرغيف الساخن، كانوا يفتتونه إلى قطع، يضعونها في قدر، ويصبون عليه زيت الزيتون

حتى تندهن كل قطعة، وهكذا يأكلونها، كما نأكل معجناتنا.

وعندما يأكلون هذا الطعام، يشعرون بالسرور العظيم، ويرون أنفسهم أنهم تمتعوا بطعام لائق بالملك، لكن عندما لايتمكنون من الحصول على نار، يضعون طعامهم على الأرض حتى تنطبخ في الشمس، التي حرارتها في وسط النهار تشابه حرارة أتون، وفي الحقيقة حرارة الشمس عالية جداً، إلى حد يجد كل طباخ أنها كافية لطبخ بعض المعجنات، وقد رأى في القفار القديس بوستيموس Postumius قدراً مليئاً بالحشائش، وهو يغلي من دون نار، وذلك حسب ماجاء في Speculum Historiale — الكتاب التاسع عشر، الفصل:١٤، فهم يشوون اللحوم بين حجرتين، ساختنين بحرارة الشمس، كما تحدثنا من قبل، وشرعنا في تلك الأمسية نأخذ طعاماً من مخزوناتنا، لأننا استخدمنا جميع الأطعمة الطازجة التي جلبناها معنا من غزة، وعند غروب الشمس أمرنا كالينوس بإطفاء النيران تماماً، حتى لايمكن رؤية شرارة أو جمرة منها خلال الظلام، وأمرنا بالاحتفاظ بحراسة يقظة أكثر من ذي قبل، موضحاً بأن هذا المكان لم يكن أميناً بل كان خطيراً، بسبب الغارات المتوالية للبداة العرب، وهكذا أقمنا حراسة يقظة، وذهبنا إلى النوم، ولم نتعرض لأي ازعاج، مع أننا كنا في بقعة مرعبة جداً.

خطر العواصف في الرمال

واستيقظنا في الثالث عشر بعد مضي منتصف الليل، فقوضنا خيامنا وطويناها، وحملنا دوابنا أثقالنا، وغادرنا قفار غين، ووصلنا مباشرة إلى جبل رملي، تسلقناه بصعوبة، لأنه جلب إلى هنا مؤخراً، بوساطة ريح رملية، ولم يكن الرمل بعد راسخاً، ولذلك غطست الدواب في الرمال، وكأنها كانت تسير خلال ثلج عميق، علاوة على ذلك بدأت الريح تهب تحت أقدامنا، وتحمل الرمال وتنقلها، وبدأت للمرة الثانية بنقل الجبل

من مكانه إلى مكان آخر، وشرعت هذه الهضبة التي كنا نسافر بجوارها بالتلاشي ساعة تلو أخرى، مثلما يحدث للماء عندما تهب الرياح عليه، ولم يكن بإمكاننا النزول إلى الجانب الآخر هناك، إلى الوادي، بسبب الرمال المتحركةوخشية الوقوع في العاصفة، لأن الذين يقعون في عاصفة رملية في هذه المناطق، يصبحون عرضة للهلاك أكثر من الذين تغرق سفينتهم في البحر، وأرغمنا أخيراً على فعل ذلك، ونزلنا إلى الوادي، لكن ليس من دون اضطراب من الرمال التي انصبت فوقنا، وكان انصباب الرمال هذا أكثر إزعاجاً بمائة مرة من نزول أية كمية مهما كانت من الأمطار، وعندما دخلنا إلى الوادي سرنا فيه فوق رمال قد انتشرت حديثاً، وكان هذا واديا ضيقاً، محاطاً من كل جانب بتلال رملية، ولولا أن الرياح كانت معاكسة— وهذا بفضل حماية الرب قد وقانا— لانصبت الرمال من كلا الجانبين في الوادي، ولكانت عاصفة هوجاء قد وضعتنا في خطر الاختناق، كما حدث بالغالب للذين يرتحلون خلال الصحراء في هذه الأماكن، وفجأة انحرفنا إلى الجانب، وخرجنا من الوادي، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل كبير، أسماه البداة العرب وادي Wadalar ، وهناك فوق قعر هذا المجرى آثار واضحة، تبرهن أنه كان مليئاً بالماء في أيامه، وكانت هذه المياه تحمل بوساطة قناة لتصب في البحر الكبير، لأنها جرت مباشرة نحو البحر.

ولم تكن الجبال حول قعر هذا المجرى رملية، بل كانت حجرية، لذلك توفر في القعر بعض النباتات، والأعشاب والحشائش، وكان بين أنواع النباتات، نبتة لها أغصان صغيرة كثيرة، نابعة من جذرها، وهذه الأغصان لاتنمو عالية في الهواء، بل تمتد طويلاً فوق الأرض وتبتعد كثيراً عن الجذر، وعلى هذه الأغصان قد تعلق كثير من التفاح الجميل، ذي اللون الأخضر المشوب بالرمادي، وهي ذات شكل مستدير، وبحجم قبضة الانسان، وعندما رأينا هذه التفاحات، أغرانا جمالهن حتى

ترجلنا من على ظهـور حميرنا وقطفناهن، وفي تلك الأثناء تابع أدلاؤنا سيرهم وهم يضحكون، لأنهم عـرفـوا طعم هذه التفاحـات، وهو مـالم نعـرفه نحن، لأننا لم نكن قـد سمعنا بهن، ولم نشاهدهن من قبل، وقـام الذين قطفـوا هذه التفـاحـات بوضعهن مبـاشرة في أفـواههم، ناوين أكلهـن، غير أنهن كن مـن المرارة بمكـان، أنهن قبـل أن تصل أسنـانهم إليهن، تقلصت شفـاههم، لأنه مهما كانت مـرارة أي حيوان مـائة مـرة ليست بدرجة هذه التفاحات، فلقـد كانوا يقطينا برياً، كان يطلق عليهن اسم القثـاء البري، وعنهن قيـل في(سفـر الملوك الثـاني:٤/ ٤٠):« في القـدرمـوت» وأخـذنا معنا بعضـاً من هذه التفـاحـات، وكنا نرغـب في حملهن معنا إلى موطننا في بلادنا، لكـن بسبب مرارتهن الهائلة، لوثوا كل شيء لمسـوه، وتلوثت أيدينا بالمرارة لأيام عديدة، وكـان من غير الممكن إزالة ذلك لا بـالغسيل ولابالحك، وحـدث مثل ذلك لسكاكيننـا التي قطعناهن بها، وفي البـداية وضعت تفاحتين في سلتنا، التي حفظت فيهـا اللحم، والبقسماط، والجبن، وقـد تلوثـوا جميعـاً بالمرارة، ولذلك لم يعـد بالامكان أكلهـن بأي حـال من الأحـوال، ولذلـك أرغمت على رمي اللحم، والخبـز والجبن، واليقطين كلـه مع بعضـه، وفي الوقت نفسـه تلوثت السلة نفسهـا بطعم المرارة، وهكذا كـان كل مـاوضعته فيهـا فيما بعد، قد التقط طعم المرارة.

وارتحلنا على طـول قعـر مجرى السيل هذا، بين هـذه المزروعـات الخضراء، باتجاه الغـرب، حيث سـايرنا طريق القناة، وبعـدمـا سرنا بمحـاذاتها لمسـافـة طويلة، انتهت الجبـال الصخـرية، ووصلنا ثانيـة إلى منطقة رمـالها ناعمة جـداً وعميقة، وقـد كانت الرمـال تنصب في ذلك الوادي من الجبال، ولم يكـن في ذلك الجزء لاأعشاب ولاأوراق، ولاأي شيء أخضر، كـان من الممكن رؤيته، لأنه مـامن نبات يزرع هناك كـان يمكنه النمـو، على أسـاس أن البـذر كـان في أرض متعـرجـة متماوجـة

متبدلة، رملها الجاف يتحرك مع كل هبة للريح، والمحصول الوحيد الذي كان ينمو هناك هو تلك المزروعات التي كانت تنمو بسرعة فائقة، وبفضل التربة والمناخ، يمكنهن منع هجمات الرياح، وفي الحقيقة قد قيل أنه في هذه الأماكن تصل البذور إلى أقصى نموها في أقصى الأيام حرارة وعطشاً بعد زراعتها.

وعندما وصلنا إلى حيث بدأت حافة الوادي تصبح منخفضة، انحرفنا جانبا عن قعر مجرى ذلك السيل، وتسلقنا فوق الطرف الرملي للوادي، على الجانب الجنوبي، ونزلنا على الجانب الآخر إلى قعر مجرى سيل آخر، يجري من الجنوب نحو الشرق، ومن خلاله تصب المياه في البحر الميت، وذلك عندما يكون فيه أية مياه، ولوأن أي انسانساير هذا المجرى، لمسافة عشرة أميال، لأمكنه أن يصل إلى البحر الميت، الذي يمتد على شكل لسان طويل من سدوم حتى هذه القفار، وكان قعر هذا المجرى وعراً، وكانت الحجارة والصخور في الجبال على الجانبين هناك بيضاء جداً، وكأنها مغطاة بالثلج.

وسرنا مباشرة عبر مجرى السيل هذا، ولم نسر إلى أعلاه أو نحو أسفله، بل نزلنا من الضفة الأولى، ثم تسلقنا الضفة الأخرى، وعندما صرنا في الأعلى، مضينا مسايرين لجرف لبعض الوقت، لأن الأرض كانت منحدرة كثيراً، ومن غير الممكن الصعود مباشرة، لأن الصخور في الأسفل كانت واقفة حادة مثل الأسنان، وعندما امتلكنا الفرصة للنزول، نزلنا عبر منحدر منزلق، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل عميق آخر، كان اسمه مجدبا Magdabee ، وكان حجرياً وفي غاية الوعورة، وكان كله قاحلاً من دون أي شيء أخضر فيه مهما كان نوعه، وجعلنا جمالنا تنوخ في مكان وعر إلى أبعد الحدود، في قعر مجرى السيل هذا، ونصبنا خيمنا، واستعدينا للاقامة هناك تلك الليلة، وبعثنا بسائقي حميرنا ليحضروا لنا ماء من سبخة، قد قيل بأنها ليست بعيدة، لأننا لم

نتجرأ على نصب خيمنا مع جميع جماعتنا إلى جانب برك أو صهاريج في القفار، لأن البداة العرب ينصبون، بشكل عام، خيامهم هناك، ومن الصعب العيش معهم.

ووزعنا أنفسنا حول مجرى السيل، بحثاً عن عصي لنعمل ناراً لأنفسنا، وذلك حتى تحين عودة سائقي الحمير، وتطلعنا بشوق إلى عودتهم، لأننا كنا متشوقين إلى ماء طازج، لأننا أمضينا نهاراً مضنياً، وكنا ظمآنين بسبب الحر، ونتوق إلى الماء كثيراً، إنما عندما عاد سائقوا الحمير مع الماء، وصببنا ذلك الماء من الروايا في قدور الطبخ، بدا لنا أشبه بالحليب منه بالماء، لأنه كان أبيضاً وكثيفاً، ومقرف أكثر من الماء الذي مضى عليه وقت طويل في الجلود، وقد صار لونه أحمر ومالحاً بسبب الجلد، وبناء عليه أخذنا ذلك الماء الأبيض، وطبخنا طعامنا به، إنما استخدمنا الماء الأحمر للشرب، وأخذت كأساً من الماء الأبيض، وكأساً من الماء الأحمر إلى كالينوس، وسألته أيهما كان صحياً لشربه من الاثنين، فأجابني بأن الماء الأبيض كان سيئاً، وليس صحياً، وأن الماء الذي صار لونه أحمر، وصار حاد المذاق بسبب الجلد، ليس فقط هو غير سيء، بل هو طبي، وجيد جداً للصحة، وعند هذا تشجعنا وأقدمنا على الشرب من الروايا الجلدية من دون خوف.

وعندما عملنا ناراً من أجل عشائنا، فجأة هبت ريح شديدة، وقد جاءت من جهة البحر نحو مجرى سيلنا، ففرقت العصي المحترقة، وأخمدت النار، ولذلك لم نستطع طبخ شيء في تلك الليلة، فضلاً عن ذلك أثارت الغبار من الأرض، وملأت خيمنا وفرشنا، وبذلك انتشر الغبار والرمل فوق كل شيء كان لدينا، ووقفنا نحن بصعوبة في الغبار، وكأننا في سحابة كثيفة تتحرك بوساطة الريح التي لم تعرف الهدوء، وصار مجرى السيل كله مظلماً، وبدا الهواء غائماً، والسماء سوداء بسبب كثافة الغبار، وكنا جميعاً مثل أناس عميان، ننظر بأعين شبه مغلقة،

ومـامن انسان أمكنه الاستقـرار للنوم في ثياب فـراشه بشكل جيـد، من دون أن تكون الريح والغبار قد اتخذا سبيلهما بينهم.

وهبت هذه الريح من جهة البحـر الكبير، حيث لابد أنه كانت هناك عـاصفة عظيمـة في البحر، لأننا رأينا لمعـان وضوء البرق باتجاه البحـر، الذي كـان دومـاً يسبب اضطراباً كبيراً، وعندمـا تمددنا أخيراً لإراحـة أنفسنا، جـاء الحاج الذي كـان دوره بـالحراسـة تلك الليلة، إلى خيمتنا، وأخبرنا بأن اثنين من المتشرديـن البـداة العـرب قـد وصـلا إلى مخيمنا، وجلسـا إلى جـانب خيمتنا وسط الحقـائب والسـلال، فنهضت، لأنني كنت في ذلك الوقت رئيس جماعتنا، فـوجدت هذين المتشردين، ففتحت كيساً، وأعطيتهما خبزاً لعشائهما، ومـلأت جرتهما من ماء الروايا الجلدية، وعملت لهما شـارات للابتعاد عن خيمتنا وحقـائبنا، الأمر الذي عمـلاه وهما شـاكريـن جداً للأعطيـة، ولو أنني لم أعطهما شيئاً لما كـانا تركـانا، ولسرقا منا ضعف ماأعطيتهما إياه، وبقـي هذان الرجلان بصحبتنا لعدة أيام، لأنهما كانـا يعرفان بعض سـائقي الجمال، ولولا ذلك لما سمحنا لهما بالبقاء معنا.

وينتظر لصوص بداة العرب في البادية هبـوب عاصفة، وعندما يظلم الهواء، والناس قـد صـاروا شبـه عميـان، يشقـون طريقهم إلى احـدى القوافل، ويستـولون على كل ماتصل أيديهم إليـه، ويرتحلون أحياناً معنا لمدة ثلاثة أيام، وهم أناس مـامن أحد يعـرفهم، كما ما من انسـان يفهم كيف عثروا علينا، وطلبنا من كالينوس طرد هؤلاء الناس غير المعروفين وابعادهم عنا، غير أنه أجابنا بأنه لايستطيع ابعاد أي انسان أثناء النهار، لكنه سـوف يطلب منهـم أثناء الليل الابتعـاد عن أثقـالنا، وقـد نصحنا—لابل رجـانا— أن لانمنع الخبـز والماء عن مثل هؤلاء الناس الذين قد نقـابلهم، وقال بأننا سوف نكون أكثر أمـانا، إذا مافعلنا ذلك، ولذلك كنا عند المسـاء ندعو جميع الغرباء ونعطيهـم بعض الخبز وبعض

الماء بالمعيـار، ونأمـرهم بعـدم إمضاء الليل قـرب خيمنا، بل عليهم الابتعـاد، وإذا لم يفعلوا ذلك، سـوف نبعـدهم عنا بوسـاطة العصي والهراوات، لأننا لم نسمح حتى لخدمنا بالنوم قربنا.

مغامرة الراهب فيلكس فابري المرعبة الغريبة

وفي اليوم الرابع عشر، الذي هو يوم تمجيـد الرب، والذي كان أيضاً الأحـد الخامس عشر بعـد التثليث، استيقظنا باكـراً، قبل ضـوء النهـار، وعملنا الاستعدادات للمغادرة، ومن جديد ثار خصام كبير بين الحجاج وبين سـائقي الحمير، حسبما كانت القضيـة كل يوم، وعانينا خـلال هذا الجزء من حجنا من سـوء سلوك وحماقة خـادمينا، الذين دفعنا لهما مـالاً كثيراً، واكتريناهما مقـابل أجـر كبير للقيـام بخـدمتنا، فكانا غير مخلصين لنا، وسرقـا منا كل شيء استطاعـاه، حيث كـانا أثناء الليل يأخـذان طريقهما إلى أكياس بقسماطنا، ويمزقان فتحات فيهم، ويحصلون على كل مايستطيعـان، وكانا يعملان الفتحـات بأسنانهما مثل الفئران، ولم نستطع قط القيام بحـراسة جيـدة، ولذلك سلبانا في كل ليلـة، لأنهما كانا لصين بارعين جداً، وبإمكانهما سرقة حاجيات الانسـان أمام عينيه، وبالاضافة إلى هذا كـانا كسـالى في أعمال جمع أثقـالنا، ذلك أننا استأجـرناهما مع جمليهما لهذه الغـاية، وكـانا طوال وقـت تحميل الجمال يتـابعـان رمي حاجياتنا والتخـاصم معنا، ولم يكونا يتوليان رفع مارميـاه مالم ندفع لهما المزيد من المال، الذي لم يكـن متـوجبـاً علينا، وقـامـا هذان الشقيـان بازعاجنا إلى أبعد الحدود، ولولا خوفنا من التعرض لخطر عظيم، لقمنا بضربهما مـراراً ضرباً مـؤلماً، لأنه كـان بإمكاننا أكلهما، حسب تعـابير العامة.

وقمنا بالوقت ذاته بترك كثير مما اقترف بحقنا لانتقـام الرب، وتحملنا آثامـاً فظيعة، وهكـذا حملنا دوابنا، وغادرنا قفـر مجدبا، ودخلنا إلى بقعـة أكثر إرعاباً وأشـد قحطاً من الصحراء التي سرنا خلالها بالأمس، أو في

اليوم الذي تقدمه، حيث لم يعد بامكاننا تمييز أي اثر لانسان أو لحيوان، ولذلك وجهنا خطانا نحو نجم القديسة كاترين، وسرنا نحو الجنوب، دون أي طريق آخر، وذلك فوق مجاري مياه، ووديان، وجبال، وروابي، ودخلنا الآن إلى المنطقة والقفر اللذان اسمهما بالعربية جبل هلال Helell ، ويوجد في هذا القفرجبال عالية جداً، مكونة من صخور منزلقة، وقد سافرنا النهار كله بين هذه الجبال، ومع غروب الشمس وصلنا إلى مكان رملي، اسمه في القفار مغارثMagareth، وكان ذلك عند سفح الجبل، وهناك نصبنا خيمنا، وجمعنا حطباً لنطبخ به.

وكان على مقربة منا، كما هو واضح، جبل واحد مستدير، وقد كان عاليا، إنما من السهل تسلقه، وعلى قمته كان هناك نوعاً من أنواع البناء، ولقد أردت الصعود إلى هذا الجبل من أجل أن أشاهد ماكان على قمته، ولأحصل على فرصة مشاهدة القفار من جميع الجهات، ولم أرغب بالذهاب لوحدي، ومع ذلك لم يكن لدي أمل في إيجاد رفيق بين الحجاج، وهكذا شجعت نفسي، وتركت الجماعة وكأنني قصدت القيام بصلواتي، وذهبت وحيداً في داخل السهل، ووصلت إلى أكوام من الرمال، سرت بينها مسرعاً نحو الجبل، دون أن يعرف أحد ماالذي كنت أفعله، وبعد مسير ساعة وصلت إلى سفح الجبل، لكن مظهره خدعني كثيراً، لأنه انتصب بعيداً عن خيمنا أكثر مما قدرته، وكان أكبر وأعلى ممابدا عن بعد، وعلى الرغم من هذا كله، عزمت على إنهاء المهمة التي كنت قد بدأتها، وتسلقت فوق الجانب المنحدر من الجبل بين جروف وصخور صماء، ومع كثير من التعب والتعرق وصلت إلى القمة، التي لم أجد شيئاً عليها سوى كومة من الحجارة، وضعت احداها فوق الأخرى.

ووقفت حيث أنا هناك، ونظرت من حولي، غير أنني لم أستطع رؤية أي شيء في أي مكان، إلاّ قفاراً بلاحدود، تقطعتها، جبال، وروابي،

ومجاري سيول، حيث هي غير مسكونة لابشر، أو طيور، أوحيوانات، ولم أستطع رؤية خيمنا، لأنهم كانوا على مسافة بعيدة، لكنني رأيت جبالاً بيضاء وسوداء، ووجه الأرض كله قد شوي بحرارة الشمس، ولم أشاهد أي شيء أخضر، لاكبيراً ولاصغيراً، بل القحط الملعون ممتد فوق الأرض، وكانت كومة الحجارة على قمة الجبل علامة لتبيان الطريق، لأنه في كل مكان في أرجاء القفار، هناك أكواماً من الحجارة قد وضعت على قمم الجبال، لتري المسافرين أين ينبغي أن يسيروا في الوديان، وحيث لاتوجد هذه العلامات، مامن انسان يمكنه الارتحال خلال القفار، لأن القاعدة: هناك بعض الوديان التي لايمكن عبورها، بل هي مغلقة في النهاية القصوى، لذلك بعدما ينفق الانسان ثلاثة أيام أوأربعة في مسايرة طريق ذلك الوادي، عليه في النهاية العودة ثانية، والشيء نفسه يحدث في البحار الصخرية، حيث كانت هناك أكوام من الحجارة، مقامة فوق التلال كعلامات لتبيان الطريق عبر البحر، وإذا لم تكن هذه العلامات موجودة، تتورط كثير من السفن في ممرات بين الجبال، وتصل إلى صخور خطيرة، وإلى مآزق مهلكة، ومثل هذا هنا يمكن لكثير من الناس أن يهلكوا، إذا لم تتوفر مثل هذه العلامات فوق الجبال، هذا ويستخدم العرب هذه العلامات استخدامات غيبية واهمة، ذلك أنهم يصعدون في بعض الأوقات إلى الجبال، ويدعون إلى محمدﷺ، لأن هذه الكومة كانت مليئة بأسمال بالية، وبقطع من الأقمشة، وبقمصان، وهم اعتادوا على هذا لإظهار التشريف لأي مكان يعتقدون أنه مقدس، مثلما سلف وتحدثت عن الشجرة، ذلك أنه عندما ينهي أحدهم صلاته، يمزق قطعة من ثيابه، ويعلقها هناك، ثم يمضي مغادراً، وأسباب هذه الممارسات الحمقاء، معطاة في ص١٣٩٥ من القسم الثاني، ولذلك انتزعت جمع هذه الأسمال وقطع الأقمشة من على الحجارة، ورميتهم فوق الأرض، ووضعت صلباناً في مكانهم، ونصبت على القمة صليباً مصنوعاً من القصب، ورسمت صلبانا على أكبر الحجارة، وعلى حجارة

أخرى حادة، لأنني كنت متذكراً تمجيد الصليب، الذي كان يوم عيده ذلك اليوم، وفعلت ذلك من أجل أن المسلمين عندما يأتون إلى هنا، يمكنهم أن يجدوا رمز المسيح، ويمكنهم أن يعرفوا أن مسيحياً قد كان هنا.

ورغبت بعد هذا بالنزول، وحدقت بعناية عبر السهل، حتى يمكنني تحديد مكان خيمنا، لتوجيه خطواتي نحوهم، لكن لم يكن بإمكاني رؤية أي شيء، ولاأي دخان من نارنا، لذلك بدأت أرتعد في خوف رهيب، خشية أن لاأتمكن من العثور على طريقي للعودة إلى رفاقي، عبر تلك المنطقة التي هي بلاممرات ولاطرقات، ولو أنني أخذت ذات اليمين وذات اليسار، لحل بي الظلام وأنا أبحث، ولو أن شيئاً من هذا القبيل وقع لي، لكنت بالتأكيد رجلاً ميتاً، والشيء الوحيد الذي منحني الشجاعة، هو أنني عندما عبرت فوق الرمال تركت علامات قدمي هناك، وأملت بأنني سوف أتمكن من اتباع طبعات قدمي هذه، وهكذا نزلت نحو الأسفل وعند سفح الجبل، وجدت بالفعل علامات خطواتي، غير أنها كانت تقريباً مغطاة، لأن الريح ألقى الرمال فوقها، ولو أنني تأخرت قليلاً فوق ذلك الجبل، لكانت علامات خطواتي قد سترت تماماً، وكان من المؤكد وقتها فقداني لحياتي، لأني بت في وضع لم أعد أدري فيه أي اتجاه عليّ أن أذهب، لأنه كان هناك سهل كبير عند سفح الجبل، فيه أكوام كثيرة من الرمال، لأن تلك المنطقة صارت كلها تلالاً منخفضة، ولقد تبعت علامات خطواتي مسافة جيدة، لكن عندما وصلت إلى أعلى جزء من الأرض كانوا قد اختفوا تماماً، ولم أستطع إيجاد أثرهم بأية وسيلة، وقمت هنا بالاستدارة وسرت عائداً فوق العلامات الجديدة التي عملتها، إلى المكان الذي رأيت فيه علامات خطواتي القديمة، حتى أستطيع تفحصهم بدقة أكبر، لكنني لم أستطع العثور عليهم، فبت مغضباً من نفسي، ولمت نفسي بحدة متناهية من

أجل فضولي وافتراضاتي، وكدت أن أمزق لحيتي، ولطمت وجهي، وضربت على صدري أسفاً وقلت مخاطباً نفسي:« بالأسف، كم أنا رجل تعيس، لماذا تركت رفاقي؟ وأية حماقة مني حتى ابتعدت عن إخواني في هذه الأرض التي لاطريق فيها والمرعبة، أين تعتقد أنك سوف تجدهم؟ هاهي الشمس قد مالت نحو المغيب، وحل الليل، ولم أعد فيلكس أنا بين الناس سوى الأكثر تعاسة، فالى أين سأذهب، وإلى أين سأسعى؟يارب ساعدني»، وماأن فرغت من هذا حتى انفجرت أقرأ مزامير الغفران السبعة الأخيرة، و Domine exaudi التي وجدتها صلاة جميلة ومؤثرة.

ومضيت متابعاً أغني هذا المزمور، وأنا غير متأكد حول اتجاهي، وتوليت تكراره أكثر من مرة حتى وصلت إلى كومة عالية من الرمال، فرأيت علامات طبعات قدمي الماضية على طرفها، وكان بامكاني تقبيلهم لشدة فرحي، ولم أشعر قط بالسرور مثل شعوري برؤية طبعات الأقدام تلك، وعندما كنت بسرور أراقبهم وأتبعهم، وقع إليّ أنهم ربما طبعات قدمي واحد من البداة العرب، وبدأت أشك فيما إذا كنت على طريقي إلى المكان الذي منه قدمت وأثناء هذا الشك، نظرت عن قرب أكثر نحو طبعات القدمين، فوجدتهم طبعات قدمي رجل متنعل في حين يسير البداة العرب فوق القفار عراة الأقدام، ومضيت ثانية متابعاً السير على طريقي وأنا مطمئن، وبعد قليل رأيت شيئاً أبيض، وخمنت أنهم ثلاثة من المسلمين، أو البداة العرب، الذين يرتدون ثياباً بيضاء، لكن عندما اقتربت أكثر، كانوا خيمنا، ونظرت نحوهم فشكرت الرب وأنا راكع على ركبتي، وقررت أن لاأفارق أصحابي ثانية، وقد وجدت اثنين من الحجاج وهما يتعشيان في الخيم، وعندما ذهبت إليهما وبخاني لقدومي للعشاء متأخراً هذا القدر، وقالا بأنهما انتظراني لوقت طويل، فقلت لهما بأنني كنت مشغولاً بشؤوني الشخصية، وبعد العشاء أخذتهما

إلى خارج الخيمة، وأشرت إلى الجبل، وأخبرتهما بالذى وقع إليّ، وقد اندهشا لعودتي بمثل هذه السرعة، وكانت الشمس قد غابت الآن، ووضعنا أنفسنا للاستراحة، وأوى كل انسان إلى فراشه.

متاعب في بحر الرمال

وفي اليوم الخامس عشر، بدأ سائقو الحمير، قبل منتصف الليل بالصراخ، وهم يشكون بأن اثنين من حميرهم، قد فكا من رباطهما وسرقا من قبل اللصوص، وبصراخهم استيقظنا من نومنا، وجلسنا على فرشنا نتحدث حول المسألة، وفي الوقت ذاته بحث سائقو الحمير في المنطقة فوجدوا الحمارين معا، ذلك أنهما فكا نفسيهما وشردا، وعند إعادة الحمارين أمرنا كالينوس بتحميل جمالنا، وأن ننطلق قبل الوقت المعتاد، لأن الوقت كان مايزال مبكراً جداً، أي حوالي منتصف الليل، وهكذا نهضنا، وعندما بتنا مستعدين، تركنا قفر مغارث ووصلنا إلى صحراء قاحلة جداً، وقد دخلنا إلى قسم منها كان بارداً برداً شديداً، وكان هذا على عكس القاعدة العامة في الشرق، وقد عانينا كثيراً من البرد الشديد، حتى أن أيدينا، وأقدامنا، وأنوفنا تيبست بسبب البرد، وأسناننا اصطكت، وعانينا كثيراً من هذا البرد، لأننا حتى الآن كنا نعيش في حر عظيم جداً، والآن دخلنا إلى برد شديد من دون أن نلبس مانحمي به أنفسنا ضده، وبين جميع الأشياء التي تجدد نشاط الحاج خلال القفار، والذي يحدث بشكل رئيسي كل يوم، لابل كل ساعة تقريباً، هو أنه يدخل إلى مناطق جديدة، وإلى تربة حديثة، وأنواء، ويدخل أيضاً إلى مابين جبال ذات أشكال جديدة وألوان، ممايجعل الانسان يعجب مماهو حاضر، وأن يتطلع بتشوق لرؤية ماهو مقبل، وهناك دوماً شيء مايحدث، ويملأ الانسان بالدهشة والاعجاب، إما نحو المنظر الغريب للجبال، وألوان الأرض والصخور، والأنواع التي لاتحصى من الحصا، أو من الأراضي الشديدة الوعورة، والقحط، والطبيعة القاحلة للبلاد،

وهذه أشياء تبهج العقل السؤول، وأعترف أنا من جهتي بأنني شعرت ببهجة في القفار القاحلة أكثر مما شعرته في الأرض الغنية والخصبة في مصر، مع جميع جمالها الجذاب.

ومع حوالي اشراق الشمس، خرجنا من المنطقة الباردة، ودخلنا إلى منطقة من نوع مختلف، ذلك أننا وصلنا إلى مجرى سيل رملي، وتسلقنا مع كثير من التعب فوق جبال قد تكومت حديثاً بوساطة العاصفة، وكان من غير الممكن عبور ذلك الطريق في الوقت الذي كانت فيه تلك الأكوام الرملية تجلب إلى هنا، لأن الرمل يتطاير هناك فوق الأرض مثل تطاير الرذاذ أثناء العاصفة في البحر، ويملأ الهواء كله، بحيث لايمكن لانسان أن يقاتل ضده، وكما قلت من قبل يهلك الناس والحيونات يومياً في القفار، بعد قهرهم من قبل العواصف الرملية، مثلما يحدث في البحر، حين يُقهرون من قبل الأمواج العاصفة، وهكذا هلك جيش قمبيز في الرمال التي أثيرت بوساطة ريح جنونية، كما قرأنا في Speculum Historiale— الفصل:٥٨.

وكنا الآن في خطر عظيم، لأن الرمال تطايرت نزولاً نحونا، ومامن انسان كان بامكانه أن يرى أو يسمع انسانا آخراً، وكان بامكانه بصعوبة بالغة أن يرى بعينيه شبه المغمضتين رأس الدابة التي كان يمتطيها، لأن الهواء كان مليئاً بالرمال، التي تطايرت فوق الأرض مثل نهر سريع جداً، وكان كل واحد خائف خوفاً شديداً، من أن تفقد دابته طريقها، وتشرد في أرض أخرى، عن الجماعة الأساسية، لأنني غالباً ماقلت أنه مامن انسان كان يمكنه أن ينظر من حوله، لأن أفواهنا وأعيننا كانت مليئة بالغبار، وكان ردائي الأسود مليئاً بالغبار، إلى درجة يصعب عليك فيها أن تقول بأنه كان أسود، وأخيراً في حوالي الظهيرة توقفت العاصفة، وتسلقنا فوق روابي رملية، وانتقلنا من مجرى السيل ذاك إلى مجرى آخر، كان كبيراً وواسعاً، وتمتعنا بسفرنا على طول هذا المجرى،

ووقتها دعانا كالينوس جميعاً، وقال لنا:«انتبهوا ياسادتي الحجاج، لديكم الآن حق الاختيار:إذا أردتـم اختصار رحلتكم، وأن تسافـروا ثلاثة أيام بسـلام ودونما انزعــاج من العـواصف، علينـا أن نسير عبر قعـر مجرى السيل هذا، لكننا لن نجد لابرك ماء ولاآبار، طوال الطريق يمكننا نحن أو دوابنا أن نشرب منها، واعلموا ان الماء في روايانا بدأ يتناقص، إنما إذا أردتم الحصــول على الماء، علينا أن نعبر هـذا المجـرى، لننزل في مجرى آخر، ربما سنجد عليه آباراً مليئة بالماء، وأنا أعلم بوجود بئر هناك، لكن هل فيه أية ميـاه أنالاأعرف، وإذا كان فيه مـاء، أخشى أن يكون مطوقاً بالبـداة العـرب، الذين سـوف يرفضـون تمكيننا من الحصـول على الماء، مماسوف يسبب لنا اضطراباً، وإذا لم تكن فيه مياه، نكون قد قمنا برحلة طويلة خارج الطريق المباشر من دون فائدة، تشاوروا، وقرروا أي طريق تفضلون، ولسوف أخاطر بالمضي على أيهما معكم».

وأجبناه على هذا باختصـار بأننا بـالحري نؤثر الأذى والنهب من قبل البـداة العرب على أن نعـاني من الجفـاف ونموت عطشـاً، وقلنا:« دعنا نأمل بأن البـداة العرب سـوف يتلقـون منا خبزاً ومـالاً، ونحصل منهم على مـاء»، ولذلك خـرجنا من قعـر ذلك المجـرى، وصرنا فـوق سهل كبير، كـان كلـه نقيـاً من الرمل، لأن الـرياح قـد أطارت جميع الـرمـال وأبعـدتها، مع أنه كـان بامكاننا أن نرى بوضـوح بأنه كـان هناك جبـال رمليــة، ولدى متــابعتنا سيرنا وصلنا إلى نهاية هذا السهـل، ونظرنا إلى منطقـة رمليـة أخرى، وكـان دوننا سهل واسع،وهو القفـر الذي اسمـه الحسا Hachseve، ورأينا كثيراً من الخيم والأكـواخ قائمة مـع بعضها فوق هذا السهل الواسع مثل بلـدة، مع نيران مشتعلة وأناس وحيوانات جيئة وذهاباً، وقد اعترتنا الـدهشة تجاه هذا المنظر، فقد كـانوا من البداة العرب، يسكنون في القفار، وقد نصبـوا خيامهم حول البئر، وقد مضينا نحوهم ونحن نـرتجف، ولدى مشاهدتهم لنا وقفوا على أبـواب خيامهم

ينتظروننا والرمــاح في أيديهم، وعندمــا وصلنا إلى السهل، وصرنا على مسافة رمية حجر عن خيـامهم، نصبنا خيامنا وأنزلنا أثقالنا إلى جانبهم، وهنا ركض أولادهم نحـونا بسرور وكـانوا عـراة وسوداً، قـد شـوتهم حـرارة الشمس، وأعطيناهم على الفـور خبزاً، وقـد تلقـوا ذلك بسرور عظيم، وعـادوا إلى خيامهم، وبعـدهم جـاء أطفال آخـرون، لهم أعطينا الهدية نفسها، وزيادة على هذا جاءت بعض النسوة، وكان بعضهن كباراً مع طفل، وأخـريات مع أطفـال على أذرعتهـن، ولهن مثل ذلك أعطينا خبـزاً، وبفعلنا ذلك كسبنا قلوب هـؤلاء البـداة العـرب نحـونا، الذين طلبـوا منا الإقبـال والحصـول على الماء لأنفسنا ولـدوابنا، ولقـد مـلأنا روايانا الجلدية وجــرارنا من دون أدنى معيق، وهو أمــر لم نكن نأمل بحـدوثه مطلقـاً، وكـان الماء مـوحـلاً، ومـالحاً قليـلاً، لكنه كـان قـابلاً للشرب، وكنا ممتنين للحصــول عليــه، وليـس لدي شك أننا لـوطردنا الصغـار الذين ركضـوا نحونا، ولم نعطهم خبـزاً، لما حصلنا مطلقـاً على مائنا بسلام، لابل كنا أرغمنا على إعطـاء الخبز والمال بسنان الرمح، وقد أقمنا هناك لمدة ثلاث سـاعـات، وعملنا صـداقـات مـع هؤلاء البـداة العرب بقـدر مانستطيع، ذلـك أن فرساننـا الشباب رقصوا مـع شبابهم فوق السهل، وتراكضوا متسابقين معهم، وبعـد هذا، وبعدما حملنا جمالنا بسرعة، وكنـا على وشك المغادرة، استدعينـا مقدم هؤلاء البـداة العرب إلينا، وصدوراً عن كرمنا أعطيناه دوقية، لأنه تعامل معنا بسلام، وتسلم البــدوي قطعــة الذهب باحترام كبير، وأخبرنـا أننا إذا رغبنا، ســوف يصـاحبنا ويدافـع عنا ضـد كل هجـوم، غير أننا استـأذنا منه وودعناه، وتركنا البئر، وارتحلنا مسرعين.

وعند غيــاب الشمس دخلنـا إلى قفــر مخيف اسمـــه منشين Mins-chene حيث كــان هناك مجرى سيل كبير محاطاً بالصخــور، وبجبــال حجرية، كلها كانت شديدة البياض، وكانت الأرض مثل كلس محروق،

ونصبنا خيامنا في قعر هذا المجرى لإمضاء الليل، ومع كثير من السعي إلى هنا وهناك تمكنا بصعوبة من جمع مايكفي من أجل النار، ولابد أنه كان قبلنا قافلة من الجمال مرتاحة هناك، لأنه كان هناك كثيراً من الروث في ذلك المكان، وكان الروث آنذاك جافاً، وقد جمعناه واستخدمناه من أجل النار، لأنه لم يكن في ذلك المكان أية نباتات نامية.

وفي اليوم السادس عشر، أيقظنا كالينوس بعد منتصف الليل، حتى نشرع بسفرنا، ونهضنا ونحن نتذمر بضيق، لأن تعب رحلتنا بدأ ينهكنا ويعيينا، ولاسيما بالنسبة للمرضى منا، فهؤلاء اشتكوا فيما بعد بصوت مرتفع بسبب قسوة السفر، لأن الارتحال طوال النهار في الحرارة المحرقة للشمس، مع شطر من الليل في البرد والندى، ومن دون أي طعام مطبوخ، مع مثل هذا العطش الكبير، كان مؤلما حتى بالنسبة للانسان السليم، فكيف للانسان المريض، وغالبا ماتساءلت وأنا في القفار، لماذا تولت الكتابات المقدسة نقد ولوم بني اسرائيل بمثل هذه القسوة، لتذمرهم، وأنه ينبغي عقوبتهم بشدة متناهية لتذمرهم، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول:١٠، حيث جاء بأن الذين تذمروا قد جرى تدميرهم بالأفاعي، مع أنهم تذمروا بسبب متاعبهم(العدد:١١)، أو بسبب جوعهم وعطشهم(الخروج:١٦)، أو بسبب مطالبهم البشرية، وقد تعرضوا دوماً لعقوبات شديدة ومؤلمة كثيراً.

وأصبحت مضطرباً في تفكيري، وغالباً ماخشيت من الغضب الرباني، بسبب تذمرنا، وتساءلت عماإذا كان تعبنا قد عدّ بالنسبة لنا صالحاً ومفيداً، عندما نتذمر هكذا كثيراً، ولذلك حملنا الجمال، وأسرجنا الحمير، وغادرنا قفر منشين، وعند شروق الشمس كنا نسير في قفر وعر، ومنطقة هي الأكثر قحطاً، وهي التي أسماها بنو اسرائيل —اذا جاز لنا القول— المكان الشرير(العدد:٢٠)، واسم هذه المنطقة قفر La-rich، وكان هناك على يميننا، ومثل ذلك خلفنا، جبالاً عظيمة البياض،

كما كان باتجاه الشرق سهـولاً واسعة جداً، فيها كانت الحجـارة والرمال سوداء، ومشوية وكأنه كانت هناك نيران قد أحرقت كل شيء كان هناك قابلاً لـلاحتراق، علاوة على ذلك صدرت رائحـة النار من الأرض، ولم يكن باستطـاعتنا رؤية نهاية هـذا السهل الشـاسع، الـذي لم يكن محاطاً بجبـال أو تـلال، ودهشنا نحـو هذا القفـر المرعب، وسألنا كـالينوس المسلم عن نهاية هذا السهل، فأجاب بأنه لايوجـد انسان حي قد وصل قط إلى نهاية هذا السهل بوساطة هذا الطريق، وقـال:« لو أن انساناً قُدّر له أن يسافـر بشكل خاص، وأن يقطع عشرة أميال ألمانيـة كل يوم، فانه لن يتمكن بعـد مضي شهـرين من الوصول إلى مـاء أو إلى انسـان حي، عـلاوة على ذلك إن الحرارة هناك عظيمـة إلى حـد أنها شـوت هذه السهـول، ولهذا فإن أي انســان وان امتلك مـاء لايمكنه الـوصـول إلى نهايتهم وهو حي».

ولقـد قيل بأن حـدود هذه السهـول قـريبـة من جبـال الفـردوس الأرضي، ولذلك فـإن بريق السيف الناري، الذي وضعـه الرب أمـام مـدخل هذا الفـردوس، قـد أحـرق هذه السهـول ليمنع الجميع من الاقتراب، وفي الحقيقة يمكن للانسان أن يفترض بأن هذه الحقول هي« حقـول البهجة» التي هي سهـول كبيرة جداً وواسعـة، وهي خاليـة من السكان البشر، حيـث لايمكن لإنســان حـي السكن فيهــا، وإلى هذه الحقـول— وفقـاً للشعـراء— أحضر ميركــوري الأرواح وأعـادها من المناطق السرمدية، لأنهم اعتقدوا بأن أرواح الناس قد خلقت مع بعضها في البـداية، وبعـد ذلك وضعت هذه الأرواح في البشر أثناء الحمل بهم، وأننا عندمـا نمـوت تذهب الأرواح إلى المناطق التي في الأسفل، وهناك تتعـذب، حتى تكون الذنوب التي اقترفتهـا في الحياة قـد تطهرت منهـا وزالت، وبعد هذا يخرجهم ميركوري من«حقول البهجة»، ثم انه بعض مضي ألف سنة يأخــذهم ميركـوري إلى نهر النسيــان حتى يمكنهم أن

يشربوا منه، وينسون متاعب هذه الحياة، وبذلك يمكن أن ترغب هذه الأرواح بالعودة ثانية إلى الأجساد، التي إليها أرسلها ميركوري.

ويقول الذين قاموا بأعمال استكشاف أوسع في هذه السهول بأنهم وجدوا ضريحاً أو قبراً بني من الحجارة في ذكرى واحد من العماليق الهائلين، ويعتقد بعضهم أن عوج ملك باشان، المذكور في سفر التثنية:٣، قد دفن هناك، لأن سريره أو مهده، الذي تمدد فيه وهو طفل، والذي كان مصنوعاً من الحديد، جرت العادة على عرضه في ربّات، وكان طوله تسعة أذرعة، وعرضه أربعة أذرعة، ونما هذا العملاق إلى انسان ضخم، إلى حد أن حقلاً شاسعاً، احتيج إليه لضريحه، وهكذا كانت سعة هذا الحقل، إذا توجب علينا قبول الشرح العبري، للنص المتقدم الذكر، الذي حدثنا بمثل هذه الحكايات العجيبة حول ضخامة هذا الانسان، وأقصد هنا سفر التثنية:٣، وواضح مع ذلك أن المؤمنين المسيحيين يحكون حكاية أولى حول هذا الحقل، وأن اليهود يحكون حكاية ثانية، والشعراء حكاية ثالثة، والسكان المحليون هناك يحكون حكاية رابعة، فنحن المسيحيين نقول بأن هذا الحقل قد شوي بأشعة السيف الناري، وإذا كان هذا صحيحا، فإنها تصل حتى أرض الفردوس، ويقول اليهود بأن هذا الحقل هو من بعض الجوانب يشكل حدود«حقول البهجة»، غير أن السكان المحليين يعتقدون بأن هذا السهل يمتد من هنا حتى المنطقة الحارة، وأن بإمكان الانسان العبور خلاله حتى المنطقة الحارة، والبقاء حياً.

وسافرنا طوال ذلك النهار كله خلال أرض العجائب هذه، وكان على يميننا جبال احترقت فصارت جرداء وبيضاء بسبب الحرارة، وعلى يسارنا«حقول البهجة»، وهي مشوية سوداء، حيث لاعشب أخضر، أوورقة نبات يمكن العثور عليها، وعندما كانت الشمس على وشك الغياب، وصلنا إلى مجرى سيل وعر، وهذا السيل يجري في موسمه على

شكـل سيل عنيـف، ونصبنا في مجرى السيـل هذا خيـــــامنا، وعملنـا الاستعـدادات لإمضـاء الليل فيـه، وبعـد نصب خيـامنا، ذهبت— كما اعتدت— إلى كالينوس، لأسأله عن اسم المكان، وفي هذا المساء، عندما ذهبت إليـه كما أنا معتـاد، وسألته عن اسم هـذا القفر والمجـرى، ففكر لبعض الوقت، ثم قـال، وهو يضحك، إن اسم هذا المكان هو«البراق»، وكان هناك بعـض البداة العرب والمسلمين واقفين هناك، وقـد ضحكوا مثله عندمـا سمعـوه، وعملوا شـارات لي لأن أكتب كلمـة«براق»، لأنه كـان وقتهـا بيـدي قلم وحبر، وورقـة للكتـابة، وهكذا عندمـا أخبروني كتبت« البراق»، أمام أعينهـم، وعندما كتبت الاسـم وقـرأت الذي كتبه، ضحكوا كثيراً، ولم أعــــرف في ذلك الوقـت سبب ضحكهـم، لكنني عـرفت ذلك فيما بعد، فقـد مزح كـالينوس والمسلمون الآخـرون معي، وقد أخبروني باسم دابة محمدﷺ عوضاً عن اسم هذا المكان، وكان هذا سبب ضحكهم، فقد قـرأنا في القرآن، أن محمـداًﷺ كان واقفـاً في أحد الأيام عند باب بيتــه في مكة، فجـاء الملاك جبرائيل إليـه، وإليـــه اقتـاد بعنانها أعظم الدواب جمالاً وسرعة، وكـان اسمها«البراق»، وكان شكل هذه الدابة هو كما يلي: كـانت أكبر من الحمار، وأصغر من البغل، وكـان لها وجه جميل كأنه وجه انسان، وكـان شعرها من اللآلىء، وصدرها من الزمرد، وذنبهـا من الياقوت، وكانت عيناها مشعتـان أكثر من الشمس، وكانت قدماها وحوافرها مثل قدمي وخفي الجمل، وكان سرجها أثمن مما يستطيع عقـل انسـان أن يتصـــوره، ولم تكن هذه الـدابة تسمح لأي انسان بركـوبها مالم يشهـد جبرائيل على صلاحـه، وأقسم جبرائيل بالله الحي أنها لم تقابل انسـاناً قط خيراً من محمدﷺ، ولذلك يتـوجب عليها حمله على ظهـرها، وعندمـا سمعت الدابة بهذا، قـالت بأنها لم تحمل قط أي انســـان بمثل الـرغبــة التي ستحمل بها محمـــداًﷺ، وهكذا ركب محمـدﷺ وجبرائيل ممسك بالركاب، وعندمـا صار على السرج، قـدمت مجمــوعـة كبيرة من الملائكة، ووقفـت حـول الدابة، ثـم شرعت الدابة

بالذهاب سائرة بشكل لطيف وهادىء لايمكن لأي لسان أي يصفه، وكانت سرعتها مثل سرعة الريح، ووصلت حتى القدس إلى المسجد حيث وجد جميع البطارقة والأنبياء، الذين أرسلوا إلى هناك من قبل الله، حتى يقوموا باستقباله وتشريفه، وقد شاهد كثيراً من الأشياء العجيبة هناك(١).

وبهذه الحكاية خدع محمدﷺ كثيراً من الناس البسطاء، لكنه في أحد الأيام عندما كان يروي ماحدث لحشد كبير من الناس، فارقه ستون ألفاً(كذا) من الناس لأنهم تصوروا أن الواقعة كانت غير صحيحة، ومن الممكن الوقوف على هذه الحكاية في« حصن الايمان»، وهو كتاب يعالج حروب المسلمين، في الفصل الموقف على الشرائع التي أعطاها محمدﷺ، ومن الممكن أن يكون كالينوسنا، قد اعتقد بأن اسم البراق يمتلك في نفسه بعض القدرة الربانية، يمكن أن تؤثر على عقلي، ضد إرادتي، أو بدون معرفتي، لكن هذه الحكاية القرآنية هي حمقاء أكثر من أي حماقة بشرية(كذا).

منطقة مدهشة حقاً

وفي اليوم السابع استيقظنا في المجرى المتقدم الذكر، باكراً قبل ضوء النهار، وبعدما حملنا دوابنا، تسلقنا مباشرة الطرف المنحدر لهذا المجرى، القائم على جهة اليمين، ونزلنا عبر طرف آخر إلى مجرى سيل آخر، وكان هذا المجرى وعراً جداً ومليئاً بالحجارة، وكانت حجارته، وصخوره، والحصى فيه سوداء، وكأنها أحرقت بالنار، لكن قمم التلال على الطرفين كانت شديدة البياض، وكأن ثلجاً جديداً قد انتشر فوقهم، مع أنه لم يكن هناك ثلج، ومن المرجح أن الثلج لم يسقط هناك قط أو سوف يسقط قط، مثلما أنه ليس هناك في الأسفل نار تقوم بتسويد

١-- واضح أن فابري اعتمد هنا على ترجمة لواحد من نصوص كتب الاسراء والمعراج، وليس على ترجمة للقرآن الكريم كما ذكر أعلاه.

الحجارة، لكنها الشمس بقوتها العجيبة قد سودت الجهة الأولى، وبيضت الجهة الأخرى، ومثل هذا تحوّل هي بقوتها بعض الأشياء فتجعلها ناعمة، وأشياء أخرى قاسية، وهي تعمل بعض الأشياء حلوة وأشياء أخرى مرة، وتصنع السمات المتعاكسة بعملية القدرة نفسها، وذلك وفقاً لطبيعة المادة التي تعمل عليها وتؤثر.

ولدى متابعتنا رحلتنا وصلنا إلى حيث صار مجرى السيل عريضاً، وواجهنا هناك ريحاً باردة كثيراً، حيث أخذنا نرتجف منها بشدة، وتمنينا لو أننا كنا نرتدي ثياباً شتوية، وتسلقنا بعد هذا حافة مجرى السيل، ووصلنا من الجهة الأخرى إلى واد عظيم، لم يكن لاحجرياً ولارملياً، ولكن موحلاً، مكوناً من صلصال أبيض دبق، مناسب للاستخدام من قبل الفاخوري، ووجدنا أنه من الصعب جداً السير خلال هذا الوادي، لأن الماء عمل الأرض وعرة، كما أنه كان مليئاً بأقنية كبيرة ومنزلقة، ولذلك توجب علينا دوما إما الصعود إلى رابية أو النزول من رابية، وهو أمر لم يكن مناسباً لطريقة الجمال بالسير، وكان متعباً جداً لحميرنا، ومزعجاً لنا أنفسنا، ولو كانت هذه الأقنية مليئة بالماء— كما كانت من قبل— لما كان بامكاننا شق طريقنا خلال ذلك الوادي، وجاهدنا لساعات كثيرة على طول هذا الطريق السيء، وكان علينا أن نؤثر عليه طريقاً كله صعوداً إلى التلال أو هبوطاً منها، وأن تكون المنطقة حجرية أو رملية، وأن لانستخدم هذا الطريق الذي عنه أتحدث.

ووصلنا أخيراً عند نهاية هذا الوادي إلى أرض مستوية، كان الطريق فوقها جيداً، وعلى بعد كانت هناك بعض التلال المنبعثة من هذه الأرض المستوية، وكانت كلها طويلة، ولم تكن عريضة أوواسعة، وسرنا نحوهم لعدة ساعات، وذلك قبل أن نصل إليهم، وعندما وصلنا إلى قرب هذه التلال دهشنا نحوهم دهشة لم تكن قليلة، لأنهم انتصبوا—كما قلت— من الأرض المستوية، وكان لونهم أبيض، وكانوا

مستـديرين، وكأنهم عملوا على دولاب، ولم يكن من السهل القـول فيما إذا كـانوا قد عملـوا بالصنعة أم من قبل الطبيعـة، ويعتقـد بعضهـم أنهم أضرحة لملوك مصر القدماء، الذين كـانوا قد اعتادوا على الاهتمام بإقامة مثل هذه المنشـآت فـوق أضرحتهـم، كما رأينا بأعيننا في مصر فيما وراء النيل، قـرب طيبـة، كما سـوف نتحـدث عن ذلك فيما بعـد في الصفحة:٧٩ظ.

ولدى اقترابنـا منهم، رأينـا أنهم من عمل الخالـق النافـع، ولم يعملوا بصنعـة انسان فـاني، وذلك مالم يقـع اختيارنا على الرواية التي تتحـدث بشكل اسطوري عنهم، ويتناقلها العامة الجهلاء، الذين يقولون بأن هذه التـلال قد وضعهـا هرقل على ظهر تيتـان، الذي حملهم إلى هذا السهل، من أجل أن يضع احداهن فوق الأخرى، حتى يتسلق إلى السماء، وهذه حكايـة من السهل أن يتمكن انسـان من أن يقنـع بها رجل أحمق وأن يصدقها في هذا المكان، أو أنهن بنات أطلـس، اللائي حوّلهن فيرسيوس Perseus إلى تلال، وبين هذه التـلال واحـدة أعلى من البقيـة، وهي بالفعل مدهشـة جداً، ذلك أنها جـادة، وكأنها صيغت ببراعة بيـد عامل ماهر، ولهذا السبب نالت لنفسها اسما دون سـواها، واسمها لدى البداة العرب Calpis ، والذي أعتقده أن هذا الاسم لم يمنح لها بالصدفة، أو حسب عـادات العوام، بـل إنه أخذ من واحـد من عمـودي هرقل، الذي اسمه الاسـم نفسه أي Calpis،لأنه هناك جبلين هما: أبيلا Abi-la، وCalpis، وهما مرتفعان كثيراً حيث يصلان إلى السماء، وهما يقفان أحـدهما مقـابل الآخـر، ويقف الأول من هذين الجبلين في مـوريتـانيـا، (للغرب) والثـاني في اسبانيا، ومن بينهما يتدفق البحـر المتوسط إلى وسط الأرض.

ويؤكـد بعـض الناس أن هذين الجبلين هما أعمـدة هـرقل، ويخبرنا بعض القدماء بأن هذيـن الجبلين كانا فيما مضى متصلين في جبل واحد،

وأن البحـر المتـوسط لم يكن بعـد قـد أرسل من قبل المحيط، لكنه كـان مغلقاً بكتلة جبلية لايمكن تحطيمهـا، لكن قوة هرقل خرقت فيها بينهما، وتدفق البحـر إلى البـلاد صـدوراً عن المحيط، وذلك إلى أمـاكن لم يكن فيها بحر من قبل، وصار هذا البحر يعرف باسم البحر المتوسط، كما هو الحال في هذه الأيام، وبـذلك فصل هرقـل أورباعن أفـريقيـا بمضيق ضيق، والآن إنه بسبب أن هذا الجبل في العربيـة يشبه ذلك الذي هو في اسبانيا، أطلق عليهما معا الاسم نفسـه، هذا وهناك جبل آخر في صقلية، يدعى بهذا الاسم نفسه، للسبب نفسه.

وغادرنا جبل Calpis، وتركناه خلفنا، وبعدما عملنا رحلة طويلة في ذلك اليـوم، وصلنا إلى القفـار التي يدعوها البـداة العـرب باسم مسمار Meschmar، ودخلنا هنا إلى مجرى سيل جاف جداً حيث أنزلنا حموله دوابنا، ونصبنا خيمنا، وبعـد صعـوبة بـالغـة تمكنا من جمع مـايكفي من حطب لعمل نار نستطيع أن نطبـخ عليهـا أي شيء، وكـان على يسـارنا جبل مرتفع ممتـد لمسافة طويلة، لكـن لم يكن بعيداً عنا، وذهبت إلى هذا الجبل وحيداً راغباً في رؤية مايمكن أن يـوجد عند سفحه، وقـد رأيت هناك كهوفاً كثيرة وممرات تحت سطـح الأرض، تؤدي إلى قاعدة الجبل، وتصـورت بأن هذه الأمـاكن كانت حيث حفـرت المناجم في العصـور القديمة، وعندما نظرت إليهم، تذكرت على الفور، كيف قرأنا بأن كثيراً من الآباء المقـدسين للكنيسـة قـد اختـاروا السكنى في بيـوت مثل هذه مهجـورة، كـانت لعمال التعـدين، ومن هؤلاء الآبـاء على سبيل المثـال القديس هيـلاريون Hilarion ، والقديس بولص، الذي كان الناسك الأول، الذي أثناء قيـام جيروم في رسالته بامتـداح القفار قـال عنه، بأنه سار مسافة طويلة في القفار إلى جبل مفرغ حيث وجد كهفاً كبيراً مغلقاً بحجارة، وعندما أزال الحجارة، رأى في داخله قـاعة كبيرة ومبنية بقوة، وهي مضاءة بوسـاطة فتحة في الصخر، ولقـد كانت هذه مكان ضرب

العملة غير القانونية التي ضربت في الأيام التي كان فيها أنطونيوس مُفتناً من قبل كليوبترا، وعلى مقربة من هذه القاعة كان هناك عدداً كبيراً من القاعات، كان فيها مقاعد(؟) لابل حتى سندانات ومطارق، وذلك حيث كانوا يضربون النقود، ومثل هذا وجدت كهوف العمال القدماء في المعادن، ونظرت في هذه الكهوف بقدر مااستطعت، لكنني لم أتجرأ على الدخول إليهم، خشية أن يكون هناك مأوى لحيوانات شريرة، ولم تكن الكهوف معمولة من قبل الطبيعة في الجبل، بل محفورة بصنعة انسانية، وعندما نظرت من حولي وأنا مندهش وجدت كومة قديمة جداً من الفضلات، التي كانت عبارة عن الخبث الذي استخرج من المعادن لدى تصفيتها في النار، ولم يكن هذا الخبث فضلات حديد أو أي معدن عادي آخر، بل أفضل أنواع ذهب العربية، الذي استخرج بالحفر من هنا، ولهذا أطلق القديس جيروم في مصنفه« حول المسافات بين الأماكن» على هذه الجبال اسم Catachrysia، وقال بأن بني اسرائيل قد أقاموا قربهم لبعض الوقت، عندما كانوا يسكنون في القفار، وأن موسى كتب سفر التثنية هناك، ومامن شك لدي بأن الرهبان المقدسين القدماء قد بنوا لأنفسهم قلايات في هذه الكهوف، لأننا غالباً مانقرأ في« حياة الآباء» بأن القديسين سكنوا في الصحراء في كهوف رجال التعدين، وقد أخذت بعض القطع من الخبث، وجلبتهم إلى موالي الفرسان، الذين طلبوا مني منحهم هذه القطع بمثابة هدايا، لأنه كانت لهم أشكال غريبة.

يوم سفر شديد

وفي اليوم الثامن عشر، وبعد منتصف الليل ارتحلنا من قفار مسمار ومن جبال Catachrysia ، ووصلنا إلى منطقة كان فيها على يميننا جبال بيضاء كأنها غطيت بالثلج، وعلى يسارنا جبال حمراء كأنها صبغت بالدم، وكان وجه الأرض مغطى بألواح ناعمة من الحجارة، وكأنها

— ٥٥٥٥ —

رصفت بشكل طبيعي بـألواح مصقـولـة من الصخر الأصـم، ولذلك سارت دوابنا عليهم بخوف، وذلك خشيـة الانزلاق، وبعد هذا صعدنا إلى رابية منحـدرة ثم وصلنا إلى مجرى سيل آخر، حيث توفـر سير ناعـم وجيد، ويبـدو أن هذا المجرى كان في بعض الأوقات مليئاً حتى حـافته بمياه وافـرة، ومن هناك نزلنا إلى سهل، وجـدنا عليه نبـاتات وأعشاب، وعليق أخضر، ولدى رؤيتنا لذلك سررنا كثيراً حتى أملنـا أن نجد مـاء هناك، على أساس أن هذه النبـاتات لايمكنها النمو إلاّ في أمـاكن رطبة، وسرنا بين هذه النباتات، ووجدنا أنه بالفعل قـد كانت هناك مياه، لكن لايوجـد شيء منهـا الآن، وعلى كل حـال وجـــدنا هذا الموضع المنعش هناك، حيث كـــانت أغصـان وأوراق النبــاتات مبللة بندى الصبـــاح، وبالنقاط التي تجمعت هناك أثناء الليل، وقام واحـد من الحجاج، وكان عطشـانا، فقطع غصنا ووضعـــه في فمـه، على أمل انعـاش نفســه بلعق الندى، لكن وهو يعتقـد أنه يلعـق ندى منعشـاً، وجـد فمـه مليئا بملح مذاقه حـاد جداً، فأصيب بالرعب، ظاناً أن مصيبة أوكـارثة قد نزلت به من عند الرب، ولذلك طلـب من رفـاقـه الحذر من الندى، لكنه لم يقل شيئاً حـول مـرارته، وفي الحقيقـة وجـدنا نحن جميعـاً بأن الندى لم يكن سـوى ملح ذائب، لـه طعم حـاد جـداً، وبذلك علمنـا بالخبرة بأن هذه كانت« الأرض الملحة» التي تحدث عنها إرميا(١٧/٦) حيث قال الرب للمذنب بأنه سوف يكون مثل العرعر في الصحراء، الذي له أوراق مرة مغطاة بندى ملحي.

وهكذا تابعنا سيرنا خلال هذه النباتات العـرعرية، ولم نجد ماء، وفي الحقيقـة كنا في ضـائقـة كبيرة بسبب الحاجـة إلى الماء، ولهذا قمنا في هذا اليوم بفتح الجرار التي جلبناها وهي مليئة بالماء من غزة، لأنهم أخبرونا في غـزة بأن الماء لن يأسن إذا مـــابقي في جـرار محكمـة الاغـلاق، وأننا يمكننا استخـــدام ذلك الماء وقت الحاجـــة، ولكن عندمـــا فتحنا الجرار

صدرت رائحة مقيتة من الماء الآسن، إلى درجة أن مامن انسان كان يمكنه أن يلمس ذلك الماء، فكيف بشربه، لابل أكثر من هذا، لم تستطع حميرنا على الرغم من عطشها الشديد، الشرب من ذلك الماء، وهكذا أرغمنا على رمي المياه التي جلبناها معنا لمسافات طويلة، عبر القفار، والتي حول حملها تخاصمنا كثيراً مع سائقي جمالنا البداة العرب، والتي من أجلها دفعنا مبلغاً كبيراً، لأننا أملنا أننا في وقت الضيق الشديد سوف نستفيد منها، والآن وقد خاب أملنا، ولم يعد بامكاننا تحمل العطش وقتاً أطول، دعونا كالينوس لإعطائنا ماء، ورجوناه ورجونا أدلاءنا، بأن لايجعلوا رحلتنا أطول، بل أن يقودونا خلال أي طريق جانبي في القفار، إلى أي ماء أو سباخ حيث يمكننا الحصول على ماء، ووافقوا على هذا، وانحرفوا جانباً نحو اليمين، بعيداً كثيراً عن الطريق الحقيقي، فوصلنا إلى سهل قاحل تماماً، وقابلنا فوق هذا السهل قافلة، أي مجموعة من التجار المدنيين، كانوا يحملون سلعاً من البحر الأحمر، وكان هؤلاء الناس لأيام كثيرة من دون ماء ورجونا بالحاح أن نعطي كل واحد منهم شربة ماء، لأنهم كانوا على حافة الاغماء، ولذلك أعطيناهم ماكان قد بقي معنا من مائنا، لأننا كنا سنصل إلى بعض السبخ قبل المساء، وبعد ساعة من الزمن قابلنا قافلة أخرى قادمة من أطراف الشرق، ومرّ هؤلاء الناس بنا بصمت وحدقوا بنا بملامح مقطبة مكفهرة، حسبما يفعل الشرقيون والغربيون، عندما يقابل أحدهم الآخر، ولولا أن العقل يضبطهم لإنقض أحدهم على الآخر مباشرة، مثلما تفعل الكلاب المسعورة عندما تلتقي، أو الخيول الشريرة التي يحييّ أحدها الآخر بالعض.

ووصلنا ونحن نتابع سيرنا فوق هذا السهل، أخيراً إلى موضع سفوحه منحدرة نحو الأسفل، ونزلنا هنا عبر هضبة طويلة متعبة، ونحن نعاني من حرارة الشمس، التي لاتحتمل ومن العطش ووصلنا

بعـد لأي إلى حافـة مجرى سيل عميق جداً ومخيف يسمـونه Hallicub، وكان مغلقـاً من على جانبيه بجـدارين عاليين من الصخر، وكـان عميقاً وهاوية ضيقـة، أن تنظر إليـه تصـاب بالـرعب، ولم نكن نستطيع لاأن نشاهد أو نسمع صـوت أي ماء فيه، مع أن الوادي كله كـان موائماً لأن يجري فيه نهر عظيم، وتذمرنا ضـد كالينوس لأنه اقتادنا عبر مجرى سيل جاف، بعـدما كـان قد وعدنا بالماء، حيث لايوجـد شيء من هذا هناك، وكان كالينوس رجلاً يتكلم بشكل ناعم، فقد طمأننا، قائلاً صحيح بأن مجرى السيل ليس فيـه ميـاه متـدفقـة، لكن هناك ميـاه راكـدة في بعض الكهوف، والحفر في الصخور، والبؤر في الأرض،

وطلب منا الترجـل من على ظهـور حميرنا، وإعطائهـم إلى سـائقي الحمير، في حين نزلنا نحن في تلك الهاوية إلى مكان مامن انسان يستطيع أن يتسلق نزولاً جـانبيهـا الصخـريين، وهكذا اقتـاد سـائقـو الحمير مع سـائقي الجمال الدواب بعيـداً عنا إلى بقعـة مستـوية على ضفتي الهاوية، وهناك أنزلوا الأثقال عنهم، وسعينا نحن نحو الحافة، نبحث عن طريق فوق الصخور، وعندما عثرنا على طريـق نزلنا إلى القعر، فوجدنا ماء في كهوف وجـروف الصخور، كان قـد بقي هناك منذ أن كان مجرى السيل مليئاً بالماء قبل بضعة أشهر، وكان هـذا الماء دافئاً، وله رائحة كئيبة جداً، وكثيفاً، مثل القار، وكان لونه أخضر، وكـان موحلاً، وكان مليئاً بالعلق الذي يتكاثر في الماء الآسن، لكـن طعمـه لم يكن مكروهاً، ولم نعبأ بهذه السمات المنفرة للماء، وانبطحنا فـوراً على صدورنا، ونضحنا الماء بأيدينا، وشربنا منـه بشره كبير، دونما أدنى اهتمام أو تـأبي للماء، لأن الانســـان العطشان لايهتم ولايرى مايشربه، بل يبـادر مسرعاً إلى الشرب، وأعتقد بشكل أكيد لو ان انساناً شرب مـن هذا الماء لإطفاء مجرد عطش عادي، مـاكان لينجـو مطلقاً من التعـرض لأذى شديد، لكن العطش المحـرق، والعمل الشاق قبل الشرب وبعده كان يدمر كثيراً ذلك الأذى.

وبعدما ملأنا أجوافنا بالماء، وأطفأنا عطشنا، تفتحت أعيننا، فرأينا أن الماء كـان قــذراً مليئاً بالعلق المتحـرك، لكننا كنا قــد ابتلعنا كل شيء، وأوساخ وعلق، وأقدر أنني شربت مع الماء مايزيد على مـائة علقة حية، ومثلي فعل الآخرون، وهكـذا صفينا الماء من خلال قطع أقمشـة وملأنا جرارنا الفارغة والروايا الجلدية، ورمينا بالعلق والفضلات الآسنة، التي من قبل شربنـاها بسبب اهمالنا، ولـذلك صرنا خـائفين على حيـــاتنا، وانتظرنا فعـل وتأثير الشراب المضر بخـوف وأسـف إنما بحماية الرب لم نعـان من أي أذى كـان، ولم نشعر بـأدنى ضيق، ولو أننا وصلنا بعطشنا اللامحدود إلى مـاء طازج بارد، وصـافي، لسبـب ذلك مـوتنا بدون أدنى شك، من خـلال قـابليتنـا للشرب غير المحـدودة، وأخيراً عثـر أدلاؤنا هناك على طريق نحــو الأسفل، فأنزلوا الجمال والحمير وسقــوهم، ولم تشرب هذه الحيــوانات من دون انتبــاه كما فعلنا، بـل امتصت الماء من الأعلى، حتى لاتبتلع العلق مع الماء، وصعد بعض الحجـاج نحو الأعلى وأنزلوا الأناس المرضى إلى الوادي لانعـاشهم، لأن الوادي كـان عميقـاً وظليـلاً، وبسبب الصخور الخطيرة والحجـارة المفصـولة المعلقـة فوقـه، وكـان في الوادي شعــراء وصفصـاف، وكهـوف فيهــا جلسنا وغسلنا رؤوسنا وأجسـادنـا وثيـابنا ومناديلنا، ونظفنا أنفسنـا من حشرة اسمهـا القمل، التي لم يكن واحد منا، مهما كان أصله نبيـلاً، متحرراً منها وهذا القمل يشكل واحـداً من المزعجات الرئيسيـة للمسـافر في البحـر أو في الصحراء، لأن القمل يتكاثر في كل لحظة بأعداد هائلة.

وغـالبـاً مـانعجب من تكاثر القمل السريع، لأنه مـاأن يقـوم انسـان بتنظيف نفسه في احدى الأمسيات، حتى يجد على نفسه مباشرة في المساء التالي المزيد الكثير من القمل، ومـن ذوات الحجم الكبير، وكأنه لم يتفقد قميصه منـذ شهر، والويل للذين شعـورهم طويلة، لأنهم يحملون معهم مأوى ومكاناً لحفظ القمل، والويـل أكثر للذين هم كسـالى جـداً حيث

لايقومون بتنظيف أنفسهم كل ليلة، وكان هناك فارس شجاع في جماعتنا لم يلمس قملة قط باصابعه لإمساكها أو لقتلها، بل كان يأخذ دوماً حجرين، وعندما كان يرى قملة على قميصه، اعتاد أن يضع القميص على الحجرة الأولى، ويضرب القملة بالحجرة الأخرى حتى يقتلها، وكنا نضحك من هذا الفارس، ومن طريقته في قتلهم.

وبعدما فرغنا من تنظيف أنفسنا، أشعلنا ناراً في الوادي، وطبخنا طعاماً لعشائنا مع سرور عظيم، ولم نمتّع أنفسنا خلال الرحلة كلها أفضل مما عملناه هناك، وكتبت في هذا الوادي عرضاً عن الرحلة كلها من غزة إلى هذا المكان، لأنني عندما كنت أجلس على ظهر حماري كنت أكتب حول طبيعة المنطقة واتجاهات الطرق على لوح شمعي، حملته معي في جعبتي، وكتبت هنا كل ماكنت قد كتبته في كتاب، ومسحت الشمع حتى أتمكن من كتابة المزيد عليه فيما بعد، وغالباً ماكنت أترجل من على ظهر حماري،وأكتب وصف الطرقات، والجبال، والوديان، لأن مامن انسان يمكنه أن يحتفظ بهذه الأشياء جميعاً في عقله، مالم يقم بتدوينهم كل ساعة تقريباً، وبعد العشاء نوينا امضاء الليل في الوادي، وبدأنا في اعداد الأماكن لننام تحت الصخور، لكن عندما سمع كالينوس بهذا نزل إلينا، ومنعنا من النوم هناك، مهما كان الأمر، بل جعلنا نصعد إلى أثقالنا، وبناء عليه صعدنا إلى المكان الذي كانت فيه الأثقال والدواب، ونصبنا خيمنا، وأعددنا أنفسنا للنوم، وكان اسم هذا القفر، أي السهل والوادي بالعربية الفوجيا Elphogaya.

متابعة سفرنا الأكثر انهاكاً

في اليوم التاسع عشر استيقظنا عند منتصف الليل، وارتحلنا من قفر الفوجيا، ووصلنا الآن إلى واد في غاية الوعورة، وسرنا بتعثر متابعين سفرنا في الظلام فوق الصخور والحجارة، ومع أن القمر كان مشرقاً، لم تستطع أشعته الوصول إلينا، لأن بعض الجبال كانت بينه وبيننا، وأخيراً

خرجنا من هذا الوادي، وشرعنا بصعود جبل مرتفع، وتسلقنا سائرين فوق سفح شديد الانحدار، ووعراً للغاية، وتابعنا السير على هذا الطريق المتعب حتى اشراق الشمس، وعندما أشرقت الشمس كنا قد أنهينا تسلقنا، ووصلنا إلى قطاع قاحل كان فيه سهول قاسية وواسعة، وكان اسم هذه المنطقة Rachhaym، وكانت أرض، وحجارة، وصخور هذه المنطقة حمراء، وظهروا وكأنهم فوق نار، وتابعنا السير باتجاه الجنوب، وتواجهنا مع ريح باردة، وقوية، وقارسة، ومعاكسة، لأننا كنا في منطقة مرتفعة، وليس لدينا جبال تحمينا من قوة الريح، ولذلك عانينا بألم من البرد في ذلك الصباح.

وبعدما تابعنا سفرنا لمدة ساعة أو أكثر فوق هذه الأرض المرتفعة، وصلنا إلى نهاية تلك السهول، وتلك المنطقة، التي منها يقود الطريق نزولاً عبر منحدر في غاية الوعورة والانزلاق إلى القفار في الأسفل، وعندما كنا واقفين على حافة هذه الرابية، ونرتجف ونحن ننظر نحو الأرض المنخفضة البعيدة تحتنا، شرع سائقو الجمال يلقون نظرات فرحة نحونا، وأشاروا بأصابعهم إلى شيء ما في الجنوب، غير أننا لم نفهم لاكلماتهم ولااشاراتهم، وعلى كل حال جاء كالينوس وأرانا منطقة بعيدة، جبلية مكتظة، وكانت هذه الجبال عالية جداً، وبدت بالنسبة لنا ضبابية ومظلمة بعض الشيء، لأنهم كانوا بعيدين جداً، وأشار بين هذه الجبال إلى واحد كبير جداً، ومرتفع كثيراً، كانت له قمتان، كأنهما رأسان، كان الأول بينهما أعلى بكثير من الآخر، وعندما كنا جميعاً ننظر نحو هذا الجبل قال:« انتبهوا ياسادتي الحجاج، هذا هو جبل حوريب المقدس؛ وجبل سيناء، الذي عنده سوف ينتهي حجكم المتعب».

وعندما سمعنا هذا، ترجلنا على الفور عن ظهور حميرنا، ومددنا أيدينا نحو الجبل المقدس، وصلينا إلى الرب على ركبنا، ولدى فراغنا من صلاتنا، نهضنا فرأينا شطراً كبيراً من البحر الأحمر على جهة يميننا، وبدا

لنا أن البحر الأحمر كان قريباً تماماً منا، وكأن الانسان يستطيع الوصول إليه على ظهر فرس في ست ساعات، غير أن كالينوس أخبرنا أنه يبعد مسافة سفر ثلاثة أيام طوال، وعند لحف الجبل الذي وقفنا عليه، كان هناك سهل شاسع، كان خلفه جبال ارتفعت باستمرار حتى وصلت إلى المنطقة الجبلية الأكثر ارتفاعاً في قفار سيناء، ولدى رؤيتنا هذا كله، أحضرنا أطعمتنا من جعبنا، وتناولنا طعام الافطار، ونحن جلوس مع بعضنا، وبعد هذا أنزلنا مرضانا من السلال من على ظهور الجمال، حتى يمشون معنا على الأقدام، وينزلون المنحدر الكبير، ولم يكونوا راضين بالقيام بذلك، ومع ذلك كان من الضروري أن يسيروا بأنفسهم، نزولاً عبر ذلك المنحدر الخطير جداً.

ونزلت الجمال أولاً مع خوف وارتجاف، وكان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى بعد الثانية بحذر عظيم جداً، وكانوا يخشون على أنفسهم، وعلى أحمالهم، وقد ساروا ببطيء شديد، فبعدما كان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى ، كان ينتظر طويلاً قبل القيام بالخطوة الثانية، لأن المنحدر كان منزلقاً وخطيراً، وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق نزولاً من هذا الممر، حدث لجمل كان يحمل على جانبه واحدا من الحجاج المرضى، وكان واحداً من خيرة جماعتنا وأكثرهم نبلاً، وكان هذا الجمل قد حمله طوال الطريق عبر الصحراء، والذي حدث هو أن هذا الجمل حاول النزول من فوق احدى الصخور، لكنه عندما مدّ قدميه الأماميتين، بقي واقفاً على الصخرة أعلاه، وفجأة انزلق القتب من على ظهره مع جميع حمله، وصار فوق رقبة الدابة ورأسها، ثم سقط يتدحرج طوال الطريق نحو الأسفل، وقد تحطم كل شيء كان في السلتين قابلاً للتكسير، وتعرض للتلف، وكان في السلة الأولى من هاتين السلتين قوارير الأدوية، والمنعشات، والماء المقطر، فهذا كله تلف، لأن هذا الجمل قد حمل صندوق أدوية الحجاج، ولو أن اللورد المريض بقي في سلته— وهذا

ماكان يفضل فعله— لكان قد صار مائة قطعة، ولو كان له ألف رقبة، لكانوا قد تحطموا جميعاً.

وإنه لمفيد للرجل المريض أن لايسمح له بفعل مايرغب بفعله، ذلك أن هذا الرجل قد رجانا كثيراً حتى نتركه ينزل وهو في سلته، غير أننا لم نصغ لتوسلاته بأي شكل من الأشكال، لأننا كنا نستطيع رؤية الخطر الذي منعه مرضه من رؤيته، وبعد بذل جهد كثير تمكنا من جمع الذي استطعنا العثور عليه من الأشياء التي وقعت، وأعدنا تحميل الجمل، ومن ثم تابعنا سيرنا مع حذر أكبر من ذي قبل، ومكثنا مدة خمس ساعات ونحن نبذل جهودنا نازلين وذلك قبل أن نصل إلى أرض مستوية، وعندما وصلنا أخيراً السهل الموجود عند لحف الجبل، استدرنا ونظرنا إلى الخلف إلى طرف الرابية الذي نزلنا منه، لكننا لم نستطع رؤية الطريق الذي نزلنا عليه، بسبب الصخور المتقطعة، والجروف المنحدرة، والممرات المنزلقة والمتعرجة، لذلك عجبنا كيف استطعنا النزول نحو الأسفل، لأنه بدا لنا تعذر النزول واستخدام مثل ذلك اللحف المنحدر بحيوانات محملة، فضلاً عن هذا تعجنا كيف استطعنا النزول سالمين من قمة الجبل، لأن القمة بدت لنا معلقة فوق الجزء الأدنى من طرف الجبل، ولذلك لابد أننا قفزنا من قمة الجبل نحو الأسفل، أو تدلينا فنزلنا بوساطة حبال، ولقد اعترف موالي الفرسان الذين رأوا كثيراً من أجزاء العالم، أنهم لم يشاهدوا قط طريقاً بمثل هذه الخطورة.

وعندما كنا على السهل في الأسفل، بدا لنا الأمر حقيقة، أننا كنا في عالم آخر، لأن القفار هنا بدأت تظهر أنها أكثر حضارة، حيث توفرت بعض الشجيرات والنباتات، كما أنه في أماكن هناك كان يمكن للرعيان وقطعانهم، أن يعيشوا، وهنا لم يعد الندى مالحاً كما كان من قبل، بل مذاقه مذاق العسل والمن، كما سوف أتحدث من بعد، فهنا بداية أرض مدين التي تحتوي بعض القبائل، بعضها مستقر وبعضها الآخر رحل،

وسـافرنا عبر السهل وكـان بامكاننا السفـر في ذلك اليوم حتى الجبـال، لكن إخـوانا المرضى صرخـوا وتذمـروا بسبب التعب، ولـذلك من أجلهم نصبنا خيمنـا في ذلك السهل، في مكان يدعـوه العـرب باسم رمتاييم Ramathaim وكان يوجد في هـذا المكان كهوف في الصخر، ليست كثيراً تحت الأرض، وأجلسنا أنفسنا في هذه الكهـوف للاستراحة أثناء حرارة الشمس، التي خرقت خـلال أقمشة الخيام وجعلت داخلها مثل أفران، ولهذا السبب امتلك المدينيون والأحبـاش خياماً معمولة من الجلد لرد حرارة الشمس(حبقوق:٣/ ٧).

وهكذا استرحنا في كهـوف الصخر هناك حتى المسـاء، وعندما جـاء المساء، جمعنـا عصياً، وطبخنا طعامنـا، وبعد تناول طعام العشـاء، وعند غيـاب الشمس رغبنـا بالنوم في الكهـوف، لكن كـالينوس أرغمنا على النزول إلى الأرض المنبسطة إلى خيـامنا، وكـان هـذا السهل مليئاً بأجمل الحصـا، الـذين كـانوا براقين، وشفـافين ولهم ألوان متنوعـة: أسـود، وأبيض، وأحمر، ورمـادي، وأزرق، وأخضر بحـري، وقـد أعجبنا بهم، وجمعنا بعضـا منهم، ووجدنا أيضـاً هناك طبعات أقـدام نعامـات، وهو طائـر كبير يركض بين القفار، ولسـوف نتحدث عن هذه الطيـور وعن مظهرهم في ص٨٣، وقد وجدنا آثارهم في أماكن أخرى من القفار.

متابعة الترحال

واستيقظنا قبل ساعتين من ضـوء نهار صباح اليـوم الثاني والعشرين، وغـادرنا المكان المتقـدم الذكـر، وعنـدمـا وصلنا إلى نهايـة السهل الصحراوي، دخلنا بين جبـال وعرة جـداً، عن طريق واد جميل وواسع، وكـانت الأرض في هذا الوادي مغطاة بالأزاهير والأعشـاب، وانتصبت هناك أشجار شوكية عاليـة، كانت مزهرة آنذاك، وقد ملأت الوادي كله بأجمل الروائح وأطيبهـا، ولاأعتقـد أنني شممت قـط مثل هذه الروائح الطيبـة التي صـدرت عن هذه الأشجـار الشوكيـة، لأن هذه الأشجـار

لاتحمل ثماراً غير الأشواك، وكنت قد توليت في ص ١٣٠٢ وصف هذه الأشجار من قبل، عندما حدثتكم عن الممارسات الخرافية التي يقوم بها المسلمون بالنسبة لهذه الأشجار، ذلك أنهم يقلدون في كثير من القضايا أخطاء الكفار القدماء، الذين اعتادوا على تكريس أشجاراً مزهرة ونباتات أخرى من الأنواع ذوات الروائح الطيبة إلى -Ham adryadsمع Dryadsربي الحدائق، والورد، والأشجار، ووفقاً لهذا أعتقد أن هذا الوادي مع أشجاره وورده، كان مكرساً بشكل خاص إلى هذين الربين، لأن اسم هذا الوادي الذي هو Hinischenamيقترح ذلك.

والجبال التي تحيط بالجبل من الجانبين هي عالية جداً، وصخرية ولونها أحمر، وفي الأماكن التي تسقط فيها أشعة الشمس عليهم يلمعون مثل لمعان الصخور التي دهنت بالزيت، وقد عجبت من ذلك كثيراً إلى درجة أنني سرت نحو الجدار الأول من الصخر، ونظرت إليه عن بعد فرأيته وكأنه مرطب مبلل بالزيت، ومع ذلك برهنت باللمس بيدي أنه لم يكن رطباً، وأن لمعان تلك الصخور كان مرده إلى نعومتها العظيمة مثلما يكون الحال مع الأحجار المصقولة.

وعند الظهيرة رأينا على قمة الجبل حيواناً ينظر نحونا، وعندما رأيناه خيّل إلينا أنه كان جملاً، غير أننا تساءلنا كيف يمكن لجمل أن يعيش وحده هناك، وتحول السؤال بيننا إلى هل هناك جمال وحشية، لكن كالينوس جاء وقال بأن ذلك الحيوان هو وحيد القرن، فضلاً عن هذا أشار إلى قرن واحد نابت على جبينه، وحدقنا برغبة صادقة نحو هذا الحيوان الفخم جداً، وغضبنا لأنه لم يكن قريباً منا حتى نراه عن قرب، وهذا الحيوان متفرد في كثير من الجوانب، فهو في المقام الأول— كما يقولون— حيوان حاد جداً، وله قرن قائم في وسط جبينه، وأربعة أرجل طويلة، وهو حاد وقوي إلى حد أن كل شيء ينطحه إما أن يطوح

به في الهواء، أو يتـولى خـرقه من وسطه(كـذا) ويلقي به على الصخـور، وقرنـه يلمع بشكل عجيب، ويعدّ عظم ذلك القـرن باهظ الثمن وثميناً مثل الحجارة الكـريمة، ويوضع في الذهب والفضـة[٤٠] وهو قوي إلى حـد أنه لايمكن انتزاعـه بأية وسيلة من وسـائل القـوة، وذلك من قبل الذين يصطادونه، وقـد قيل من قبل كتّـاب حول التـاريخ الطبيعي أنهم يضعون عذراء شابة على طريقـه، وهي تقوم بالكشف عن صدرها وهو يركض نحـوها، وأن ذلك يفقده كل حـدته، ويضع رأسه(في حضنهـا) وبذلك يمسك، وبعد تجريده مـن قواه وقوائمـه، يؤخذ للذبح بسكاكين الصيـادين، وإذا ماأمسك حيـاً، لايمكن الاحتفاظ به ضـد إرادته، وإذا ماربـط بشدة يموت فـوراً لشدة غضبـه، لأنه حيوان لايمكن تـرويضه، وهو قوي إلى حـد أن قوة الرب في الكتـابات المقدسـة(العدد:٢٣/ ٢٢) شبهت بقـواه، وكـذلك ورد الأمـر نفسـه في أيوب: ٣٩/ ٩ على صيغـة سـؤال نصـه:«أيرضى الوحيـد القـرن أن تربطه بـرباطه في التلم؟»الخ، وذكر داوود أيضـاً في مزاميره الوحيد القرن اطراء وهجـاء، وهو حيوان ضخم، له جسد حصـان، وأقدام فيل، وذنب خنزير، ولونه لون خشب البقس، وخـواره مـرعب، وهو يشن الحرب ضـد الفيل، ويتغلب عليـه بنطحه بقرنه في الأجزاء الناعمـة من جسده، وكما قيل هو يظهر احتراماً غريباً للعذارى.

وقد أحضر بومبي الكبير وحيد قرن إلى روما للعرض، فهذا ماأورده ألبيرتوس في كتابه عن الحيوانات، ولذلك توقفنا طويلاً عند سفح الجبل الذي وقف الحيوان عليـه، وبدا لنا أن النظر إليه أمر مفـرح بالنسبة لنا، وكذلك مشهـدنا بالنسبة له، لأن الحيـوان وقف دوننا حراك، ولم يهرب حتى بعد مغادرتنا له.

وبعـدما مضينا على طريقنا رأينا راعيـاً يقود قطيعـه عند لحف الجبل، وكان هذا أمراً رائعاً بأعيننا، لأننا منذ مـدة طويلة لم نر انسانا ولاحيوانا

مـدجناً، ووصلنا بعـد هذا إلى مكان أدركنا أن البـداة العـرب لابد قـد أقاموا فيه مؤخراً، لأن بعض الأكواخ من الأغصان كانت ماتزال قائمة، وكـان بعضها مـايزال يحترق، وكانت النيران مشتعلة تماما هناك، لذلك خفنا من أنهم سـوف يلقوننا في مكان مـا، وهذا مـاوقع لنا بالفعل، كما سوف نتحـدث عن ذلك في مكانه، ومع حلول المسـاء دخلنا إلى القفر الذي اسمه Schoyle، ونصبنا خيامنا في واد كبير، وبقينا نحرس طوال الليل بعناية أكبر ممـا هو معتـاد، خشيـة أن ينقض البـداة العـرب علينا بشكل مفاجىء.

ترحال يوم شاق خلال القفار

وفي اليـوم الحادي والعشرين، الذي كـان يوم عيـد القـديس متى الرسـول والانجيلي، والذي كـان الأحـد السـادس عشر بعـد التثليث، غادرنا Schoyle في الصباح الباكـر، وسرنا عبر واد جيد، كان على جـانبينا صخـور وجبـال عـالية، وكـانت هـذه الجبال غـريبـة ورائعـة بأشكالها، وكأنها كـانت مكللة بشجر البرقـوق، بينما الأرض في الأسفل كانت طينيـة ومعشوشبـة ومن الممكن بسهولة فهم أشكـال هذه الجبال من الحكاية الشعـرية التـاليـة، التي تفترض بأن الجبـال الـداخليـة قـد وجدت قبل صنع الجبـال الخارجية، وتمضي الحكاية لتقـول بأن ديانا ربة الجبـال، وصائـدة وحيد القـرن، وحاميـة الطرق، قدمت من شـواطىء البحـر الأحمر في أرض مـدين، وكانت راكبـة لعـربة ثمينة جـداً، يجرها وعـول بيضاء، ومضت نحـو أعلى الجبال، التـي كان القـدماء يسمـونها الحدائق، والتي بعـد منح الشريعـة إلى مـوسى صـار اسمهـا حـوريب وسيناء، وقـد أرادت أن تصطاد هناك، وعندما وصلت إلى مـوضع هذا الوادي الذي لم يكن آنذاك وادياً، توقفت الوعول التي كانت تجرّ عربتها عن سيرها، لأنهم غطسوا بالأرض، لأن الأرض كانت موحلة، مشكلة من صلصـال سميك دبق، فيـه توقفت الوعول والعـربة عن التحـرك،

ولدى رؤية ديانا لذلك دعت هرقل للقدوم إلى مساعدتها، فجمع على الفور تيتانه Titans ، وأمرهم باطاعة أوامر ديانا، وبما أنها كانت حامي الطرق والجبال أمرت الطين الذي غطى وجه الأرض، بأن يتجمع على شكل أكوام، وأن تقف كل كومة من هذه الأكوام على قمة واحدة أخرى على الجانبين من الطريق، وذلك قبل الوقت الذي شوتهم فيه حرارة الشمس وحولتهم إلى صخور، وعلى هذا اعتاد هؤلاء التيتان على حمل جبال تجمعت على شكل أكوام، ثم كدست الأكوام كلها على الطرفين قبل أن يقسو هؤلاء ويتحجروا بوساطة الشمس، والذي حدث هو أن الأكوام السفلى ضُغط عليها بالأكوام التي هي فوقها، فتسطحت بسبب وزنها، وبناء عليه فإن الطبقة الدنيا منهم هي الأكثر انتشاراً بينهم، والطبقة الثانية هي الأقل تسطحاً، ثم ان الثالثة أقل منها، وهكذا حتى نصل إلى القمة، حيث واضح أن الكتل والقطع باقية كما هي لم تتغير، وعلى هذه الشاكلة بدا الطريق وكتل الجبال إلى جانب الطريق قد تشكلوا، لأن هذه الجبال ليست معمولة من تجمع لكتل من الصخور، مثل الجبال الصخرية الأخرى، بل من كتل من الصلصال الأرضي الترابي، التي لم تكن في البداية جافة أو مشوية، لكن من بعد ذلك صارت قاسية، وهكذا نستطيع من خلال هذه الحكاية تتبع أصول شكل هذه الجبال.

وفيما نحن سائرون على طول هذا الوادي، رأينا حشداً كبيراً من الناس من رجال ونساء وأطفال، مع جمال، وحمير، وخيول، كانوا جميعاً وقوفاً عند سفح الجبل على استعداد لاستقبالنا، وعندما اقتربنا منهم، ركض رجالهم نحو الأمام لملاقاتنا مع صرخات غاضبة وحركات، وانقضوا أولاً على الجمال، وأنزلوا من عليهم الأثقال، وخلال ثورتهم وعنفهم مزقوا واحداً من أكياس البقسماط، ونثروا البقسماط على الأرض، في حين بدأت نساؤهم وأطفالهم بالتقاطهم، علاوة على ذلك،

عاملنا سائقو جمالنا بسوء وغش، فقد ساعد بعضهم البداة العرب على سلب أشياء من الجمال، وبما أن أدلاءنا لم يهتموا بصراخنا، وكانت حاجياتنا تتناثر فوق الأرض، ركضنا نحو الأمام وانتزعنا بقوة أكياس البقسماط من أيديهم، واتخذنا موقفاً صارماً منهم وأظهرنا غضبنا نحوهم، وعندما شاهدوا ذلك أوقفوا عنفهم، واستداروا نحو كالينوس الذي أزعجوه بقسوة متناهية، وأفترض أنهم انقضوا عليه لأنه سمح لنا بمقاومتهم، وجمعنا الأشياء التي انتزعت من الجمال، ووقفنا حولها مع أسلحتنا بأيدينا لحراستها، ومع ذلك لم نتوقف عن منح البقسماط إلى النساء والأطفال الذين قدموا إلينا وحذرنا كالينوس من أن نكون متعنتين، بل ينبغي جمع مبلغ مامن بيننا، بحيث يسهم فيه كل حاج بدفع مبلغ مندوس أو مندوسين، وعندما نجمع هذا المبلغ نعطيهم إياه كخفارة، وقد تصرفنا هكذا وعملنا اتفاقاً مع مقدمهم مقابل عدد من المندوسات، وبعدما دفعنا هذا المبلغ، سمحوا لنا بمتابعة سيرنا على طريقنا، لكن بعض الشباب بقيوا معنا حتى جبل سيناء.

وبعد رحلة طويلة خلال ذلك الوادي، وصلنا إلى نهاية الوادي، وعبرنا ثانية إلى سهل فسيح، يوجد على جانبه الآخر جذور الجبال، التي كان بينها جبل سيناء المقدس، وسرنا عبر هذا السهل نحو الجبال التي كانت قائمة في مواجهتنا، ودخلنا إلى واد، عملنا فيه استدارات إلى هنا وإلى هناك، فقد كنا ساعة على هذا الجانب وساعة أخرى على الجانب الآخر، وذلك تبعاً لتعرجات الوادي ومنحنياته، وجرى اقتيادنا جانباً بعيداً عن الممر المستقيم نحو الجبل المقدس، وعبرنا ودياناً بدت وكأنها تقود إليه مباشرة، لأن جبل سيناء وقف مباشرة إلى الجنوب منا، ولكن بما أن الوادي اعترض طريقنا، ارتحلنا مسايرين الوديان المتعرجة، الآن نحو الشرق، وبعد قليل نحو الشمال، وأحياناً نحو الغرب، مما أزعجنا كثيراً، بسبب أننا رأينا أحياناً جبل سيناء يقف تماما خلفنا.

ووصلنا حوالي الظهيرة إلى مكان حيث انحرف الوادي وعمل استدارة أخرى نحو الجنوب، وخلفنا هنا الجبال المرتفعة خلفنا، ورأينا قمة جبل سيناء أكثر وضوحاً، فوق قمم الجبال الأخرى، وفي الحقيقة يوجد في قفار سيناء مناطق مدهشة، هي في غاية الارتفاع وجبال حادة القمم، وبعدما سرنا مسافة قصيرة، ونحن مسرورين، باتجاه الجبل المقدس، تركنا الوادي الذي يقود نحو الجنوب، والذي بدا بأنه يقود نحو سفحه مباشرة، وقمنا ونحن نتبع أدلاءنا، فانعطفنا إلى جانب وادي يقود نحو الشمال، وبذلك أدرنا ظهورنا لجبل سيناء للمرة الثانية، وقد تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن نتذمر، وكنا غير راضين تماما، ولقد تردد بين الحجاج بأن البداة العرب الذين كانوا يتولون سوق جمالنا، اقتادونا عن عمد عبر هذه الممرات الملتوية في القفار، في محاولة منهم لإنهاكنا ، حتى ندفع لهم مالاً، من أجل الذهاب عبر الطريق الأقصر.

وفي الحقيقة ابتعدوا عن الوادي الذي بدا بأنه يقود نحو البقعة المرغوب بها، ونزلوا إلى وديان قادت نحو الاتجاه المعاكس، ولذلك فإن الحجاج الذين شعروا بأنهم خدعوا وتوجسوا بأنهم اقتيدوا عن عمد بعيداً عن طريقهم ثاروا، ولعنوا كالينوس، ولعنوا الأدلاء، هذا من جهة ومن جهة أخرى قال بعض الحجاج، بأن هذا لم يكن تصرفاً صحيحاً، وأنه ليس هناك خدعة حول القضية، ووجه هؤلاء اللوم إلى الذين ثاروا من أجل الشتائم، وبناء عليه تخاصم اثنان من الفرسان أحدهما مع الآخر، وشرعا يتبادلان الشتائم ولغة قذرة، وقد لعن أحدهما الآخر، وأصبح هذان الفارسان غاضبين إلى حد أنهما ترجلا عن حماريهما، وامتشقا سيفيهما وخطا أحدهما نحو الآخر خطوات مع تسديد رأسي السيفين كل واحد نحو الآخر، وكان كل واحد من الفارسين بارع في المدافعة، ومنع بذلك كل واحد منهما الآخر من طعنه بسيفه، وعندما رأى بقية الحجاج هذا ركضوا وسعوا للفصل بينهما، لكن مامن واحد

تجرأ على الاقتراب منهما خـوفـاً على جلده، لأن كل واحـد منهما كـان غـاضبـاً جداً، ولـوحا بسيفيهما من دون حـذر، وركض البـداة العـرب الذين كـانوا معنا نحـوهما، ومـع أنهم كـانوا عـراة، وضعـوا— دونها خـوف— أنفسهم بينهما، ووقفـوا تحت سيفيهما، وبهذه الـوسيلة انتهت المشاجـرة، لأن مامن واحد منهما كـان بإمكانه طعن الآخر، من دون أن يجرح الأبرياء العـرب، ولولا أنه تمّ الفصل بينهما بهذه الطريقـة، لكان أحـدهما، أوكلاهما، قـد هلكا، ومركـز البـداة العرب على هذه الصـورة أنفسهم ووضعـوها في هذا الخطر العظيـم، ليس بسبب شجـاعتهم، بل بسبب مبـادىء ايمانهم..... لأنهم يعتقدون أن سـاعـة موت كل انسـان وشكل ذلك محددة من قبل الله، وأن هذه السـاعة لايمكن تقـديمها أو تأخيرها، حتى وان ضرب انسـان نفسه بالسيف ليمـوت، أو رمى نفسه من شاهق إلى مكان منحدر لتدمير ذاته، وهم يعتقدون أنهم لايمكن أن يموتوا، ولايمكن أن يقتلوا إذا لم تحن ساعتهـم المقررة، ولذلك يمضون إلى القتال من دون دروع واقية للجسد.

وبعـد الفصل بين هذين، استطعنا بعـد صعـوبة أن نقنعهما بأن يقسما بالمحافظة على السـلام في الوقت الحالي، وقد أقسما بالحفـاظ على السلام حتى الوصول إلى القاهرة، لأن الملك السلطان موجود هناك مع قضاته، وأنهما يرغبـان بالمثـول أمامهم، والخضـوع لحكمهم، وعـانينا أثناء ذلك القتـال من خوف رهيب، لأنـه لوجرح أحـدهما الآخـر لهبّ رفاقـه إلى مسـاعدتـه، ولانقضوا على الآخـرين، وكـان رفـاق الآخر سيقفـون إلى جانبـه مساندين له، لأننا كنا مقسمين إلى ثلاث مجمـوعات، كما تحدثت عن ذلك من قبل، علاوة على ذلك، كان سيلقى بنا في السجن، ومن ثم المثـول أمـام السلطان بسبب خـرقنا جـواز الأمـان المعطى إلينا، وهكذا مضى كـالينوس إلى المتنازعين، وأمـرهما بـالحفـاظ على السـلام باسم السلطان، لكنهما لم يباليا، لأن القضية كانت معلومة أمام النالس جميعاً.

وعندما انتهى هـذا الشجـار، سرنا مسـافـة طويلة، ونحـن مـديرين لظهـورنا إلى الجبل المقدس، لأن كـالينوسس مع البداة العـرب أخبرونا بأننا لن نتمكن من الوصول إلى سفح جبل سيناء، من خلال أي وادي، باستثناء واحـد، علينا أن نشق طريقنا نحـوه، وهو الوادي، الذي ذهب من خـلاله آبـاؤنا من بني اسرائيل، إلى الجبل المقـدس، وبعــدمـا سرنا مســافـة طويلة، انعطف الـوادي نحـو الجنوب، أي الى الجبل المقـدس، وسرنا على طريقنا ونحن مسرورين، لأن جبل سيناء بات أمـام أعيننا، وعند غيــاب الشمس وصلنا إلى سهل شــاسع، محاط من كل جــانب بجبال عالية، وكـان شكل هذا السهل مستديراً في وسط الجبال، وكانت التربة معشوشبة وجميلة جـداً، وكان في وسط السهل كثيراً من الصخور والحجــارة المنبعثـة من الأرض في مكان واحــد، مشكلة بذلك جبــلاً صغيراً، ونصبنا عند سفح هذه الجروف والشعاب خيمنا، وقررنا إمضاء الليل هناك، وكـان اسم هذه المنطقـة والسهل بالعـربيـة Machasea، وكــان السهل محاطاً بالجبــال إلى حـد أننا لم نستطـع أن نرى أي طريق للخـروج منه، كما أننا لم نتمكن من رؤيـة الطريق الذي جئنا عبره، وفي هذا الطريق أطعم موسى قطعان يثرو (شعيب) الذي كان ختنه، والذي عنه قرأنـا في سفر الخروج:٤، ومن هناك قاد قطيعـه إلى الجانب الخلفي من الصحراء، وإلى سفح جبل سيناء، الأمـر الذي لم يتجرأ أي راع قبله على فعله، بل كانوا يقيمون جميعاً في الخارج، في هذا المكان، أو في مكان آخر بين الوديان، كما سوف أحدثكم.

وعلى الجبل المجاور لنا، أشار أدلاؤنا ودلونا على مكان بين الصخور، مـوائم للانسـان ليقف عليـه، حيـث من هناك مشهـد عبر السهل كله، ويقال بأنه هنـا قد اعتاد مـوسى على الجلوس عندما كـان يطعم قطعان يثرو، كاهن مـدين، ولكي نفهم هذا بشكل أوضح، علينا أن نعرف بأن مدين كـانت مدينة على شاطىء البحر حتى الأحمر، ومن اسمهـا عرفت

المنطقـة كلهـا الممتدة من شـاطىء البحـر القفـار باسم مـدين، وفي هذه المدينة عـاش رئيس المنطقـة، وكـان يعـرف باسم كـاهن مـدين، وكـان الكاهن في أيام مـوسى هو يثـرو، وكـان أيضـاً يعـرف باسم رعـوئيل، وسيفـوس Civeus و أوباب Obab ، وإلى هذا الرئيس إلتجأ موسى عندما هرب من مصر (الخروج:٢)، وبما أن موسى خـدمه بشكل جيد، أعطاه احـدى بناته زوجـة له، وجعله راعيـا لقطعـانه من الأغنام، التي كـانت شيئـاً عظيماً، لأن ثروة الناس كلهـا في القـديـم تمثلت بقطعـانهم وأسرابهم.

وأقـام موسى مع قطعـان الأغنام في الأماكن المعشـوشبة من القفـار، مثل التي توفرت في وديان قفار سيناء، وكان هو وبقية الرعيان يترددون على هذا الوادي أكثـر مـن سـواه، لأنه كـان واسعـاً، وجيـداً لإطعـام الأغنام، وقـد رعى أغنامه هنـاك لسنوات كثيرة، وكان من وقت لآخـر يذهب إلى المدينة، التـي كـانت بعيـدة، وذلك لرؤية زوجتـه، لكن في القسط الأكبر من السنة كـان في القفـار مع الأغنام، مثلما يفعل رعـاة البقر(في بلادنا) الذين يسكنـون في الألب، فيبقون معهم قسطاً كبيراً من السنة، وكان هذا السهـل يشكل التخم بالنسبة للمراعـي، ومامن راعي تجرأ على أن يقود قطيعـه خلفه نحـو جبل سيناء، لأن الذي كـان رائجاً بشكل عام بأن هـذا كان جبل الرب، وأن الرب قد سكـن فيه، ولذلك مـامن انسـان كـان يتجـرأ على الاقتراب منه، خـاصـة وأن بعض الذين دخلوا إلى هناك، لم يشاهدوا بعد ذلك وماتوا فيه.

ومن هذا واضح أنه من قبل أيام مـوسى كـان هذا الموضع مع الجبل محل تقدير، إنما مع كثير من أوهام الكفـار واعتاد بعضهم بأن يقول بأن أرباب الجبـال قد اتخذوا هنـاك حدائق جعلوها مكانـاً للالتقاء فيـه، ولم يكونوا يسمحون لأي انسـان حي بالحضور معهم، ولهذا أطلق الأرباب على هذه الجبال اسم الحدائق، وقـال آخرون بأن هذا الجبل كان مقـدساً

لدى أبولو الذي كان راعي قطيع أدميتوس Admetus ملك ثيسالي Thessaly، وعمل رباً للحكمة، واعتاد آخرون على عبادة موبسوس Mopsus هناك، الذي كانت له السلطة في سهول Grynean، والذي اعتاد بعد موته على إعطاء الهواتف في الهيكل الذي بني هناك.

إنما موسى، لكونه مؤمناً حقاً، كانت لديه آراء أخرى حول هذا الجبل، وفي الحقيقة كان رجلاً عظيم الحكمة، وكان الأول الذي أعطى اليهود أبجدية، التي منها اشتق الفينيقيون أبجديتهم، ومن الفينيقيين تلقى الاغريق أبجديتهم، كما تعلمنا من الفيلسوف يوبوليوس upolius الذي أعلن أنه هو الذي اخترع أسلحة الحرب، وأعطى الأبجدية إلى الكهنة المصريين، وكان رجلاً عظيم القدر بين المصريين، حتى أنهم اتخذوه مثل الاله ميركوري، علاوة على ذلك لقد وصف مظهره قائلاً بأنه كان رجلاً طويلاً، له بشرة شقراء، وشعر شائب، وكان شعره طويلاً وكذلك لحيته، وعبرّ في وجهه وشكله عن جلالة لايمكن وصفها.

وكان هذا الرجل العظيم، بعدما طرد من مصر— كما سلف وقلنا—، يقوم برعي القطعان في هذا المكان، وهنا غالباً ماجرى تحريضه— بدون شك من قبل الروح القدس— ودفعه للدخول إلى الجزء الأقصى الداخلي من القفار، وهكذا قام في وقت كان محدوداً من قبل الرب بقيادة قطيعه إلى قلب المكان هناك، حتى سفح الجبل المقدس، كما سنوضح ذلك في مكانه، وهكذا نمنا في الخارج تلك الليلة، ناوين أن ندخل في الغد مثلما دخل موسى.

مقال لاهوتي حول المنّ الذي وجدناه

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس موريس ورفاقه، استيقظنا مبكراً جداً، وحمّلنا دوابنا، وتبعنا نجمة القديسة

كاترين، العـذراء المباركة، التي بـدت قائمة على مقـربة منا، وسرنا نحو جدار الجبل، الذي كنا مطوقين مـن قبله، وعندما وصلنا إلى هذا الجدار الصخري، وجـدنا فجاً ضيقـاً في الصخر، أعطانـا مدخلاً، ومـن خلال هذا الفج عبر مـوسى مع قطيعـه إلى الأجـزاء الداخليـة القصـوى من القفـار، وكـان من الصعب على جمل محمل المرور من خـلال هذا الممـر الضيق، وعندمـا أصبحنا في الداخل، دخلنا إلى سهل آخـر، جميل جـداً، يوجـد فيـه عشب، ونبـاتات وشجيرات، وهنا أنعشنا أنفسنـا بالندى المتساقط، الذي كـان أحلى من العسل، ويختلف اختلافـاً كلياً عن الندى الذي تذوقناه في اليـوم الثامن عشر، كما ذكـرنا من قبل، ذلك أن الندى الذي يتسـاقط هناك حـول تلك الأمـاكن المقـدسـة يرينا كم كـان حلواً مذاق المن الذي أعطي هناك إلى البطارقـة، وفي هذه الأيام يتساقط المن، أو ندى المن، حـول جبل سيناء لمدة شهـرين هما:آب، وايلـول، ويقـوم البـداة العرب بجمع هذا المن، ويبيعـونه للحجاج، ورأيت أنا شخصيـاً هذا المن وأكلت منه، وقـال فنسنتـوس في مصنفـه Speculum Nat-urale— الكتاب الخامس، الفصل:٨٥، بأن المن هو ندى يتساقط فوق الأوراق أو الحجارة، وهو كثيف مثل العسل، ويغدو جافاً مثل الصمغ، ثم يصبح قـاسياً وبعـد ذلك يجري جمعه، وفي الشرق يتسـاقط في الليل، لكن بما أنه يعثـر عليه بكميـات قليلة، يغش كثيراً، وعندما يكون نقيـاً، وليس ممزوجاً مع أشياء أخرى، تكـون رائحته طيبة جداً، ويكون ثميناً، ولونه أقرب إلى البياض، وأحلى من أي شيء آخر في العالم، وهو حلوى طيبـة جـداً، ويقال بأنه مـن النوع نفسه الذي عـاش عليـه العبرانيين في القفـار لمدة أربعين سنة، وتشكل ذلك المن بمعجزة ربانيـة، ولذلك فإن شكله وطعمه قـد تغير وصار مالحاً، أما بالنسبـة لهذا المن الطبيعي فانه يتساقط أدنى من المن الاعجـازي، على أساس أن المن الطبيعي لايتـوفر كل ليلة، أو كل مـوسم من مـواسم السنة، بينما كـان يتم العثـور على الآخر كل صبـاح، حيثما كان شعب الرب مقيماً، ومثل هذا هو مـوجود

في بعض مناطق بلاد الاغريق.

وفيما يتعلق بالمن الذي أعطي إلى بني اسرائيل، نقرأ في سفر الخروج: ١٦—١٤:« وفي الصباح كان سقيط الندى حول المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذ على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور، دقيق كالجليد على الأرض»، ومعنى هذا النص أن الجليد سقط فوق الأرض، ثم تبع ذلك سقوط المن عليه، وبعد ذلك تجمد بعض الندى عليه، وعلى هذا الأساس كان المن بالفعل موجوداً بين طبقتين، مخزوناً بذلك بشكل نقي بين غلافين، الغلاف الأول هو الجليد، والغلاف الثاني هو الندى، لكن الندى الذي يتم العثور عليه في هذه الأيام لايغطي وجه الأرض، إنما يتعلق فوق أوراق النباتات، وعلى رؤوس الأحجار، مثل الندى المعتاد وليس له طعم حلاوة الحلوى نفسها، بل إنه يحصل على الحلاوة من طبيعة النباتات، أو الأعشاب، أو الحجارة التي عليها يتساقط.

واعتاد القدماء على أن يقولوا بأن الندى هو ابن القمر والهواء، ويتساقط الندى بشكل غير مرئي، فينعش الأرض، ويجعلها خصبة، وهو حلو وشفاف، وقليل من الحرّ يجففه، ويسبب الندى المتساقط الخصوبة، وعندما تحمله النحلات إلى خلاياها يتحول إلى عسل حلو، وعندما يتساقط في الأصداف البحرية يتحول إلى لآلىء ثمينة، وهكذا مصصنا في ذلك الصباح، الندى الحلو للقفار مع الشعور بالسرور، وعندما صرنا في دير القديسة كاترين اشترينا منّاً، لكن وجدناه قد تعرض لكثير من الغش والتزييف، وذلك حسب تصوري مما قد قيل، وفي الحقيقة لاقينا النصيب نفسه الذي لاقيناه مع المن هنا مع البلسم فيما بعد.

وبعدما عبرنا خلال الفج الضيق المتقدم ذكره، وصلنا إلى واد فسيح، مليء بنباتات طيبة الرائحة، وكان هذا الوادي مطوقاً بصخور عالية جداً، ذات لون أحمر، ففي هذا الوادي وفي أحوازه المحيطة بجبل سيناء،

سكن بنو اسرائيل، في خيم وأكـواخ وفقاً لأسبـاطهم ولأسرهـم، وذلك في الوقت الذي كان فيه مـوسى مع الرب في الجبل، وهذه مسألة سوف أتوسع حولها كثيراً في ص ٨٣ظ.

وسرنا لبضع ساعـات نحو الشرق، وتخلينا أخيراً عن السير في ذلك الاتجاه، وإنعطفنا نحو الجنوب، ودخلنا إلى واد آخر كبير وجميل، وبعيداً عنا وأمامنا، رأينـا جداراً جبلياً عـالياً جـداً ومرعباً مكونـاً من الصخر، وبإتجاهه تسلقنا، وتسـاءلنا في أي مكان سوف نخـرج من ذلك الوادي، لأنه لم يوجد أمامنا، كما أننا لم نشاهد على أي من الجانبين من حولنا أي ممر يقـودنا إلى خـارجـه، والذي رأيناه أنفسنا فقط محصـورين من قبل جـدران جبلية صخـرية وعاليـة جداً، وعندمـا وصلنا تقريبـاً إلى الجدار الجبلي الكبير الذي وقف أمـامنا، فجأة ظهـر أمـامنا فج في الجبل على يميننا، ممتـد من القمـة إلى القعـر، من خـلاله، وليس من خـلال طريق آخـر، هناك طريق يقود إلى سفح الجبل المقـدس، ولذلك سرنا عبر هذا الطريق الضيق، ووجـدناه وعـراً جـداً للسير عليـه، ومـرعبـاً للحمير وللجمال، وبعدما سرنا قليلاً خلال هذا الممر وعندما أخذ الوادي يتسع قليـلاً، رأينا أبنيـة، ومسـاكن بشريـة، وكنيسـة لها شكل مستطيل، وقـد كانت دير القديسة كاترين، العذراء المباركة جداً، وما عرف باسم كنيسة ومصلى العذراء مريم المباركة، عند العليقة، وذلك عند سفح جبل سيناء العظيم القـداسـة، وعندمـا رأينا هذا كله ترجلنا من على ظهـور حميرنا، وجثونا بسرور عظيم على ركبنا، وتعبدنـا نحو المكان، ففي المكان نفسه الذي يقـوم عليـه الدير، رأى مـوسى المعجـزة المشهـورة، وهي الأجمة(العليقة) التي كـانت تحترق من دون أن تتأذى أوراقها الخضراء وثمارها، ولم تتعـرض أغصانها التي كـانت تحمل ثماراً مطلقاً للخـدش بالنار، مع أن لهيب النار كان حاداً وسريعاً.

ووقفت العليقة المدهشة في المكان الذي يقوم فيـه الآن مزار القديسة

مريم عند العليقـة، عند رأس الكنيسة، وكـان موسى عندمـا شاهد هذا عجب وقـــــال:« أميـل الآن لأنظر هـذا المنظر العظيـم، لماذا لاتحترق العليقة، فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه»، وهكذا إلى آخـر مانقرأه في سفر الخروج:٣/ ٣ــ٤.

وسرنا مسرعين مـن هذا المكـان خلف الجمال والحمير، وذلـك باتجاه الدير، وعندمـا وصلنا إلى الدكة الواسعـة أمام باب الدير، وجـدنا كثيراً من البداة العـرب يجلسون هناك مسلحين وفق طرائقهـم، وخرج هؤلاء الناس مرغمين من القفار بسبب الجوع، وأجبروا على الذهاب إلى الدير من أجل لقيمات من الخبـز، وعندما رأينـاهم بتنا خائفين جـداً، وخشينا من أن نبتلى بهم أمام باب الدير، كما أن كثيراً من البداة العرب قد ذهبوا معنا، وكانوا قد لحقوا بجماعتنا في القفار.

وبناء عليه أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، وجمعنا أثقالنا في مكان واحـد، ووقفنـا من حـول حقـائبنـا، خشيـة من اللصـــوص الذين كنا بحضرتهم، فقـد خفنا من أن يستـولـوا على أي شيء منا، وعندمـا سمع الرهبان بحضورنا، وبوجودنا هناك، قدم بعضهم ورحبوا بنا بلطف، كما أنهم ساعـدونا في حمل جميع حقائبنا إلى الداخـل، أي إلى بيت الضيوف، وكان في بيت الضيوف كثيراً من القلايات الفارغة، عليها وزعنا أنفسنا، وذلك تبعاً لتـوزع جماعاتنا، فضلاً عن ذلك كانت هناك بيعـة للطقوس اللاتينية وفيهـا مذبح، وهنا، بما أن الظهيرة لم تكن قد مضت قـام واحد من الحجـاج بقـــراءة قـداس لنا، أصغينا إليـه بخشـــوع، واشترينا بعـد القداس حطباً للنار من الرهبان، لنطبخ به، وطبخنا وأكلنا بعض الطعام الذي جلبناه معنا من الأرض المقـدسـة، وتمددنا بعـد هذا للاستراحـة، وعندما انتهت استراحتنا، ذهبنا إلى كنيســة القديسـة كاترين، وإلى مصلى القديسـة مريم عند العليقـة، وزرنا أماكن مقـدسة أخـرى، سوف أتولى وصفهـا في أماكنهـا، وبعـدمـا قمنا بهذا كله، أقمنا في داخل الدير وعلى

أرضه ولم نذهب إلى خارج الأسوار في ذلك اليوم.

الاضطراب الذي ألّم بالحجاج

وكنا في اليوم الثالث والعشرين مستعدين للصعود إلى جبال: سيناء، وحوريب، والقديسة كاترين، ولكن إخواننا المرضى سألونا انتظارهم حتى الغد، حتى يكونوا قد استردوا قواهم، وأن يكونوا قادرين على الصعود معنا، وأصغينا إلى توسلهم، وبصبر بقينا مرتاحين، وحدث أنه بعد تناول طعام الغداء، أن زرنا ثانية الأماكن المقدسة في الدير، حتى نتمكن الحصول على غفرانات(+) وتجولنا في جميع جهات الدير، ورأينا كل طرف من أطرافه.

ومع حلول المساء، وصل واحد من المقدمين العرب، وكان رئيسا للصوص الصحراء، وقد قدم ومعه كثير من الأتباع المسلحين، ودخل إلى الدير، وعسكر مع رجاله قرب أماكن إقامتنا، حيث راقبوا دخولنا وخروجنا، ذلك أنهم قدموا بسببنا، علّهم يستخرجون مكوسهم غير العادلة منا، وقد أزعجنا هذا كثيراً، وأغضبنا، وألقى ظلالاً على سرورنا، لأنه لم يعد بامكاننا العبور من أماكن إقامتنا إلى كنيسة القديسة كاترين، لأن البداة العرب جلسوا في الساحة ليلاً ونهاراً، وراقبونا عن قرب لدى صعودنا ونزولنا من على السلالم، كما أننا لم نستطع الذهاب إلى البئر للحصول على الماء إلاّ بالمرور من وسطهم، ولم يفعلوا شيئاً لنا، إن كان خيراً أو شراً، كما أنهم لم يصرخوا علينا، ومع ذلك كان جلوسهم هناك مزعجاً لنا.

وعندما اقترب ميقات العشاء، طبخنا طعاماً من أجل عشائنا، وكذلك من أجل غدائنا في اليوم المقبل، حسبما اعتدنا أن نفعل في القفار، لأنه في الغد لن يتوفر لدينا وقت نقوم به بطبخ طعام الغداء، كما سوف نرى.

كيف صعد الحجاج إلى جبل حوريب وسيناء المقدس، وكيف وقعت لهم حوادث متفرقة وهم على طريقهم أثناء صعودهم، مع وصف للجبل وللطريق

استيقظنا في اليـــوم الرابع والعشرين قبل شروق الشمـس، وأقمنا قداسـات في البيعة اللاتينية، وبعـد انتهاء هذه القداسـات، جاء راهب، هو الحافظ لمقـدسـات الدير، واسمـه نيقوديمـوس، جـاء ليقـودنا لدى الصعود إلى الجبـال المقدسـة، وقام باستعـراض جميع الحجاج، ونظر إلى كل واحـد منهم عن قرب، ولم يسمح مطلقـاً للذين نظر إليهم على أنهم مـرضى بالانطلاق معنا، لأنه قـال بأن الممـر شـديد الانحـدار وشـديد الانهاك، ولذلك بقي بعـض الحجـاج المرضى خلفنـا، لكن بعضهـم،— وإن كانوا مرضى— رفضوا جميعاً البقاء والتخلف، وحملنا مزاود طعامنا مع طعامنا، وقوارير مليئة بـالخمرة، وجراراً من الماء، تكفينا لمدة يومين، وأعطيناهم إلى سائقي حميرنا لحملهم، لأنهم كانوا على استعداد للذهاب معنا، والقيام بخدمتنا.

ولدى فراغنا من هذه الاستعدادات، اقتـادنا الراهب نيقوديموس إلى خـارج الدير من خـلال البـاب الذي دخلنـا منه، وسرنا باتجاه الجنوب عند لحف الجبل المقــدس لسيناء وحـوريب، والذي على جـانبـه هناك جرى بناء الدير، وفي الحقيقـة لهذا الجبل المقدس اسمين هما: لقـد عرف من الدير حتى بيعة القديس إليـاس باسم سيناء، ومن هناك حتى القمة عرف باسم حوريب، وجـرى منح هذين الاسمين له، وفقاً لما تمّ عمله هناك، فـلأن الوصـايا والشريعـة قـد أعطيت هناك، أطلق عليـه اسم« سيناء»، أي «العقيـدة»، وكـذلك لأن الرب ظهـر هناك في نار ودخـان، وكـان الجبل كلـه فـوق نار ودخـان مثل أتون، كما قــرأنا في سفــر الخروج:١٩، فقد أطلق عليه اسم حوريب، أو خوريب، أي«حرارة».

ولدى شروعنا بتسلق الجبل المقـدس، وعندمـا كنا سائـرين بصمت،

ووقار وخشوع، تفجـر نزاع وصراخ، وخصام، بين سائقي حميرنا الذين حملوا أثقالنا، والبداة العرب الذي رافقونا، حيث لم يسمح البداة العرب لسائقـي حميرنا بخدمتنا بل قـالوا بأن هذا اختصاصهم، وعليهم تقـديم هذه الخدمات، وذلك مثلما قالوا بأن جـواز الأمان والخفارات من أجل عبور الصحراء، واقعة في منطقتهم، وهكذا بذل البداة العرب جهودهم من أجل الحصـــول على حقـــائبنا، ورفض الآخـــرون اعطاءهـم إياها والتخلي عنهـــا، ونظرا لقيـــام هذا الاضطراب ووصـــوله إلى هذا الحد، أخذنــا بأنفسنا حقائبنا، ورفضنا اعطاءها لأي فـريق منهما، بل وضعناها على أكتـــافنا، واستـدرنـا، وعـدنا على خطـانا نحـو الـدير، لإنهاء ذلك الخلاف بمساعدة كالينوس، وراعي الدير، ومقدم البداة العرب، وذلك حتى نتمكن من صعـود الجبل بسلام، وعندمـا شاهد البـداة العرب مع سـائقي الحمير ذلك، صـاروا أصدقـاء مع بعضهم بعضـاً، ووعـدوا أن سيكونوا هادئين، وسيحـافظوا على السـلام، ورجـونا بعـدم العـودة إلى الدير فقط، وأخذوا الأثقال ثانية منا، ومضوا من دون أي ازعاج.

وعندمـا صعدنا إلى الأمـاكن المنحـدرة، ووصلنا إلى الجزء الأعلى من الجبَل، فإن الحجـــاج المرضى أغمي عليهم، ولم يعـد بامكانهم متـــابعـة الصعود، لذلك أعيـدوا مباشرة إلى الدير، وتابعنا التسلـق، وصعدنا على الدرجـات الحجـرية، التي عملهـا الرهبـان هناك، ومن دونها لايمكن لانسان الصعود إلى الأعلى، بسبب شـدة انحدار طرف الجبل، والجدران الصخرية العاليـة، وكان هناك في هذا المكان فج مظلم ومخيف في الجبل، في وسطه هناك درجـات للصعـود عليهـا مع وجـود جـروف على كـلا الجانبين، لذلك مامن انسان كـان يستطيع السير على تلك الدرجات على قدميه، بل توجب عليه التسلق بوساطة قدميه ويديه، وذلك مثلما تسلق يوناثان على يديه وقـدميـه كما جـاء في سفـر صمـوئيل الأول:١٤/ ١٣، وأثناء صعـودنا نحو الأعلى، وصلنا هناك إلى نبع مـاء عذب، تفجـر في

البداية هناك بوساطة معجزة، سببها سوف أحدثكم عنه بعد قليل، ومع أننا كنا مانـزال صائمين، شربنا من النبع، لأننا كنا لتعبنا نتصبب عـرقاً، وكنا عطاشى.

وفي أثناء متـابعتنا للسير في الفج صعـوداً في الجبل، وذلك عبر طريق وعـر للغاية وكثير الحجـارة، وصلنا إلى بيعـة شرفت بحمل اسم مـريم المبـاركة، والتي بنيت عقب مـاسـوف نتحدث عنه فيما يلي، وكـان هناك واحـد من رهبـان الدير يسكن إلى جـانبهـا في كوخ مـائل في مـواجهـة البيعة، وقـد فتح الباب لنا، وعندما كنا داخلين إلى البيعـة، حدثنا دليلنا الراهب نيقوديمـوس بالحكاية التاليـة، حول أصل النبع والبيعـة، وكان يتحـدث باللغــة الايطاليـة: حـدث فيما مضى من زمــان أن الأفـاعي والثعابين، والعـلاجيم، ومخلوقات سامة أخـرى، ازدادت وتضاعفت في داخل الدير، ومن حـوله إلى درجـة أن الرهبان لم يعـد بامكانهم العيش هناك، بل قـرروا هجر المكان، وترك الدير، ونقل أنفسهـم إلى بقعـة آمنة ونظيفة، وبناء عليـه، دعا راعي الديـر في اليوم المحدد جميع الـرهبان إلى الاجتماع، وأمـرهـم بالقيـام بمسيرة وقــورة وخـاشعــة إلى جبل سيناء المقدس، وبعـد انتهاء المسيرة إلى الجبل المقدس، أومـى بأنه سوف يرتحل من ذلك المكان، ولذلك حملوا صلبـانهم، وآثارهم المقـدسـة، وصعـدوا وهم يغنون الترانيم إلى الجبل المقـدس، حتى القمة، حيث تسلم مـوسى الشريعة والألواح من يد الرب.

وبعـدمـا قبّلوا الأمـاكن المقـدسـة وهم يبكون، نزلوا بوضع حـزين، لأنهم كـانوا كارهين ترك المكان ومغـادرة الجبل المقـدس، وهو ماكـانوا عـازمين على فعله والمضي من هناك في اليوم التـالي، وهم يحملون معهم جميع أثاث الدير، لأنهم طـردوا من هناك بسبب الضرورات التي تقـدم ذكرها، وعندما كـانوا على طريقهم نازلين، وصلوا إلى المكان الذي تقوم فيه البيعة الآن، وفجأة تفجر ضوء عظيم، وظهرت لهم العذراء المجيدة،

الأم العذبة للرب، بجلال، وأمرتهم بعدم مغادرة المكان الذي هو عظيم القداسة، ووعدتهم بأنهم سوف يكونوا بأمان، واختفت، واطمأن الرهبان بهذه الرؤيا، وتابعوا النزول، لكنهم تعرضوا إلى اغواء مؤلم، وأن ماراوه كان مجرد وهم، ولذلك عندما وصلوا إلى هذا المكان، حيث مكان النبع، حيث لم تكن هناك مياه، توقفوا، وصلوا للرب بخشوع عظيم، وسألوه إذا كانت الرؤيا صحيحة ليتلطف ويمنحهم علامة على ذلك، وحدثت معجزة، ففي أثناء صلاتهم، تفجر نبع ماء عذب من الصخر الأصم إلى جانبهم، حيث لم يكن هناك أثر يمكن أن يرى لماء هناك، وقد سبب ذلك لهم سروراً عظيماً أثناء صلاتهم، وهذا النبع لم يتوقف من ذلك الحين حتى هذا اليوم عن الجريان، وأثناء تدفق المياه من بين الصخور نراها تمنح الراحة للذين يصعدون الجبل أو ينزلون منه، وبعدما تلقى الرهبان هذه العلامة، نزلوا فرحين، فوجدوا الدير كله والمنطقة كلها من حوله قد تنظفت من الهوام، التي لم تكتف فقط بالفرار بعيداً في ذلك الحين، بل إنها لم تقارب المكان حتى هذا الوقت، وفي الحقيقة إذا ماظهر ثعبان في الخارج، فإنه يموت بمجرد اقترابه من الأسوار.

وبعدما حدثنا الراهب نيقوديموس بهذه الحكاية، حمدنا الرب، ودخلنا إلى البيعة، حيث سلمنا على مريم العذراء الطاهرة، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، حيث تلونا الأغنيات التجاوبية، والترانيم الجماعية، وجمعنا ماهو معيناً في كتب مسيرات الأرض المقدسة.

وغادرنا هذا المكان أخيراً، وتسلقنا نحو الأعلى مع كثير من التعب، حتى وصلنا إلى قنطرة حجرية، ممتدة من طرف الهوة الأول إلى الطرف الآخر، وهي منحنية تشبه بوابة، ومعمولة من حجارة مربعة قديمة جداً من حيث البناء والعمل، ولايوجد أي طريق نحو الأعلى، إلاّ من خلال هذه البوابة، التي ينقصها أبواب، وعلمنا هنا بشكل مؤكد وصحيح أن

مـامن يهودي يمكنه المرور من خلال هذه البـوابة، وهو أمر، قـالوا بأنه غـالباً مـاتبرهنت صحتـه، لأن الذي يحدث إمـا بسبب رعب أو بسبب معجـزة، عندمـا يصلون إلى هنا يصـــدون ويطردون حتى وإن حـاولوا التمويه يجري كشفهـم، وهم يتشوقون برغبـة عارمـة لرؤية المكان الذي جـرى فيـه منح شريعتهم، وذلك مثلما نتشـوق نحن لرؤية مكان صلب معطي شريعتنا، لكنهم يقفون تحت هذه البوابة مقصرين، ومتيبسين، ثم يغمى عليهم، ويرتجفون، ويجري طردهم بوساطة معجزة سماوية.

وقـــد حـــدث قبل بضـع سنوات مضت أن يهودياً غير مـن شكل ملابســه، وأخفى يهوديته، والتحق بجماعة من الحجـاج المسيحيين، وقد ارتحل معهم عبر القفـار حتى هذا المكـان، وعندمـا عبر الحجـاج الذين مضـوا قبله خـلال البـوابة، لحق بهم حتى المكان نفسـه، لكنه لم يستطع المتابعة ووقف دونها حراك، وعندمـا سألوه عن الذي حدث معه، ولماذا لم يدخل، أجـابهم بدموع وبتنهـدات عميقـة:« أيها الحجاج، وياإخـوتي، إنني أراه مصلوباً فوق القـوس، ولايسمح لي بالدخول، وهو محق بهذا، فأنا لأسفـي، أعترف بأنني يهودي، وأنا حتـى هذا الوقت كنـت دومـــاً عدواً للمسيح المصلوب، وقد موهت نفسي على أنني حاج مسيحي، من أجل أن أقـــوم هنا بتقـــديس مـــوسى، معطـي شريعتنا، غير أنني أرى بوضوح أنني لاأستطيع الوصول إلى موسى إلاَّ من خلال الذي صلب، وبناء عليه إنني من الآن فصاعـداً، أؤمن بالمسيح المصلوب، وأعد بأنني سوف أتعمـد، ذلك أنني أرغب في أن أموت مسيحياً» ومـا أن فرغ من التفـوه بهذه الكلمات حتى اختفى الصليب، ودخـل مع الآخـرين دونما معيق، وهو يمجـــد الرب، وتلقى بعـد هـذا العماد وقص على كل من قابله مـاحدث معـه، وكان ذلك بمثـابة شهادة ضد عمـى اليهود، ومنذ ذلك الحين مامن يهودي قـد غامـر بالصعود، وفي الحقيقـة لو أنهم كانوا قـادريـن على الجواز بدون عـوائق، لتـــوفـر دومـاً حجـــاج يهود هناك.

وسرنا من هذه البـوابة مسافـة لابأس بها، فوصلنا إلى بوابة أخـرى، إلى جـانب البـوابة المتقدم ذكـرها، وعبرنا خـلال هذه البـوابة، فـوصلنا إلى سهل رائع، الـذي يشكل نهاية امتـــداد جبل سيناء، ومن هـذا السهل، ينبعث منتصباً هناك جبلاً مستديراً وعالياً، صخرياً كله، هو الذي اسمه جبل حوريب، ويطلق في بعض الأحيـان اسم حوريب، على الجبل كله، أي الجزء الأسفل وكذلك الجزء الأعلى، ويقال في بعض الأحيان للجزء الأعلى، صخرة حوريب، بسبب وعورة هذا الجزء وكثرة صخوره.

وهكذا بعدما عبرنا من خلال البوابة، مضينا عبر السهل المعشوشب، القـائم هنـاك بيننا وبين حـوريب، لأن السهل ينحـــدر انحـداراً كبيراً، ويصل إلى كنيســة كبيرة وجميلة، فهناك ثلاث بيع كلها متصلة ببعضهـا، وهي محاطة بسور واحد، والبيعة الأولى هي بيعة القديسة مارينا، والبيعة الثـانية هي بيعـة النبي المقدس اليشـع، والثالثـة هي بيعة النبي المقـدس إيليا، والمدخل هو من خلال بـاب صغير ومنخفض، ومن خلال البوابة المنخفضة، دخلنا إلى بيعـة العذراء القديســة مارينا، حيث انكببنا بأنفسنا نحو الأرض، وقـرأنا الصلوات المحددة، من كتـاب المسيرات، وحصلنا على غفرانات(+).

وهناك حكاية بديعـة حول هـذه العذراء المقـدسة في« حيـاة الآباء». تحدثت كيف أنها عـــاشت لسنوات طـويلة في دير الرهبـــان، دون أن تكتشف بأنها كانت امرأة، وكيف أنها بصبر تحملت الملامة لأنها أغويت وهي فتاة، وكيف أنها تابت توبة قـاسية جداً بسبب هذه الخطيئة، وكأنها كـانت مـذنبـة، وهناك أنهت أيامها، وقـد أصبحت فيما بعـد مشهـورة، وعملت معجزات رائعة، ولقد اعتقد أنها جديرة ببيعة هنا في هذا المكان الأعظم قداسة.

ثم إننا دخلنا إلى بيعة النبي المقدس اليشع، وغنينا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات(+)، وعندما كـان اليشع هذا حياً عمل معجزات

عظيمة جداً، وعندما كان ميتاً أقـام رجلاً ميتاً وبعثه إلى الحياة، كما قرأنا في سفر الملـوك الثاني:١٣/ ٢١، ومن المعتقد أنـه غالباً مـازار هذا الجبل المقدس، تقليـداً لإيليا معلمـه، ذلك أنه كان تلميـذه، وأُخبرنا أيضاً بأن إيليـا قـد حمل ورفـع في عـربة نارية، وكما قـرأنا أيضـاً في سفـر الملوك الثاني:٢/ ١١، بأن اليشع ذهب إلى هذا المكان، وبحث عنه، ظاناً بأنه قد حمل إلى هنا، أو أنه طلب من أنـاس البحث عنه هنا، كما قـرأنا في سفـر الملوك الثاني:٢/ ١٧.

ودخلنا بعـد هذا إلى البيعـة الثـالثـة، وهـي بيعـة إيليـا، حيث قـرأنا صلواتنا، وحصلنا على غفـرانات مزدوجه(++)، ففـي البيعة، وأعنى في كهفـه، الموجود خلف المذبح، وهو الكهف الذي سكن فيـه إيليا، أكثـر أنبيـاء الرب حماسـة وغيرة، وقـد جاء سكناه بعـدمـا أنجـز ذلك العمل المتميـز جـداً في اقناع أنبيـاء بعل، وقتل أربعمائـة وسبعين رجـلاً، الذين ذبحهم إلى جـــانب جـــدول قيشـــون، كما قـــرأنا في سفـــر الملوك الأول:١٨،وكـان عندمـا علمت ايـزابل، تلك المرأة الشريرة جـداً بهذا، أقسمت بأنها سوف تقطع رأس إيليا، ولـذلك خاف وهرب عبر القفار، واختبأ في هذا الكهف، ووردت حكـاية النبي إيليـا هذه بالتفــاصيل في سفر الملوك الأول:١٩، وكهف إيليا عبـارة عن مغارة ضيقة في الصخر، فيها لايمكن لانسان أن يقف قائماً منتصباً، بل يمكنه الوقوف مستنداً أو الجثو، أو الجلوس.

وبعـد فـراغنا من رؤية هذه الأشيـــاء، خـرجنا من الكنيسـة، ونظرنا فـوقها، فـوجـدنا معلق فوقهـا صخـرة عظيمة مستـديرة، حيث تحدثت الحكاية بأن الغراب الذي جلب الطعام إلى إيليا اعتاد على الوقوف فوق هذه الحجـرة، واعتاد ايليـا على الخروج من الكهف، والتسلق إلى هاهنا وأخذ الطعـام، لأن الرب اعتاد أن يتـدبر تأمين حـاجيات نبيـه المقدس بوسـاطة الغـربان، حسبما قـرأنا في سفـر الملـوك الأول:١٧/ ٦ قـولـه:«

وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً، وبخبز ولحم مساء».

وغادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنا، فتسلقنا إلى حوريب، الذي هو جبل الرب، ويوجد على مقربة من الممر صخرة كبيرة، مكسرة إلى قطع، وهي مقطوعة من صخرة كبيرة موجودة في الأعلى، كانت قد سقطت نحو الأسفل، وهي تشكل عقبة على الطريق الذي يقود نحو الأعلى، حيث بات على الانسان بسبب هذه الكتلة الصخرية أن يستدير من حولها، وهم يقولون بأن هذه الصخرة قد تحطمت وانفصمت في أيام النبي ايليا، عندما أمره الرب بالخروج من الكهف، وعندما كان واقفاً بحضرة الرب:« رأى الرب عابراً، وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور»[الملوك الأول:١٩/ ١١]، وفي الحقيقة يوجد إلى جانب هذا الشطر من الجبل تصدع كبير في الصخور، وصخور مقلوبة عاليها سافلها، ومن الواضح أن هذا قد حدث، على مشهد من ايليا، ليس فقط أمام عقله، بل أمام ناظريه الجسديين أيضاً، ولذلك قال مصنف Speculum Naturale بأن هذه العلامات الثلاث التالية هي التي لم يكن الرب فيها حاضراً، ومع ذلك كانوا جميعا حقيقة مادية، أولاهن: الريح القوية جداً، التي شقت الصخور، وثانيهما: الزلزلة التي قلبت الجبال، وثالثهما: النار العظيمة التي أحرقت الصخور والتهمتها، والآثار المرعبة لهذه العاصفة، من الممكن مشاهدتها حتى هذا اليوم.

وتسلقنا خلال هذه الحجارة المكسورة، وأزحنا بعض الصخور مع كثير من التعب والتعرق، ووصلنا تقريباً إلى قمة الجبل، عندما وجدنا تحت القمة، على رقبة الجبل، صخرة فيها نقرة وهذه النقرة هي التي ورد الحديث عنها في سفر الخروج:٣٣، فعندما كان موسى يتحادث مع الرب، رغب في أن يرى وجه الرب، ومجد الرب، لكن الرب قال له:«لاتقدر أن ترى وجهي، لأن الانسان لايراني ويعيش»، وقال الرب له:« هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة، ويكون متى إجتاز مجدي

أني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز»، ولذلك صدوراً عن التقوى وضعنا جميعاً أنفسنا في النقرة، حيث مدد الرب موسى على معدته، وفي تقليد منا للنبي لوينا أنفسنا بصعوبة في هذه النقرة، والنقرة عالية قليلاً فوق الأرض، ومنخفضة وليست مرتفعة، ولذلك يمكن لانسان واقف فوق الأرض أن يمد ذراعيه ورأسه نحو داخلها، وإذا ماأراد أن يدخل صدره إلى النقرة، عليه أن يرفع نفسه قليلاً فوق الأرض، وبذلك يمكنه أن يضع ذراعيه، وصدره ورأسه في الحقيقة فيها، لكن ساقيه مع الأجزاء الخلفية من جسده، تبقى معلقة في الخارج حتى سرته، وهكذا يجلس الانسان وكأنه بين حجري طاحون، لأنه يجلس وهو مستند حتى معدته على الصخرة في الأسفل، وتلمس الصخرة الموجودة في الأعلى ظهره، وإذا مااختار انسان يمكنه أن يضع نفسه جميعاً في النقرة، لأنها عميقة، لكنني لاأستطيع أن أرى كيف يمكنه أن يخرج ثانية من دون مساعدة، ووجود انسان آخر يشده ويخرجه، لأنه لايمكنه أن يحرك نفسه نحو الخلف مثل السرطان، لأنه يكون معاقاً عن التحرك بوجود الصخرة التي فوق والأخرى التي هي تحت، يضاف إلى ذلك لايوجد متسع لاأمامه ولاخلفه، لأنه لايوجد مكاناً يستطيع أن يتحرك فيه ومن ثم اخراج رأسه أولاً، وتبعاً للأخبار الدينية، هذه هي النقرة في الصخرة التي وضع الرب فيها موسى ليرى الأجزاء الخلفية من الرب، وإذا ماأراد أي واحد أن يعرف ماهو وجه الرب وما هي الأجزاء الخلفية للرب، يمكنه العودة إلى ماكتبه نيقولا دي ليرا حول هذا النص.

وعندما أردنا فحص هذه النقرة، صعدنا حتى القمة العليا لهذا الجبل الأعظم قداسة، وذلك فوق الصخرة حيث توجد الصخرة المتقدم ذكرها، فهذه هي الصخرة التي أمر الرب موسى أن يقف عليها(الخروج:٣٣) قائلاً:« هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة»،

فعلى هذه الصخرة قد بنيت بيعة في هـذه الأيام، واسمها كنيسة القديس المخلص، وهي مغلقـة بثبـات بوسـاطة باب معـدني، وهي قائمـة فـوق المكان الذي تسلم فيه النبي المقـدس موسى الوصـايا وقد كتبت باصبع الرب فوق لوحين حجريين، وعندما وقف موسى وحده مع الرب فوق قمة الجبل، حسبما جاء في سفـر الخروج:٣٤، أعطيت الشريعة له، وكان ذلك في السنة ١٤١٥ قبل ميلاد الرب.

وعندمـا قام الراهب نيقـوديمـوس، الذي رافقنا من الدير بفتح باب البيعة، خلعنا أحذيتنا، ودخلنا حفاة احتراماً منا لقداسة المكان، وكما هو متوجب انكببنا بأنفسنا نحو الأرض بخشوع خاص، وقبلنا المكان الذي عليـه تلقى مـوسى الشريعـة وتسلمها مـن يد الرب، وهذا المكان معلم بحجرتين، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة في مسيرات الأرض المقدسة، حصلنا على غفرانات مطلقـة، وبعدمـا تفوهنا بصـلاتنا ذهبنا إلى السدة، وسرنا من حـــول المذبح، ونظـرنا متفحصين إلى المكان بخشـــوع عظيم وبسرور كبير، وغالبا مـاقبلنا أماكن خطوات الملائكة الذي ظهروا هناك إلى مـوسى، ورآهم بأشكال جسـدية مشـاهدة، ومثل ذلك قبلنا أمـاكن خطوات النبي المقـدس مـوسى، وكما قلت هناك حجـرتين عند مـدخل السـدة، وهما تغطيـان مـوضعي الخطـوات المقـدسـة، ففي المكان الأول وقف الملاك، وفي المكان الثـاني جثـا مـــوسـى وطوى ركبتيـه، فهناك حجرتين من الرخام الأبيض موضـوعتين في البلاط، وقد قيل بأنه تحت هاتين الحجرتين من الممكن حتى الآن رؤية عـلامات ركبتي موسى على الصخرة.

وبعد رؤيتنا لهذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ولبسنا أحذيتنا مجدداً، وسرنا نازلين قليـلاً، مـايقـارب خمس عشرة خطوة، إلى جـانب البيعـة، ودخلنا إلى كهف تشكل بوساطة الصخـرة المعلقة من فوق، وهنا انكببنا بأنفسنا نحـــو الأرض، وتفـــوهنا بالصلـوات المحـــددة، وحصلنا على

غفرانات(+)، ففي هذا الكهف أقام موسى عندما لم يرغب الرب في عقد مؤتمر معه، وصام هنا لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، حتى يكون جديراً باستلام شريعة الرب، وهذا الكهف واسع وكبير، وليس فيه ضوء إلاّ مايأتي من المدخل، وهو موائم للسكنى لراهب متأمل، ومقابل الكهف موضع مرتفع بني عليه مسجد، وإلى جانبه جلس كثير من المسلمين، كانوا مثلنا أنفسنا قد تسلقوا الجبل في سبيل زيارة المكان المقدس، وفي الحقيقة يقوم بداة عرب، ومصريون، ومسلمون، وأتراك بالحج إلى هنا من أماكن نائية في العالم، صدوراً عن الاحترام لموسى، فباستثناء اليهود يتدفق الناس من جميع الديانات والطوائف، مع بعضهم إلى هذا المكان، ولايستطيع اليهود الصعود، حتى وإن استطاعوا، فإن الشعوب لن يسمحوا لهم، بأي حال من الأحوال، بالدخول، هذا ولايتحمل المسيحيون وجودهم معهم، والصلاة هناك بجوارهم.

علاوة على ذلك، يوجد على هذا الجبل بئر كبير، يحتوي على ماء جيد، وبارد، وصحي، لكن لم نتمكن من الحصول على أي من هذا الماء، لأن البئر كان عميقاً جداً، ولم يكن معنا شيئاً ننضح به الماء، وهم يطلقون عى هذا البئر اسم جب موسى، لأنه منه شرب، لكن هذا لايتوافق مع الكتابات المقدسة، التي تقول بأنه صام هناك.

وتجولنا حول قمة الجبل، وتفحصنا كل شيء هناك، وقد شاهدنا خرائب كبيرة لأسوار قديمة كانت من حولها، ومن المعتقد أنه كان هناك دير، كله قد خرب باستثناء كنيسة، إلى جانبها يقيم دوما اثنان من رهبان دير القديسة كاترين بشكل مستمر.

وهذا الجبل متميز في أن الجزء الأعلى منه مستدير، وليس متصلاً بالجبال الأخرى، وهو ليس أعلى من الجبال الأخرى، لكنه قائم بذاته، وأكبر صعوبة في التسلق، ويوجد من الدير إلى قمة الجبل حوالي سبعة آلاف خطوة، ليس فيها الأماكن التي يصعد الانسان إليها، ليس

بالخطوات بل بوساطة درجات سلالم، ويوجد من هذا الجبل مشهد للمناطق النائية، لكن هذه المناطق من الممكن رؤيتها بوضوح أكبر، من جبل القديسة كاترين، ولسوف أتحدث عن هذه المناطق أثناء وصفي لهذا المكان، ووصف الجبل المقدس واضح مما قد قيل، أما مايتعلق بإطرائه وقداسته فمن الممكن جمعها من كثير من المواضع من الكتابات المقدسة القانونية، من ذلك على سبيل المثال من سفر الخروج: ٣،و١٩،و٢٠، ومن سفر التثنية:٥، حيث ورد الخبر بأن الجبل احترق بنار وصلت حتى السموات، وكذلك من خلال التوراه، والمزامير والأنبياء، فمن هذه الأماكن كلها علمنا بأن جبل حوريب من سيناء هو جبل رائع جداً ومرتفع، وأنه جبل مسكون من قبل الرب، وتتردد الملائكة عليه، وهو جبل الضياء، والنار، والاحتراق، وهو جبل غيوم مخيفة وظلام، وكذلك جبل حكمة وتعلم، وأيضاً جبل رحمة ووعد، وصلاح ولعنة، وجبل أبواق وصراخ وضجة، وجبل لطف وتحالف، وجبل شفقة وعدالة ومساواة، وقبل قربان وصلاة، وجبل خصب، وجبل رؤيا وتأمل.

وعندما فرغنا من رؤية جميع الأماكن المقدسة على هذا الجبل، جلسنا وتناولنا الطعام، حيث أكلنا وشربنا ماكنا قد جلبناه معنا، وبقينا لمدة تزيد على الساعة فوق الجبل المقدس، لأننا احتجنا إلى ثلاث ساعات للوصول من الدير إلى قمة الجبل، وبعدما عملنا هناك كل ماتوجب علينا عمله على الجبل المقدس، أعددنا أنفسنا للأعمال المتبقية، وانطلقنا على طريقنا كما يلي.

متابعة الحج

نزول الحجاج من جبل حوريب، وصعود بعض الحجاج إلى جبل القديسة كاترين

وبعدما تناولنا طعامنا، وأرحنا أنفسنا لوقت قصير، نزلنا من الجانب الغربي من الجبل، عبر طريق منحدر وخطير، ومخيف وكثير الشعاب، إلى حد أننا أُرغمنا في بعض الأحيان بأن ندع أنفسنا ننزلق نحو الأسفل عبر صخور منحدرة، وذلك بالانبطاح على أمعائنا، وغالبا مااصطدمنا أثناء نزولنا برؤوس صخور، كانت معلقة فوق ممر ضيق، حيث اذا ماانزلقت، كان معنى ذلك الموت، لأنه كان في الأسفل جدراناً عالية من الصخر، أية خطوة خاطئة عندها كانت ستسبب سقوط الانسان في وديان مرعبة، وأخيراً وصلنا إلى دير عرف باسم دير« الأربعين قديساً»، حيث دخلنا إلى الكنيسة وصلينا، وحصلنا على غفرانات(+)، وفي ذلك الوقت جلب لنا اثنان من رهبان دير القديسة كاترين، كانا مقيمان هناك، تيناً، وتمراً جافاً، وماء، بهم أنعشنا أنفسنا.

وبعد هذا، لم يكن الوقت قد وصل إلى الظهيرة، لذلك جلسنا وتناقشنا: هل سنصعد جبل القديسة كاترين أيضاً في ذلك اليوم نفسه، أونستريح حتى الغد، وقد توصلنا إلى قرار هو أن الشباب والرجال الأقوياء منا، وكل من يرغب، يقومون بالصعود إليها وقتها، وأن يعودوا بعد زيارة المكان، قبل غياب الشمس، في حين يستفيد الحجاج الأسن والأضعف من برد الصباح من أجل القيام بصعودهم، وقام عشرة من الحجاج الأقوياء، واستعدوا للقيام بالصعود في الحر الشديد، وأسماؤهم كما يلي: اللورد جون، كونت سولمس، وهو فارس، واللورد هري أوف سكومبيرغ وهو فارس، واللورد سغسموند أوف مارسباخ، وهو فارس، واللورد كاسبر أوف سيكولي، وهو فارس، والمعلم

لازينوس، وهو رئيس شمامسة وقانوني كنيسة ترانسلفانيا في هنغاريا، والراهب فيلكس من أولم، من طائفة القديس دومينيك، والأب باولوس غوغلنغر من طائفة الفرنسيسكان، والراهب توماس، وهو راهب علماني من الطائفة نفسها، وخادمين للكونت، اسميهما: جون، وكونراد، وقد رافق هؤلاء بعض البداة العرب، وقد شرعوا بتسلق الممر الشديد الانحدار، صعوداً إلى جبل القديسة كاترين.

وصعدنا إلى الجبل عبر ممر طويل، ووعر، وخلال وديان بلاممرات، وفوق جروف منحدرة، وفوق حجارة معلقة، وصخور مخيفة، وطرق منحدرة مرعبة وشعاب صخرية، تحت شمس محرقة جداً، ووجدنا على كل حال ماواسانا، وتمثل ذلك بنبعين لمياه باردة، على طريقنا صعوداً، وعندهما أنعشنا أنفسنا، وغُلب واحد من الفرسان بالعمل الشاق، ووقع كلياً، وجلس في واحد من الأماكن الشديدة الانحدار، عاجزاً عن متابعة صعوده، وكنا قد تجاوزنا أكثر من منتصف الطريق، وكان بامكاننا رؤية قمة الجبل، ومع ذلك قد بقي طريق طويل أمامنا، وبناء عليه عندما رأى الفارس الضعيف أنه لن يكون بامكانه الوصول الى القمة، رجانا بمتابعة الصعود، وأن ندعه ينتظرنا لوحده، وكانت إجابتنا لذلك تشجيعه وإرغامه أن يمشي قليلاً بعد نحو الأعلى، ولكن عندما رأيناه قد سقط مراراً من أيدينا على الأرض وكأنه بدون وعي، ربطنا منشفة طويلة حول حقويه، بها جرّه بعضنا، في حين أمسك آخرون بيديه، وشدوه بذراعيه، ووقف آخرون خلفه ودفعوه صعوداً، وبناء عليه عملنا عملاً رائعاً، وبذلنا جهوداً كبيرة مع ذلك الحاج، وأخيراً وصلنا بعون الرب إلى قمة جبل سيناء، إلى الضريح الملائكي للقديسة كاترين، العذراء الأعظم مباركة، وانكببنا هنا أرضاً، وبخشوع قبّلنا المكان الذي إليه جلبت الملائكة جسدها المقدس، وحصلنا على غفرانات(+)، وغنينا أولاً القداسات المعينة في مسيرات الأرض

المقدسة، وجلسنا بعد الصلاة، وبدأنا نتحرق رغبة إلى خبز وماء، وقد رغب كل رجل منا لو أن معه سلته وقارورته.

ولست أدري لأي سبب، أنني وحدي كان معي سلة مليئة بالبقسماط، وبيض مسلوق، ولحم مدخن، وجبنة، وكنت قد جلبت ذلك لي وحدي، في حين ترك الآخرون جميع زادهم مع الحجاج الذين بقيوا في الأسفل، وبدأ واحد منهم يرجوني منحه قطعة من اللحم، وآخر قطعة من الخبز، وثالث لقمة من الخبز والجبن، وطلب مني آخرون جرعة من الخمرة، وعندما رأيت هذا دهشت، ولم أعط شيئاً لأي واحد منهم، بل أخذت سلتي وصببت ماكان فيها على صخرة مقعرة كانت ملاصقة لنا، وذلك في المكان الذي وضع فيه رأس القديسة كاترين فيما مضى، وهكذا قمت بأريحية بدعوة النبلاء والحجاج قائلاً: « اعلموا ياسادتي إنه قضي بالحكمة الإلهية، بأن تكونوا هنا جميعاً ضيوفي، وأن أكون وحدي مسؤولاً عن تكريمكم، الأمر الذي أنا على استعداد للقيام به، حيثما أنا قادر على تقديم ضيافة جيدة لكم، لأنه في هذا البيت، وفي هذه القاعة، وفي هذا الفراش، أقامت ونامت لمدة تزيد على الثلاثين سنة، بعد آلامها، القديسة كاترين، أحب الطاهرات إليّ، التي خطبت إليّ، من بين جميع الفتيات الثمينات جدا لمملكة السماء، وقد كان هذا في يوم عيد هذه العذراء من عام ١٤٥٢، فصدوراً عن حبها تخليت عن الدنيا، ولبست رداء الرهبان المبشرين، وبعد مضي سنوات، قمت في اليوم نفسه بالاعتراف بشكل علني مهيب بالطاعة(إلى هذه الطائفة)، وبذلك ربطت نفسي بشكل أبدي بخدمة الرب وبخدمة هذه العذراء وبناء عليه، أقبلوا أنتم جميعا الذين هنا، وكلوا بسرور»، وعند هذه الدعوة أقبلوا جميعاً، وأكلوا بسرور كل ماكان لدينا، وفي وليمتي هذه، كان هنالك كونتات، وفرسان، وكهنة، ورهبان، فضلاً عن ذلك كان هناك رجال علمانيون: مسيحي هرطقي، وبداة عرب، ومسلمون،

أكلوا جميعاً مما كان في السلة، وكانت هناك كميات وافرة من الخمرة، بسبب أن الحجاج الآخرين قد جلبوا قواريرهم، إنما كانت هناك حاجة إلى الماء.

وعندما رأى ذلك واحداً من البداة العرب من ضيوفنا، أخذ جره، ولم يركض، بل انزلق نحو الأسفل من طرف الجبل، وبعد وقت قصير عاد، وهو يحمل جرة مليئة بالماء الطازج، جلبه من واحد من الينابيع لم يكن معروفاً بالنسبة لنا، وبناء عليه مزجنا خمرتنا بالماء، وعندما أكملنا تماماً أكل جميع طعامنا حتى أصغر لقمة، وفرغنا من شرابنا، أنهينا وجبتنا، ولم يحدث قط خلال حجنا كله أن فرغت حقيبتي تماماً، وصارت نظيفة مثلما حدث في هذا المكان، وفي الوقت نفسه بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وأنذرنا البداة العرب للقيام بالنزول قبل غيابها، ولذلك نهضنا وركضنا مسرعين نحو الأسفل، والتحقنا برفاقنا بعد الغياب مباشرة عند دير الأربعين قديساً، وفيما يتعلق بوصف الجبل، وبطبيعة الأرض، فسوف تظهر فيما يلي:

صعود جبل القديسة كاترين

وفي الخامس والعشرين، استيقظنا قبل ضوء النهار، ونهضنا من فوق الأرض التي تمددنا عليها في الهواء الطلق، في ساحة الدير، عازمين على تسلق الجبل للمرة الثانية، مع جميع اخواننا الذين بقيوا خلفنا في اليوم المتقدم، وعلى كل حال بقي الجزء الأكبر من الذين صعدوا في اليوم المتقدم دونما حراك، وأخذنا معنا خدماً من البداة العرب، وسائقي حمير، أعطيناهم حقائب أطعمة وجرار ماء لحملها، وتبعنا دليلنا الراهب نيقوديموس، بخطوات لطيفة تقديراً منا لمرضانا والضعفاء منا، ويقود الطريق من الدير ويسير لمسافة كبيرة خلال حدائق وآجام امتداداً حتى سفح الجبل، وامتلك طريقنا هذا ضوء القمر، ولكن عندما وصلنا إلى حيث نبدأ بصعود الجبل، دخلنا إلى واد كان مغلقاً بجدران عالية من

الصخور، ومضينا صاعدين من هذه الأعماق، فوق طريق وعر للغاية، ومن دون أي ضوء، لأننا كنا مطوقين بجروف من الصخر، ولذلك لم يكن بامكان نور الشمس الوصول إلينا، وشعرنا في هذا الوادي بالبرد، إلى حد أن أسناننا أخذت تصطك، وتمنينا أنه لو كانت لدينا نار، لكن لم يكن معنا مانعمل به ناراً، وعلى كل حال قام البداة العرب شفقة منهم علينا لما كنا نعانيه، فجمعوا بعض الخشب الجاف، وحكوهم ببعضهم بالأيدي، حتى صاروا جاهزين لالتقاط النار، ثم أخذوا حجرتين من قعر المجرى، وضربوهما ببعضهما بشدة حتى أعطيا شرارة أشعلت الأعشاب، وجمعنا عصياً وعملنا ناراً كبيرة، وقفنا من حولها وأدفئنا أنفسنا.

وأعتقد أن البداة العرب لابد أنهم تعلموا استخراج النار من الحجر الصوان من بروميثيوس بن يابيتوس Prometheus son of ia-petus الأسيوي، ومن حورية، كان في أيامها— كما أخبرنا الشعراء— هناك رجل صاحب حكمة عظيمة، فهو بعدما عمل شكل انسان من الصلصال، وضع فيه حياه بسرقة نار من السماء، وكان الانسان الأول الذي علم بني البشر، أن النار من الممكن استخراجها من حجارة الصوان، ويقال بأن النار قد اكتشفت أولاً من قبل فولكان Vulcan، لأنه عندما احترقت شجرة بسبب البرق، لقطت بقية الأشجار النار منها، واحترقت الغابة كلها، وفرح فولكان بسبب الحرارة، ووضع وقوداً جديداً عندما بدأت النار تخمد، وبذلك أبقى النار مشتعلة، وأظهر للناس أنه هو الذي اخترعها، وبذلك حصل على جائزته بتعيينه ملكاً على مصر كلها.

وبعدما شعرنا بالدفء وبالراحة، أخذنا بعض الجمرات المحترقة، وتابعنا سيرنا عبر الوادي ونحن نحملهم معنا، ووصلنا في الوادي إلى أماكن حيث هناك جروف، وجدران من الصخر، عليهم تسلق البداة

العرب، ثم قامـوا بسحب الحجاج واحداً تلو الآخر، وغـالباً ماتفكرت في ذلك الصباح كم هـي مدهشة طرق الرب، ففي الأمـس كنا بصعوبة بالغة نستطيع التنفـس بسبب الحر، واليوم بصعوبة بالغـة يمكننا العيش بسبب البرد، لأننا كنا كلما صعـدنا أكثـر، شعـرنا بشـدة البرد أكثـر، ووصلنا في الوقت نفسـه إلى نبع، إلى جـانبـه مجدداً أشعلنا ناراً، وعلى الفور بدأنا نتمتع بحرارة النار، مثلما متعنا أنفسنا في اليوم المتقدم ببرودة الماء في تلك البقعة، وبعدما أدفئنا أنفسنـا للمرة الثانية، مضينا نسير على طريقنا، فتسلقنا منحـدراً طويلاً منزلقاً، وعند رأس هذا المنحـدر وصلنا إلى جدار كبير من الصخر، من حافته كانت تتساقط مياه نقية جيدة، مع أننا لم نهتم بالشرب منها، لأن الوقت كـان مايزال الصباح البـاكر، وكنا نعاني من البرد كثيراً، وتساقطت هذه الميـاه في مكان مقعر من الصخرة، وعملت هناك نوعاً من أنواع الصهاريج، وأشعلنا مجدداً ناراً إلى جانب هذا الصهـريج وأنعشنا أنفسنـا بحـرارتها، ذلك أن البرد كـان عظيماً إلى درجة أننا لو لم يكن لدينا نار، لأغمي علينا ونحن نرتجف.

ولدى متابعتنا سيرنا، تسلقنا الأمـاكن الصخرية، ووصلنا إلى منحدر كـان منزلقاً جـداً، وكان ناعماً— أي بدون صخـور أو نباتات— وكـان هذا المنحـدر مليئاً بالأعشـاب مثل مـرج من المروج، وعندمـا كنا ندفع أنفسنا صعـوداً، فجأة أشرقت الشمس، وازدادت الظلال، ورأينا بعيـداً فوق هذه الشقة الضيقة رأس الجبل، وهو مشهد وقفنا نحوه مندهشين، مندهشين تجاه الارتفـاع المتبقي، وذلك بعـد صعودنا لمثل هـذه المسافـة الطويلة، ورأس هذا الجبل أو قمتـه، من غير الممكن رؤيتـه من الأسفل من قـرب سفحه، لأن شكله هو كما يلي: أولاً، له قـاعدة واسعـة جداً، حيث ينبت فيهـا كثيراً من العليق والنباتات والشجيرات، ووصلنا بعـد هذا إلى صخور طويلة يتخـذ الانسان طريقـة فيها صعوداً خـلال فجاج تقوده إلى جـوف الجبل، الذي يتنامى ويتسع كثيراً من كتلة الجبل، وكأن

الأرض نسفت نسفاً، وبسبب هذا الاتساع لم يكن بإمكان الانسان أن يرى من الأسفل لارأس الجبل ولارقبته، وعلى هذا المكان المتسع طريق واسع، يحتوي على كثير من الأماكن المعشوشبة، هي ممتازة لحمل عشب جيد، وجوف الجبل هذا يحتوي أيضاً على ممر طويل يقود إلى قمم الجبال المجاورة، بطريقة أن الانسان يمكنه العبور على طول الجرف إلى قمم الجبال الأخرى، وعند نهاية هذا الجوف تقف تلة جبل سيناء، لأن كثيراً من الصخور الملتوية والوعرة تنبعث مرتفعة في ذلك المكان، مندفعة من الأرض المنتفخة، وذلك مثلما تنمو رقبة الانسان من جسده.

وهذه الرقبة عالية إلى حد أن الانسان يرتجف لدى التحديق بها، وفوق الرقبة هناك رأس الجبل، وتنصب الصخرة المشكلة للرقبة مباشرة نحو السماء، وهي مشكلة بوساطة جروف عالية وحادة، حتى أن الانسان الذي يقف في الأسفل، لايمكنه أن يتصور أنه ممكن لأي انسان الصعود إلى القمة، وفي الحقيقة إنه قبل ظهور القديسة كاترين هناك، مامن انسان غامر بتسلقه، ولذلك نقرأ في Speculum Historiale— الكتاب: ١٩، الفصل: ١٧، عن بعض الرجال المسنين الذين عندما كانوا يزورون آباء الكنيسة يقولون لهم:« انظروا إلى قمم جبل سيناء، التي رأسها يمتد حتى السماء، ولايمكن بأي حال من الأحوال الاقتراب منه».

ولم نعبأ بجميع هذه المعيقات، بل أعددنا أنفسنا برجولة للمهمة التي بدأناها، وقد وصلنا حتى الرقبة، على طول حافة الجبال الأخرى، وبدأنا الآن بالصعود إلى الرقبة نفسها، التي كانت منحدرة جداً، وتسلقنا فوق الصخور والجروف مثل انسان يتسلق شجرة، حيث كنا نشد أنفسنا من صخرة إلى أخرى، ومضى الأقوى منا في الأمام، ومدوا أيديهم إلى الذين تبعوهم، وبذلك سحبوهم نحو الأعلى، ولم يكن هناك مكان لرجل ضعيف القلب، أو لأناس يفقدون توازنهم لدى نظرهم

من الأسفل إلى الأعلى، ولم نتسلق بشكل نظامي واحداً تلو الآخر، بل كل واحد صعد إلى المكان القريب منه شخصياً، وإلى حيث فكر أنه الأفضل، لأنه كانت هناك كثيراً من الأشياء ليمسكها الانسان بيده، وليرتاح عليها بقدمه، وهكذا صعدنا نحو الأعلى، ونحن نزحف حول كتلة الصخور الممتدة من وجه الجروف، وكنا مثل نملات تتسلق شجرة، وأخيراً بما أن« التعب الذكي يتغلب على كل شيء»، وصلنا إلى رأس أو قمة الجبل المقدس، وعندما كنا هناك، كانت هناك ريح قاسية جداً، وباردة، وقوية، ثائرة، لذلك لم يكن بامكاننا تلاوة صلواتنا أو فعل أي شيء جيد من دون نار.

وجمع البداة العرب على الفور حزماً من الأخشاب، وعملوا كومة منهم، وأشعلوا ناراً كبيرة، وقفنا إلى جانبها، حتى علت الشمس— التي كانت قد أشرقت منذ بعض الوقت— أكثر، وصارت حدة الريح أقل قسوة، وعندما شعرنا بالدفء، وانتعشنا بعض الشيء، مضينا إلى الضريح الذي إليه حمل الملائكة القديسة كاترين، العذراء المجيدة، وبسرور رتلنا القداسات المحددة في كتب مسيرات الأرض المقدسة، وصلينا بخشوع عظيم، وتأملنا لوقت طويل بصمت، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وشعرنا بسرور خاص فوق هذه البقعة المتميزة، لأنه حتى الآن حملتنا أسفارنا بشكل دائم بعيداً عن وطننا وديارنا، والآن شرعنا من هذا المكان المرغوب فيه بالاستدارة بأنفسنا نحو العودة، وصرفنا وجوهنا بثبات نحو اتجاه.مواطننا، وبلداننا، وكم هو ممتع وسار شيء لايمكن أن يفهمه انسان، إلاّ الذي أقام مدة طويلة في أجواء بعيدة، والذي عاش منفياً في أرض غريبة بين قوم لايعرفهم، ولايعرف طباعهم، ولايفهم لغاتهم، والذي سكن لبعض الوقت مع شعب له طائفة غريبة، ودين غريب، ويعبد مايبدو رباً غريباً، وإنني أقول هو وحده قادر على أن

يفهم قول الشاعر:« هذا لي، وهذه أرضي الخاصة»، وهذا مايشهد عليه هوغو رغيولير Hugo Regularis عندما قال:

« عزيز على كل فاني وطنه

فنحن لانستطيع نسيانه أينما تجولنا»

وبناء عليه شعرنا في هذا المكان المقدس بسرور مزدوج، وكان السرور الأول صادر عن تذكرنا، الحديث لبلادنا الخاصة، التي نحوها كنا الآن ندير وجوهنا، وسرور آخر من وجود قبر العذراء الذي رأيناه بأعيننا، وتعاملنا معه كما نحب، ويقوم هذا القبر كما يلي: يتشكل رأس أو قمة جبل سيناء كله من قطعة واحدة من الصخر، هي في القمة مسطحة، مشكلة مايشبه موضعاً مستديراً ليس واسعاً جداً، قياسه حوالي ست خطوات عبره كله، وأرض هذا الموضع هي قشرة الصخرة ويدور من حوله عند الطرف جدار من الحجارة الجافة، يشبه سياجاً، وقد بني خشية أن يسير أي انسان بلا انتباه فيسقط منتكساً نحو الأسفل، وأيضاً خشية أن يصاب الذين ينظرون نحو الأسفل بالدوار، من أي جزء نظروا، بسبب الارتفاع العظيم، وكذلك من أجل أن يسير الانسان هناك ويتجول مع حرية أعظم وخوف أقل، وفي وسط هذه الأرضية الحجرية هناك مكان مجوف لتلقي جسم انسان مسطح ومتمدد على طوله تماما، وهذا التجويف ليس عميقاً جداً في الصخر، بل إنه عميق بما فيه الكفاية لاستيعاب جسم انسان متمدد حيث أنه يملأ التجويف، وبذلك يصير مستوياً مع بقية الأرضية، وهذا التجويف ليس مصنوعاً بأية أدوات معدنية، أي بعمل انساني، بل إنه مضغوط في الصخر بوساطة معجزة، لأنه عندما حمل الملائكة جسد العذراء إلى هنا من الاسكندرية ووضعوه فوق هذه الصخرة القاسية جداً، والناعمة، قامت الصخرة على الفور فانفرجت بقوة عمل ملائكي لاستيعاب جسد القديسة، وصارت الصخرة لينة مثل الشمع تنفرج وتنضغط تحت

أي شيء قاس وثقيل يمدد فوقها، وهكذا ضغط جسد القديسة موضع لحد له يتوافق مع شكله، فهناك تمددت مرتاحة لمدة ثلاثين سنة، غير معروفة من قبل البشر، ومحروسة من قبل الملائكة.

والبرهان المقدم على هذه الحراسة هي الأماكن المجوفة على الجانبين بشكل موائم للجلوس فيها، وكأن انسان ما قد جلس هناك، وفي الحقيقة يقال بأن الملائكة الذين تولوا حراسة جسدها قد سكنوا هناك، ربما بأجساد مادية، مثلما ورد في الكتابات المقدسةوقيل بأنهم جلسوا، وساروا، وطاروا، فالملائكة الذين أعلنوا عن قيام الرب، قيل بأنهم جلسوا على حجرة الضريح(متى:٣٨، مرقص:١٦/ ٥)، وعلى كل حال، إذا ما أراد ملاك استعارة جسد مادي، عندما يرغب بالجلوس، هو لايحتاج إلى مقعد أو كرسي، وكذلك هو ليس بحاجة لإراحة نفسه بالجلوس، ومع ذلك صنع الملائكة أماكن مناسبة للجلوس إلى جانب الجسد المقدس للعذراء، حتى يظهروا أنهم يحرسون الجسد المقدس، وباقين دوما إلى جانبه، أما كيف تم العثور على جسد العذراء هنا، وكيف جرى نقله من هنا إلى الدير فقد تقدم تبيانه من قبل.

وانكببنا بأنفسنا نحو الأرض أمام المكان الذي تمددت فيه العذراء، ووضعنا أنفسنا فيه، ليس من باب الرياء، أو الفضول، بل من باب التقوى، ولقد استخلصنا أنها لابد قد كانت طويلة القامة، وأخيراً بعدما قدمنا جميع التشريف المستحق، أو في جميع الأحوال جميع التشريف الذي كنا قادرين على تقديمه إلى هذا المكان المقدس، غادرنا لمشاهدة الأشياء الأخرى.

بلدان العالم التي رأيناها في أطراف الدنيا الأربعة من قمة هذا الجبل المقدس، ووصف للأراضي، والمياه وهكذا دواليك.

ووقفنا على حافة جبل القديسة كاترين، وألقينا نظرة على الأراضي،

والمناطق، والمقاطعات القائمة في تلك الأحواز، واستطعنا أن نرى بعض المناطق البعيدة من العالم، لأننا كنا واقفين في أماكن عالية جداً، ولم تكن مشاهدنا محجوبة بأية غيوم أو بأية معيقات، وألقينا أولاً بأبصارنا باتجاه الشرق، نحو مساحة كبيرة من الماء، أي نحو الخليج العربي، الذي يعرف أيضاً بالبحر الأحمر، الناشىء عن المحيط الهندي، وباتجاه الشرق لم يكن باستطاعة أعيننا رؤية شيء سوى المياه، التي امتدت حتى جبال مدين، وكذلك رأينا البحر الأحمر وهو يحيط بجبل سيناء.

والملاحة في البحر الأحمر صعبة جداً وخطيرة، ولـذلك فإن القديس جيروم في رسالته عن الحياة الديرية التي وجهها إلى الراهب روستيكوس Rusticusقد قال عن هذا المكان كما يلي:« يصل الذين يبحرون فوق البحر الأحمر إلى مدينة كبيرة، وبعد كثير من المصاعب والمخاطر، لأن الشواطىء مسكونة من قبل قبائل أناس متنقلون، أو بالحري من قبل أكثر الناس وحشية، وعلى الملاحين أن يكونوا دوماً محترزين، والأسلحة دوماً في أيديهم، وأن يحملوا معهم أطعمة لمدة سنة كاملة، فالبحر ملىء بصخور غاطسة، وضحله قاسية جداً، لذلك يتوجب على القبطان أن يجلس على رأس السارية، ويصرخ معطياً أوامره من هناك لعمل السفينة، وسوف تكون رحلة سعيدة، إذا ماوصلت السفينة إلى ميناء البلدة المتقدم ذكرها خلال ستة أشهر، وهي التي يبدأ بعدها المحيط بالانفتاح بنفسه، وبصعوبة يمكن أن تصل عبر هذا المحيط إلى الهند خلال سنة ابحار متواصل، حيث تصل إلى نهر الغانج، وهو الذي تدعوه الكتابات المقدسة باسم فيشون Phison، حيث ينمو هناك كل شيء مرتفع الثمن كثيراً جداً، وحيث هناك جبال من الذهب، مامن انسان يستطيع الاقتراب منها بسبب الغريفونات(الأسود الخرافية المجنحة) والتنينات، والمخلوقات الرهيبة الأخرى ذوات الأحجام الهائلة، هذا ماذكره القديس جيروم.

ويمتـد من بحر الهند هذا نفسـه خليج كبير آخـر، باتجاه الشرق، هو الخليج العـربي، فهو يمتد داخـل البلدان العربيـة، ومنها قد نـال اسمه، وعلى مقربة منه البـلاد التي اسمها في الكتابات المقدسـة فارس، وهكذا اسماها الإغـــريق اشتقـــاقـــاً من اسم فـــرســـوس Perseus، ملك الأرغريفيين Argives، الذي استولى عليها بعد كثير من المعارك، وأجبر الناس الذين كـــانوا حتى ذلك الحين بدائيين، على الاستقـــرار والعيش وفق طريقة حضـارية، كما أنه منح تلك البلاد اسمـه، وحول فـرسوس هذا يروي الشعـــراء كثيراً من الأســـاطير، هذا وتقـــدم لنا الحديث عن حصانه المجنح من قبل، وكان في هذه البلاد فيما مضى مدينة قوية جداً، اسمهـا فيرسيبـولس Persepolis وهي التي قـد تـــأسست من قبل فـرسـوس، وحدثنا بليني في كتـابه الخامس، بأن التفـاح الفـارسي الذي نسميـه نحن في ألمانيـــا الدراق، كـان يحمل من تلك البـــلاد إلى بلادنا، ولذلك أطلق عليـه اسم التفـــاح الفـارسي، وهذا التفـاح سـام في بلاد فـــــارس، لكنـه هنـا حلو، وطيـب المذاق، وذلـك وفقـــــا لما ورد في«الكاثوليكونCatholicon » [رسـالة حـول فلسفـة الزهد]، وهذه البلاد متصلة بميديا، وفقط مفصولة عنها ببعض الجبـال العالية، القائمة بينهما، وذلك مثلما ايطاليـا هي منفصلة عــن ألمانيـا، وكـانتـا في القـديم مملكتان عظيمتان، وحدهما قورش في مملكة واحدة.

وبلاد ميـديا واقعـة إلى الشرق من جبال القـوقـاز، وإلى الجنوب من فـارس، وإلى الشرق من بلاد الفـــرس بلاد الهنود، وإلى الجنوب البحـر الأحمر(الخليج العـربي)، وكان في بلاد ميـديا فيما مضى Egbathanis، وكانت مدينة قوية جـداً بناها أرفخشد، حسبما جاء في سفر يهوديت:١، ومدينة سوسة التي قرأنا عنها في سفر أستير.

وألقينا بعد ذلك بأبصارنا نحو الجنوب، في خليج البحر الأحمر، وقد رأينا خلف مجراه جبـالاً عاليـة جداً، وفي هذا المكان أكثـر القفار عـزلة،

وهي قفـار طيبة Thebaid ، التي عاش فيها فيما مضى أكثر الرهبان قبولاً، ويتـاخم هذه القفار من الجنوب المحيط، ومـن الغرب النيل، نهر مصر، ففي هذه القفـار، اعتـاد أن يعيـش القـديس أنطوني الكبير، وهو صاحب اسم مشهور في العـالم كله، ومثله فعل القديس أرسينيوس -Ar senius ، وكـذلك القـديسون الثـلاثة، الذين كـان اسم كل واحـد منهم مكاريوس، مع قديسين آخرين ذوي قداسة عظيمة جداً.

والأشياء الأولى التي رأيناها في البحـر الأحمر كانت جـزراً مهجورة، كانت صخورها تلمع بملح أبيـض، هذا ويوجد في هذا البحر كثيراً من الجزر الثمينة جـداً، التـي لم يكن بامكاننا رؤيتهـا، ورأينـا على شـاطىء البحر الأحمر، الذي كـان على طرفنا ميناءً بحرياً متميزاً جـداً، الذي كان اسمه فيما مضى Berenice أو Arolech واسمه الآن الطور، وتلقي السفن التي تأتي من الهند حاملة العطور والتوابل مراسيها في هذا الميناء، ومن هناك يجري حمل التـوابل إلى مصر، ومن مصر عبر البحر المتـوسط حتى بلادنا، وهـذا أقصى ميناء في الشرق معـروف بالنسبـة لنا، وهناك يوجـد دوماً سفنـاً هندية كبيرة كثيرة، وهي معمولـة ومبنية مع بعضهـا بحيث ليس فيهـا حـديد، كما أنهم لايتجـرأون على امتـلاك مـراسي حديدية، أو سـلاسل، أو صحون، أو مسـامير، ولاأية أسلحة معـدنية، ولافؤوس، ولاحراب، ولاأية أدوات حـديدية مهما كان نوعها، وسبب هذا هو أنه هناك على شواطىء البحر الهندي فجـاج وجبال معمولة من حجر المغنطيس، ومن قـرب هذه الأماكن السفن المتوجهة نحـو العربية تحتاج إلى المرور، وبناء عليه إذا وجدت أية سفينة تحتوي على أي حديد، وعليها المرور بتلك الأمـاكن التي فيها حجـارة مغنطيس، فإن المغنطيس سـوف يجذب السفينة فـوراً بسبب الحديد، وبذلـك سـوف تصطدم بالصخور وتغـرق، لأن المغنطيس يجذب الحديد إلى نفسه بشكل عجيب جـداً، والذي يهمـه أن يقرأ أكثـر حـول هذا، عليـه أن ينظر في -Spec

ulum Historiale— الكتاب:٢٠، الفصل:٢٠.

علاوة على هذا، في عدة مناطق من الشرق هناك صخور، لها مثل هذه الطبيعة، أي أنهم يجذبون إليهم أناس يرغبون بعبورهم، وذلك مثلما يجذب المغنطيس الحديد، وعندما يُجذب مثل هؤلاء المسافرين، يضحكون، ويصبحون مسرورين، ثم يصطدمون بالصخور، ويهلكون، وقد تحدث كونسيلياتور Conciliator عن هذه الصخور في كتابه Doctrina— الفصل:٦٧، حيث قال بأنه بسبب العوائق مامن انسان يمكنه أن يبحر إلى أجزائنا من الأرض، حتى وإن لم يمنعهم الاتساع الهائل للمحيط.

وأخبرنا الراهب نيقوديموس، أن رهبان القديسة كاترين يتقاسمون مع سلطان مصر المكوس التي تدفعها السفن المحملة المستخدمة لهذا الميناء، وأنهم يمتلكون إلى جانب شاطىء البحر بستان أشجار نخيل كبيرة، منها يجنون تموراً كثيرة كافية لهم طوال السنة، ومع ذلك فإنهم يبيعون الجزء الأكبر من هذه الثمار.

ورأينا عندما نظرنا نحو الغرب، خلف هذا الخيج البحري باتجاه الجنوب، جبلاً عالياً اسمه أولمبوس السودان، لتمييزه عن أولمبوس مقدونية، ويتدفق هذا الجبل عند شروق الشمس بلهب على شكل مخيف لمدة خمس ساعات، ومن هذا الجبل تبدأ بلاد السودان، وهي بلاد كان اسمها في القديم أطلنطا، ويحدها نهر النيل، وهي بلاد واسعة جداً، وتنتج رجالاً غريبين مع حيوانات رائعة في قفارها، وينظر بعض هؤلاء الرجال نحو الشمس عندما تشرق، وعندما تغيب مع لعنات مرعبة، وهم دوما يشتمون الشمس بغضب، بسبب معاناتهم من الحرارة، وهناك يسعى ساطير ويتجول، وهوالذي يشبه الانسان إلى حد أنه يعد انسانا حقيقياً، ويحد هذه البلاد ليبيا، وهي منطقة واسعة من مناطق أفريقيا، وكذلك تحدها مصر.

وسحبنا أعيننـا من هنـاك، وعن التطلع إلى تلـك المناطـق النائيــة، وثبتناها على السهل الصحراوي الـواقع بين جبل سيناء، والبحر الأحمر، ودهشنا تجاه حجمـه وعـزلتـه، وأخبرنا الراهب نيقـوديمـوس أنه كـان يوجد في تلك القفـار دير لرجال مقـدسين، وهذا الدير لم يستطع انسان في العصر الحديث أن يعثـر عليـه، مع أن أصـوات النواقيس تسمع كل يوم، وهو تقـرع في الساعـات القانونية، ولقـد حاول بعض رهبـان دير القديسة كاترين العثور عليـه، وقد أعلنوا أنهم سمعوا صوت النواقيس، لكنهم لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسـائل العثور على الدير نفسـه، وهـم يعتقدون بأن هذا المدير مخفي بنعمـة الرب، بسبب ذنوب البداة العرب، ولكي لاينزعج الذين يسكنون فيه، بسبب وقاحتهم، مثلما يحدث للديرة الأخـرى في الصحـراء، وفي هذا الطـريق نفسـه اختبـأ لوط من شعب سـدوم(التكوين:١٩)، وأخفيت مـدينة دوثان عن السـوريين، حتى لايتمكنوا من اعتقال النبي اليشع(الملوك الثاني:٦)، وكان على كل حال هناك بعض البـداة العرب مع الـراهب، وقد أعلنوا— وربطوا اعـلانهم بالقسم— أنهم قـد كـانوا في ذلك الدير، ولكن بعـدمـا خـرجـوا منه أضاعوا مباشرة الدير والطريق إليه.

ويختفي في بعض الأحيـان بعض رهبان القـديسة كاتريـن، ولايعرف انسـان إلى أين ذهبـوا، ومن المعتقـد أنهم نقلوا إلى ذلـك الدير ليشغلوا أمـاكن الذين يمـوتون من وقت إلى آخـر، وينبغي أن لايستخف أي انسـان بهذا وينظر إليـه على أنه صبيـاني أو خيـالي، فقـد قـرأنا مثل هذه الحكاية في« حيـاة الآباء»، وكـان ذلك حـول الصحراء نفسهـا، وتقـول الحكاية بأنه سكن هناك رجل مقدس، لم يستطع أي انسان العثور عليه، وكان راعي الدير بوستوميوس Postumius في زيارة للآباء والقديسين الذين كـانوا يسكنون في القفـار، وقـد بحث عنـه لوقت طويل، لكنه لم يستطع العثـور عليه، لأنه كـان كلما حـاول رجل أن يقابله، كـان يهرب

بعيداً في داخل القفار إلى بقعة غير معروفة، ويتجنب الحديث مع أي واحد من بني البشر، ومع ذلك لقد قيل بأنه التقى براعي الدير، الذي كما افترض، حصل على هذه الفضيلة بسبب قوة ايمانه، وعندما تحادثا، سأله راعي الدير، لماذا يتشدد في تجنب بني البشر، أجابه« إذا كان الرجال سوف يتحدثون معي، فإن الملائكة الذين أتحدث الآن معهم، سوف يهربون مني»، وقرأنا الشيء نفسه عن القديس هيلاريون، الذي عرفه اللصوص الذين يتصيدون في القفار، وغالباً مابحثوا عنه، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل العثور على قلاية الرجل العجوز، انظر Speculum Historiale— الكتاب:١٧، الفصل:١٩، والكتاب:١٩، الفصل:١٧، وجيروم في كتابه« حياة القديس هيلاريون»، الفصل:٩، الذي هو النص الأصيل.

وتحولنا من هناك واتجهنا نحو الشمال، حيث يتصل بالشرق، وألقينا بأبصارنا باتجاه بلاد العربية التي تحتوي على صحارى شاسعة جداً، وهي مليئة في كثير من أجزائها بعطور ثمينة متنوعة، ولهذا السبب عرفت باسم« العربية المباركة»، وهي تمتد فيما بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وتدعى باسم «المباركة» بسبب الجودة الخاصة للتربة، لأنه عندما يجري حفر الأرض في بعض الأماكن تخرج بعض الكتل الترابية ذات الرائحة الطيبة، ويتم العثور عليها، ويستخرج الذهب من تلك البلاد بعد الحفر عليه، ولايتم تذويبه بالنار كما يجري عادة العمل في المناطق الأخرى، بل يستخرج من الأرض على شكل قطع بحجم اللوز، والكستنا، ولونه لامع إلى حد أنه يغري بجلب الأحجار الكريمة ووضعها في ذلك الذهب، وفي العربية هذه بلدة مكة، وهي مدينة النبي محمدﷺ، وفيها معبد ضريحه(كذا)، الذي يقال بأنه معلق ببراعة متناهية، بوساطة أعمال آلية، يعتقد الذين لم يعرفوا كيف عملت، أن الضريح معلق بالهواء بوساطة بعض القوى الربانية، والحقيقة هي أنه

هناك أحجار مغناطيس تحمل أجزاء متساوية بين قسم وآخر، فقد جرى وضع قسم من الأحجار في الأرض من تحت، ثم قسم آخر في سقف مقبب من الأعلى، وتابوت محمدﷺ، الذي هو من حديد، معلق في الهواء بين هذين القسمين من الأحجار، وكأنه مثبت هناك بوساطة إرادة ربانية، وهناك شيء مشابه قد صنع من الحجارة وفق الطريقة نفسها في مشكاة فينوس، التي يندهش الكفار نحوها، علاوة على ذلك كان هناك في واحد من الهياكل صنم حديدي معلق في الهواء وفق الطريقة نفسها، كما ورد إلينا الخبر في Speculum Historiale — الكتاب:٩، الفصل:٢٠، وفيما هو مقبل في ص٧٢ظ.

واستدرنا الآن أكثر نحو الشمال، ونظرنا باتجاه بلاد الكلدان، التي تحدها العربية، ففي هذه البلاد بنيت مدينة بابل العظيمة من قبل نبوخذ نصر، حسبما قرأنا في سفر دانيال.

وكان في بابل هذه مسلة عظيمة، كانت احدى عجائب الدنيا السبع، فقد أمرت الملكة سميراميس بقطع حجرة من جبال أرمينيا، طولها مئة وخمسين قدماً، وسماكتها أربعة وعشرين قدماً، وبجلبها إلى بابل، حيث نصبتها، مما أدهش جميع الناظرين إليها، ويوجد على مقربة من هذه المدينة حقل دورا Dura ، حيث التقى العفاريت مع بعضهم بعد الطوفان، من أجل بناء برج بابل، وهناك أيضاً حدثت بلبلة الألسن، وأقام في هذا الحقل نبوخذنصر تمثالاً ذهبياً للرب، وهو الصنم الذي رفض أنانياس Ananias، وآزارياس Azarias وميسائل Misael، رفضوا عبادته، لذلك ألقى بهم في أتون نار مضطرم، وهنا كان صنم بعل، وعرين الأسود، وكانت هذه المدينة قد تزينت بنعمه سوزانا، زوجة يواكيم، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وجاء من هذه البلاد، كما قلت من قبل، الغجر، الذين ندعوهم الـ Zigeuner(النور) وانتشر هؤلاء الناس مع أزواجهم وأولادهم، في أيامنا، فوق أوروبا

كلها، ولم يسمح لهم بالدخول إلى المدن، لأنهم الأبرع بين اللصوص.

وطردهم البنادقة كلياً من مملكتهم، بسبب لصوصيتهم ولأنهم اتهموهم بكونهم، جواسيس، ووفق الطريقة نفسها لم يسمح لهم اللورد ايبرهارد Eberhard، دوق وورتمبورغ Wurtemburg بالدخول إلى دوقيته، لأنه عانى منهم شخصياً ومن خيانتهم عندما كان في أزمة في الأرض المقدسة، فقد خانوه لصالح المسلمين، ولكي تجري معاملتهم بشكل أفضل من قبل الأناس المسيحيين، أعلنوا بشكل زائف، بأنهم قدموا من مصر العليا، وقد نفيوا من هناك، حتى يتمكنوا من التوبة، لأنهم لم يظهروا حسن استقبال للعذراء المباركة، وللطفل يسوع، وليوسف، عندما هربوا إلى مصر، وهذه حكاية زائفة، ومثل هذا يتظاهرون بأنهم مسيحيين، وأنهم تعمدوا وقتاً بعد آخر، ويهزأون من المسلمين، وسألت مرة واحداً منهم، من أي بلاد هو قد جاء، فأجابني بأنه هو والبقية قد جاءوا من بلاد الكلدان، وأنه اعتاد دوماً على استخدام اللغة الكلدانية.

وجاء بعد بلاد الكلدان بلاد الآشوريين، التي هي بلاد واسعة، فيها بنى نينوس NINUS مدينة نينوى العظيمة جداً، وهاتان المدينتان: نينوى، وبابل، قائمتان على ضفة نهر الفرات(كذا)، وقد بنيت الأولى منهما من قبل نينوس، وبنيت الأخرى من قبل الملكة سميراميس، وهما تبعدان عن بعضهما مسافة طويلة، وخلفهما بلاد الجزيرة، فيما بين الفرات والدجلة، نهر الجنة، وبعدها تأتي بلاد أرمينيا وبلدان أخرى كثيرة.

ثم استدرنا بعد ذلك نحو الغرب، ورأينا على يميننا جبال العربية، الذين يسمونهم« سلسلة العالم»، وتقوم هذه الجبال في مقابل الأرض المقدسة، على الجانب الأقصى من الأردن والبحر الميت، وبين هذه الجبال، الجبال الرئيسية هي جبال: نبو، وجبل فسغة، وجبل عبريم،

التي إليها صعد موسى بناء على أمر من الرب لرؤية الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية: ٣٤/ ١، وكان بامكاننا من جبل سيناء أن نرى هذا الجبل بوضوح، هذا وتقدم الحديث عن هذه الجبال.

ورأينا أيضاً في القفار هور، حيث مات هرون(العدد:٢٠/ ٢٦)، لكن بسبب جبال القفار وجبال العربية المتقدم ذكرها، كنا غير قادرين على رؤية اليهودية، ولافلسطين، ولاالبحر الكبير، وكذلك بسبب أنهم كانوا بعيدين كثيراً، ومع ذلك فإننا نعرف بشكل ممتاز، أوضاعهم والمكان الموجودين فيه في الأرض المقدسة، ولذلك انحنينا بأنفسنا وبرؤوسنا نحو الأرض المقدسة، ومدينة القدس المجيدة، وتعبدنا ضريح الرب، والأماكن المقدسة، ونعتقد واثقين بأن صلواتنا هذه كانت مؤثرة، لأنه قد كتب:« إذا ماصلى شعبك إليك باتجاه الأرض المقدسة والمدينة التي أنت قد اخترتها، ونحو البيت الذي بني لاسمك، أنت يارب سوف تصغي إليه»،(الملوك الأول:٨).

ورأينا أيضاً القفار والأماكن الصحراوية التي تجول فيها بنو اسرائيل لمدة أربعين سنة، والجبال التي مررنا بها، من ذلك على سبيل المثال جبل كالب، الذي تحدثنا عنه من قبل، وكذلك منحدر رحوئيم الذي أيضاً تحدثنا عنه، ورأينا أيضاً جبل حوريب المقدس في سيناء بعيداً عنا ودوننا على مسافة بعيدة، مع الجبال الأخرى المنبعثة منه والمنتشرة هناك، هذا ومع أنه لم يكن هناك أي جبل بيننا وبينه، كان بعيداً جداً، إلى حد أننا صحيح رأينا الجبل ورأينا قمته، مع ذلك لم نستطع بأية وسيلة من الوسائل رؤية البيعة التي كانت قائمة على القمة هناك، وبدت جميع الجبال هناك مجرد تلال، مقارنة مع جبل القديسة كاترين وبعدما شاهدنا جميع البلدان القائمة من حولنا، قريباً وبعيداً، جلسنا أرضاً، وأحضرنا طعامنا من مزادنا، وتناولنا وجبة رائعة إلى جانب الضريح الذي إليه حملت الملائكة القديسة كاترين.

نزول الحجاج من جبل العذراء القديسة كاترين في سيناء

وعندما فرغنا من عمل كل ماينبغي هناك على الجبل المقدس، قبّلنا المكان المقدس، ومضينا عائدين مع كثير من البهجة، ولم نكن نسير سيراً، بل نركض ونقفز نزولاً، لأننا كنا الآن بادئين لعودتنا إلى الوطن، ومع أنه كانت هناك مسافة شاسعة بيننا وبين بلادنا، لكن لم يكن ثابتاً بلاحراك أن الذين يريدون العبور من هنا إلى هناك لايمكنهم فعل ذلك، وعند جوف الجبل، وصلنا إلى النبع الذي يسمونه نبع القديسة كاترين، وشربنا هناك واسترحنا لبعض الوقت، ومن هناك سرنا أو انزلقنا مسافة طويلة، ووصلنا إلى نبع آخر، حيث قطعنا أغصاناً، قيل بأنها من النوع نفسه من العليقة التي ظهر فيها الرب لموسى، والتي قالوا أيضاً بأنها تمتلك قوة عظيمة، في مساعدة الذين لديهم أمراض مقعدة إذا حملوها معهم، وفيما إذا كان هذا صحيحاً، على القارىء الحكيم أن يقرر ذلك، وتابعنا النزول من هذا النبع، فوصلنا إلى حقل قصب، وقطعنا من هناك عصياً طويلة، قالوا إنها من النوع نفسه الذي كانته عصا موسى، التي عمل بها كثيراً جداً من المعجزات والتي وضعها فوق، في تابوه العهد، وهي التي قرأنا عنها في سفر الخروج:٤ ,١١ ,١٤، وفي أماكن كثيرة من الكتابات المقدسة، ويقول بعضهم إذا كانت هنالك امرأة تعاني من آلام المخاض، وأمسكت واحدة من هذه العصي بيدها، سوف تضع دونما مخاطر، هذا وهذه القصص رائجة بين العلمانيين وأنا لاأهتم بها كثيراً.

وبعد كثير من الجهد والتعب وصلنا نازلين إلى دير الأربعين قديساً، حفاة تقريباً، لأن الصعود إلى هذين الجبلين والنزول منهما دمرّ لنا أحذيتنا، ولذلك توجب على بعض الفرسان البقاء حفاة من هنا حتى القاهرة، وامتلك آخرون أحذية مقطعة من دون نعال، ومن الصعب أن يكون زوجاً من الأحذية جديداً كافياً للصعود إلى هذين الجبلين

والنزول منهما، وفيما يتعلق بقضيـة الأحذية لم نجهـز أنفسنا منها بما فيـه الكفاية، وعندما كنا على وشك مغادرة دير القديسة كاترين للصعود إلى هذين الجبلين، حـدثت لي الحادثة السعيدة التـالية، فقد جلـب لي واحد من الفرسـان المرضى الذين تخلفوا عنا، زوجاً جديداً من الأحـذية، كان قد ابتـاعه من القـدس، وهو مصنوع من جلد جيد، رمـادي أو بالحري أصفـر اللون، وقـال:« إليك ياأخ فيلكس، لقـد اشتريت هذا الزوج من الأحذية وبنيتي تسلق هذين الجبلين المقدسين بهما، لكن وأنت ترى الآن أنني لاأستطيع التسلق إلى هناك، لذلك أرجوك أخذهما، ودعني أشارك في الخطوات التي سـوف تعملهـا بهما، لذلـك قمت على الفـور بتجـربة الحذاء الجديد لأرى فيما إذا كان يناسب قدمي، وتركت القديم المهترىء في غرفتي، لأنه كان من المؤكد عـدم صموده أثناء صعودي حتى للجبل الأول، وبعدما وصلنا إلى دير الأربعين قديساً، طبخنا معجنات لغدائنا، وبعثنا بسائقي حميرنا إلى دير القديسة كاترين لإحضار الحمير لنا، لأنه لم يعـد بامكاننا السير أكثـر، بسبب تعبنـا وحـاجتنا إلى الأحـذية، وبسبب حرارة الشمس.

زيارة إلى الأماكن في داخل الدير وفي الحدائق خارجه

وبعـدما تناولنا طعـام الغـداء، قمنا بمسيرة إلى الأمـاكن المقدسـة في الدير، ودخلنـا أولاً إلى الكنيســة حيث انكببنا بـأنفسنا نحــو الأرض، وحصلنا على غفرانات(+)، وفي هذه الكنيسة جرى دفن الأربعين راهبا، الذين قتلوا في سبيل الايمان بالمسيـح، في الدير، من قبل البـداة العـرب، بطرائق تعـذيب متنوعـة، ولهذا السبب أطلـق على هذا المكان اسم« دير الأربعين قـديساً»، ويسكن هناك اثنان من رهبـان دير القـديسة كـاترين لوحدهما، بمثـابة حارسين للمكان، ويعـاني هذين الراهبين من كثير من الاهانات من البداة العرب، الذين يتجولون في تلك القفار، وتجولنا بعد ذلك بين قــلايات الدير، التي هي تعيســة وفقيرة، وهي معمــولة من

القصب المنسوج الذي جرى التطيين فوقه، لكن هناك من حول الدير يوجد سور جيد وقوي، مثل سور يحمي قلعة، وليس له دائرة كبيرة.

وبعدما فرغنا من مشاهدة الدير، خرجنا من بابه إلى حديقة الدير، التي هي بشكل رائع لاتشبه القفر المجاور لها، فهي مليئة بأوراق خضراء، وفاكهة، لأنه ينمو فيها هناك أشجار طويلة، وحشائش «للصلطة»، وأعشاب، وقمح، وشاهدنا فيها أكثر من ثلاثة آلاف شجرة زيتون، وكثيراً من أشجار التين، والرمان، وكميات من اللوز وهكذا دواليك، ويحصل دير القديسة كاترين على مايكفيه من الزيت من هذه الحديقة لتغذية المصابيح في الكنيسة، ولاستخدامات الطعام في المطبخ، ويرسل الرهبان في كل سنة جراراً مليئة بفواكه هذه الحديقة إلى القاهرة، إلى ملك مصر، السلطان، كهدية له، وكتعويض لرعايته وحمايته، كما سوف أتحدث عن ذلك لكم فيما يأتي، ولديهم« صلطة» ومنكهات لخبزهم، طوال السنة من الحشائش التي تنمو هناك، وقش من الأعشاب لإطعام دوابهم، وإنه لأمر مدهش وجود مثل هذه الجنة في القفار، حيث أن كل شيء جاف ومحترق من قبل حرارة الشمس، وفي الرمال القاحلة مامن بذور أو جذور يمكن أن تنمو، ومع ذلك ماالذي لايمكن للعمل الانساني أن لاينجزه؟ وفوق هذه الحديقة، عند سفح الجبلين حفر الرهبان ثلاثة آبار عظيمة، بعيدة عن بعضها مسافة قصيرة، وفيهم يمكن تلقي جميع المياه التي تجري نزولاً من الجبلين في أيام الشتاء، وتتدفق المياه بوساطة أنابيب من بئر إلى آخر، وأخيراً تجري في الحديقة مثل مياه حياة، وهي تجر خلال الحديقة بوساطة سواقي، وقد جعلت هذه السقاية المتواصلة، الرمل خصباً وجعلت الصحراء تحمل ثماراً مثل الثمار التي تنتجها الأرض الزراعية، وقد اعتاد الآباء القدماء، الذين عبدوا الرب في القفار، على عمل هذا، وذلك كما قرأنا في Speculum Historiale — الكتاب ١٩، الفصل ١٤.

ويوجد في هذه الحديقة كثيراً من الصخور والحجارة، المندفعة من الأرض، ويوجد تحتهم كهوف، هي التي كانت فيها مضى قلايات الرجال المقدسين القدماء، وتمتد هذه الحدائق البديعة مسافة طويلة في قلب الوادي، وطولها ميل ايطالي، وعرضها رميتي حجر، واشتكى الرهبان لنا بأنهم تأذوا من شح المطر في هذه السنة، وبذلك أرغموا على التقتير كثيراً في سقاية حديقتهم مع أنها إذا لم تسق يوميا، فانها سوف تجف على الفور، ومثل هذا اشتكوا أنهم في بعض السنوات تسقط أعداد لاتحصى من الجراد على حديقتهم، وعلى الأشجار المثمرة، عندما تكون مزهرة، وتغطي وجه الأرض كله، وتأكل كل شيء أخضر، من عقد الأزهار، إلى الأوراق والأغصان ولحاء الأشجار وتحدث دماراً وأذى، وبعدما فرغنا من رؤية الحديقة، عدنا إلى الدير وانتظرنا حميرنا هناك.

إطراء ومديح جبل حوريب المقدس
في سيناء وجبل القديسة كاترين المقدس في سيناء

من الممكن فهم الجبلين نوعا مامن خلال الوصف المتقدم، والصورة المرسومة هنا، ومن الممكن النظر إلى هذين الجبلين على أنهما جبل واحد، ذلك أنه مع أن قمتيهما منفصلتان، فإن سفحهما واحد، لأن كل واحد منهما يرتفع من سفح واحد هو نفسه، ويرتكز على الأساس نفسه، وذلك مثلما نتحدث عن يد واحدة، مع أن في اليد خمس أصابع مفصولة احداهن عن الأخرى، لكنهم متحدين معاً في قاعدة واحدة، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نفهم وضع جبل القديسة كاترين، الذي يقال بأن جسد كاترين المباركة قد مدد فيه من قبل الملائكة، وذلك في المكان نفسه الذي أعطى فيه الرب الشريعة لموسى، أي أن تقول في الجبل نفسه فيما يتعلق بالقاعدة، ولكن ليس الجبل نفسه فيما يتعلق بالقمة لكل منهما، وبناء عليه سوف يظهران هنا تحت وصف واحد، وذلك مثلما يدعيان بالاسم نفسه، وهوسيناء.

وسيناء هو جبل في منطقة مدين فوق أرض العربية، وهو متفوق على الجبال الأخرى بالارتفاع، ويبدو رأسه وكأنه واصل إلى السماء، وهو جدير بالاحترام الأعظم بسبب الظهور المتتابع للرب الحقيقي في العصور الخالية، على أولى قممه، والدفن الرائع للقديسة كاترين الأعظم مباركة على القمة الأخرى، وهاتان القمتان للجبل المقدس لم تطأهما قدم انسان قبل أيام موسى وكاترين، لأنه مامن انسان تجرأ على التسلق إلى قمة حوريب، لأن المعتقد الرائج بين الناس قبل موسى كان أن الرب المخيف يسكن فوق قمة الجبل، وأن مامن انسان يستطيع النظر إليه أو الاقتراب منه والبقاء حياً، كما أنه لم يغامر أي انسان بالتسلق حتى قمة جبل سيناء، لأنها بدت وكأنها ملاصقة للسماء، ثم إن الجروف المنحدرة والعالية بدت وكأنه ليس فيها مكان لانسان يمكنه أن يتسلق منه، علاوة على ذلك، غالباً ماشوهدت النار مشتعلة على قمة الجبل الأول قبل أن يذهب موسى إلى هناك، بينما كانت القمة الثانية دوماً مغطاة بثلج متحول إلى جليد قاسي قبل أن يجري دفن القديسة كاترين هناك.

وهناك كثير من الجبال في العالم تندفع منها النيران، من ذلك على سبيل المثال بركان أيتنا Aetna وبركان بوبيوس Bobius(؟)، لكن لهبهما لم يتسبب بالطريقة نفسها، لأن هذا الجبل تدفق باللهب الناري، لأن النار قد اشتعلت بشكل اعجازي من قبل الرب ذاته شخصيا، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية:٥، وسفر الخروج:١٩، فهنا ورد الخبر بأن الجبل قد اشتعل بالنار مع نزول الرب وقد زعق صوت البوق، وكان عدد الحشد كله آنذاك ليس أقل من مائة ألف، ولمدة خمسة أيام كانت النار المشتعلة في كل مكان، وقد شوهدت من قبل الجميع، ومع ذلك لم يحترق شيء هناك، لابل بقي العشب أخضر، انظر يوسبيوس De Evang praepar — الكتاب الثامن، الفصل الثالث.

وهناك جبال كثيره مغطاة بالثلج، الذي تجلد فصار قاسياً، لكن هذا

الجبل مغطى كشهادة على عذرية القديسة كاترين، علاوة على ذلك هناك جبال كثيرة، فيها كهوف، اعتاد الكفار على أن يمارسوا فيها أوهامهم وعبادة الأصنام، لكن هذاالجبل يحتوي على كهوف فيها انتظر الأنبياء وحي الرب، وعاش فيها الرهبان للتأمل حول الأشياء الربانية وكثيرة هي الجبال المكرسة للأرباب، مثل جبل أرسينثوس Aracinthus لمينيرفا، وماليا Malea لأبولو، وأولمبوس ليوف Jove وميسينوس(كذا) Misenus لاينياس Aeneas وأطلس لساطير Satyrs... وجبل العدوان لمولوك، وجبل بافوس في قبرص لفينوس، وهكذا دواليك، لكن جبل سيناء هذا مكرس للرب الحقيقي الواحد، وهو الجبل الذي يسره أن يسكن فيه، ذلك أن الرب سوف يسكن هنا حتى النهاية، وهم يقولون بأن جبل أطلس هو بعلوه أعلى من الغيوم، وهو يحتوي على مخلوقات غير معروفة هي في حرب ضد حياة الانسان، وفي وضح النهار جعله صمته الرهيب المتواصل من غير الممكن لأحد الاقتراب منه من دون أن يرتجف، مع الشعور بوجود شيء ما رباني مختفي فيه، ويبدو في النهار غائماً وقذراً، لكنه في الليل يلمع بكثير من الأضواء مثل النجوم في السماء، وتتردد في أرجائه أصوات الغناء وضرب الكوسات، وأصوات المزامير للرجال الخلعاء وساطير، لكن جبلنا له ارتفاع موائم لبني البشر، وليس فيه أية حيوانات مرعبة، وفيه ظلام وضوء مثل أي جزء من الطبيعة، وليس فيه رؤى مرعبة، بل كل مافيه مقدس ورباني.

ولقد قيل بأنه على مقربة من البحر الأحمر هناك جبل اسمه كليماكس Climax، حيث يقال هناك نساء متميزات بلحاهم الطويلة، وهؤلاء النساء يمضين أوقاتهن في صيد متوحش جداً، ويستخدمن النمور عوضاً عن الكلاب، ويربين الفهود والأسود، لذلك مامن انسان يتجرأ على الاقتراب من ذلك الجبل، خوفاً من أولئك النساء المتوحشات،

اللائي يحملـن وهن عـاريـات على الرجـال المسلحين، ويتغلبن عليهم بمساعدة الحيـوانات اللائي دجننهن، ولايسكن مثل هذه الكائنات فوق الجبل المقـدس، بل فقط قلة من الجائعين التعسـاء، وكل هؤلاء يمكن اطفـاء غضبهم بمنحـه من فتـات الخبـز، ويمكنني أن أروي كثيراً من الحكايـات عن رعب الجبـال(الأخـرى)، التي تسبب للناس الخوف والرعب منهم، في حين نجـد فيـه، جبل سيناء براء كله مـن مثل هذه الأنواع، وعلى العكس هذا الجبل مرغـوب به من جميع الجوانب، وذلك لبهائه لجميع بني البشر، إلى حد أن رجالاً من أعلى المراتب يتدفقون إليه من أقصى أجزاء الدنيا، وليكن في هذا كفاية عن جبل سيناء.

عودة الحجاج إلى دير القديسة كاترين والأماكن المقدسة الكثيرة على الطريق

وجلبت الآن حميرنا إلينا من دير القـديسـة كـاترين، إلى دير الأربعين شهيـداً، وامتطيناهم وسرنـا إلى طرف الحديقـة في الوادي القـائم بين الجبلين، وعندمـا وصلنا تقـريباً إلى نهاية الحديقـة دخلنا إلى الحديقـة من خـلال سـور الحجـارة الجافـة، وتـركنا حميرنا في الخارج بعهـدة أدلائنا، ووصلنا هنا إلى صخـرة عظيمـة، حيث هناك كنيسـة مكرسـة، وقـد دخلناها وتلونا فيهـا صلواتنا علّنا نحصل على غفرانات(+)، ويقـال قد سكن في هذا الكهف القـديس أونوفـريوس Onofrius ، الذي كان واحداً من كبـار النساك، وهناك حكاية جميلة قـد حكيت عنه في كتاب« حيـاة الآباء»، وكيـف أنه وهو سـاكن هنا في كـوخ عند فم الكهف في ذلك المكان قد وقع أرضـاً، فوقعت الأشجـار القائمة حـول الصخرة، ويبست، وذهبنا من هـذا المكان نازلين في الوادي، ووصلنا إلى صخـرة منعزلة قائمة إلى جانب الطريق، وليست متصلة بالجبل، بل واقفة بذاتها منبعثة من الأرض، إلى مقدار ارتفاع قامـة الانسان مرتين، وهي عريضة في القـاعـدة، لكنهـا حـادة في الأعلى، وتبـدو وكأنها ليست متجـذرة في

الأرض، بل قـائمـة مثل اهرام مصنـوع، وليس كقطعـة طبيعيـة من الصخـر، ومن المعتقـد أن هذه هي صخـرة حوريب، التي أخـرج منهـا مـوسى الماء بضربها بعصـاه(الخروج:١٧—٦)، عـلاوة على ذلك يرى بعض الناس أن خروج الماء الثاني المذكـور في سفر العدد: ٢٠، كان من هذه الصخـرة نفسهـا، وهي الميـاه التي عـرفت باسم ميـاه الضرب، ولم تعط الصخـرة ماء أكثـر مما طلب لسقـاية الناس مع مـواشيهم، وبذلك تظهر بوضوح أكبر على أنها معجزة، ولهذا السبب، كانت الصخرة أيضاً صخـرة منعـزلة، ليسـت متصلة بالجبل، ولامثبتـة على الأرض، حتى يتمكن بنو اسرائيل من مشـاهدة أن الرب عمل مـاءً طازجـاً جـديداً في الصخرة ليشربوا، ولم يجلب لهم جدولاً من الأسفل، ولو أن الماء استمر بالتدفق منذ ذلك الحين، فإن المعجـزة وقتها لن تكون معجزة كبيرة، بل معجـزة عـادية، لأننا رأينا أن القـديس كليمنت مع كثير من القـديسين الآخـرين حصلوا على الماء بوسـاطة صلـواتهم، وقـد تدفق من الأسفل على شكل ينابيع في أمـاكن لم يكن ماء فيها من قبـل، ولم يكن ذلك ماء جـديداً قـد خلق، بل كـانت ميـاها مـوجـودة في عـروق الأرض تحت التراب، وقـد جـرى توجيههـا إلى هناك واستمـرت من ذلك الحين تنبع وتتـدفق، وذلك مثل ما يمكنك أن تقـرأ حول قضيـة النبع الذي أعطي إلى الرهبـان كعـلامـة وهو أمـر أتينا على ذكـره مـن قبل، لكن نبع هذه الصخرة، لم يتدفق من المياه الموجودة تحت الأرض، بل من كنوز الرب، ولذلك قـال مـوسى في(سفـر العـدد؛٢٠):« افتح لهم يارب كنوزك، وامنحهم نبع ماء».

★★ ★★ ★★

وعن نبعنا قـال المزمـور:« شق صخـوراً في البرية وسقـاهم كأنه من لجج عظيمـة»«(المزامير٧٨/ ١٥)، وتحمل هذه الصخـرة في اليـوم الحالي عـلامـات الفتحـات في أمـاكـن متعـددة، لأن الماء لم يصـدر من أسفل

الصخرة، بل من جميع أطراف الصخرة نفسها، حسبما يمكن مشاهدة ذلك في هذا اليوم، وهذه الصخرة جديرة بالاحترام العظيم، بسبب تدفق الماء منها، وبسبب معناها النموذجي، لأنه تبعاً للرسول(كورنثا الأولى:١٠/ ٤) هي تشير إلى المسيح نفسه بقوله:« والصخرة كانت المسيح»، ولذلك سرنا حول هذه الصخرة، التي كانت بذاتها المسيح، وقبلناها.

وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى واد اسمه تولاس Tholas حيث رأينا خرائب دير قديم، فيه سكن في القديم رجال مقدسون كثرة، وإلى جانب الدير هناك كهف عظيم وعميق يقود إلى جوف الجبل، الذي إليه انكفأ الآباء القدماء، وأخفوا أنفسهم عن ضوء النهار المخلوق، حتى يمكنهم في الظلام رؤية الضوء غير المخلوق، فقد قرأنا في انجيل يوحنا:١« والنور يضيء في الظلمة»، وقال داوود في المزمور:١٣٩/ ١٢:« الظلمة أيضاً لاتُظلم لديك والليل مثل النهار يضيء، كالظلمة هكذا النور»، وكان هذا الكهف بالفعل مدرسة للتأملات الربانية، حيث اقتيد الناس خلال الظلام المادي إلى رؤيا النور السماوي، وليس مثل كهف آخرون Acheronقرب مدينة هرقلية، والذي يقود إلى المناطق الداخلية، أو مثل كهف الهبرنيان Hibernian الذي اسمه خلوة القديس باتريك Patrick، ففيه يرى الذين يدخلون إليه مشاهد مرعبة، ويخافون رؤى مخيفة، وكأنهم غطسوا في الجحيم، ولايحدث هذا بوساطة قوى ربانية، أو بوساطة معجزات، بل بوساطة قوى طبيعية، واضطراب في العقل، لأن المعلم هنري دي هاسيا -Has sia....(استاذ في جامعة فينا، مات سنة ١٣٩٧) نقل عن نيقولا أور Ore، وكان حكيماً على درجة عالية من المعرفة في العلوم الطبيعية، بأن ذلك الكهف كان موجوداً في ايرلندا، فيه في أماكن متفرقة هواء زفيري كثيف، نتيجته أن الذين يدخلون إلى هناك يقعون نياماً، ويحلمون

بأحلام رائعة، ويرون أشياء مخيفة بوضوح وكأنهم في اليقظة مع أنهم نيام، وبالطبيعة الشريرة والهواء السيء في المكان يبتهجون ويسلبون من عقولهم، ولذلك(عندما يستيقظون)يكتبون ماشاهدوه، وكأنه كان معجزات، ويصفون مشاهداتهم، وكأنها حوادث وقعت بالفعل، مع أنها حدثت لهم في حالة غير صحية في حالات تخيلهم، مثل أوضاع المنام، التي غالباً ماتبرهن انها تحدث مع بعض الناس عندما يكونون في حالة اليقظة.

وبعد مغادرة تولاس ، نزلنا إلى الوادي، ووصلنا إلى دير آخر، الذي هو الآن دير صغير، لكنه كان فيها مضى واسعاً، ويدعى باسم دير القديسين كوزما ودامين، وكانا كما قيل لنا في حكايتيهما من العربية، وهي بلاد جاء منها أطباء ماهرين جداً، وأعتقد أن هذا هو سبب تكريس دير إليهما في العربية هنا، تفضيلاً لهما على غيرهمامن القديسين الآخرين، وقد بني هذا الدير فوق المكان الذي طعن فيه أكثر من ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة رجل من قبل الرب، فهؤلاء هم الذين هلكوا في تمرد قورح، وداثان، وأبيرام(العدد:١٦)، ففي هذا المكان انشقت الارض تحت أقدام هؤلاء القوم الأشرار، وفغرت فاها وابتلعتهم وبيوتهم، ومضوا سريعاً إلى جهنم، وبعدما حدثت هذه الاشياء، عادت الأرض ثانية ناعمة مجدداً، وكأن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، وذلك حسبما حدثنا مؤلف Speculum Historiale، ولذلك لم نستطع رؤية أية أثر مهما كان لإنشقاق الأرض هذا.

ووقفنا في هذا المكان ونحن نرتجف، ولخوفنا من قسوة حكم الرب وسرعة تنفيذه، لأن أولئك المتذمرين وقفوا مستعدين لإثارة تمرد وشقاق، ولم يخافوا عندما انشقت الأرض تحت أقدامهم، مع أنه من الذي لايخاف عندما يسمع بهذا؟، ولقد قرأنا بأن الشيء نفسه قد حدث في أيام القديس أمبروز في قرية في توسكانيا، عندما انشقت الأرض

وابتلعت بيت رجل غني مع كل مايتعلق به، لكن بقيت هوة كبيرة فوق البقعة، لتكون شهادة ودليلاً، وقرأنا أيضاً في حكاية القديس بندكت، كيف أن شرفة قد سقطت فجأة على رجل عارض ذلك الرجل المقدس، وقتلته، وكذلك قرأنا أيضاً في«حياة» القديس جيروم، كيف أنه أصلح بعض الراهبات لعلاقاتهن الجنسية مع بعض المترهبنين، لكن بما أنهن لم يقومن سبلهن، انشقت الأرض، وابتعلت الدير، والراهبات وكل شيء.

★★ ★★ ★★

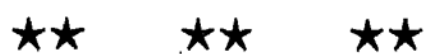
وانصرفنا من ذلك المكان المتقدم ذكره، ونزلنا في ذلك الوادي العريض والشاسع، الذي سافرنا خلاله قبل ثلاثة أيام، ونحن ماضون إلى دير القديسة كاترين، وذلك حسبما تحدثنا من قبل، وهذا وادي جميل وواسع، يمتد بين الجبال على شكل صليب، هذا والجبال التي من حوله عالية، ومع ذلك فإن الوادي مضيء ومشرق، بسبب مسافة الجبال بين واحد وآخر، ولو أنه كانت هناك مياه فقط في تلك المنطقة، لكانت قطعة ممتازة من الأرض للبشر للعيش فيها، ولإقامة مدن وقرى، فهناك في هذه الوديان نصب بنو اسرائيل معسكراتهم بعدما عبروا البحر الأحمر(الخروج:٢١)، ويطلق على هذه المنطقة اسم قفار سيناء، لأنها تقع في مقابل جبل سيناء، حيث فيها أقام بنو اسرائيل الجزء الأعظم من الأربعين سنة التي أبقاهم الرب خلالها في القفار.

ووصلنا الآن ونحن نازلين إلى مكان تتصل فيه الوديان مع بعضها، وتشكل سهلاً عظيماً، ورأينا هناك حجرة طويلة كانت تشبه منبر واعظ، وعلى هذه الحجرة، يقال بأن موسى وقف وأخبر الناس بكلمات الرب، وأنه من هناك أعطاهم الشريعة وبينها لهم، وهي الشريعة التي أعطيت له، وتلقى أجوبة الناس هناك، وحملها عائداً إلى الرب على الجبل، وهنا أيضاً كان غالباً مايخبر الشعب بأوامر الرب.

وفي الحقيقـة كان المكـان موائماً كثيراً لأعمال الوعظ، وهنـاك مساحـة كبيرة جداً تحت من أجل النـاس، وهذه المساحة الشـاسعة كـانت محتاج إليها، لأن تعـداد الناس كان كبيراً، فقـد بلغ عددهم ستمائـة ألف رجل حاملين السلاح، وذلك إلى جانب النساء، والأطفال، وعلاوة على ذلك حشـداً لايحصى عـدده من أخـلاط الناس الذين قـدمـوا معهم، وأغنام وسائمة من كل نوع بأعداد عظيمة جداً. (الخروج:١٢).

وفي هذا المكان كـان بنو اسرائيل يضحـون للعجـل الذهبي، وذلك بسبب أنه كـان شـاسعـاً واسعـاً، والوديـان من حـوله لها مناظر عليـه، والعجل الذهبي هو الذي صنعـه هرون لهم أثناء غياب مـوسى، عندما كان مع الرب في الجبل، وقد رقصـوا عراة حول العجل، وجمعوا الناس وحشـــدوهم كلهم مـن جميع أمـــاكن سكناهم وخيمهـم، حيث أعلنوا بشكل عـــام عن عيـــد العجل قـــائلين:« هذه آلهتك يـا إسرائيل التي أصعـدتك من أرض مصر»، وحـدث أنه حتى بعض الشيـوخ والحكام ذهبـوا إلى المكان الذي اعتـاد موسـى على الوقوف عليـه والتحـدث إلى الناس، وعرضوا على الناس العجل، ونصبوه لهم لعبادته.

وجرى اقتراف هذا العمل المرعب والمخيـف على هذه البقعة، ليكون عاراً أبديا لليهود، لأنه في هذه الأيام إذا ماتحدث انسان عن هذا العجل إلى يهودي، يحمر وجهه خجلاً، ولقد برهنت أنا شخصياً على صحة هذا الأمـر مراراً عندمـا كنت أتحدث إلى يهود، فعلى هذه البقعة نسي اليهـود الرب، كما قـــال صـاحـب المزامير، نسيـوا الرب مخلصهـم الذي عمل أعمالاً مدهشـة في أرض حام، وأشيـاء مخيفة في البحـر الأحمر، فكان أن صنعـوا العجل في حـوريب، وعبـدوا وثنا مصنوعـاً، وبذلك استبـدلوا مجدهم بصورة عجل يأكل قش الأرض.



ولدى متـابعتنا لسيرنا وصلنا إلى مكان، حيـث كـانت هناك أكـوام عظيمـة من الـرمل وتضخم في الأرض، ويقـال بأنه في هـذا المكان قـد جـرى دفن الذيـن قتلوا من أجل وثنيتهم بناء على أوامـر مـن مـوسى، وكـان عـددهم ثلاثة وعشرين ألف رجـل(الخروج:٣٢ وأخبـار الأيام الأول:٢٠)، وتابعنا من هناك سيرنا في ذلك الوادي العـريض، ووصلنا إلى واد ضيق يقود إلى دير القـديسة كاترين، وقـد دخلناه، وسرنا خلال حـديقـة الدير، وتمتـد هذه الحديقـة مسـافـة طويلة، كما تحدثنا عن ذلك الدير، وتجري سقايتها وفق الطريقة نفسهـا مثل حديقة الأربعين شهيداً، كما تحدثنا عن ذلك في مكانه، وهذه الحديقـة مـزروعـة بشجر الزيتـون، وبأشجار مـن أنواع أخرى، وهي واسعة وجميلـة، وبها أماكن كثيرة ورد ذكرها في الكتابات المقدسة.

وعندمـا كنّا سـائـرين من خـلال هذه الحديقـة، طلب منا أدلاؤنا أن ننظر إلى الأعلى نحـو قمم الجبال، وقـد رأينا فوق رأس صخـور عاليـة جداً، واقفـة أمام جبل حـوريب، عجلاً واقفاً هناك وهـو يتطلع نحونا، وكأنه على وشك القفز نحو الأسفل، ولقد رأيناه بوضوح تام، مع جميع أطرافـه، وهو مـوزع بشكل متوازن، وكأنه حقيقـة حيـوان حي، أو أنه شبيـه بعجل مصنوع بشكل فني، مـع أنه بالحقيقـة لم يكن هناك عجـلاً لاطبيعيـاً أو اصطناعيـا، بل كـان هناك قشرة صخرة، رأسهـا مكسـور، ومن دون أن يصنعه انسان، يبدو من الأسفل حين تنظر إليه وكأنه يشبه عجـلاً، ولذلك غـالبا مـاقـام رهبان الديـر، يحركهم الفضول، فتسلقـوا الجبل، ولكنهم لم يعثـروا على أي تمثـال لعجل على قمتـه، بـل وجـدوا صخوراً مكسورة، وجروفاً حادة، عندما ينظر الانسان إليها من الأسفل تبـدو له وكأنها عجل، وذلك مثلما هناك صخرة في بحـر ايجه، لها شكل ماعزة، عندمـا ينظر الانسان إليها من مسافـة، ولهذا السبب عرف البحر باسم بحر ايجه، لأن« ايجه» بالاغريقية تعني ماعزه.

وفي مكان آخر من البحر نرى صخرة عندما ننظر إليها عن بعد، نجد أن لها شكل صل، لكن عندما نقترب منها، نجدها حجرة كبيرة، ومثل هذا، عندما يذهب انسان من بلدة ويزازتيغ Wisastaig (كذا) قرب أولم، يرى فوق التلال حجرة طويلة محفورة وكأن لها شكل انسان، ولكن عندما يقترب الانسان منها، لايمكنه أن يرى سوى صخرة وعرة، وعلى الرغم من ذلك فإنه مع العجل المتقدم ذكره، نجد أن خداع المنظر قد قاد إلى خطأ بين كل من الطوائف الشرقية، والمسيحيين والمسلمين، إلى حد أنهم يعتقدون أن الشيطان قد أخذ العجل الذهبي ، الذي صنعه اليهود، كما تقدم ذكره، وحمله إلى ذلك المكان، ليكون ملامة دائمة وعاراً ثابتاً لليهود، وخشية من أن يجري نقله من قبل أي انسان، جعل الرب من غير الممكن العثور على العجل نفسه، لكن هذه الحكاية كلها مخترعة وتتعارض مع نص التوراه(الخروج:٣٢) الذي يقول بأن موسى قد أخذ العجل الذهبي وطحنه ناعماً، كما سوف يظهر معنا بعد قليل.

وابتعدنا اخيراً عن ذلك الشبه المتخيل للعجل، ووصلنا ونحن سائرين إلى هوة كبيرة وعميقة، تشبه صهريجاً، كان فيها كثيراً من الماء، من الممكن جره لسقاية الحديقة، وقد قالوا بأن هذه الهوة كانت دوماً هنا، ولم تعمل من قبل عمل بشري اصطناعي، أو بأي جهد، بل من قبل الطبيعة، ففي أيام الشتاء تجري المياه إليها، وكان موسى عندما طحن العجل الذهبي، رش المطحون على هذا الماء، وأحضر الناس، وجعلهم يشربون منه، وحدث أن الذين كانوا مجرمين قد احتفظوا بلون الذهب في وجوههم، ولذلك بدت لحاهم ذهبية، وتورمت أجوافهم بشكل سيء بوساطة الماء الذي شربوه، إنما الذين لم يشاركوا في هذا الإثم، فقد شربوا الماء من دون أذى، ولم يظهر أي لون ذهبي على وجوههم. انظر الخروج:٣٢، و Postilla لدي ليرا، وقرأنا عن نبع

مماثل في تايانا Tyana، مكرس لجوبتير، وهو في الحقيقة نبع رائع جداً، وقد قيل بأن مياهه تأتي إلى هذا النبع باردة جداً من خلال ممرات تحت الأرض، حيث تغلي على الفور، وهذه المياه عذبة وصحية بالنسبة للذين يسكنون على مقربة منها إذا ماكانوا شهوداً صادقين على أي مسألة، ولكن إذا لوثوا أنفسهم بشهادة زور، فإن الماء يطير خارجاً من النبع ضدهم، ويضرب أعينهم، وأقدامهم، وأيديهم، ويسبب لهم أمراض الاستسقاء، وفقدان الشعر، ولايمكنهم المغادرة من دون أذى مالم يعترفوا بشهادة الزور إلى الأشخاص الذين حلفوا لهم حانثين مزورين.

ومثل هذا أيضاً حدث لميداس، ملك الفريجيين الجشع، الذي عبد الذهب على أنه ربه، فقد تلقى من باخوس منحة، أي أن شيء يلمسه يتحول إلى ذهب، ولذلك مات من الجوع، وبعد موته ألقي به في نهر باكتولوس Pactolus ، الذي امتلك رمالأذهبية، من أجل أن الذي لايمكنه العيش من دون ذهب، يمكن أن يفسد في الذهب، لأنه مهما أذنب الانسان، فإنه به سوف يعذب، ولذلك فقد اليهود كأس الحياة الذهبي، لأنه قدموا القرابين إلى عجل ذهبي.

وغادرنا ذلك الصهريج، ومضينا على طريقنا صعوداً، فوصلنا إلى مكان شاسع مفتوح في الحديقة الذي لاأعرف سبب قحطه، حيث مامن عشب ينبت فيه، مثلما يحدث في بقية أجزاء الحديقة، ومن المعتقد أن هذا الفراغ هو المكان الذي أذيب فيه العجل الذي عمل من قبل هرون، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج:٣٢، ذلك أنه أخذ من النساء ومن الناس أقراطهم الذهبية والخواتم والكؤوس الذهبية، وألقى الجميع في النار، ومن هناك جاء من خلال عملية للشيطان عجل ذهبي، الذي اعتقدوا أنه صل، وذلك مثلما يفعل المصريون، لأن المصريين يأخذون الصل من الماء على شكل ثور، ومثل ذلك فعل بنو اسرائيل فأخذوه نفسه من النار على شكل عجل.

وفي الحقيقـة اعتـاد الكفـار على عبـادة رجـال عملوا أرباباً، ليس في أشكالهم البشرية الحقيقيـة ولكن بأشكال هذه الحيوانات، التي تتحـدث الحكايات أنهم تحولـوا إلى أشكالها، من ذلك أن جـوبتير قـد تحول إلى غـزال وعبـد تحت شكـل غـزال، والصل تحت شكـل عجل، وفينوس كسمكة وساتورن كحصـان، ونيوب Niobe كحجرة، وهيرمون Her-mione، كثعبـان، ويونو Juno كبقـرة، وأكتيـون Acteon كـوعل، وأنتيغون كلقلق، وألدونا Aldonaكطائـر مغرد، ودفنـي كغار، وعُبـد أطلس الـذي غيّره فيرســوس إلى جبل، على شكـل جبل، والـرعـاة الأركـاديون Arcaodian على أشكال ذئـاب، ويمكنني أن أقـدم المزيد من الأمثـال، وهكذا اختـار الشيطـان تشكيل عجل في النار وآثره على عمل شكل انسان.

ومضينا في طريقنا، فوصلنا إلى صخـرة منعزلة قـائمة عند سفح جبل حـوريب، مثل قـدر كبير، وهذه هي الصخرة التي رمـى عليها مـوسى لوحي الوصايا العشر، وكان ذلك عندما شاهد العجل والناس يقدمون القرابين إليه، هذا ومعـروف أن هذين اللوحين قد نحتهما الرب، وكتب عليهما باصبعه، وكـانا من أثمن الحجارة وأكثرها صقلاً، وعندمـا جرى تحطيمهما اختفيا كليـا، وقال اليهـود بأن الكتابه كـان من الممكن قراءتها من على أي جانـب من الحجرة، وهو أمـر اعجازي، لأن رؤية الحروف ممكنة من على الطرفين من ورق رق رقيق وشفـاف، ولكن القـراءة ممثلة من على جانب واحد فقط، لأن الصفحـة عندما تُقلب، تنقلب الحروف وتصبح معكوسة.

ولهذا السبب، من المعتقد أن الحجـرة لابد وأنها كانت نقيـة، ولامعة، وشفافة، حيث اقتضى الحال أن تكون هكذا، لأنها حتى في الظلام، وفي أوقـات الليل أشعت، ودائماً جعلت الكتابة ممكنة القـراءة، مثلما توجب الحفـاظ على الوصايا التي كتبت عليهـا في جميع الأوقات، لكن مـوسى

حطم هذين اللوحين، ولم يعد من الممكن بعد ذلك القراءة، ولم يكن هناك حظر على الناس ومنع لهم من الابتهاج بسبب تحطيمهما، ومن الممكن المحاججة بأنه عندما ألقى موسى باللوحين على الصخرة تحولا مباشرة إلى غبار لافائدة منه، وكان اللوحان الآخران، اللذان نقرأ عنهما في سفر الخروج:٣٤، قد نحتا من قبل موسى نفسه، وتمت الكتابة عليهما باصبع الرب، ويقول اليهود بأن الرب جعل موسى يرى كتلة من الزفير، نحت منها لوحين، وأن موسى صار غنيا كثيراً من خلال البقايا والقطع التي تشظت من تلك الكتلة، وأدع الأمر إلى أي رجل عاقل ليحكم كم من الصدق يمكن توفره في هذه الحكايات، لكنهم لايستطيعون اقتياد أي انسان إلى ضلالهم وإلى أي من أخطائهم، مثلما لايمكن لحكايات الشعراء، التي نقلتها والتي أتعرض لها، عندما تصدفني على طريقي.

ومضينا من هناك نتابع سيرنا نحو الدير، وهنا أشار الراهب نيقوديموس وبيّن لنا جبلاً متصلاً بجبل حوريب، قال بأنه كان جبل موسى، فإلى هذا الجبل:« صعد موسى وهرون.... وسبعون من شيوخ اسرائيل، ورأو إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة»[الخروج:٢٤/ ١ , ١٠]، ومن هذا الجبل أُمر موسى بالصعود إلى جبل حوريب، لأن هذا الجبل واقع فوق كتف جبل حوريب، باتجاه الشمال، وكان موسى قد أُمر بالصعود إلى هذا الجبل من أجل صلوات خاصة، وليتلقى الأجوبة من الرب حول قضايا خاصة، ومن المعتقد أن الرب ظهر مراراً هناك إليه.

وقد صلينا ونحن ننظر نحو هذا الجبل، وتابعنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى مكان مغلق ملاصق لأسوار الدير، فهنا أرض مقبرة الرهبان، وبناء عليه قرأنا هنا الصلوات من أجل الأموات، وقمنا بتقديم الاحترام إلى الرجال المقدسين الذين دفنوا هناك، لأن هناك مايزيد على تسعة آلاف

راهب قد دفنوا هناك، أسماؤهم مدونة واحد تلو الآخر في كتاب الدير، ومما لاشك فيه أنه كـان بينهم عدداً كبيراً من القديسين، وبعدمـا خرجنا من المقبرة دخلنا إلى الدير، فوجـدنا أن عدد البداة العـرب، قرب مكان إقـامتنـا قـد ازداد، ومع ذلك طبخنا طعـام عشـائنا، ودعـونا الراهب نيقوديموس ليتناول العشاء معنا، ورجـوناه أن يقوم بعمل الترتيبات مع السيد راعـي الدير، حتى يرينا آثار القديسـة كاترين والأمـاكن المقدسـة الأخـرى في الدير في الغـد، الأمـر الذي فعله، كما سـوف نبين ذلك في مكانه، وأمضينا الوقت ونحن حـزينين، لأننا رأينا أعـداد البداة العـرب المقيمين في مواجهتنا بازدياد مستمر.

ضريح القديسة كاترين العذراء الأعظم مباركة وآثارها المقدسة، والتراتيب التي أبدوها هناك نحو السادة الحجاج المسيحيين، والوضع الحالي للزيت الاعجازي الذي يقال بأنه يتدفق من قبرها، وعليقة موسى، والأماكن الأخرى التي يجري فيها منح الغفرانات، وسيشغل وصف هذا كله هذا الفصل بأكمله

في اليوم السادس والعشرين، مباشرة بعد منتصف الليل، قمنا بعد قراءتنا لصلواتنا، بإعداد أنفسنا لإقامة قداسات، وأعدّ الفرسان العلمانيون أنفسهم لتلقي القربان المقدس، وكان هذا اليوم هو يوم جمعة، وكنا نأمل بأن يكون اليوم المقبل يوم مغادرتنا، وبناء عليه بعد تلاوة صلوات مابعد منتصف الليل، والصلاة الأولى، سمعنا اعترافات فرساننا، وأقام كل واحد منا بدوره قداساً في بيعتنا، وتلقى جميع الحجاج العلمانيين القربان، وخلال ذلك الوقت صار النهار مشرقاً، فنزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين لرؤية آثارها، وعندما كنا في الكنيسة، قدم راعي الدير مع جميع رهبانه، وكل واحد منهم يحمل بيده شمعة مضاءة، ووفق الطريقة نفسها، أشعل كل واحد منا نحن الحجاج حوامل الشموع التي كانت بأيدينا، ومن ثم تحلقنا واقفين حول ضريح العذراء المقدس، من كلا الجانبين هناك، وجاء الآن حافظ مقدسات الدير مع مفاتيحه، وحاول أن يفتح أقفال الضريح، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك، لأن كل من الأقفال والمفاتيح كانوا جميعاً قد غطاهم الصدأ، وتعطلوا، وأمكن أخيراً بمساعدة الرهبان الآخرين، وبعد بذل كثير من القوة والجهد، فتح الأقفال، وعرض قبر الجسد المقدس، وعندما جرى إزاحة الغطاء الرخامي الذي يغطي القبر، شرع الرهبان بغناء ترنيمة تجاوبية، كانت الكلمات والموسيقى اغريقية، التي منها لم يكن بإمكاني فهم ولاكلمة واحدة، باستثناء كلمتي«رسل» و«شهداء» ، لأنهم غنوا بهاتين الكلمتين، ورددوهما بين الكلمات الأخرى، ذلك أن

هاتين الكلمتين هما نفسيهما في كل من الاغريقية واللاتينية، وقد أخذتا بالأصل من اللغة الاغريقية إلى اللغة اللاتينية.

وأثناء قيامهم بالغناء، وصل راعي الدير إلى مكان الضريح، وبعد قيامه بانحناءة كبيرة، صعد نحو التابوت، الذي كان قائماً في مكان مرتفع، وهنا غطس برأسه في داخل التابوت، وقبل مستودع ذخيرة الحكمة السماوية، وأعني بذلك رأس العذراء المقدس، ثم رفع نفسه وانتصب قائماً ثانية، وبقي واقفاً إلى جانب رأس التابوت، وبعد ذلك اقترب الرهبان منه، مبتدئين بالأسن منهم، وقبلوا الآثار المقدسة، وفق الطريقة نفسها التي عملها راعي الدير، وجئنا نحن الحجاج بعد الرهبان وتعبدنا الآثار بالطريقة المعتادة، وبعدما فعل قائدو حميرنا الشيء نفسه، وبعدما فعلنا ذلك، أعطاني جميع النبلاء منا جميع مجوهراتهم من الذهب ومن جواهر الفضة، حتى ألمس الآثار المقدسة بهم، وهكذا أخذت كل من المجوهرات التي عهد بها إليّ في أولم، من قبل الناس الأعزاء علي، ومجوهرات رفاقي من موالي الفرسان، ووضعت كل قطعة منهم في التابوت، حيث لمست بهم الرأس المقدس للعذراء النبيلة.

ومن أجل توضيح للمس الآثار بالجواهر، إنظر إذا رغبت ماتقدم في ص١٩٨، وعندما كنت أفعل هذا لم يرفع راعي الدير الذي وقف إلى جانبي ناظريه عني، وراقب يدي بعناية كبيرة، وذلك خشية سرقة أي من الآثار المقدسة، لأنه بالفعل جرت سرقة كثيراً من الآثار المقدسة في ماضي الأيام من قبل الحجاج، أو أخذت بناء على التماسات الأباطرة، والأساقفة والملوك، وجرى اعطاء الكثير وفق هذه الطريقة، حتى أن المتبقي الآن من الجسد المقدس أقل من النصف، ولأنهم يعرفون هذا، فإنهم يتولون حراسته بكل عناية من اللصوص، ولايمكن الآن لأعمال التوسل أو الرشوة أن تقنعهم بالتخلي عن أية قطعة، ومايزال الجزء الأكبر موجود هناك، أي مازال موجوداً: رأس العذراء المقدسة، مغطى

بتاج ذهبي مرصع بكثير من الجوهر، مع رمز القداسة، والذراع الأيسر الذي أصابعه مغطاة بخواتم ثمينة جداً فيها أحجار كريمة، وكانت اليد الأخرى— كما أخبرنا الرهبان في جورجيا، لكن الذين في رودوس يتبجحون بأنهم يمتلكونها، وهم يعرضونها على الحجاج، وقد رأينا بعض الأضلاع، وقطع من العظام، وكثيراً من أطراف العذراء المقدسة موضوعين في التابوت.

ويبدو أن العظام المقدسة قد وضعت في زيت، لأن لونهم ليس أبيض، لكن لونهم لون عظام أو قطع من الخشب قد وضعت في الزيت، ومن المعتقد في الكنيسة المقدسة أن أطراف العذراء تعرقت فيما مضى زيتاً، لكن هذه المعجزة قد توقفت منذ زمن طويل مضى، والأطراف المقدسة ملفوفة الآن بالحرير، وقد جرى اعطاء قطع منه إلى الحجاج عوضاً عن الزيت، وهم ينقعون هذه القطع من الحرير في المصابيح المعلقة في بيعة القديسة مريم في العليقة، ويحملونهم معهم إلى مواطنهم بمثابة زيت القديسة كاترين.

وكان معي قارورة صغيرة ملأتها بالزيت نفسه، وغطست فيها كثيراً من الصوف، هذا وإنني أعلم أن الزيت الذي من المكان المتقدم ذكره، مؤثر جداً على الحرير، وعندما أخيراً أراد راعي الدير اغلاق تابوت العذراء، أشرنا له بإبقائه مفتوحاً قليلاً من الوقت بعد، وذهبنا ثانية واحداً تلو الآخر، بالنظام والترتيب نفسه كما كان من قبل، وقبلنا الآثار المقدسة ووضعنا تقدياتنا من الذهب والفضة في التابوت، فقد وضع بعضنا أربع دوقيات، وبعض آخر ثلاثة، وبعض دوقيتين، ووضع الشطر الأكبر مالايقل عن دوقية واحدة، وعندما كنا نفعل ذلك غنينا ترنيمات تجاوبية جماعية إلى جانب التابوت، وتلونا المجموعات المحددة في كتب المسيرات، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ثم قام حافظ المقدسات بجمع تقدياتنا، وأغلق التابوت.

وهذا التابوت قائم فوق مكان مرتفع على الجانب الأيمن من السدة، وهو مصنوع من رخام أبيض مصقول، ومحفور على وجهه كله صور، ونباتات، وأوراق، والتابوت ليس مصنوعاً بطول جسم انساني، بل أقصر من ذلك بكثير، لأنه صنع لحفظ العظام فقط، ومعلق إلى جانبه كثيراً من المصابيح المضاءة، كانت تغذى فيها مضى من الزيت الذي رشح من أطراف العذراء، ولكن عندما توقفت هذه المعجزة، ظلت أطرافها مليئة بالزيت، لكنها توقفت عن الرشح، إلاّ إذا حكت بشدة وبناء عليه قرأت في كتب حج قديمة، أن الرهبان اعتادوا، بناء على طلب من الحجاج على حك واحدة من عظام العذراء، وكان الحجاج يأخذون الزيت الذي يرشح من العظم، لكن هذه المعجزة، قد توقفت، إنها قد تبعتها معجزة أخرى، ففي كل سنة، في يوم عيد العذراء يطير إلى هنا بعض الطيور الجميلة جداً، من أنواع غير معروفة، يحمل كل منها في منقاره أغصاناً خضراء من شجر الزيتون، مغطاة بالثمار، وتقف هذه الطيور على سقف الكنيسة، وترمي بالأغصان نحو الأسفل، حيث كان الرهبان يلتقطونهم، ويستخرجون منهم زيتاً طيب الطعم، بكميات وافرة تكفيهم طوال السنة لمائدتهم ولمصابيحهم.

وأخيراً توقفت هذه المعجزة، إما بسبب أن عصر المعجزات قد انقضى، أو لأن المعجزات أسيء استخدامها، أو بسبب عدم جدارة الانسان، وأن الذنوب أعاقت المعجزات عن الحدوث، أولأن الرب جهز وسائل أخرى، لأن القاعدة لدى اللاهوتيين، أن الرب لايعمل معجزات مالم تكن هناك حاجة خاصة إليها، ففي الأيام الخوالي، عندما عاش الرهبان الذين سكنوا هنا بفقر وشقاء، أمدهم الرب بشكل إعجازي، لأنهم وضعوا جميع آمالهم فيه واعتمدوا عليه، كما قال المزمور:« ألقوا أثقالهم على الرب، وهو سوف يطعمهم» وقال أيضاً: «المسكين صرخ والرب استمعه»(المزمور:٣٤/ ٦)، غير أنهم مع مرور

الوقت أخـذوا يخافـون من الفقـر، فصـاروا يعملون زاداً لأنفسهم، ويطلبـون الصـدقـات، ويشترون الموارد، ويحصلون على خفـارات، ويزرعون بساتين من حول الديـرة مع بذل جهود كبيرة، ويرعون زراعة أشجار الزيتـون في الأماكن الصحـراوية، وعندما غـدت هذه الأشجار قائمة، لم تعد هناك حاجة مطلقة لأية معجزات.

ومثل هذا كان قد حدث مع بني اسرائيـل، فهم عندما كانوا يعيشون في الصحراء عاشوا على المن اللذيذ، إنما عندما حصلوا على ثمار الأرض المقدسـة للأكل، توقفت معجزة المن(يشـوع:٥/ ١٢) كما أنه لم تعد هناك حـاجة لعصر المعجـزات، حيث لم تعد هناك حـاجة للزيت ليتـدفق من أجل معـالجة المرضى، أو للبرهنة على قـداسـة العـذراء، ولذلك فإن المعجـزات قد توقفت هنا وعند أضرحـة القـديسين الآخرين، ولم تعـد تصنع، هذا وإن عظام العذراء المقـدسة كما يبدو مليئـة بالزيت، وعندما يُضغط عليهـا ترشـح زيتـاً، كما هو واضح، ولذلـك ينبغي أن لايظنن انسان بأن معجزات القديسة كاترين قد توقفت كليا، مع أنهم لم يعودوا يُصنعـون إلى جـانب ضريح العـذراء المبـاركـة، لأننا غـالبـاً مـانشـاهد معجزات كبيرة تُعمل من قبل القديسين في أماكن ليست فيها أجسادهم ولاقبورهم، فمعجـزات عظيمة صنعت في هذه الأيام من قبل القـديسة كـاترين في أمـاكن كثيرة، من ذلـك على سبيل المثـال، في دير للراهبـات القـانونيـات النظاميـات في روانورث Reuenorth ، في أبرشيـه كـولون، وهو مكان تحدث فيه معجـزات لم يسمع بمثلها، فقـد قيل بأن الزيت، والحليب، والبلسـم، والمن، يتـدفق من قطعـة صغيرة من عظام القـديسة كـاترين، وأشيـاء أخرى مـدهشة قـد قيل بأنها حـدثت هناك، وذلك استناداً لشهادات شهود موثوقين، وجاء في حكاية« حياة القديس هيلاريون» بأنه مـامن معجزة قد صنعت في ذلك المكان الذي يرقـد فيه جسـده في سـورية، بل صنعت معجـزات جبـارة في احـدى الحدائق

الصغيرة في قبرص، حيث سكن في أيام حياته، وكذلك الأمر مع القديسة كاترين.

والذي بقي علينا الآن أن نرى كيف تم العثور على جسد القديسة كاترين وكيف أنه أحضر إلى هنا، فعندما صدر الحكم الجائر للامبراطور مكسينتوس Maxentius في الاسكندرية، جرى قطع رأسِ العذراء الفضيلة بعد كثير من العذاب، ووقتها اختفى جسدها بشكل مفاجىء، وعندما اجتمع المؤمنون مع بعضهم، حتى يقوموا بنقل الجسد ودفنه، لم يتمكنوا من العثور على شيء، ولم يعرفوا إلى أين ذهب، ذلك أن الكائنات غير المرئية التي ترعى القديسين، وهم الملائكة المباركون، قد حملوها في اللحظة التي قد فارقت فيها الحياة، ونقلوها خلال الهواء إلى قمة جبل سيناء، إلى المكان الذي تقدم وتحدثنا عنه، وافترض أهل الاسكندرية بأن جسدها وروحها قد حملا معاً إلى السماء، وبقي جسدها المقدس ممدداً هناك لمدة ثلاثمائة سنة، وفي أثناء تلك المدة تلقت العربية كلها ومصر عقيدة المسيح، وعندما حدث وامتلأت القفار كلها برهبان مقدسين، جرى بناء دير في سفح جبل سيناء تشريفاً للعذراء مريم المجيدة جداً، وذلك في عليقة موسى(المشتعلة)، وقد كان هناك نوعان من الرهبان الذين سكنوا في القفار، فقد كان هناك رهبان مقيمين، سكنوا مع بعضهم في ديرة، وعبدوا الرب في ظل نظام، وكان النظام الذي أعطي لحياتهم قد قدمه إلى القديس باخوميوس Pachomius ملاك، وهو مكتوب على ألواح من النحاس، وذلك كما ورد في Spec-ulum Historiale — الكتاب الثامن عشر، الفصل السابع.

وكان النوع الآخر منهم من النساك ، الذين عاشوا حياة عزلة، ورفضوا الحديث مع بني البشر، وتجولوا حول قلب القفار وسكنوا في كهوف في الأرض، وكان هناك بشكل خاص في قفار سيناء كثيراً من الرهبان الأتقياء من النوعين، وكان في الدير القائم تحت جبل حوريب،

راعياً للدير رجلا جيداً، كان غـالباً مافكر بالـذهاب مع رهبانه للبحث عن القديسين في القفـار، لكن دوما منع من القيـام بذلك، لكنه تلقى في احـدى الليـالي أمـراً في المنام للانطلاق في الغـد مع رهبـانه، حيث سيكتشف كنزاً سـوف يشتهيه الشرقيـون والغربيـون سـواء، وفي الغـد استـدعى جميع رهبـانه، وأخبرهـم بما تعهـد به، وجعل قلوبهم تتحـرق برغبة عارمة للعثـور على ذلك الكنز، وانطلقوا جميعا من الدير بحثاً عن الكنز وتحولوا في القفـار، غير عـارفين إلى أين يذهبـون، لكنهـم كـانوا متشوقين وكلهم رغبـة، وفتشوا بفضـول وبحثوا بين شعـاب الصخور، وكهـوف التـلال، وتجولوا فـوق الصخـور الوعـرة، وفتشـوا بكل دقـة الجبـال، والوديان، ومجاري السيـول، وفيما هم يفعلون ذلك اقتـادهم الرب إلى كهف تحت صخرة عالية، حيـث وجدوا راهباً قديماً، لم يكونوا قد رأوا وجهه من قبل، وقـد سأل الرهبان عما يريدون، وعن الذي عنه يبحثون، وقد أجابوه:« لقد قدمنا بناء على أوامر من الرب بحثاً عن كنز يشتهيه الشرقيـون والغربيون»، وردّ عليهم الرجل العجوز قـائلاً:« وأنا أيضـاً غالبـاً ماأمـرت بفعل الشيء نفسه، لكنني كنت أخشى من غـواية العـدو، وقد أجلت فعل ذلك حتى الآن، إنما الآن سـوف أذهب معكم من دون خـوف للبحث عنه»، وسألـه الرهبـان:« وأين تعتقـد علينا أن نبحث»؟ فأجـابهم« فـوق، على قمـة هذا الجبل المرتفع، حيث غـالبـاً مارأيت ضوءاً مشعاً واضحاً، وأنا لاأشك أن شيئاً مقدساً مامخفياً هناك، لكن كما ترون ذلك المكان مـرتفـع، ومن الصعب الوصـول إليـه بسبب علوه، ثم إنني لم أمتلك الشجاعة قط للتسلق إلى هناك، كما أنني لم أتجرأ في البحث وحـدي في مجد الرب الذي أشع من هذا الجبل، لكن دعـونا الآن، نصعـد معـاً ونبحث هناك»، وكان ذلك جبـل القديسـة كـاترين، الذي لم يصعـد إليـه انسـان قبل هذا الوقت، وهكذا ذهبـوا مع بعضهم وبعـد بذل كثير مـن الجهـد، والتعـرض لكثير من المخـاطر وصلوا إلى القمـة، وعنـدمـا وصلوا إلى هناك، وجـدوا الجسـد الكامـل للعـذراء،

موضوع بشكل اعجازي في لحد من الصخر، وكان هذا اللحد مليئاً بالزيت، ولم يشكوا بأن هذا كان هو الكنز، الذي وعدوا به، غير أنهم جميعاً لم يعرفوا إلى من عاد الجسد، ولاإلى أية قداسة، ولذلك انكبوا بأنفسهم نحو الأرض حول الجسد، والتمسوا من الرب أن يمن عليهم بفضله فيبين لهم اسم تلك القديسة وفضائلها، وأثناء صلاتهم، فجأة ظهر أمامهم ناسك مسن آخر، ووقف فوق الصخور، وقال:« اعلموا أيها الإخوة، بأن الرب قد أرسلني إليكم لأبين لكم: اسم، وحياة، وفضائل، ومجد هذه العذراء العظيمة القداسة»، وشرع بعد هذا يخبرهم عن أصلها، واسمها، وأسرتها، وعن تحولها إلى المسيحية، وعن آلامها، ومكان آلامها، وعن اسم قاضيها، وعن الزمان الذي وقعت فيه هذه الأحداث، وعن موتها، وعن النقل الاعجازي لجسدها إلى هذا المكان، وعن الحراسة المتواصلة والحفظ لها من قبل الملائكة حتى ذلك اليوم، ثم أمرهم ذلك الراهب بأخذ جسدها من هناك، وبحمله إلى دير القديسة مريم عند العليقة، لأنه ينبغي أن يقدم الناس من أقصى أطراف الأرض لزيارة هذه الآثار المقدسة، وعندما فرغ الراهب من كلامه هذا، قبّل العظام المقدسة، ثم انزلق فجأة مغادراً فوق الصخور، وركض نازلاً من الجبل، وعاد إلى كهفه، وهو مكان مامن انسان عرفه، ولم يشاهد ثانية من قبل أي مخلوق.

وتولى الرهبان نقل جسد القديسة كاترين مع احترام عظيم، وحملوه إلى كنيسة القديسة مريم عند العليقة، حيث وضعوه في تابوت رخامي، كما هو مشاهد حتى هذا اليوم، وصار مطلوباً من جميع المسيحيين المؤمنين الموزعين في طول الأرض وعرضها، مقابل المخاطرة بحياتهم، ومع أعظم الجهود المبذولة والمتاعب والنفقات، ولذلك أمر واحد من البابوات بشكل خاص بتحريم القيام بهذا الحج، مع فرض عقوبة الطرد من الكنيسة، وذلك بسبب مصاعب الرحلة، والمخاطر المحيطة بها،

وجــرى تحريم الحج إلى القـدس بسبب المسلمين، وفي الحقيقــة إن هذا الحج هو عطلة، ورحلة ممتعة مقارنة بهذه الرحلة.

وعندما فرغنا من أعمالنا عند ضريح القديسة كاترين، سرنا في مسيرة خارجين من السـدة إلى بيعة القديس يـوحنا المعمدان، حيث هناك كثيراً من الآثار، وغفرانات عظيمـة، وهنا صلينا إلى القديس يوحنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وعنـدما انتهت صلواتنا في تلك البيعـة، جلسنا جميعاً بناء على أمر حافظ الذخائر، ودخلنا حفاة إلى بيعة أخرى ملاصقة لتلك البيعـة، ولقـد مـررنا من خــلال باب صغير، قـائم عند رأس الكنيسـة الكبيرة، وكانت أرض هذه البيعة مغطاة بسجاد ثمين جداً، أما الجدران فكانت مغطاة بألواح من الرخـام المصقول الثمين، وكـانت البيعة منارة بكثير من المصابيـح، وكان كل شيء في هذه البيعة جميل، مـزين، وتقي، فهنا هو المكان الذي قامت فيه معجـزة عليقة موسى، التي رآها تحترق، واللهب يتصاعد عالياً منها، ومع ذلك لم تتضرر بأي نار، ذلك كما قرأنا في سفر الخروج:٣، وأكثـر إعجازية من هذا كـان تحقق هذه الرؤيا، أي عندمـا اشتعلت مـريم، التي هي العليقـة الدائمـة الاخضرار، والدائمـة الازدهار، والرائحـة الطيبـة، وحملت بوسـاطة النار الربانيـة، في حين لم تتعرض عذريتهـا لأي أذى، وحول هذه العليقة المقدسـة تغني الكنيسة Rubum quem viderat moses incombustum، الخ، وقــد غنينا هذه الترنيمــة هناك، وانكببنا بأنفسنا نحــو الأرض حيث وقفت العليقـة، وقبلناها بخشـوع فائق، وحصلنا على غفـرانات مطلقـة(++)، وتحت المذبح الموضع الذي من المعتقـد أن العليقة وقفت عليـه، ويوجد في الأرض لوح نحاسي، حفـرت عليه صورة العليقـة المشتعلة، وموسى جالس، وهو يخلع نعليه.

وكثير من المصـابيـح هي معلقـة فـوق الموضع، لأنـه مـوضع احترام عظيم من قبل جميع الناس، ويتـوسل مسلمـون، وبداة عـرب، وأتراك،

باخـلاص حتى يسمح لهم بالدخول إلى هذا المكان، وعندمـا يُسمح لهم لايدخلون إليه إلاّ وهم حفـاة، ويكون اليهود في غـاية السرور للدخول إليـه، لكن لايُسمح لهم بذلك، ويعدّ هذا المكان مقـدساً بشكل خـاص من قبل جميع المسيحيين، من كل من الشرقيين والغربيين، لكن الشرقيين قد قاموا بحرماننا نحن الغربيين من ممارسة الصلوات وعمل القداسات فيـه، وهـم لايسمحون لنا بالدخـول إلى ذلك المكان لتلاوة قـداس، على أسـاس أن المذبح في البيعـة هو ملك للاغـريق، الذين لايسمحـون لنا، بأي حـال من الأحوال، بإقـامـة قداسـات على مذبحهم، وذكـرت هذه العليقـة من قبل الرب(مـرقـص:١٢)، وقـد ظهـر الرب إلى مـوسى في العليقة، خشيـة أن يعمل اليهود لأنفسهم وثناً، حسبما ورد إلينا الخبر في التعليقات على الخروج:٣، وكـانت هذه العليقة من أكثف أنواع العليق، أو شجرة شوكية مع ثمار توت حمراء اسمها Hagdorn.

وعندمـا فرغنا مـن بيعة العليقـة، عبرنا إلى بيعـة أخرى، مكرسـة إلى القديس جيمس، فيها تلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وذهبنا من تلك البيعـة إلى بيعة القديـس أنتفيتوس Antiphitus، حيث تعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات(+)، ودخلنا بعد هذا بيعة القديسة هيرينا Hyrina العـذراء، حيث صلينا، وحصلنا على غفـرانات(+)، وغـادرنا تلك البيعـة، ودخلنا إلى بيعة العـذراء مـريم المجيـدة، التي دعونا إليهـا بخشـوع، وحصلنا على غفرانات(+)، وعبرنا من هذه البيعـة إلى صحن الكنيسة، وفي هذه الكنيسة اثني عشر عمـوداً عليهم رست المنشأة كلها، حيث هناك ستة من الجانب الأول، وستـة من الجانب الآخر، وطولانيا قد بنيت وفق نمـوذج كنائسنا، ويوجد في هذه الأعمـدة كثيراً من الآثار المقـدسة محفـوظة، ومعلق على كل عـامود صـورة رسم عليها القـديس الذي تعود إليه الآثار التي يحتوي عليها العامود، ويجري الاحتفال بأيام أعيـاد هؤلاء القـديسين في مـواسمهم، لأن الاغـريق لـديهم ترتيب

للتقـويم، فيـه في كل شهـر من أشهر السنة يـوم واحد للاحتفـال بعيـد القـديسين الذين آثارهم مـوجودة في الأعمـدة في وقت واحـد، أي على سبيل المثال، يأخـذون في شهر كانون الثـاني العمود الأول، مع كثير من القـديسين، يجري الاحتفــال بأعيـادهم جميعـاً في يوم واحــد من ذلك الشهـر، ولايقتصر الاحتفـال على القديسين الـذين صورهـم مرسـومـة ومعلقـة على ذلك العمــود، أو الذين آثارهـم محفـوظة فيــه، بل يشمل الاحتفـال جميع القديسين الذين وقعت أيام وفيـاتهم أوولادتهم في ذلك اليــوم، وعلى هذا المنوال فإن العمــود الثـاني مخصـص لشهـر شبــاط، والعمود الثالث لشهر آذار، وهكذا دواليك، هذا ولكل عمود غفرانات خاصة متعلقة به، أسرعنا للحصول عليها.

وذهبنا إلى عمود كـانون الثاني، وجثونا من حـوله، وتوجهنا بالدعاء إلى القديسين الموجـودة آثارهم فيه، وقـدمنا أيضاً التشريف إلى قـديسينا الذين دونت أسماؤهم في التقويـم الثاني(لشهر كـانون الثاني)، وحصلنا على غفـرانـات لمدة سبع سنوات(+)، ثم إننا نهضنا، وذهبنـا إلى عمـود شهــــر شبـــاط حيث تلونا صلـواتنا، حسبما تقـــدم، وحصلنا على غفــرانات(+)، وذهبنا بعــد ذلك إلى عمــود شهــر آذار، حيث صلينا بخشوع، وحصلنا على غفرانات(+)، وجثونا بعد هذا حول عمود شهر نيسان، ودعونا إلى أسماء القديسين، وحصلنا على غفرانات(+)، ومضينا من ذلك العمـود إلى عمـود شهر أيار، حيث جثـونا للصـلاة، وحصلنا على غفـرانات(+) ونهضنا من هناك، وذهبنا إلى عمـود شهـر حـزيران، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات(+)، وكـان هذا العمود هو الأخير على الجانب الأيمـن، وبعــد هذا سرنـا عبر وسط الكنيســة إلى آخـــر الأعمدة، وهو عمـود شهر تموز، الذي صلينا إلى جـانبه لبعض الوقت، وحصلنا على غفرانات(+)، ومن هناك ذهبنا إلى عمـود شهر آب، الذي من حوله تـوسلنا إلى القديسين للحصول على غفـرانات(+)، وكنا نأمل

بأننا قــد أصغي إلينا، ومن هناك ذهبنا إلى عمــود شهـر تشرين الأول، حيث جثـونا ودعـونا جميع القـديسين حتـى يصلوا من أجلنا، وحصلنا على غفرانات(+)، ثـم نهضنا، ومن هناك توجهنا إلى عمـود شهر تشرين الثـاني، حيث تولينا الصـلاة للحصــول على غفـرانات(+)، ومن هناك ذهبنا إلى رأس الأعمـدة وآخرها، الذي هو عمـود شهر كـانون الأول، وتعبـدنا قديسي شهـر كـانون الأول، وتابعنا سيرنا من هناك، فخـرجنا من(صحن) الكنيسة، إلى سدة الرهبـان، حيث تمددنا بأنفسنا أمام المذبح العـالي، وتوسلنا للحصول على الرحمة الـربانية، ولتلقي الغفـرانات(+)، ومذبح السـدة مكرس للامبراطور قسطنطين الكبير، ولأمه الامبراطورة هيلانة التي يتعبدها الاغريق مع الاحترام الأعظم.

وقـد منحت الغفرانات المتقـدمـة الذكر إلى هذه الكنيسـة، والبيع من قبل البابا، بناء على طلب من الاغـريق أو من قبل بطريرق الاسكندرية، الذي يسكن بالعادة في روما.

وأخيراً عدنا إلى ضريح القديسة كاترين، العذراء المجيدة، حيث قبلنا التــابوت المقــدس، وقمنا بإنهاء مسيرتنا، وينبغي أن يُلاحـظ، أننا زرنا الأماكن المتقدمة الذكـر للغفرانات، ليس فقط في ذلك اليوم، بل في كل يوم، والذي كان في ذلك اليوم هو مسيرتنا المهيبة.

وبعدمـا أنهينا مسيرتنا، مضينا إلى أماكن إقـامتنا، وطبخنا طعامنا من أجل الغداء، وجلسنا باكراً للغداء، لأننا جميعاً كنا قد تناولنا قربان عشاء الرب، وفي أثناء جلوسنا إلى المائـدة، جاء اثنان من رهبان الـدير،، جرى ارسـالهما من قبل راعي الدير، مع هدية لنـا، فقد حملا طبقـاً مغطى فيـه أرغفة من الخبز المبروم المصنع بالتوابل، مثل الحلويات بالعسل، أو الخبز بالزنجبيل، وذلك مع تمور وتين، وعنب، وزبيب، ولست أدري من أين حصلوا عليهم، إنما قـدمـوهم لنا بلطـف، وتسلمناهم باحترام، وأعطينا بعض المندوسـات إلى الحاملين، وأرسلنا بعــد الغـداء خلف كـالينوس

ورجوناه عدم التأخر أكثر، وأن يتولى قيادتنا على طريقنا إلى مصر، وذلك تطبيقاً لشروط عقدنا، وعلى هذا أجاب كالينوس، أنه على استعداد للانطلاق في أية لحظة نريد، غير أنه قال بشكل خاص:« إنني أخشى أننا لن نكون قادرين على مغادرة هذا المكان بسلام، لأن الدير مليء بالبداة العرب، الذين جاءوا من أجلنا».

وصف دير القديسة كاترين، وتأسيسه، والكنائس الثلاث القائمة هناك، وأشياء كثيرة أخرى

يفضل الآباء المقدسون الذين سكنوا في القفار قفر جبل سيناء هذا على جميع الأماكن الأخرى. وموضع العليقة حيث ظهر الرب إلى موسى، وقد ترددوا على زيارة هذا المكان، وتعبدوه على أنه بقعة ذات قداسة عظيمة جداً، وموقع موائم لأعلى التأملات، وامتلك بعض الرجال القدماء أيضاً قلايات هناك، وفي أيام حكم الامبراطور جستنيان في سنة ٥٢٨ لتجسيد ربنا، تحرك هذا الامبراطور نفسه بتوسلات رجال مقدسين من أجل تأسيس كنيسة ودير، فوق مكان العليقة، تشريفاً للعذراء مريم المباركة، وقد أطلق على هذه الكنيسة اسم كنيسة القديسة مريم في العليقة، وهي تعرف بالشرق حتى هذا اليوم بهذا الاسم، لكننا، سميناها منذ نقل القديسة كاترين إلى هناك باسم كنيسة ودير القديسة كاترين.

والسور المحيط بالدير ضخم، لأنه سميك ومرتفع، مع شرافات، وأبراج ناتئة، وله ممر حوله كله بالأعلى، وقد بني من حجارة منحوتة مربعة، وهو محصن بشكل ممتاز في الجزء القريب من المدخل ومن البوابة، حيث يمكنه أن يصمد لوقت طويل ضد أي واحد يحاول اقتحامه، وإخداث عيث، كما ربما قد يفعل بعضهم، لأنني لاحظت أن السور قد تحطم في بعض الأماكن بشكل واسع وأعيدت عمارته.

ويوجـد في داخل اطار السـور ثـلاث كنائس، الكنيسـة الأولى منهن اغريقيـة، والثانيـة لاتينية، والثـالثة(مسجـد) اسلامـي، والكنيسة الأولى والرئيسية بين هذه الكنائس هي كنيسة القـديسة مريم في العليقة، حيث يستريح جسد القـديسة كاترين، وهي في حفظ رهبان يتبعـون الطقوس الاغريقيـة، وهذه كنيسة مستطيلة واسعة مسقوفـة بالرصاص، من دون قبة أو برج، وأيضاً من دون نواقيس أو ألواح قـرع خشبية، وعوضاً عن ذلك لديهم أداة أخـرى بوسـاطتهـا يدعـون المؤمنين للاجتماع من أجل الصلوات الدينية، فهناك عصا من الحديد معلقـة من مكان مرتفع، وقد تعلق عليها أجراس بـرونزية لها أصوات عميقة، ويقرع حافـظ الذخائر على هذه الأجراس بمطـارق، بترتيب خاص ومعيار، فيصـدر عن ذلك موسيقى جميلة جداً، إلى حـد أنه يمكن للانسان أن يرقص على الصوت الصـادر عن الأجـراس، لأن التلحين جيـد جـداً، وهو لحن بهيج، هذا ولقد أطلق عليهـم بشكل موائم جداً اسـم الأجراس الصغيرة، لأنه في القـديم قبل استخـدام الأجـراس الكبيرة، كـان يجري دعـوة الناس إلى الصلوات بوسـاطة الأجـراس الصغيرة، وداخل الكنيسـة جيد التـزيين، وهي مقسمة إلى كثير من البيع، وفيها معلق الكثير من المصابيح، وذلك إلى جانب مصـابيح القديسة كـاترين، والمذابح، والأعمدة الاثني عشر، وكان أمـام مقعد كل راهب مصبـاح مضاء، وتتصل هذه الكنيسـة عند رأسها بكنيسة العليقة، التي تقدم ذكرها.

والكنيسة الثـانية هي الكنيسة اللاتينيـة، إلى جانب قـلايات الحجاج، وهي ضيقة، عبـارة عن قاعة مستطيلة، مع مذبح جيـد التزيين، مكرس للقديسـة كاترين، وجدران هذه الكنيسـة من الطين، غير أنهم مستورين بحصر من ألوان متنوعة، وقد جرى تصنيعهم وتزيينهم بسعف النخيل، وجـرى تعليق كثيراً من الأوراق على هذه الحصر، كتب عليهـا صلوات جميلة موجهة إلى القديسة كـاترين، وجرت كتابتها من قبل حجاج، لأنه

قد جرت العادة أن تقوم كل جماعة من الحجاج بكتابة أشعار حول القديسة كاترين، وتعليقها على الجدار، وفي هذه الأشعار لابد من مدح كاترين المباركة، وذكر اسم كل واحد من جماعة الحجاج، ويكون هذا إذا توفر واحد بين الجماعة يمكنه أن ينظم الشعر، وكان في الفئة الثالثة من جماعتنا من الحجاج المعلم المبجل جون لاسينوس Lacinus (كذا) وكان رئيس شمامسة سيبين كريشين Sieben kirchen (في ترانسلفانيا)، كما أنه كان خطيباً متعلماً، وقد كتب مباشرة من دون تحضير، الأبيات الشعرية التالية من أجل رفاقه:

تسلمي تاجك، الذي هو جائزة حياتك العذرية،

أتوسل إليك ياكاترين الشهيدة المجيدة،

تقبلي التعب الذي من أجلك تحملناه،

باركينا، مع أننا قد نكون اليوم، غير جديرين.

من مدينة جوليا القائمة قرب الدانوب،

كان جون اللاوي أول من انحنى أمام عرشك،

ثم تلاه فيلكس، المجيد من أرض أولم،

المتعلم بشكل مزدوج، وللرب أعطى كل تراثه،

وهنري أوف سكومبيرغ، وكاسبر أيضاً، اثنان،

مثل نيسوس ويوريالوس في التقوى.

ولورد أوف مارسباخ من فرانكونيا العادل،

وبطرس فلسخ أوف أرجنتاين القوي،

جميع هؤلاء إلى معبدك قد جاءوا،

وهم جميعاً عائدون إلى وطنهم،

وهم يرجونك أنهم فوق الأرض والبحر الذي بلاحدود،

علهم جميعا يرتحلون عائدين بسلام.

وقد بدأ يكتب أشعاراً للفئتين المتبقيتين، لكنه لم يجد الوقت لانهاء ذلك بسبب مغادرتنا المباشرة.

وباخلاص رجوت الرجل المتعلم المتقدم ذكره لابدال كلمة«مجيد» من أبيات شعره، لأنها بدت لي أنها لاتوائمني، وأن يقول ماهو صحيح، غير أنني لم أستطع اقناعه لأن يفعل ذلك، وقال:« إذا كانت غير صحيحة من جانب أول، إنها سوف تكون صحيحة من جانب آخر، والذي قد كتبته قد كتبته».

والكنيسة الثالثة، التي لاتستحق أن تدعى كنيسة، هي مسجد للمسلمين، وهي بناء واسع مربع، مع منارة طويلة ملتصقة به، من عليها ينادون بمديح محمدﷺ وفق طريقتهم، وهذا المسجد قائم بين الكنيستين الاغريقية واللاتينية، وذلك في الوسط وكأنه المكان الرئيس بين الثلاثة، ودخلنا إلى هذا البيت أيضاً، عندما لم يكن البداة العرب هناك، فلم نجد هناك لامتعة ولاتدين، ولاغفرانات، بل بيت فارغ مع جدران مطلية بالبياض، ولم نجد هناك مذبحاً، لأنهم يدخلون إليه فقط للقيام بشعائر لامعنى لها، ومكاتب الدير الأخرى صغيرة وتعيسة، والقلايات صغيرة جداً، وهي مصنوعة من قصب منسوج بالطين، وتستند واحدة على أخرى من دون نظام متبع، وهي مجرد غرف صغيرة، مثل أكواخ الرعيان، أو بيوت الأدوات في الحدائق.

والدير مبني جزئياً على سفح جبل حوريب، وتستند القلايات العليا على القلايات الدنيا، وهي ملتصقة احداها على الأخرى مثل عش الدبابير، وعندما شاهدتهم تذكرت تاكسوسTaxeus ابن كولوس

Colus، الذي عنه حدثنا بليني في كتابه حول« التاريخ الطبيعي»، بأنه كان أول من اخترع البيوت الطينية، حيث أخذ أعشاش الدبابير نموذجاً له، لأن المهندسين في تلك الأيام لم يكونوا قد بنوا القصور بعد، وقد مارس هذه الطريقة المتواضعة في البناء الآباء المسيحيون المشهورون والعظيمون للأيام الخوالي، لأنه بالفعل سكن روملوس، مؤسس مدينة روما، في بيت ريفي صغير، وسكن ابراهيم، الذي كان رجلاً غنيا جداً، في خيمة في أرض الميعاد، كما ورد الخبر في حبقوق:١١/ ٩، وهناك زاره الملائكة(التكوين:١٨/ ١).

ودوما تمدد الفيلسوف ديوجينيس Diogenes في إنبوب، واعتاد التنقل هناك حسبما كان يرضيه، وفقاً لاتجاه هبوب الريح، وحكى أوفيد أن الشخصين القديمين فايلمون Philemon وبوسيس Baucis كان لديهما بيت ريفي مصنوع من الخوص، وقد زاره الربانان جوبتير وميركوري عندما كانا يتجولان فوق الأرض معاً، وبعد ذلك كان الربان ممتنان لحسن الضيافة التي لقياها، وأمرا ببناء هيكل كبير على تلك البقعة، وجعلا منهما كاهناً وكاهنة للطقوسس المقدسة هناك، وبعد موتهما جعلا معا ربين، علاوة على ذلك قضى ربنا يسوع بأن يولد في اسطبل نزل، ولم يمتلك قط بيتاً خاصاً به، وكان أيضاً القديس بولص، وهو أول النساك، قد سأل القديس أنطوني، عما إذا كان المسيحيون قد شرعوا ببناء بيوت عالية مثل الكفار، وعندما سمع بأنهم فعلوا ذلك، وقع يبكي بمرارة بسبب حماقتهم، ومثل هذا فعل القديس برنارد عندما شاهد أكواخ الرعيان المصنوعة من القصب، فبكى لدى تذكره أن الرهبان السسترشيان قد سكنوا فيما مضى بمثل هذه الأكواخ، وهم الذين كانوا قد شرعوا آنذاك في الاقامة في أبنية عظيمة.

وعندما عاد القديس دومنيك من بولونا Bologna، بعدما كان غائباً لوقت طويل، وجد مهجعاً وقلايات قد ارتفعت فوق الأرض، التي

ارتاحــوا عليهــا من قبل، وعنـدمـا شـاهد هذا حــزن حــزناً عظيماً وقال:«ياإخوتي إذا كنتـم قد بنيتم أماكن وأنا ماأزال حيـاً، مالذي سوف تعملونه بعدما أكـون ميتاً»؟ وأمرهم بهدم كل مارفعـوه، وباعادة الأبنية إلى ماكـانت عليه من قبل، وكان لدى الأسقف العظيم القـديس مارتن قلاية خشبية قرب كنيسته، وقد قرأنا عن واحد من النساك الذي امتلك قــلاية عملت على شكل قبر، ولـذلك عندمــا سأله الامبراطـور عن المساحة التي استخـدمها في بناء قلايته، أجـابه:« جسدي شخصياً، ذلك أن هذا المكان كـافياً لي كبيـت مادمت حيـاً، وكقبر عندمـا أكون ميتـاً»، وأضـاف بأنـه من الأفضل القفـز إلى السماء من كــوخ من أن نقفـز إلى جهنم من قصر، ومثل هـذا قـال القـديس برنـارد: «إخـواني، في حجنا خـلال هـذا العـالم، وفي منافعنا هنـا، دعـونا لانبني بيــوتاً على الأرض للسكنى فيها، بل خيماً لنزحف منهـا، مثل أناس سوف يستدعـون حالاً لمغـادرتهم للشروع برحلتنا إلى الوطن»، ولقـد حكي بأن فولكان حـداد جوبتير كان أول من أبدع الأبنية الفخمة.

رهبان دير القديسة كاترين وعاداتهم الشريرة وآثامهم الشديدة

إنهامسألة جـادة بالنسبـة للانسـان الحريص على تحرير نفسـه من كل ذنب أن يقوم بلوم شرور الآخـرين، وطالما أنني الآن مقبل على الحديث عن رهبان دير القـديسة كاترين، أنا مجبر بالصـدق على توجيه اللوم لهم بدلاً من مدحهم، لكن ليس بتوجيه النقد إلى حياتهم الخاصة، واحتوى هذا الدير فيها مضى كثيراً من الرهبـان مع الذيـن كانوا مقـدسين جـداً، والذين فيـه الآن مجرد قلة، وهـؤلاء عميـان نحـو الحقيقـة، وقبل مضي سنوات قليلة كان هناك حوالي المائة، والذين وجدوا مؤخراً كانوا ثمانين، لكن الآن ليس هناك فيه ثلاثين راهبـاً، ولهؤلاء الرهبان عادات تستحق الثناء، ولكن بعضها ممقوت، وأنا أثني عليهم لأنهم يأخذون بنظام محدد هو نظام القـديس باسيل، ففي ظل قيادته يمارسـون حياة قـاسية بما فيـه

الكفاية تجاه الاقلال من الأطعمة والملابس الخشنة، وطعامهم مثل طعام جميع الشرقيين، هو قليل وشرابهم اليومي هو الماء، باستثناء في بعض أيام أعيادهم العالية جداً، فوقتها يعطى لكل راهب شربة من خمرة، وثيابهم خشنة ووضيعة، وهذه الثياب هي قمصان لها ألوان متنوعة، فراهب يرتدي قميصاً من نوع، وراهب آخر قميصه من نوع مختلف، ومع ذلك مامن واحد من القمصان لونه براق أو من قماش جيد، وهذه القمصان طويلة، تشبه غفارة كاهن، وهم يتمنطقون بحزام عريض، وهم ليس لديهم أوشحة كتفية، بل طواقي رأسية هي ليست مغلقه حول أعناقهم ورقابهم، بل تتدلى نازلة من رؤوسهم حتى ظهورهم، ويوجد أمام الصدغين قطعتين تتلديان من القبعة، وهما تغطيان الجزء الأمامي من الكتفين، وتنزل حتى الحقوين، وهم جميعاً يدعون شعورهم ولحاهم تطول كثيراً، ويلتزمون بطرائق النصارى، حيث لايأكلون اللحوم مطلقاً، ولايستخدمون الخمرة كما تقدم القول.

وكثير منهم شيوخ تقدمت بهم السنون، وقورين، ورجال جدّ، وهم يستقبلون أي واحد يأتي إليهم، مهما كانت طائفته، وذلك باستثناء اليعاقبة والأرمن، شريطة أن يخضع نفسه عن طواعية لأحكامهم، سواء أكان لاتينياً، أو اغريقياً، أو ألمانياً، أو مصرياً، وكان من المعتاد قبل أيامنا عمل معجزات فيما بينهم، بسبب قداستهم، ومامن واحد كان يجري اختياره راعياً، بعد موت الذي كان قبله، مالم يأتي تعيينه بوساطة معجزة ما، مثل اضاءة مصباحه الذي في قلايته بشعلة من السماء، أو بوساطة رؤيا ما، أو هاتف صوتي.

وأبنيتهم، كما أخبرتكم ليست محط اعجاب، ولاعالية النفقات، وقد تمددت في قلاية واحد من الآباء المتقدمين بالسن، فلم أجد فيها شيئاً سوى علائم الفقر الشديد، ومامن امرأة تدخل إليهم، ولاحتى النساء الحاجات من مناطق ماوراء البحر، لأنهن إذا ماقدمن إلى هناك، يعرف

الرهبان الملاحظة الساخرة المرة:

« إلى المكان الذي تقطن فيه النساء،

يقول السلام والهدوء وداعاً،

لايمكنهما معاً قط استنباط،

طريقة للازدهار تحت سقف واحد،

والذي يعيش حياة منفردة،

هو وحده الذي يعيش من دون صراع»

هذا من دون الحديث عن المخاوف الأخرى التي لاتحصى والتي يواجهها الرهبان بالسكنى مع النساء، ولهذه المصاعب عليهم جميعا إعطاءها ماتستحقه من ثقل، وأن لايسمحوا لأية امرأة بالاقتراب منهم.

واعتاد هؤلاء الرهبان في الأيام الخوالي، عندما كانوا مايزالون مطيعين للكرسي الرسولي، على الترحيب بالحجاج بلطف عظيم جداً، وببشاشة، ويؤمنون لهم مايحتاجون إليه ويعطونهم أحذية، ولهذا السبب أرسل القديس البابا غريغوري— كما قرأنا في حكايته— مبلغاً كبيراً من المساعدات من روما إلى جبل سيناء إلى هؤلاء الرهبان، لأنه في تلك الأيام عملت أعمال كثيرة جيدة في الشرق لصالح كنيسة روما، لكن في هذه الأيام، ماالذي يمكنني قوله؟، لو أنني رأيت هؤلاء الإخوة والرهبان، قد أقاموا الموتى، وقرأوا القداسات، واعترفوا بالذنوب، وشغلوا أنفسهم بالأشياء السماوية، وتعاملوا بسلام أحدهم مع الآخر، والتزموا بأحكام نظامهم، وبددوا أجسادهم بالصيام والسهر، وبالغيرة على الفضيلة، ومارسوا الأعمال التقوية الأخرى، مع هذا كله سأقول بجرأة بأنهم ليس لديهم قداسة، وعلينا أن لانشك أنه لايوجد بينهم استقامة حقيقية، ولاأعمال مقبولة من الرب، ولاتدين يرضي الرب،

لأنهم ليسوا في الكنيسة الكاثوليكية، بل خارجها، فهم كما هو واضح منشقين بالدرجة الأولى، ولاصرارهم على انشقاقهم أصبحوا هراطقة، ولذلك ليسنوا في موضع الرعاية ، لأن أعطية الروح القدس، التي بها تنصب الرعاية في قلوب الناس، لاتمنح للذين خارج حظيرة الكنيسة، وذلك كما تعلمنا من الشريعة القانونية، والذين هم خارج حظيرة الكنيسة لايمكنهم الحصول على المعرفة الحقيقية أو الفهم الصحيح للرب، كما تبرهن في الشريعة القانونية، ويتبع هذا أنهم لايستطيعون الاستفادة من قداس القربان، كما أنهم لايمكنهم التحرر من الذنب بالاعتراف، لأن لعازر لم يقم من الموت إلا في بيت عنيا، الذي هو بيت الطاعة للكنيسة الرومانية، كما أنه لم يكن بإمكان مرثا العيش حياة فعالة، ولامريم حياة تأمل إلاّ في ذلك البيت نفسه، كما أنه لايمكن أن يكون هناك أي سلام أو فضيلة خارج الكنيسة.

ومن الواضح الآن أن هؤلاء الرهبان محرومون كنسياً، ومنشقون، وهراطقة، لأنهم اغريق، والكنيسة الاغريقية بدون رأس، وبالتالي هي ليست شيئاً، علاوة على ذلك انهم شرقيون، بالنسبة لهم الشمس الحقيقية قد غابت، ويمكنني أن أبرهن على هذا الشيء نفسه بالتجربة، فنحن عندما نكون مقيمين في مكانهم نظرنا إليهم على أنهم محرومين كنسيا، ولم نشارك في أي من صلواتهم أو طقوسهم التعبدية عندما كنا هناك، لأنهم نظروا إلينا نحن أتباع الكنيسة الرومانية، على أننا محرومين.

وتبرهن هذا الأمر بحقيقة أخرى، هي أنهم لم يمنحونا مذبحاً في كنائسهم لإقامة قداس، وقالوا بأن القانون في كنيستهم هو أنه إذا ماأقام أي لاتيني قداساً على مذبح عائد للاغريق، فإن ذلك المذبح يكون محروماً كنسياً، مدنساً، ويتوجب تكريسه مجدداً من قبل أساقفتهم، وكنا قد أشرنا إلى هذا الموضوع فيما تقدم، ومن هذا كله تظهر بينهم بعض المعايير لعدم حبهم لنا، ولذلك عندما نسير في بلدهم ونسافر في عبادة

الرب يتعاملون بقسـوة معنا، ولايفعلون شيئاً لنا من باب الاحسان، بل كل مـايفعلونه لنا يفعلونـه من أجل المال، وذلك مثلما يفعل المسلمـون، وفي الحقيقة يتعـامل المسلمون معنا في كثير من الجوانـب بإخلاص أكبر مما يفعل هؤلاء المتقـدم ذكـرهم، وأنا أعـرف من الخبرة أنهم لايرضـون بفتح باب كنيستهم لأي حـاج مـالم يروا مـاله في يده ليعطى لهم مقـابل فتح الباب، وهم لايعطون انسانا شربة مـاء من دون أخذ للمال مقابلها، كما أننا لم نستطع بأيـة وسيلة من الوسـائل اقنـاعهم بتـزويدنا بأحـذية لفـرسـاننا الحفاة، بل إنهم رفضـوا كل شيء، وأمـا الأشيـاء التي لم يكن بامكانهم رفض اعطـائنا إياها، فقـد أعطـونا إياها بنظرات كلهـا شـذر وتأفف، لكن بقضـاء الـرب الصحيح تبرهن صحيحـاً في هذه القضيـة المثل الذي يقول:« الذي ضُن به على الشريف منح إلى المنحطين»، لأنهم بالفعل يضنون على الحجـاج بـاستقبـال مشرق، حيث أنهم لايلتـزمـون بوصيـة القـديس بطرس في قـولـه:« كـونوا مضيفين بعضكم بعضـاً بلا دمـدمـة»(بطرس الأولى٤/ ٩)، ولم يتصرفـوا حسبما قـال جيروم:« نحن نرحب بجميع الضيـوف بملامح مشرقـة ونغسل أقدامهم، مـالم يكونوا هراطقة»، ولذلك تـراهم بموجب الحكمة الربانيـة يقومـون بدون تذمر بخدمة المسلمين ورعايتهم مع البداة العرب، وقطاع الطرق واللصوص، ويعملون أقـل الخدمــــات إلى الـذين هـم من آل بيـت الإيمان، مع أن الرســــول يقــــول:« فلنعمل الخير للجميـع ولاسيما لأهل الإيمان»[غلاطيه:٦/ ١٠]،كماأنهم لايقيمون وزناً في عقـولهم ولايتذكرون الوصية التاسعة لكاتو Cato في قوله:« انظر جيداً نحو أخلاق الرجل الذين أنت معطيـه»، فلطالما هم لايعطـون لمن ينبغي الإعطاء، إلى الذي يكون شاكـراً للأشياء الصغيرة، هم مرغمون على الاعطاء بكميـات وافرة إلى الذين لايستحقـون، أي إلى هؤلاء الناكـرين من البـداة العـرب، الذي لايبالون لابالـرب ولابالانسان، فهم يعطون في كل يوم خبـزاً وشيئاً ما ليؤكل مع الخبز لما لايقل عـن ثمانين من عرب الصحراء، أي إلى أولئك

اللصوص، الذين غـالباً مايأتي مائة منهم، وأحيـاناً أكثر، وإذا لم يعطهم الرهبان مبـاشرة ماطلبوه، ينقضـون عليهـم وينشرون الفوضى في الدير، علاوة على ذلك هم أغنيـاء، ولديهم ممتلكات كثيرة، ذلك أن واحداً من رؤساء أساقفـة كريت— وكان من محبي القديسة كـاترين العذراء— قد منح الدير العشر الأعظـم لكل جـزيرة كـريـت، وشطراً من المكوس في تور Tor، إلى جـانب منافع أخـرى أنالاأعـرفهـا، وبالإضـافـة إلى هذا، يجري إرسال صدقات كثيرة إليهم من جميع بلدان العالم المسيحي، وذلك من قبل كثيرين مـن الذين يعتقـدون أنهم ينفقـون أمـوالهم على أعمال جيدة، في حين أنها في الواقع تصرف على شؤون سيئة جداً، لأن الرهبان أنفسهم ينبغي عدم رعايتهم من قبل المؤمنين، على أساس أنهم هراطقة، إليهم لايجوز بموجب أحكام القانون إعطاء مسـاعدات أوصدقات، ثم إنهم مما يعطى إليهم يتولون بالفعل رعاية اللصـوص من البداة العرب، الذين يتوجب اعـدامهم، كما أنهم لايبنون شيئاً تشريفاً للرب، حتى وإن بنوا كنائـس، يتـوجب على المؤمنين عـدم الاسهـام في بنـاء كنيسـة للمنشقين، وهنا من المناسب أن أحدثكم بما وقع لي في السنة الأخيرة:

عندمـا كنـت على المنبر في أولم أعظ الناس في يوم عيـد القـديس ميكائيل، جاء بعـد القداس رجل، وقدم إليّ مـرسوماً، ورجـاني بقراءته للناس بصوت مـرتفع في الكنيسة الأبرشيـة بعد القداس، وكـان رسالة طويلة، عليهـا ختم كبير هو ختم السيـد بطريرك الاسكندرية، المقيم في رومـا، وكـان فحـواها هو أن كنيسـة القـديسـة كـاترين في جبل سيناء بحـاجـة إلى الترميم، وزادت أن ذلك العمـل ينبغي أن يقـدم له الناس أيدي المساعـدة، وجرى منح الذين يفعلون ذلك غفرانات طيبـة، وكان الرجل الذي جلب الرسالة، راهبـاً اغريقيا مسناً، وقـد وقف إلى جانب مذبح الصليب المقـدس، وذلك على مقربة من المنبر، أمـام وجهي، وقد وضع آثاره المقـدسـة مع تزيينات، وشموع مضـاءة، ووقف إلى جـانب

المنبر مستعدا لاستلام المال، وفي ذلك الوقت كان الناس ينظرون إليّ وإليه، وعندما قرأت الرسالة قلت للناس بصريح العبارة:« اعلموا أن الذي يقف هنا هو واحد من رهبان جبل سيناء، وقد جاء من أعظم الأماكن قداسة، حيث كنت أنا هناك، وهو يطلب مالاً من أجل إعادة ترميم كنيسة القديسة كاترين، وهناك وعد بالغفرانات مقدم من قبل بطريرك الاسكندرية، إلى الذين سوف يتبرعون، وإنني أستحلفكم بالرب أن لاتعطوا شيئاً إلى هذا الراهب، لأنه كما ترون منشق، وهرطقي، وغير مؤمن، وهو لايجوز السماح له بالدخول إلى كنيستنا، وأن لايكون حاضراً أثناء صلواتنا، لأنه مرتد.

وثانيا: لاتعطوا مالاً من أجل ترميم كنيسة القديسة كاترين، حتى وإن كانت مهددة بالسقوط، مع أنها غير مهددة بالسقوط، بل هي سليمة تماماً، وسبب هذا ويالالأسف تلك الكنيسة ليست كاثوليكية، بل هرطقية، وليس فيها مكان للاتين التابعين للكنيسة اللاتينية الرومانية، الموجودين في ذلك المكان، كما لايوجد فيها مكان لإقامة قداس، أو لإقامة الصلوات، لابل حتى عندما نرجوهم، لايسمحون لابقراءة ولابغناء الصلوات في تلك الكنيسة، لأنهم يعدون الكنيسة الرومانية محرومة،. ولذلك دعونا نسمح لها بالانهيار.

وثالثا: إن السيد البطريرك، عندما يقدم الغفرانات من أجل ترميم هذه الكنيسة، هو إما قد أسيء تزويده بالمعلومات، أو أمراً آخر أنا أميل للأخذ به، وهو أن الرسالة مزيفة لأن رهبان ذلك الدير لديهم راعي أو بطريرك في الشرق، هم له مطيعون، وهم لايعبأون بالمقيم في روما، الذي لقبه فقط« بطريرك الاسكندرية»، علما بأنه لم ير الاسكندرية قط، كما أنه ربما ليست لديه أية نية،برؤيتها، وليس لديه هناك من يطيع أوامره، ويعرف هؤلاء الرهبان بأن الكنيسة الرومانية تقدم أساقفة حتى إلى الأماكن التي ليس فيها أتباع، ولذلك يفرون من أماكنهم، ويأتون

إلى روما، ويعترفون برجل كأسقف لهم، ويطلبون عونه من أجل منفعتهم، مع أنهم لايظهرون له أي تشريف، أو يطيعونه من أجل خاطر المسيح، ويعطونه رسائل مزيفة، أو كتبت من دون عناية، من أجل أخذ أموالنا لاستخدامها من قبل الهراطقة.

ورابعا: إن هذا الراهب الواقف هنا، ويطلب منكم ذهباً وفضة لالشيء، لأنني أعرف بالتجربة بأنه هو نفسه في مكانه لن يفتح واحداً من أبواب كنيسته لنا مقابل لاشيء، ولن يعطينا شربة ماء بارد، ولن يعيرنا Celindrium(؟)، ولن يمنحنا قطعة من الجلد لتصليح أحذيتنا، وأيضاً ولاقطعة من قماش قديم، لابل أكثر من ذلك توجب علينا شراء عصينا منهم، أو أن ندفع لاستئجار عصا، يأخذها كل انسان عندما يتسلق الجبل المقدس، وأنا لم أذكر هذا فيما دونته من قبل، لكن هذا ماوقع بالفعل، فعندما كان الحجاج على وشك الصعود إلى الجبل المقدس، جاء الرهبان مع عصي، إما باعوهم لنا، أو أعاروها إياهم تأجيراً، إنما لم يقدموهم لنا مقابل لاشيء ولابشكل من الأشكال، وهكذا وقفوا بالاتجاه المعاكس، ودمروا روح كلمات:« بكرم أنت تلقيت، وبكرم أنت أعطيت».

وعندما فرغت من حديثي على هذه الصورة، وانتهى القداس، تفرق الناس، ولم يعطوا ذلك الراهب شيئاً، لابل أكثر من هذا، لقد أنذر بأن من الأفضل له مغادرة المدينة بأسرع وقت يستطيعه، وذلك قبل أن يجري تفتيشه واستجوابه، وفي الحقيقة إنني أعتقد أنه إذا لم يجمع شيئاً من المال، لن يستطيع قط الوصول إلى جبل سيناء، ولقد سمعت فيما بعد أن ماكسيميليان امبراطور وملك الرومان التقي جداً، وكذلك ملك هنغاريا، اللذان تولى الرسول المتقدم الذكر خدمتهما قد أعطياه مبلغاً كبيراً من المال، لكن ذلك كله كان عبثاً، لأنهما لم يلتزما بالحكمة القائلة:« انظر جيداً واعرف ماهي أخلاق الرجل الذي أنت معطيه»،

وفي الحقيقة هذا المكان مقدس، وثمين لدى المسيحيين، وهذا مايعتقدونه حوله، ولذلك لايطرحون أسئلة حول أخلاق الناس الذين يسكنون هناك، والذين لايعدون شيئاً بين الناس، هذا(٦٢) وإنه بالنسبة للغفرانات الممنوحة من قبل الآباء الرسوليين باسم الرب إلى تلك الكنيسة هي ذات تاريخ قديم، وقد منحت عندما كانت الكنيسة ماتزال تحت سلطة البابا، وهم مايزالون يتمتعون بسلطانهم حتى هذا اليوم لصالح الحجاج الذين يحصلون عليهم، حتى وإن زاروا المكان من دون اعطاء أي منح وتقديمات هناك، ثم إن الحجاج لايفعلون فعلاً صالحاً عندما يودون الحصول على الغفرانات فيقدمون أعطيات إلى استخدامات الهراطقة.

مغادرة الحجاج وسفرهم من جبل سيناء، والاضطرابات والابتزازات والازعاجات التي عانوا منها قبل أن يتمكنوا من مغادرة الدير إلى الصحراء ثانية.

وفي اليوم السابع والعشرين استيقظنا قبل ضوء النهار، وأقمنا قداسات في بيعتنا، بعدها نزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين، وحصلنا على غفرانات(++) في بيعة العذراء المباركة في العليقة، وعند ضريح القديسة كاترين، وبعدما قبلنا الأماكن المقدسة حصلنا على إذن من القديسة كاترين للعودة إلى أوطاننا، وصعدنا إلى موضعنا وقمنا بالإعدادات لمغادرتنا، وبصعوبة استطعنا اقناع الرهبان بالسماح لنا بتعبئة روايانا من بئر الدير، لأنه كان في الساحة بئر كبير وعميق جداً، مع مياه تجري فيه من القعر، ولم تكن مياه مطر، وهو شيء لم أره في أي جزء من الشرق، إلاّ هناك، وهم يقولون بأن موسى قد حفر هذا البئر، وأنه بفضل صلواته تدفق الماء فيه لانعاش بني اسرائيل، وكان موسى قد تعلم فن حفر الآبار هذا في مصر، لأن بليني حدثنا في كتابه الأول من« تاريخه الطبيعي» بأن دانوس Danaus ابن بلوس Belus كان أول من قام

بحفر آبار بمصر، وأنه عندما أبحر إلى بلاد الاغريق، عمل هناك الشيء نفسه، ومن هناك انتشرت معرفة هذا الشيء في المناطق الأخرى.

وعندما رأى البداة بأننا نقوم بالاستعداد للمغادرة، أرسل مقدمهم خادماً إلينا، حذرنا بوجوب عدم التفكير بمغادرة المكان الذي كنا فيه، من دون أن ندفع له حقوقه أولاً، وهكذا حدث بعد كثير من المناقشات أن أعطيناه بعض الدوقيات، وأملنا لذلك أننا أصبحنا أحراراً، وانتظرنا الآن قدوم سائقي جمالنا، الذي تأخروا كثيراً عن القدوم إلينا، وأخيراً جاء واحد وقال بأن الجمال كانت في أيدي رجال مسلحين، لن يتركوهم من دون دفع خفارة لهم، وبناء عليه عقدنا اتفاقاً معهم، وحررنا جمالنا منهم مقابل مال، وجاء سائقو الحمير أيضاً وأخبرونا بأن حميرهم محبوسة من قبل المسلمين، وأن علينا أن ندفع إليهم مالاً من أجل تخليصهم، ولذلك ظلت حوافظ نقودنا مفتوحة باستمرار، لأننا كنا مرغمين على الدفع حتى ننجو من هذه الاضطرابات، وفي الوقت نفسه بعث إلينا راعي الدير رسالة يشتكي فيها بأن واحداً منا قطع شظية من تابوت القديسة كاترين، بأداة معدنية، وإذا لم نقم على الفور بإرجاعها عن طواعية، سوف نرغم بالحال على فعل ذلك من قبل البداة العرب، الذي سوف يضع القضية بين أيديهم.

وعندما سمعنا هذا بتنا خائفين خوفاً شديداً، علاوة على ذلك وجدنا التابوت مشوهاً بالحقيقة، لكن مامن واحد منا اعترف بأنه فعل هذا الشيء، ونظر كل واحد منا إلى جاره، ولعن الذي فعل ذلك، ومع أن كل واحد منا رجا الآخر وقال بأن المجرم ينبغي أن لايخجل من الاعتراف، وينبغي أن يعيد القطعة المكسورة ثانية، وأعلنا جميعاً بأننا سوف نقف إلى جانبه، وسوف ندفع كل ماتوجب عليه دفعه، ومع ذلك مامن أحد اعترف بذلك، وقال كالينوس أخيراً، إن على المجرم أن يعطيه القطعة المكسورة من الحجارة بشكل سري، وهو سوف ينهي

القضية بهدوء ودونما إعلان، وهذا ماكان، وأنا حتى هذا اليوم لم أعرف من الذي كان المجرم من بيننا.

ولقد تحملنا كثيراً الاضطرابات والخزي خلال حجنا هذا كله، بسبب الرغبة الحمقاء لبعض من جماعتنا بالحصول على قطع مقطوعة من الأماكن المقدسة، وهذا ماكنت قد تحدثت عنه من قبل، وعندما جرت تسوية هذه المشكلة، جاء رهبان الدير والموظفين وسألوا من دون حياء مالاً كوداع، أو هدية مغادرة، وهو أيضاً ماأعطيناهم إياه، مع أنهم لم يستحقوا ذلك، ثم جاء راعي الدير بشخصه ذاتيا، وكان رجلاً قد تقدم قليلاً بالسن، وقوياً وعاقلاً، وقد طلب منا اصطحاب أربعة جمال محملة بالفواكه، لترتحل معنا إلى مصر، لأنه في كل سنة ، وفي مثل هذا الموسم، يرسل راعي الدير فواكه إلى السلطان، ملك مصر، وتوضع هذه الفواكه في صناديق خشبية، وهي تجمع من قفار سيناء وحوريب، ويقدر السلطان هذه الهدية تقديراً عظيماً، لأن الفواكه قد نمت في تلك البقعة المقدسة، ويقوم بتوزيعها بين أعظم أعيان مصر، الذين يتسلمون تلك الفاكهة على أنها شيء مقدس أرسل إليهم من السماء، ولذلك أخذنا تلك الجمال الأربعة بصحبتنا، ومن أجل وصف للحدائق في القفار، حيث تنمو هذه الفواكه انظر ماذكرناه من قبل ص١٤١٠.

وأخيراً عندما جرى اعداد كل شيء بسلام، وجرى الدفع إلى جميع الرجال، خشينا من أن يقوم البداة العرب بعد مغادرتنا للدير باللحاق بنا وإنزال الأذى بنا في القفار، لذلك توجهنا مع كالينوس إلى المسجد، حيث كان مقدم البداة العرب، واستدعيناه إلينا، ورجوناه أن لانتعرض للاضطراب من قبل رجاله عندما نصير خارج الدير، وقد وعدنا بأننا لن نعاني من أي أذى على أيدي قومه، وقال بأننا إذا مارغبنا بأن نكون سالمين تماماً، فلسوف يرسل بعضاً من عبيده معنا لسفر ثلاثة أيام أو أربعة خلال القفار لحمايتنا، ولقد كنا راضين بهذا الجواب، وتركناه

ونحن متحررين من الخوف، وقد أعاقت كل المشاكل المتقدمة الذكر مغادرتنا حتى منتصف النهار، وقمنا الآن تحت الحر الكامل للشمس بتحميل جمالنا مع كثير من التعب، ووسط مخاصمات كبيرة، لأن سائقي الجمال ألقوا روايا الماء التي ملأناها ماء، وقمنا نحن من جانبنا بوضعهم مجدداً، لكنهم رموهم، ووصل بنا الحال إلى الضراب، وأزعجنا بعضنا بعضاً بحركات غاضبة، وجاء أخيراً بعض البداة العرب وصالحونا على شرط أن ندفع كراءً جديداً إلى سائقي الجمال مقابل حمل روايا الماء وفعلنا ذلك، ولوفعلناه من البداية لماكان ثار أدنى خلاف.

وتمّ أخيراً تحميل جمالنا، وغادرنا الدير، لكن مالبث البداة العرب أن جاءوا يسعون خلفنا، وهم يحملون حصيراً وحقيبة، كان سائقو جمالنا قد تركوها عن قصد، ولذلك أرغم الحاج الذي عادت الحصير إليه على شرائها من البداة العرب، وعندما حصل على الحصير رفض سائق الجمل وضعها على جمله مالم يتم دفع بعض الفلوس له، وبهذا تعرضنا للمضايقة والأذى تماماً، وغادرنا الدير الآن، وسافرنا خلال الوادي نفسه الذي جئنا عبره، وذلك حيث عبد بنو اسرائيل العجل الذهبي، وسرنا بخطوات بطيئة لمدة أربع ساعات، ونصبنا في المساء خيمنا في مكان دعاه البداة العرب باسم Wachya ، ووجدنا هنا مصاعب في الحصول على مايكفي من العصي للنار من أجل طهي طعامنا، ونصب البداة العرب الذين كانوا مع الجمال التي حملت الفواكه خيمهم في وسطنا، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

الرحلة

وفي اليوم الثامن والعشرين، الذي كان الأحد الثامن عشر بعد التثليث، استيقظنا ثلاث ساعات قبل ضوء النهار، وحملنا جمالنا، وغادرنا مكان Wachya، وعبرنا خلال ذلك الممر الضيق، الذي كنت قد تحدثت عنه من قبل، وأدرنا ظهورنا إلى أعلى جبال سيناء، وعدنا

ثانيـة إلى Machera ، حيث اعتـاد مـوسى على رعي قطعـان يثـرو، وعلى هذا السهـل المنبسط ابتعـدنـا عن الطريـق الذي كنا قـد جئنا عليه[٦٣] أثناء قدومنا، ولقد غـادرناه وتركناه على الجهة اليمنى، عندما استدرنا نحـو اليسار، ونزلنا مجرى سيل بلا ممرات، وهـو مع ذلك كان مكانا جميـلاً، لأنه كـان مليئاً بأشجار التمـر الهندي وشجيرات أخـرى، وعندمـا كانت الجمال والحمير عـابرة قطفـوا الأوراق مع الندى عليهم، من الأغصـانِ الصغيرة، وفي الـوقت نفسـه مصصنا النـدى من على الأوراق، ذلك أنه كـان حلواً مثل السكر أو العسل، ومنه جرى إعـداد المن اللذيذ والحلو الطعمـة، وفي حـوالي الظهيرة وصلنا من نهاية مجرى السيل ذاك إلى الوادي حيث كنا قـد اصطـدمنا مع البـداة العـرب، قبل ثمانيـة أيام مضـت، وأثناء عبـورنا لمجـرى السيل هـذا، فجأة قـدم حمار وحشي مسرعـاً من الأعـالي، وكـان يجري نحـونا بسرعـة كبيرة، وكأنه سوف يندفـع في وسط جماعتنا، ونحن الذين لم نر قط من قبل حماراً من هذا النوع، لم نظن أنـه أي شيء سـوى حمار أهلي، وكنا مشـدوهين تجاه سرعتـه وجماله، وقـد ركض وهو ينظـر نحـو حميرنا، وأتصـور أنه كـان يريدهـم، متصوراً أنهم سوف يتجنبون مرافقة الانسان، ولحقه واحد من البـداة العـرب بحـذر، وسـار على محاذاته، مع قـوس وسهـام ناوياً الاطلاق عليه، وهربت الدابة قبل أن تكون في مـدى الرماية، ومع ذلك سارت ببطء مبتعدة عن مطاردها، وكأنها كـانت تريد استدراج الرجل ليدخل في سباق معها، وأخيراً عندما صـار العربي قريباً من الحمار، فوّق قـوسه ورمى سهماً جـرح به الدابة، فـرمت على الفـور السهم، وذهبت ماضية عبر المكان المنحدر، وجلب لنا الشاب السهم وكان هناك دم على رأسـه، وبعـد مضي وقت قصير رأينا خمسـة حمير وحشيـة مع بعضهم يركضون بين الصخور.

ولدى الذين كتبـوا عن التاريخ الطبيعي الكثير ليقولـونه حول الحمار

الوحشي، والأخـدر أو حمار الوحش، هو دابة جميلة رشيقـة، لها رأس أصغـر من الحمير العـامة، وهو حـر، وغير مدجن، وحيـوان مفعم بالحيوية يسكن في المناطق الجبلية، والأماكن القاحلة، وهو سريع جداً، حيث يمكنه أن يسبق الدب، والـذئب، والأسـد، ولهذا السبب عـدّ من قبل القـدماء بين الأرباب الرئيسيـة، وليس بين الـ Diomedes كما أخبرنا يوسيبيوس في مصنفه De Evangelica Praeparatione— الكتـاب الخامس، الفصل الثـالث عشر، ويمكنـه أن يتحمل العطش لوقت طويل، أطول من المخلوقـات الأخـرى، وعندما يكون غير قـادر على الوصـول إلى الماء، يعيش على الريح، حيث يقف فـوق الصخـور ويستنشق الهواء، وهذا مـاورد في سفـر إرميـا في قـوله:« ووقف حمار الوحش على الهضـاب يستنشق الريح مثل التنين» [ارميا:١٤/ ٦] وجـاء في المزامير قـــــــــــولـه:« ويطفـيء الحمار الــوحــش عطشه»(المزمـور:١٠٤/ ١١)..... وينهق الحمار الوحش اثنتي عشرة مرة في النهار واثنتي عشرة مـرة في الليل، وبناء عليه يستطيع الذين يسكنون في القفار تمييز ساعـات الليل.... والبغال السريعة هي التي تلد من حمار وحش وفـرس، ولكن الأسرع من البغـال هـذه هو الحمار الذي يلد من حمار وحش وأتان مدجنة، والبغـال المولودة لها أثمان مرتفعـة جداً، لأنها تركب من قبل الأمـراء والرجال العظماء، ووصلنا عند غـروب الشمس إلى مجرى سيل منعزل وجـاف، يطلق عليه البـداة العرب اسم Elphat، وهنا أنزلنا الأثقـال من على دوابنا، ونصبنـا خيـامنا، وتمددنا هناك أثناء الليل، وكان المكان جافاً وقـاحلاً إلى حد أننا لم يكن لدينا أمل في العثور على مايكفي من خشب لاشعـال نار، لكن وجدنا مـايكفي لتسخين ماء لصنع فطيرة.

وفي اليـوم التـاسع والعشرين، الذي هو يوم عيـد القـديس ميكائيل، استيقظنا قبل ضوء النهـار، وارتحلنا خلال مجرى السيل نفسـه المهجور،

وهو الذي جئنا عبره من قبل، وعانينا من يوم صعب ومرهق، لأننا عملنا رحلة طويلة فوق أرض سيئة، وليس فوق رمال، كان من الممكن لنا تحملها بصبر، فلقد سرنا فوق غبار، لابل فوق رماد، وعجبنا كثيراً واستغربنا من أين جاءت الكميات الهائلة من الغبار والرماد، التي انتشرت فوق تلك المنطقة، لأنه لم يكن هناك سكان من البشر، ولانار، ولاشيء سوف يحترق، ولقد أجبنا على هذا السؤال كما يلي، وذلك وفقاً للإيمان الكاثوليكي:« مادام الرب قد أرسل اللعنات الموجهة إلى جميع البلدان، إلى هذه الصحراء الحجرية، قد أرسل أيضاً هذه الواحدة أيضاً، أي مامن مطر، أوثلج، أوندى ينبغي أن يسقط هنا، بل أمطار من الغبار والرماد، وهو قد هدد بوجوب سقوط مثل ذلك على الأرض المقدسة، بالشكل نفسه، إذا لم يحافظ الذين يسكنون هناك على وصاياه»، « فالرب سوف يجعل مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك»[التثنية:٢٨/ ٢٤]، فهذا ماعمله الرب لأرض مصر، عندما أخذ موسى وهارون— بناء على أوامره— حفناً من الرماد من الموقد وذراه نحو السماء، فأصبح يغلي وانتشر على شكل بثور على الناس وعلى الحيوانات، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج:٩/ ١٠، وهكذا تصورنا بأن ذلك الجزء من القفار قد أصيب أيضاً بالوباء نفسه مثل مصر، وخشينا أن يتحول إلى بثور مثلما حدث للمصريين، وعلى كل حال حفظنا الرب أصحاء لدى عبورنا خلال تلك الأرض من الرماد.

ووصلنا إلى واد، حيث وجدنا صنماً على شكل طفل سوداني، واقفاً في كهف في الصخر، ويقدم البداة العرب من وقت إلى آخر تقديمات إلى هذا الصنم، وكانوا سيبدون امتنانهم لوأننا قدمنا بعض الفضة، لكننا لم نفعل ذلك، وقطع بعضهم قطعاً من قمصانهم وعلقوها أمام الصنم، وذلك حسبما اعتادوا أن يفعلوا في أماكن اعتقدوا بوجود أية قداسة فيها، وكنا قد رأينا شيئاً من هذا القبيل من قبل، وبالنسبة لهذه العادة

السخيفة بالتعبد بوساطة أثمال من القماش، يمكن للانسان أن يقول بما أن بعض الناس يعتقد أن مامن شيء في الدنيا هو أكثر قيمة ومكانة وقبولاً لدى الرب من جلد المخلوقات الميتة، التي عليها كتب الرب أسراره الأكثر عمقاً، مع نظام العالم كله، إنه مثل هذا، بالمساواة المنطقية الأثمال التي لاقيمة لها من الكتان وقطع القمصان، جديرة بالاحترام، على أساس أن مامن أشياء أدنى قد كتبت عليهم مما كتب على جلود المخلوقات الميتة، لأن جميع الأشياء مقدسة، وانسانية، وسماوية، وارضية، وخالدة، ومتحولة، وحاضرة، ومستقبلية، ومرئية وغير مرئية، وطبيعية، واعجازية، وأشياء ينبغي أن تعتقد، وأشياء يمكن البرهنة عليها، وأشياء منطقية، وأشياء وهمية، وجميع الأشياء الأخرى، من كل من الجيد والسيء، وأشياء مرغوب بها، وأشياء مرفوضة، كلها قد كتبت إما على رق أو ورق، ولعله لهذا السبب يعتقد الكفار بأن هذه الأثمال مقبولة بالنسبة لأربابهم، ولهذا يقدموها لهم.

وسرنا من هذا المكان على طريقنا حتى المساء، وقد نصبنا خيمنا في مكان موحش، يدعوه البداة العرب باسم Effkayl، وعندما استقر بنا الحال بدأنا مجدداً نشعر بالحاجة إلى الماء ونعاني من نقصها، وكان هذا مزعجاً لنا بلا حدود، وقاسياً لايمكن تحمله، ففي ذلك المساء بالكاد امتلكنا من الماء مايكفي لطهي حساء أو المرق لنأكله مع بقسماطنا أو خبزنا، وتفكرنا حول الكميات الوافرة من لحوم الأوز والبط، التي نجدها تقريباً في كل بيت في بلادنا عشية عيد القديس ميكائيل، وبدأنا نتحرق رغبة إلى قدور اللحم، وإلى السفود المليئة باللحم المشوي، وإلى سلال السمك، والمعجنات الساخنة، والذي حدث معنا، كان مثل الذي حدث مع بني اسرائيل في القفار، وذلك عندما تذكروا وفرة الأشياء في مصر، وتشوقوا إلى اللحم، وإلى السمك، وإلى البصل، والثوم والبطيخ(الخروج:١٦/ ٣) وبتفاصيل أكثر في سفر العدد:١١/ ٥، لكن

- ٥٦٦١ -

رغباتنا كانت بلافـائدة، لأن موسى لم يكن معنا ليجلب لنا السلوى من بلدان مـاوراء البحـر، كما جلب لهم، وعلى كل حـال نزل غضب الرب عليهم لأن المزمـور يقـول:« وطعـامهم بعـد في أفـواههم صعـد عليهم غضب الرب وقتلهـم» [المزمــور:٧٨/ ٣١]، وعلى هذا أمضينـا عيـــداً ميكائيليا تعيسـاً، وليلة غير هادئة بسبب الرمـاد، والرياح التي نشرته في الجو.

كيف عانينا بسبب نقص المياه

وفي الثلاثين، أي اليوم الأخير من ايلول، وكان يوم عيد القديس جيروم، غادرنا المكان المتقدم ذكره، بعد منتصف الليل مباشرة، أي أربع ساعات قبل ضوء النهار، وتابعنا سيرنا خلال القفار التي بلا ممرات، مخلفين وراءنا أعلى السلاسل الجبلية والداخلية منها، وعندما أضاء النهار وصلنا إلى قفر راماثيم، أي إلى المكان الذي خيمنا به في اليوم التاسع عشر، عند سفح منطقة Rachkaym ، حيث نزلنا إلى جانب الهضبة المنحدرة، كما سلف وتحدثنا من قبل، ولم نسر فوق ذلك المكان المنحدر ثانية إلى الجبال، بل تركنا المنطقة التلية على يميننا، ومضينا نازلين نحو البحر الأحمر، فهنا ابتعدنا عن الطريق الذي قدمنا عبره، وانعطفنا مبتعدين عنه نحو مصر، وكنا في ذلك الحين نعاني من الحاجة إلى الماء، وتذمرنا من أجل الماء وقلنا لكالينوس، الذي كان موسانا:« أعطنا ماء حتى نشرب» وذلك مثلما قال اليهود لموسى(الخروج:١٧/ ٢)، وأجابنا كالينوس بأننا إذا أردنا الماء، يتوجب علينا الانحراف قليلاً عن الطريق الصحيح، بعيدين عن الجمال الذين لايمكن اقتيادهم فوق تلك المنطقة التي بلاممرات، فقلنا: ينبغي أن نمتلك ماء، لأننا خلال الطريق كله من سيناء إلى هذا المكان لم نر الماء، وقد أفرغنا تقريباً روايانا، وبناء عليه أخبر واحد من البداة العرب، الذين التحقوا بنا في القفار، كالينوس بأنه يعرف مكانا فيه كثيراً من الآبار، وأنه سيقودنا إلى هناك، وبناء عليه تركنا الجمال وكالينوس يذهبون مباشرة نحو البحر الأحمر، وتبعنا العربي في المنطقة الأخرى، ووصلنا معه إلى منطقة قفر أي إلى مجرى سيل صخري، مغلق من على الجانبين بجدران عالية من الصخور، والذي خلاله تجري المياه في موسمها بشدة عالية إلى درجة أنها تنقل الصخور الكبيرة، وسرنا مسافة طويلة خلال مجرى السيل، هذا، وبدأنا نصبح خائفين، لأن المكان كان

صحـراء موحشــة، وتحدث أحدنا مع الآخـر، وعجبنا من أنفسنا، كيف أننا حتى نحصل على الماء تركنا كل أغراضنا على الجمال، وتركنا أدلاءنا، وسائقي حميرنا، وسائقي جمالنا، والتحقنـا برجل فرد— هو الأغرب بين الغـرباء— وكنا نلحق به فـوق ذلك القفـر الذي بلا ممرات، ومع ذلك اعتقدنا جميعـاً بأن ذلك العربي كان انسانا جيـداً، لأنه بذل جهده في كل سبيل حتى يشجعنا، وركض بنشـاط أمامنا، مشيراً إلى الصخور العـالية وإلى مجرى السيل الجاف الذي أمامنا، وكأنه هو شخصياً يبحث هناك.

وبعدمـا سرنا مسافة طويلة، تسلقنا على الصخـور وخرجنا من مجرى السيل، ووصلنا إلى مكان كــان مليئاً بالنبــاتات والحشــائش الخضراء، وبعـدمـا اجتزنا هـذا المكان وصلنا إلى سهل رملي، حيث رأينا كثيراً من علامـات سير الناس والجمال والحمير مرسـومة على الرمـال، وكان هذا السهل، مليئاً بالشجيرات وبأشجار الفاكهـة، وكان فيه كثيراً من الآبار والحفر المليئة بالماء، وعندما رأيناهم قفزنا من على ظهور حميرنا، وسررنا لدى عثورنا على الماء، وركضنا نحو الحفـرة الأقرب، وأنزلنا فيها الدلاء المصنوع من الجلد، الـذي حمله عـربينا معـه، ونضحنـا منهـا بعض الماء الكثيف الموحل، وعندمـا أردنا أن نشرب منه، تذوقناه فـوجـدناه مـالحاً جـداً، وكأنه قد نضح من البحـر، ولذلك حتى حميرنا لم تستطع الشرب منه، إنما عندمـا نظرنا ناقدين نحـو دليلنا العـربي وكأننا نقول بأنه مـزح معنا، وجلبنا إلى هنـا لالشيء، أشـار إلينـا بوجـوب تذوق مــاء الآبار الأخرى أيضـاً، والبحث عن ماء عذب، وهكذا ذهبنا إلى حفـرة أخرى ونضحنا بعض الماء، وقد وجدناه بلا طعـم، ومع ذلك كان أقل ملوحة من الأول، وهكذا طفنا حول جميع الحفر، وقد وجدنا ماء لدوابنا، لكننا لم نجـد ماء لأنفسنا في تلك الآبار، وبنـاء عليه بدأ يحفـر ويرمي التراب بيديه، وكـان ذلك في حفرة جافـة كان قد وجـدها، وهي لم تكن عميقة جـداً، وبعـدمــا حفـرنا لبعض الوقت، بدأ الماء يتـدفـق، ومع أنه كــان

موحلاً، لكنه كان عذباً.

وملأنا بهذا الماء روايانا وأجوافنا، دون أن نعبأ بوحولته، فكل انسان يعرف هذا السهل يفعل هذا، ويحفر بئراً لنفسه، لأن الماء في الأسفل عذباً، لكن عندما تشرق الشمس في الآبار، تجعل الماء مالحاً، ولذلك وجدنا ماء مالحاً في الآبار المحفورة فقط، ولو أن هذه الآبار حفرت عميقاً، وطويت، وغطيت من حرارة الشمس، أعتقد سيكون هناك ماء جيداً للشرب في ذلك المكان، وفي الحقيقة إنه لأمر عجيب كيف توفر الماء في تلك التربة الرملية، وعجبنا من نبتون، رب البحر، الذي بعدما أطلق سراح ابنة دانوس Danaus من ساطير في القفار، واغتصبها هناك غرس رمحه الثلاثي الشعب فوق الأرض في المكان الذي تعاشر فيه مع الفتاة، فتفجر نبع، لكننا هنا لم يكن معنا لارمح ثلاثي الشعب أو مسحاة، بل عملنا نبعاً بأيدينا، ووجد في هذا المكان ينابيع مالحة جداً، مثل مياه نبع اسمه Exampeus الذي هو موجود في بلاد -Ca liopades (؟)، ويرسل هذا النبع مياهاً مالحة إلى حد أنها حولت النهر التي تجري فيه إلى نهر مالح تماماً، ومن جهة أخرى هناك أيضاً نبع اسمه أليس Alis ، حلو جداً لتشرب منه حتى أن الشارب منه لايعبأ بمشروب آخر، ومثل هذا، وجدنا على هذه البقعة مياهاً حلوه ومالحه معا، هذا ورأيت في بعض الأماكن من بلادنا صفاتاً أكثر عجباً في ماء واحد هو نفسه، ففوق كوبلنز Coblenz قرب بلدة ناسو Nassau هناك يتدفق من بين الصخر ماء حار مالح، ومن الجروف وشعاب الصخرة نفسها تجري مياه أشد حرارة وأكثر ملوحة، ومع ذلك أمكن العثور على مياه عذبه في المكان نفسه، وكذلك على مياه مالحة بارده، وهذه المياه كلها تنبع من صخرة واحدة، واسم هذا المكان«مياه إمس Ems » وهناك أماكن إقامة للذين يرغبون بالاستحمام هناك، لأن المياه طبية.

وبعـدمـا سقينا أنفسنا، وسقينـا دوابنا، غـادرنا مسرعين، ووصلنا إلى مجرى سيل آخر شـاسع، وبعدمـا سرنا على طوله مسافـة طويلة، تسلقنا واحداً من طرفيـه، فرأينا جمالنا تسير بعيـداً عنا، ولذلك أسرعنا بخطانا ولحقنا بهم، وفي الوقت الذي وصلنا فيـه إليهم سخن الماء الذي كان في جرارنا، وبات غير قـابل للاستخدام، لأن ذلك الماء ماأن يشعـر بحرارة الشمس حتى يميل لأن يصبح مـالحاً، وسـافـرنا في ذلك اليـوم في ظل شمس حارة جـداً، فوق مجاري سيول مـدهشة بقحطها وبصحـراويتها، ووصلنا عنـد المسـاء إلى مجرى سيـل اسمـه لديهم Laurara ونصبنا خيـامنا على جـانب، وعلى مقـربة من هضبـة حجـرية، يشرف عليهـا نتوءات صخـرية، وهنا حملت جماعتنا فرشنا ووضعـوهم في كهف كبير، حيث أقررنا فيه أنفسنا، لأننا كـرهنا خيامنا، وبتنا غير راغبين بالجلوس فيها مـالم نكن مرغمين على ذلك، لأننا كنا عندما نرقد فيهـا نبدو وكأننا مسجـونين واحـدنا إلى جـانب الآخـر، وأصبح كـل منا مغطى بقمل الآخـر، وكـانت جميع الصخـور، والحجـارة، والأرض في هذا المكان مشكلة من تربة في غـايـة البيـاض، ولذلك انتشر علينا الغبـار الأبيض، وبتنا وكأننا في طـاحـون قمح حيث يتطاير الطحين هناك، وعنـدمـا كنا نجمع عصياً ونطبخ، قدم أدلاؤنا والبداة العـرب، وتحلقوا حول خيامنا يلتمسـون الحصول على البقسماط، والبيض، وأشيـاء مماثلة للأكل، ومع ذلك أكلوا قليلاً في تلك الأمسية، وسبب ذلك سوف أوضحه فيما يلي.

الفصل الثامن
ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيلول وأشياء أخرى كثيرة

قبل ساعتين من انبلاج فجر اليوم الأول من شهر تشرين أول، استيقظ المسلمون والبداة العرب— وكانوا جميعاً من أتباع ديانة محمدﷺ— الذين كانوا معنا وأشعلوا ناراً وشموعاً، وبدأوا يأكلون، وكانوا مسرورين، يضحكون ويغنون، وصاروا مرحين أكثر مما اعتادوه، وأيقظونا بصراخهم، ودعونا لنشاركهم في مرحهم، وعندما سألناهم عن سبب هذا الاحتفال الكبير، أخبرونا أنه من الصباح المقبل يبدأ صومهم، ولذلك أكلوا وكانوا مسرورين قبل الفجر، ذلك أنهم هكذا يلتزمون بالصوم الذي فرضه عليهم محمدﷺ في قرآنه، ذلك أنهم لايصومون خلال السنة كلها، إلاّ في شهر تشرين أول(كذا) ففيه يصومون كل يوم من قبيل الفجر، وذلك عندما يكون هناك مايكفي من ضوء لتبيان الخيط الأسود من الخيط الأبيض، وهم يصومون حتى غياب الشمس، وخلال النهار هم لايأكلون ولايشربون، ولايتحدثون مع زوجاتهم، بل يرتاحون، وينامون، ويمضون النهار من دون عمل، لكن ماأن تغيب الشمس، حتى ينهضون، ويمدون الموائد، ويأكلون ويشربون، لكن ليس دفعة واحدة، بل في الأوقات التي يرغبون بها، ويصرخون طوال الليل ويغنون، ويسعون إلى هنا وهناك، وفي كل ليلة من ليالي الصيام يصبحون مجانين هكذا، ويسلون أنفسهم مع زوجاتهم، والذين لايستطيعون السهر طوال الليل، يتمددون للنوم، لكنهم يستيقظون قبل الفجر بساعتين للأكل، ويتوقفون عن الأكل عندما يرون الفجر.

وفي المدن، يسعى— بناء عليه— رجال دينهم في الشوارع قبل

ســـاعتين من الفجــر ويضربون بقطع مـن الخشب بعضهـــا ببعض، ويوقظون الناس حتى يأكلون ويمتعون أنفسهم، ولكم هو صيام غريب وغير طبيعي، مناسب فقط للناس الجسـديين والشهـوانيين، وهو بعيـد، بعيد عنا الـذي يدعو إلى صيام مـن هذا النوع، فبعد انتهـاء الصوم أثناء النهـار، يمضـون الليل في أعمال الغـريزه، والأكل والشرب، والتسليـة، وكأن هذا الصيام— كما يبـدو— قد عمل لغـرض واحد، هو أن الناس بعـد انتهـــائـه ينغمسـون بتلبيـة رغبـاتهم المنحطة مع كثير من السرور والأكل، ولقد انزعجنا كثيراً أثنـاء الليل بصراخهم طوال الشهر، حسبما سنصف فيما يلي.

وعندمـا اقترب النهار، وأشبعوا أنفسهم، وكـانوا سيقومـون بتحميل الجمال، وجدوا أن واحداً من جمالهم قـد سرق، لأن اللصوص يتجولون خلال القفـار، ويقفون في النهار فـوق رؤوس صخور عاليـة، ويراقبون جماعات الناس العابرة، ليروا أين سيقفون لإمضاء الليل، وعندما يكون الجميع نياماً، يندس اللصوص بينهم بكل هدوء، ويفكون جمالاً أو حميراً من مقاودهم، ويأخذون حقائب ومزاود إذا استطاعوا.

وغضب سـائقو الجمال تجاه هذا، وحمل اثنان منهم رمـاحـاً، وخرجـا يركضـــان في المنطقـة للبحث عن الجمل، وفي تلك الأثناء قمنـا بوضع حمولة الجمل المفقود على ظهـر جمل آخر، وانطلقنا من Laurara وسرنا فـوق طريق رملي، وبعـد مضي ثلاث سـاعـات رجع سـائقـا جمالنا مع الجمل المفقود، وكانت ثيابهما ملطخة بالدمـاء، وكانت الدماء تتقاطر من رمحيهما، فقد وجـدا اللصين مع الجمل في كهف، وقد قـادهما إليه تعقب آثار سير الجمل واللصين، وقـد قتـلا واحـداً منهما بالرمح، وقـد هرب الآخـر ونجا من الموت، وهذا هو الشيء نفسـه الذي حدثنا به فـرجيل بأنه حـدث إلى هرقل، فبينما كـان هرقل يحتفل مع ايفـاندر Evander، وضع ثيرانه بين قطيع ايفاندر، وكان يسكن ليس بعيداً عن ذلك المكان،

في كهف عفريت له حجم كبير، اسمه كاكوس Cacus ابن فولكان، كان ينفث النار من فمه، وكان قد أزعج المنطقة كلها بسرقاته ولصوصيته، وخرج هذا العفريت من كهفه أثناء الليل، وجر ثيران هرقل إلى كهفه من ذيولهم، وعندما رأى هرقل بأن بعض ثيرانه قد سرقت، ولم يستطع أن يخمن إلى أين ذهبوا، رأى وقتها آثار طبعات أقدام اللص من موضع القطيع إلى الكهف، وبناء عليه ركض هرقل، وأخرجه من الكهف، وقتله بعكازه، وساق ثيرانه عائداً بهم.

وفي الوقت نفسه— أثناء متابعتنا سيرنا على طريقنا تجاوزنا الجبال ووصلنا إلى أرض مدين، على شاطىء البحر الأحمر، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن مياهها، وعرفت هذه المنطقة باسم مدين صدوراً عن اسم مدينة مدين، التي بنيت من قبل واحد من أبناء ابراهيم من قطورة، وكان اسمه مدين،(التكوين:٢٥/ ٢)، وقد سماها باسمه، والتجار الأوائل الذين قرأنا عنهم، أي الذين اشتروا يوسف(التكوين:٣٧/ ٢٨) كانوا من هذه المدينة، ومن هذه المدينة كان يثرو، الكاهن الرئيس لمدين وملكها، الذي كنت قد أشرت إليه من قبل، وهو الذي إليه هرب موسى من مصر والتجأ، وقد تزوج من ابنته(الخروج:٢).

ولدى متابعتنا سيرنا، وصلنا إلى نهاية القفار التي بلاممرات، ومنها إلى الطريق السلطاني العام الذي يقود من مصر إلى فلسطين وغزة، وهو الذي كنا قد غادرناه على مقربة من غزة، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وذلك عندما دخلنا إلى القفار، فمن ذلك المكان إلى هنا لم يكن لدينا طريقاً نتبعه بل سرنا في النهار وفي الليل نوجه مسارنا بوساطة الشمس، والقمر، والنجوم، وذلك مثلما يفعل الناس في البحر، وكنا مسرورين إلى أبعد الحدود لدى عثورنا على الطريق، وبدا الأمر لنا وكأننا عدنا إلى الدنيا، وفي هذا المكان ينشطر الطريق الذي يقود من مصر إلى طريقين:

الأول منهما يساير شاطىء البحر الكبير إلى فلسطين، ومن هناك إلى

اليهودية والقدس، وعبر هذا الطريق الناس باستمرار يأتون ويذهبون من الأرض المقدسة إلى مصر وبالعكس، ويقود الطريق الآخر من مصر إلى شاطيء البحر الأحمر، فمدين، فالطور، وهو ميناء على البحر الأحمر، تقدم ذكره من قبل، وهكذا سرنا عبر هذا الطريق العام نحو مصر ونحن مسرورين، وكنا فرحين لأننا بذلك عثرنا ثانية على علامات خطوات الرب يسوع، لأنه عبر هذا الطريق جلب يوسف العذراء مريم، والطفل يسوع إلى مصر، بناء على طلب من الملاك،(متى:٢).

ومع حلول المساء وصلنا إلى قفار إيليم، حيث عسكر بنو اسرائيل بعد عبور البحر الأحمر، وحيث كان هناك اثني عشر بئراً من الماء وسبعين شجرة نخيل(الخروج:١٥/ ٢٧) لكن سرنا بعيداً عن المكان الذي كانت فيه الآبار، وانعطفنا جانباً بعيداً عن الطريق العام لمسافة ميل ايطالي واحد، ونصبنا خيمنا في مكان قذر يدعونه Derondon، وكانت الأرض هنا مليئة بالهوام والحشرات وبقملة فرعون، بأعداد لاتحصى، وكنت قد تحدثت عن هذا من قبل، وكنا غاضبين من كالينوس لأنه لم يأمر بنصب الخيام في المكان الذي فيه الآبار، لكنه قدم تسويغاً منطقياً لهذا، قائلاً بأننا كنا ساخنين وعطاشى إلى درجة أننا لو توقفنا إلى جانب الماء، فلن نتوقف عن الشرب حتى نقتل أنفسنا، والسبب الآخر، أنه كان هناك إلى جانب هذه المياه مستنقعات، وفي هذه المستنقعات أعداد لاتحصى من الأفاعي من مختلف الأنواع، وديدان، وثعابين، ولذلك لم يكن موائماً السير إلى جانب المياه، وسبب آخر هو أن البداة العرب من لصوص الصحراء قد اعتادوا على نصب خيامهم إلى جانب المياه، وفي بعض الأحيان يأتون ليلاً إلى الأماكن التي فيها المياه، وإذا ماوجدونا هناك، فلسوف يلحقون بنا البلاء ويسرقوننا، وهناك سبب آخر، هو أنه إلى جانب هذه المياه هناك قرية مليئة بأكثر المدينيين سوءاً، وكان هؤلاء سيزعجوننا بطرق كثيرة، حتى أثناء الليل، وذلك

إذا ماعلموا بأننا نصبنا خيامنا هناك، كما أن هناك سبباً آخر، هو أن الطريق العام الذي يمر قرب الآبار، هو الطريق الذي يسلكه كل من التجار واللصوص من البداة العرب، والمدينيين، وهم يعبرونه أثناء الليل، ويتوجب علينا عدم الانزعاج من قبلهم.

وهكذا قمنا بعدما نصبنا خيامنا، فنزلنا جميعاً مع سائقي حميرنا إلى موضع الآبار، وأشجار النخيل، وملأنا روايانا وجرارنا، وقد عاد بهم سائقو حميرنا إلى الخيام، ذلك أننا مكثنا في تلك البقعة الرائعة، وخلعنا ثيابنا، وتحممنا، لأننا وجدنا كميات هائلة من الماء النقي، والدافىء لنغسل أنفسنا به، وقد كان إلى جانب تلك المياه شجيرات ونباتات، وليس بعيداً عن ذلك القرية، التي كان فيها حشد كبير من أشجار النخيل، وفي الأيام التي عسكر بها بنو اسرائيل في هذا المكان، كان هناك اثني عشر بئراً، وسبعين شجرة نخيل، لكن في هذه الأيام ليس هناك تماما اثني عشر بئراً، لكن هناك كثيراً من ينابيع الماء على جانب الرابية، تتدفق بالمياه بكل اتجاه، كما أنه ليس هناك سبعون شجرة نخيل، بل أكثر بكثير، ومع ذلك فالمكان هو نفسه.

وبسبب تدفق هذه الينابيع بالمياه، إن الذي أعتقده أنه لابد أن احدى الحوريات قد صنعت هذا المكان مشهوراً في تصورات الشعراء، وتتأكد هذه الفكرة بالاسم العربي للمكان الذي هو دورندون Dorindon، ذلك أن دروس Doris كانت ابنة كيولوس Coelus وفستا Vesta التي كانت زوجة أوقيانوس، وأم جميع الحوريات، هذا وأنا لاأعرف نسبة إلى أي من الحوريات تقدس هذا المكان، كما أنني لست متأكداً فيما إذا كان قد تقدس لأنه كان المحطة السادسة لبني اسرائيل أثناء فرارهم من مصر، حسبما جاء في سفر الخروج:١٥/ ٢٧، وسفر العدد:٣٣/ ٩،

وقد مكثنا عند هذه المياه لمدة تزيد على الساعتين، وأنعشنا أنفسنا هناك بشكل كبير، وشربنا واستحمينا، ونظفنا أنفسنا من الهوام، وفي

الوقت نفسه قدمت بعض الفتيات الجميلات مع قطعانهن إلى المياه، وقد وقفن عند واحد من جوانب المياه، وعجبن من وجودنا، ونظرن بتمعن نحـــونا وضحكن، وبـدين كـأنهن يصلين، وأنا لم أنس في هـذا المكان شهـوانية تلـك المرأة المدينية غير المحـدودة التي رافقت واحـداً من بني اسرائيل، على مشهد من موسى ومن جميع الناس، ولاغيرة فيناس الذي ضربهما معا بسكين، ولذلك السبب مات أربعة وعشرون ألفاً من الناس في قفار شطيم(العدد:٢٥)، ولذلك بدا ضحك الفتيـات وحركاتهن أمراً مريباً بالنسبـة لنا، وتظاهرنا وكأننا لم نر ابتساماتهن، ومع ذلك لم نستطع منع بعض الشبـان من الفـرسـان، من ابداء بعض اشـارات الاعجـاب نحوهن، وبما أننا مكثنا وقتـاً طويلاً في هذا المكان، بعث كالينوس بدوياً عربياً، إلينا مع رسالة بوجوب عودتنا إلى خيمنا بكل سرعه، وذهب إلى حد ابداء انزعاجه منا، وبناء عليه عـدنا إلى هناك، ووجدنا طعام عشائنا جـاهزاً، الذي أكلناه بمتعــة غير كبيرة، لأن شربنا للماء قـد أثر علينا، وكأننا قـد شربنا من النبع الأحمر الموجـود في السـودان، والذي يقـولون بأن من يشرب منه يغــدو مجنوناً، وبينما كنـا فـرحين، جلس مسلمــونا وبداتنا، آسفين، وشاحبين، وصامتين، بسبب صومهم اللعين، لكن ماأن غابت الشمـس، عندما طلبنا الراحـة، حتى شرعوا بدورهم، يمـرحون ويغنون ويصرخون، ويقصفون، ويأكلون، ويشربون، ولم يمنحونا راحة طوال الليل تقريباً، وبهذه الضجة كانوا ينفذون أحكام صومهم، ونهضنا في بعض الأحيـان، وخرجنا من خيـامنا، وركضنا نحـوهم، وأجبرناهم بالتهـديد على أن يكونوا صـــامتين، وفي بعض الأحيـان، عندمـا كـانوا يخبزون معجناتهم في الرماد، بقينا معهم، ونظرنا إلى حماقاتهم.

رحلة خلال القفار ورعب الحجاج

استيقظنا مبكرين في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول، لكننا غادرنا متأخرين، بسبـب فقدان ثلاثة جمال، خيل إلينا أنهم سرقـوا، لكن باتباع

آثارهم، تمّ العثور عليهم وهم يرعون في البرية، وقد أعيدوا بعد شروق الشمس، وهكذا حملنا دوابنا، وغادرنا ايليم، وسرنا عبر الطريق العام، فوق حقول واسعة نزولاً باتجاه البحر الأحمر، وخلفنا جاء بعض الرجال الآخرين مع جمال، وكانوا يسيرون على الطريق القادم من الطور، وخشينا من أن يكونوا لصوصاً، لأنهم كانوا مسرعين كثيراً، وسبقونا، وعندما صاروا بقربنا، رأينا بأن جمالهم كانت محملة ببضائع من التوابل، وتوجسنا أن يكون أولئك الناس عائدين إلى البلاط(السلطاني)، وكان قائد القافلة رجلاً مليئاً ووسيماً، وقد ساق جماله في وسطنا، ونظر نحو كل واحد منا بملامح غاضبة، وقال وهو غاضب لكالينوس:« كيف تتجرأ، وأنت مسلم، على قيادة فرنجة خلال بلاد مولانا السلطان، وبذلك هم يزحفون مثل رجال عسكريين على طول الطريق السلطاني العام»؟ وقد أجابه كالينوس باحترام عميق:« هؤلاء الرجال هم حجاج، وجاءوا إلى هنا لزيارة الأماكن المقدسة في بلادنا، وهم لايرغبون بايذاء، أو مهاجمة، أو الاعتداء على أي انسان، لكن بما أنهم سمعوا في غزة— أو بالحري في القدس— بأن بعض الأفراد الأشرار يتجولون في القفار، وهم في كل مكان يغامرون دونما اقامة تقدير لأمان مولانا السلطان، وهم يسيئون معاملةالذين يسافرون خلال الصحراء، حتى وإن كانوا من أعيان القاهرة، وبما أن حجاجنا لديهم روح الرجولة، فقد التمسوا إذنا من ترجماننا بحمل السلاح، من أجل أن يتمكنوا هم أنفسهم من صد وطرد أي واحد يهاجمهم، ويخرق الأمان الذي منحهم اياه لطف مولانا السلطان، وهذا هو السبب في سيرهم وهم يتمنطقون بالسيوف، ويحملون القسي»، وعندما سمع هذا الجواب التفت إلى خدمه، وقال بسرور:« انظروا إن هؤلاء الفرنجة أشجع من المصريين، ولو أن مغاربتنا ومسلمينا، أو المماليك، كانوا هكذا شجعاناً، لكانت القفار قد تنظفت منذ وقت طويل من اللصوص ومن قطاع الطرق»، وهكذا كان هذا الرجل راضياً تماماً، وقدم لنا تحيات من

خلال كالينوس، وسأله عن رحلتنا، وعن مواطننا، وعن مسائل أخرى، وفي الوقت نفسه سألناه من خلال كالينوس، عما إذا كانت سفن التجار من الهند قد جاءت مع بضائعها من التوابل والبخور، وعما إذا كانت هذه التوابل سوف يجري حملها إلى الاسكندرية، وكان سبب سؤالنا هذا السؤال، هو أننا أملنا بعبور البحر إلى ايطاليا مع هذه التوابل في السفن من الاسكندرية، وفهم الرجل مباشرة ماكنا نفكر حوله، وأعطانا جواباً كاملاً وكافيا، وقال بأن السفن الايطالية قد وصلت إلى الطور منذ أيام كثيرة مضت، وفي هذه المرة، إن التوابل والبخور المحمولين على ظهور الجمال إلى مصر وجهتهم القاهرة، ولسوف يجري حملهم من القاهرة عبر النيل إلى الاسكندرية، ومن ثم إلى البحر الكبير، لأنه يوجد الآن في الاسكندرية اسطول تجاري من البندقية، وهو الآن جاهز، ولسوف يبحر حالما يجري تحميل السفن، وعندما سمعنا هذا أصبحنا قلقين، وخفنا خوفا شديداً من أن تغادر هذه السفن الاسكندرية قبل وصولنا إلى هناك، لأنه إذا ماحدث هذا فلسوف نرغم على قضاء الشتاء في الاسكندرية، الأمر الذي سوف يكون ممقوتاً كثيراً إلينا، وبعد انتهاء هذا الحديث، ساق الرجل وسبقنا بسرعة، في حين تبعناه نحن وجمالنا على مسافة مناسبة، وبدأنا من تلك الساعة نصبح قلقين، وأقلقنا كالينوس أيضاً وكذلك سائقي جمالنا، وحثثناهم في الوقت المناسب وغير المناسب للسير بشكل أسرع، وللتسرع برحلتهم.

الضياع المرعب جداً، والانحراف جانباً في القفار بالابتعاد عن الطريق الصحيح، الذي قام به حجاج الفئة الثالثة.

وتابعنا سفرنا فوق سهول رملية واسعة، عبرها جاء موسى المقدس من البحر الأحمر وذلك عندما جاء من أرض مصر مع بني اسرائيل كلهم، وفي ساعة مبكرة، وكان مايزال هناك وقتاً كبيرا متبقياً من النهار، أنزلوا الأثقال عن الجمال في مكان اسمه وردكي Wardachii ، وقد

أزعجنا هذا لأننا كنا متعجلين للوصول إلى الاسكندرية، لكن أدلاؤنا لم يعبأ وا بهذا، لأنهم أرادوا أن ينامـوا وأن يرتاحوا قبل غـروب الشمس، حتى يمكنهم البقــاء يقظين وهم يصخبـون طوال الليل، وذلـك وفقـاً لصيـامهم غير المفيد، وعندمـا أردنا أن ننصب خيـامنا في هذا المكان، لم يكن بالامكان تثبيت الأوتاد الخشبية التي تربط بها الحبال، بسبب نعومة الرمـال، ولم يكن قـد بقي معنـا كثيراً من العصي لأن البقيـة كـانوا قـد ضـاعـوا في القفار، ولذلك جلسنا ونحـن منزعجين جدا فـوق الرمـال الجافـة أثناء الحرارة الكاملة للشمس، وأخذنا نتـذمر ضـد أدلاءنا، ومن ذلك المكان كـان هناك مشهد ضم أكـوامـاً من الرمال بيننا وبين البحـر الأحمر، وكـان بامكاننا رؤية البحـر الأحمر بكل وضوح من بينهم، وقـد بدا لنا أنه بالكاد يبعد عنا ميلاً ايطالياً واحـداً، وقال واحد من الفرسان من الفئة الثـالـثـة التي كنت أنا منهـا:« لماذا نجلـس هنا من دون عمل، ونحن نهلك مع حـرارة الشمس،؟ انظروا هناك البحـر الأحمر، ومـازلنا نمتلك كثيراً من النهـار قد بقي لدينـا، أرجوكم، دعـونا ننزل إلى هناك، لإنعاش أنفسنا، ولتمضيـة الوقت»، وعندما قال هذا مامن أحـد أجابه، ولذلك استطرد يقـول:« ألايوجد بينكـم أتباع مـوثقوين يتجـرأون على الذهاب عبر هذا الطريق القصير، معي، لسرورهم ولسروري؟ وأنا على استعداد للقتال من أجلكم، فهلاهناك من يأتي معي ويستحم معي؟ هل أنتم خـائفـون؟»، وعندمـا قلنا له بأن كـالينوس لن يدعنا نذهب، مـالم تذهب الفئتان الأخـريتان أيضاً، ضحـك منا واستخف بنا، وتفوه بكثير من الكلمات رمى بها بالحاجـة إلى صداقتنا الطيبة، ورمـانا بالجبن، وبناء عليـه، نهضنا نحن جميعـاً، الذين كنا في الفئـة الثـالثـة، ونحن الذين كنا وحدنا مسؤولين عن هذه القضيـة، لقد نهضنا مغضبين، وعاودنا ركوب حميرنا، وانطلقنا جميعاً نحـو البحر الأحمر، وعندما شـاهد كالينوس هذا، دعـانا للعـودة بصـوت مرتفع، وبـالطريقة نفسهـا فعل البـداة العـرب، وكـذلك فعل سائقـو الجمال، وسـائقو الحمير، وكـذلك استـدعانا بقيـة

الحجـــاج، ورجــونا حتـى ننتظرهـم، لكننا تظـاهرنا بأننـا لم نسمعهم، وغـادرنا مبتعـدين عنهم، وكنا سبعـة، هـم: المعلم بطرس فيلسخ، وهو فـارس وهو أيضـاً كـان قـائـد الفئة الـدوري، واللورد هنري أوف سكومبيرغ، وكـان فـارسـاً، واللورد كـاسبر أوف سيكولي، وهو رئيس مطارنة، والـراهب فيلكس، الخادم للبقيـة، وجـون طبـاخ السـادة في المجمـوعة الأولى، وخـادم كونت سـولمس، وكان قـد أشعل ناراً لعمل فطيرة، وعندما رآنا نـازلين نحو البحر، أخبر سـادته أن يتوقعـوا عودته حـالاً، فالذي قصـده هو انعـاش نفسـه، والعودة ليطبخ لسـادته طعـام العشاء، لأنه مثل الآخرين، اعتقد بأن البحر يبعد عنا غلوتين أو ثلاثة.

وعندمـا رأى كالينوس أننا كنا مصرين، ولأنه كـان يعرف المخـاطرة التي كنا مقبلين عليهـا، دعـا جميع الحجـاج، وسـائقي الجمال، وسـائقي الحمير، وقال لهم:« اعلموا أن هؤلاء الحجاج نازلون نحو البحر ، وهم سـوف يعـرضـون أنفسهم إلى خطر عظيم، لأن مـن المحتمل فقـدانهم لطريقهم، والانفصال عنا، وإذا ماحدث هذا، فإنهم سوف يكونون أبناء الموت، وبناء عليـه إنني أعلن لكم وأشتكي إليكم بأنني لم أرسلهم، كما أنني لم آمرهـم بالذهاب، بل دعوتهم للعودة، وحرمت عليهم النزول إلى هناك، لكنهم استخفوا بي ولم يصغوا إليّ، وإذا لم يعـودو إلينا قبل الغد، يتـوجـب عليكم إعطائي تقـريراً مكتـوباً عن الذي عملتـه أنا في هذه القضيـة، حتـى يعـرف الناس جميعـاً بأنني بريء بالنسبـة لموت هؤلاء الحجـاج، وعليّ أن أجيب حولهم عـدداً من الناس، وإذا حـدث وانتشر خبر القضيـة في القـاهرة، فلسـوف أمثـل أمـام السلطان لأجيب حـول أمـرهـم، ولسـوف يبحث الترجمان عنهم ثم إن جـانم، حـاكم القـدس، وكالينوس الرئيس، سوف يتهماني بالاهمال، وبناء عليـه إنهم مالم يعودوا هذه الليلة، فلسـوف أطلب شهادة مكتـوبة منكم، لأنه حدث أيضـاً في رحلة أخرى أنني فقـدت اثنين من الحجاج، بالطريقـة نفسها، مما تسبب

لي من أجلهما مصيبة كبيرة، كما عانيت من اضطراب كبير جداً، دون أن تكون الغلطة غلطتي»، ولدى سماع هذا، وعده الجميع بأنهم سوف يكتبون له ماطلبه منهم.

وفي الوقت نفسه، تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن مسرورين، ووصلنا إلى مابين أكوام من الرمل، ولذلك لم يعد بإمكاننا رؤيتهم بعد ذلك، وبعدما سرنا لمسافة طويلة، كان بإمكاننا رؤية البحر، لكن بقي أمامنا مسافة لابأس بها حتى نصل إليه، وبعدما سرنا بخطوات سريعة لمدة ثلاث ساعات، رأينا أنه بقي لدينا الكثير من ضوء النهار، وفقط عندما قررنا أننا بتنا على شاطيء البحر، ظهر أمامنا قطاع عريض بيننا وبينه، وعندما عبرناه توفر قطاع آخر توجب علينا اجتيازه، ولهذا قال واحد من الفرسان لي:« من الواضح ياأخانا، أننا قد جرى تضليلنا من قبل الشيطان، لأن البحر لايمكن أن يهرب منا، لكن هذا رأيناه يهرب منا، ولهذا لايمكن أن يكون هو البحر، بل لابد أن يكون هو الشيطان، تحول إلى شكل البحر»، وعندما غابت الشمس، اقتربنا من البحر، وعندما شرعنا بالنزول من الشاطيء إلى المياه، وصلنا إلى مكان موحل غرقت فيه الحمير حتى بطونها، ولذلك ترجلنا مع ضيق شديد، لأننا أيضاً غطسنا في الوحل، واقتدنا الحمير إلى خارج الوحل، ثم ربطناهم إلى بعض النباتات الشوكية.

وسرنا بعد ذلك في الوحل، وبصعوبة وصلنا إلى الماء، حيث نلنا راحة قليلة وفقيرة، لأننا لم نخلع ثيابنا، بل غسلنا أيدينا باختصار، وشعرنا بالغضب من أنفسنا لقيامنا بمثل هذه المخاطرة الكبيرة من دون فائدة، وبعدما فرغنا من غسل أيدينا التقطنا بعض أصداف سرطان المحار الغريبة، من على الشاطيء، كبرهان على أننا وصلنا إلى البحر الأحمر، ثم شققنا طريقنا ثانية خلال الوحل، ليس مغسولين بل قذرين، وليس منتعشين بل منزعجين، وليس مسرورين، بل آسفين، وبهذه الحالة

تركنا البحر، وفي ذلك الوقت من الليل، كانت الدنيا مظلمة، إلى حد أننا كنا غير قادرين على رؤية آثار حوافر حميرنا ولابطريقة من الطرق، ولذلك بما أنه مامن واحد منا قد عرف أين هو الطريق، أونحو أي جانب ينبغي أن نسير، نشب خلاف بيننا حول هذا، وترجل بعض الحجاج، وأخذ يتلمس طبعات حوافر الحمير في الرمال، لكنهم لم يعثروا على أي شيء مؤكد، وذلك بسبب الظلام، ولذلك وقفنا بلاحراك، والشك يساورنا حول أي اتجاه يتوجب علينا التوجه بوجوهنا.

وقد توقفنا، وشرعنا بالتشاور بشكل جدي فيها بيننا، لأننا شعرنا أننا نواجه عدة أنواع من الموت، وأن ذلك قريب منا، وأشار بعضنا بعدم السير، وأن نبقى ثابتين حيث كنا، لأننا إذا سرنا في الظلام ربما نقع في مخاطر غير معروفة، وسيكون من غير الممكن بالنسبة لنا الالتحاق برفاقنا فوق هذا السهل الشاسع والمخيف، في حين أننا في الصباح يمكن لنا اللحاق بهم، فور توفر ضوء النهار ليقودنا، وعلى العكس من هذا قال آخرون بأن هذا السهل سوف يكون موضع موتنا، لأنه من المؤكد أنه ماأن يمر منتصف الليل، حتى يكون كالينوس وحشده قد غادروا المكان، وإذا ماانتظرنا حتى الصباح، لن نكون قادرين على اللحاق بهم خلال ذلك النهار كله، ولابدّ وقتها من أن تهلك دوابنا، لأننا لا نمتلك طعاماً كافياً حتى لمدة يومين وليلتين، لأننا لم نحمل معنا أيا من الضروريات للحياة، أي لاخبز ولاماء، ثم إننا في اليوم الذي تقدم لم نأكل سوى القليل جداً، وكذلك لم نشرب، وبناء عليه أعطى الشطر الأكبر منا صوتهم للرحيل، لكن في أي اتجاه، كانوا جميعاً غير قادرين تماما على القول، لأن الظلام كان شديداً إلى حد جعل من غير الممكن رؤية الجبال التي كانت أمامنا، كما أنه لم يكن بإمكاننا رؤية أي طريق، وبصعوبة بالغة كان بامكاننا رؤية البحر من خلفنا، مع أن البحر

يشع بشكل طبيعي بعـض الشيء في الظلام، ولذلك تجولنا فـوق طريق غير مـؤكـد، الآن إلى اليمين، ثم الآن إلى اليسـار، وفي بعض الأحيـان بشكل مستقيم، وكنا في وقت نستمع إلى نصيحـة انسـان، ثم بعـد قليل إلى نصيحة انسان آخر، ووقفنا في بعض الأحيان دونما حراك، وأصغينا، آملين بسماع صوت أناس يتكلمـون أو يصرخون، لكن بما أننا لم نستمع شيئاً، صرخنا نحن أنفسنا بصوت مرتفع، وبفعلنا هذا، لم نخف من أي لص، لأننا رغبنا بقدوم انسان إلينا، حتى نتمكن من معرفة شيء مامنه، وإثر هذا، رأينا على الفـور ناراً تلتهب أمـامنا، وترسل أشعتهـا المضيئة، وتجاه ذلك كنا مسرورين، لأننا اعتقـدنـا أن رفـاقنا قـد أشعلوا ناراً من أجلنا، لكن عندما شرعنا بسرور بتتبع هذا الضوء، عرفنا على الفور، أننا قد خـدعنا، لأن الذي كان عبـارة عن نجم ساطع، عنـدما أشرق، نشر اشعاعاته من فوق رؤوس الجبال.

وقـام الآن اللورد هنـري أوف سكومبيرغ— وكـان رجـلاً عــاقـلاً ومفكراً— فـوجــه خطاه باتجاه أحـد النجـوم، وطلب منـا اللحـاق به واتباعـه، قائـلاً بأنه وجد في السماء، طريقـاً محدداً يقود إلى جماعتنا، لكن كيف وجد ذلك، أنا لست عـارفاً، والذي أعرفـه، أننا لوتبعناه، لوصلنا مباشرة إلى معسكرنا، والذي حـدث أننا بعدما تبعناه لمسافـة جيدة، قال أحـدهم بأننـا كنا نميل كثيراً نحـو اليمين، ولذلك تركنـا الطريق الذي نصحنا به اللـورد هنري أوف سكومبيرغ، وسرنا على طـريق آخـر على يسـاره، وأثناء قيامنا بهذا، تخاصمنـا في بعض الأحيان، لأن واحـداً أراد الذهـاب في هذا الطريق، وآخـر في ذلـك الطريق، وفي أثناء هذه الشـدة، كان هناك أمران خفت منهما كثيراً بقدر ماخفت من الشدة نفسها: وكان الأمـر الأول، هو أن يشرع الفـارسـان الـرئيسـان بيننا بالقتـال، ويجردا سيفيهما أحدهما ضـد الآخر، لأنني عرفت أن أحدهما كـان يكره الآخر بمرارة، ولذلك عندما كان يتجادلان حول الطريق، حرصت على وضع

نفسي وحماري بينهما، حتى لايحركهما الغضب بسرعـة باقتراب أحـدهما من الآخر، والأمر الآخـر، هو أننا اختلفنا حول الطريق الصحيح، وهنا خفت أن يتبع أحــدهم رغبـاته، وينفصل عنا، ويهلك، ولـذلك بذلت جهـداً كبيراً في تهدئـة الذين كـانوا يتجـادلـون، ولإرجـاع الذين كـانوا سيبتعـدون، وقلت من وقت إلى آخـر لـرفـاقي المحيطين بي:« لاتكونوا خـائفين كثيراً، ولاأن يغضب أحـدكم من الآخـر، ولاينفصلن أحـدكم عن الآخر، لأننا إذا راعينا هذين الأمـرين فلن نهلك»، وبناء عليه تابعنا سيرنا في شك، وأخــذنا نخشى أننا ربما قـد تجاوزناهم، لأنـه بدالنا أننا الآن في العودة قطعنا مسافة أطول من المسافة التي قطعناها أثناء توجهنا نحو البحر.

وكان الوقت الآن منتصف الليل، وقد اتفقنا جميعـا على وجوب أخذ راحة قصيرة، فـوق منطقة مرتفعـة، وكنا على مقربة من رابيتين رمليتين وعرتين، لم نتذكـر أننا رأيناهما ونحن على طريقنا نازلين نحو البحر، مع أنهما لم تكونا عاليتين بما فيه الكفاية، وبنـاء عليه صعدنا إلى إحدى هاتين الرابيتين، ونظرنا إلى ماحـولنا،وأصغينا، وصرخنا، وولولنا، لكن لم يكن هناك من صــوت، ولافهم، ولذلك ربطنا الحمير مع بعضهــا، ومـددنا أنفسنا فوق الأرض، للاستراحة ولاسترداد أنفاسنا وليس للنوم، لأنه لم يكن هناك نوم لدى أناس كـانوا في مثل هـذا القلق، ذلك أننا كنا أبناء الموت، وكــان لدينـا فقط قليــلاً من الأمل الموجـع في أن نقع، قبل أن نهلك في أيدي البداة العرب، أو المدينيين، أو المصريين، فلهؤلاء كنا على استعــداد أن نستسلـم بإرادتنا، ونقـــدم أنفسنا أسرى، بسبب« أن قتلى السيف كــانت خيراً من قتلى الجوع»[مــراثي ارميــا:٩/٤]، ومع هذا وضعنا ثقتنا أخيراً بالرب، وفي العــذراء مـريم المجيـدة، وفي القـديسـة كاترين، في أن لايسمحوا بهلاكنا بهذا الشكل التعيس في القفار، ودعونا بعضنا بعضاً في أن لانستسلم للنوم، بل أن نـرتاح بشكل نبقي فيه آذاننا

مفتـوحـة، لأننا إذا مـاكنا على مقــربة من جماعتنا، يمكننا سماع الصراخ المعمــول من قبل الناس والحيــوانـات، أثناء تحميل الجمال، لأن الجمال اعتادت أثناء تحميلها على الصراخ، واعتاد الناس على الصراخ أو الغناء، وقد أملنا أن نسمع مثل هذه الأصوات.

وعندما كان الجميع قـد تمددوا على الأرض صامتين، لم أستطع البقاء متمـدداً فـوق ذلـك الفـراش الذي كـان في غـاية الخشــونة، بل قمت بالتجول من حـولهم، أقرأ الصلوات السـاعية للعذراء المبـاركة، وفعلت ذلك بصمت بتحـريك شفتي فقط، وكنت أنشـد مزاميرها الصحيحـة، وأثناء سيري وتجوالي رأيـت ظلاً في الوادي، عند أسفـل جبل أجـــرد، فـاعتقـــدت أن ذلك لابد أنه أيكة نوع من الحشـــائش الخضراء، لذلك نزلت إلى هناك للحصـول على بعضهـا لتقديمهـا إلى حماري الذي كـان صـــائماً مثلي، إنما عنـدمـــا وصلت إلى المكان، لم تكـن أيكة خضراء، بل أشـواك جـافـة كثيفـة، ولذلك ذهبت مـن ذلك المكان إلى قمـة الرابيـة الواقعـــة مقـابل رابيتنا، لربما يحدث فـأرى أوأسمع أي شيء من هناك، وعلى تلك الـرابيـــة تجولـت هناك في هـذا الاتجاه وفي ذاك، لأن الناس القلقين والغارقين بالتفكير، يسيرون من مكان إلى مكان من دون اختيار من قبل أنفسهم، ودون معرفة إلى أين يسيرون، وبعد وقت قليل رغبت بالعـودة إلى رفـاقي، فتسلقت الرابيـة المقابلة معتقـداً أن جماعتي كـانت معسكرة هناك، ولكنني لم أجـدهم هنـاك، ولذلك ركضت نحـو رابيـة أخـرى، لكنني لم أتمكن من العثور عليهم، ولذلك وقفت في حـالة قلق شديد، ولعنـت الليلة قائلاً:« أيتهـا الليلة المقلقة، التي أنـت جديرة بهذا الاسم، أنت بـالحقيقــة ابنة الارض، من أب غير معـــروف، جئت إلى الوجود مـن خلال صراع الأرض مع نفسها، ومن زواجهـا من اربوس Erebus المخيف، وعـــدو الـراعي المفيـــد جـــداً، فـــانتيس -Pha netes(الكوكب Planetes ؟)، وتبعـــاً لذلك، وكما يقـــول المثل

الشائع، صديقة لاأحد، إلاّ مقترفي الشرور، لأن فاعلي الشرور يمتلكون الضوء، ويفرون للالتجاء إليك، لأنك عدوة الشمس، ولذلك:

يغادر اللصوص وكرهم عند منتصف الليل

ليقطعوا أعناق الناس الأبرياء

وفي الحقيقة إنه بسبب الشكوى التي أبداها الليل وقدمها إلى جوبيتر، عندما أراد أن يتحدث إلى محبوبته ألكمينا Alcmena ، أجيز بعربة وأربعة، وفي هذه العربة يدور باستمرار حول الأرض، وتلقى أيضاً القدرة على القمع، قمع حتى الآلهة، وهكذا نراه مع عربته يلوم، ويضغط، ويخفض شجاعة حتى الرجال الأشداء، المليئين بالأفكار العالية، وذلك حتى قدوم الفجر».

وعندما فرغت من ملامتي لليل، اشتد غضبي من نفسي، لأنني عهدت بنفسي إلى تلك الليلة الأعظم خيانة، والمليئة بالفخاخ إلى جميع الذين يسافرون بالبر أو بالماء، ولذلك لجأت بنفسي إلى المصدر الطبيعي للنفس في الآلام، وللروح المضطربة، الذي هو الصراخ بصوت مرتفع(باروخ:٣)، ورفعت صوتي بالنداء إلى الفارس الأقوى والأنبل، والأكثر اخلاصاً، والأعظم معرفة بالنسبة لي، ودعوته بلقبه فقط، وصرخت« سكومبيرغ»، وفي الحال سمعني، فانتصب قائماً، ومع الآخرين جاء الرد من على بعد:« فيلكس، فيلكس»، وصرخت للمرة الثانية قائلاً« هو، هو»و « أين يمكن أن أجدكم؟ تحدثوا إليّ، إنني أتوسل إليكم، حتى أصل إليكم، لأن الظلام والصمت قد أضلاني»، وهكذا صرخ أحدنا إلى الآخر، حتى وصلت إليهم، وعندها لاموني بحدة لقيامي بجولتي الخطيرة والمنعدمة التقدير، لأنني كنت بعيداً عنهم أكثر مما قدرت وفكرت، وعندما عدت إلى هؤلاء الذين كانوا مايزالون واقفين، تمددوا على الأرض ثانية.

وكان منتصف الليل قد انقضى الآن، وصار الوقت هو الوقت الذي اعتاد فيه سائقو الجمال على الشروع بتحميل دوابهم، وهكذا جلسنا بسكون، وصمت، آملين بسماع أصوات الجمال، وبعدما مكثنا هكذا بعض الوقت، فجأة، بدأ صوت الجمال الذي تشوقنا إليه يصل إلى مسامعنا، وبدأ هدير أصواتهم مسموعاً بالنسبة إلينا، ويستطيع الحديث عن المتعة التي شعرنا بها عندما سمعنا هذا، فقط الذي كان واقفاً في رعب على حياته، وفجأة سمع مخلصه وهو قادم، وبالنسبة لنا كان ذلك الصراخ المرعب للجمال، أحلى من أية موسيقى عذبة، ومساوياً تماماً للأغنية القوية التي غناها أورفيوس Orpheus على قيثارته، وقد حدثنا الشعراء أنه بقيثارته جعل الجبال تقفز مرحاً مثل كباش، وجعل أشجار الغابة ترقص، وأوقف مجاري الأنهار، ودجن الحيوانات المتوحشة، فضلاً على هذا ربح بغنائه على قيثارته السيدة النبيلة يوريدايس Eu-rydice ، التي كانت الأكثر جمالاً، وكانت غنية وحكيمة، وعندما بعد الموت أخذت إلى الظلال تحت، لحق بها إلى قعر جهنم، حيث غنى ولعب على قيثارته، حتى تمكن بحبه من تحويل قلوب الذي كانوا يتحكمون في ذلك المكان، وجعل المدانين ينسون عذابهم، وأضاء ظلمات تارتاروس Tartarus، وحظي بمحبوبته يوريدايس ثانية، ومثل هذا في تلك الساعة كان هدير أصوات الجمال مثل قيثارة أورفيوس، لأن سرورنا جعلنا نرى التلال تقفز مرحاً، والغابات ترقص، والماء الذي يجري حزيناً قد توقف عن الجريان، وسررنا كثيراً لأننا جرى اقتيادنا بهدير أصوات الجمال، واخراجنا من بين فكي الموت.

ونهضنا على الفور، وامتطينا ظهور حميرنا، ونزلنا من جانب الهضبة، أو بالحري قفزنا، وعندما وصلنا إلى الصخور في الأسفل، طرنا فوقها إلى السهل، وسرنا باتجاه الضجيج الصادر عن الدواب، ونزل بنا الآن رعب جديد، فقد خشينا أن يصدف، فتكون هذه قافلة غريبة للبداة

العـرب، أو المدينيين، وأنـه من الممكن أن نقع في أيدي أعــداء، لكن عندما اقتربنا، سمعنا أصـواتاً معروفة بشكل جيـد بالنسبة لنا، ومع حمد الاسم الربـاني دخلنا إلى المعسكر ثانيــة، ووجـــدنا هناك جملين محملين بالخبز والماء، مع بدويين عـربيين من السائقين كان رفاقنا قـد عزموا على إرســالهم للبحث عنا، لكنهم لم يشعلوا ناراً في المعسكـر في تلك الليلة، من أجل معاقبتنا، لأننا رفضنا الطاعة عندما دعانا كل واحد إلى العودة.

واستقبلنا كـالينوس استقبالاً سيئاً، وأظهـر عدم رضـاه عنا بكل من الكلمات والتصرفـات، وأخبرنا بحكاية حـــول كيف حـدث فيما مضى، على مقربة مـن هذه البقعة تماماً، أن اثنين من الحجـاج نزلا بشكل سري نحو شـاطىء البحر، وأضاعا طريقهما، كما حـدث معنا، وركضاً في هذا الاتجاه وفي ذاك حـول القفـار، لمدة ثلاثة أيام، وأخيراً تمّ العثـور عليهما من قبل بعض المدينيين، يتجــولان بشكل جنوني، وقــد أحضروهما في تلك الحالة إلى رفـاقهما مـن الحجـاج الآخـرين، الذين كـــانوا آنذاك في مصر، حيث مـاتا خـلال بضعـة أيام، ولولا أننا وجـدنا— بفضل رحمة الرب— طريق عـودتنا إلى رفـاقنا، لاشـك لدي أننا كنا سنقع في أقسى الشدائد، ولكان الفارس الذي حـرضنا على الذهاب قد جرى تمزيقه إلى قطع من قبل الآخـرين من الحجـاج، ومهما عشت في هذه الدنيـا، أنا لم أشهد ليلة أشد كآبة من تلـك الليلة، وفي الحقيقة كان الذي حدث معنا مثل الذي حـدث مع رفـاق يوليسيس Ulysses الذين جميعاً جلبوا إلى المخـــاطر مـن قبل رفيقهم الملاح يوريـالوس Euryalus، مع أنهم حذروا بعدم الابحار.

رحلة إلى البحر الأحمر وسرور الحجاج العارم

في اليوم الثالث من الشهر، وقبل اكتمال الفجر، غادرنا حسب عادتنا وردك(كـذا) وسرنا فـوق سهـول رملية شـاسعـة، وقبل اشراق شمس النهـار، قـابلنا مجمـــوعتين من(الرجـال الممتطين) للجمال، كـــان لابد

لمجموعتنا من الوقـوع في وسـطهم، لولا أننا وصلنا إلى رفـاقنا، وعندما صـار النهار مضيئاً، وصلنا إلى برية سين، وكنا قـريبين تماماً من البحـر، وكـانت هذه أول بـرية وصل إليهـا بنو اسرائيل بعـد عبــورهم البحـر الأحمر(الخروج: ١٦/ ١).

علاوة على ذلك عندما كانت هاجـر مولاة سارة هاربة من أمام وجه سيدتها، وكانت تريد العودة إلى مصر، حيـث كانت قد ولدت، وجدت ملاك الرب يتجـول وحده في هذه القفـار، وقد أمرت مـن قبله بالعودة إلى سيـدتها ساره، وأن تتـواضع أمامهـا، وقـام بالوقت نفسه بالتنبـؤ لها كثيراً حول ولدها الذي حملته برحمها، أي ابنها اسماعيل، الذي كان ولداً لجميع الاسماعيليين، والهجاريين، والمسلمين، وسكان جبل سعير.

والآن بما أن عـدداً كبيراً من مواليّ الحجـاج لم يكونوا قد رأوا البحـر الأحمر، سألوا كـالينوس عما إذا كــان بإمكانهم النزول إلى هناك، لاسيما وأن المكان كان قـريباً من المكان الذي قيل بأن بني اسرائيل قد خـرجوا فيـه من البحر الأحمر إلى بريه سين(الخروج:١٧/ ١)، وبناء عليـه أعطى كالينوس إلى الحجاج خدمه من البداة العرب، ليكونوا أدلاء لهم، ونزلنا جميعـاً معهم نحو البحـر الأحمر، لأنه وإن كـان حجاج الفئة الثـالثة قـد نزلوا إلى البحـر، مع ذلك هم لم يتعلمـوا شيئاً يتعلق به، وقـد تشوشـوا كثيراً ورغبوا في رؤيتـه بوضوح كامل، ولذلـك نزلوا مع الآخرين، غير أن الجمال تابعت سيرها على الطريق العام، وبعد مسير ساعة، وصلنا إلى مياه البحـر، ومع أن الوقت كان مايزال باكـراً، خلعنا ثيابنا، واستحمينا في البحر الأحمر، وهناك عمّـدنا أنفسنا، وإنني أقول، إنـه في ذلك البحر ذاته— حسبما حدثنا الرسول(كورنثا:٩/ ١)— قد تعمد آباؤنا الأولون حتى موسى، لأنه هنا سـار بنو اسرائيل فوق أرض جافـة من الشاطىء الأول للبحـر حتى الشاطـىء الآخر، فبـوسـاطة معجزة انحسرت ميـاه البحر ووقف على شكل كـومة على كلا الجانبين، وفي الحقيقـة إن البحر

ليس عريضاً في هذا المكان، ولربما هناك ميل واحد إلى فم الحيروث على الجانب الآخر، ومع ذلك البحر عميق وهائج، وكان عند فم الحيروث على الشاطىء المقابل لنا، قد ضرب موسى البحر بعصاه، ففتح طريقاً، ومضى بنو اسرائيل في البحر، ولحقهم فرعون بعرباته وفرسانه.

وحدثنا أوروسيوس Orosius ، أنه في هذا المكان، من الممكن مشاهدة براهين مؤكدة عن الذي حدث هناك، لأن آثار العربات والدواليب من الممكن رؤيتها، ليس على الشاطىء فقط، بل أيضاً في المياه العميقة، وبذلك بقدر ماتستطيع العين أن تنفذ وأن ترى، ومن الممكن أن يرى على قعر البحر كذلك حفر عميقة جداً، فيها مضى المصريون نحو الأسفل مثل الرصاص، وبعد وقوع هذه الأشياء، لم يكتف المصريون الأحياء أنهم لم يعرفوا الرب، بل جعلوا ذلك مناسبة للوثنية، لأنه في« حياة الآباء»، أخبرنا أبولونيوس Apollonius، بأن المصريين الذين لم يذهبوا مع فرعون، اعتقد كل واحد منهم بأن الشيء الذي كان مشغولاً به، أثناء غرق البقية، هو ربه، وقد عبده، قائلاً:« هذه الحشائش، أو هذا الخشب، أو هذا الخبز، أو هذه الدابة، وهكذا دواليك، هو اليوم ربي، الذي أنقذني من الغرق في البحر مع فرعون»، وهكذا تضاعفت أعداد الأوثان في أرض مصر، وفاقت بتعددادها جميع البلدان الأخرى في العالم.

وهنا على هذا الجانب من البحر، حيث كنا نستحم، قذف البحر بأجساد المصريين، وهنا قام بنو اسرائيل بنهبها وسلبها، ووجدنا على شاطىء البحر أصدافاً غريبة، وأصداف المحار من مختلف الأشكال والألوان، وكميات هائلة من المرجان الأبيض، ولم نر هناك أي مرجان أحمر، مع أنه ينمو ويتكاثر هناك، هذا ويقول بعضهم بأن المرجان أثناء نموه في البحر، هو دائماً أبيض وناعم، وأنه فقط عندما يؤخذ من البحر ويجفف يغدو أحمر اللون، كما هو الحال بالنسبة للمرجان المستخرج من

بحر صقلية.

وأطلق على هذا البحـــر اسم البحـــر الأحمر، بسبب اللــون الزهري لأمــواجــه، لكن لون ميـاهه بالطبيعـة ليس أحمر، كما قـد يوحى الاسم، وتنصبغ هذه الميــاه وتندبغ بوســاطة شـواطئه التـي تحيط به، لأن جميع الأراضي المحيطة بهذا البحـــر حمراء، أو ذات لون دمـــوي، وبناء على طبيعـة التربة، فإن ميـاه البحـر تضرب بالتـدريج الشـواطىء، ومن ثم تذوب التربة في الميـاه وتلونها، وعلاوة على ذلك يعثـر الناس على هذه الشـواطىء على جواهـر حمراء، وأصداف محار حمراء، وينمـو على الجزر هناك شجر البرازيل الأحمر، وتذوقنا مياهه، وقـارنا ملوحتها مع ملوحة بحرنا المتوسط، فوجدناها أكثـر ملوحة ومرارة من بحرنا، مع أن البحر الأول، والبحر الآخر يصدران عن مصدر المحيط نفسه، الذي هو نفسه مالـح جداً، وعلل فـلاسفة الطبيعة هذه الملـوحة بعدة أسبـاب، ومثلهم فعل اللاهوتيــون والشعـراء القــدمـاء، وكنـت قـد عــرضت من قبل الأسبـاب الطبيعية واللاهوتيـة في ص٢٢٣—٢٢٦، واحتفظت بالسبب الشعري حتى الآن.

فلقد ذكر بعض أقـدم الشعراء بأن واحداً اسمه ديمــوغورغون De-mogorgon وكـان عفريتـاً مـرعباً جـداً، وأعظم أبناء الأرض، وقــد عــاش أولاً بين الأرباب على شكل بشر، ومن المفترض أنه قـد قيل من قبل الرجـال المذنبين القــدمـاء، بأنه كـان المسبـب الأول وخـالق جميع الأشيـاء، وذلك حسبما يمكن قـراءتـه في كثير من الشعـر القـديم، وقــد حكوا حــول ديموغـورغـون أسـاطير كثيرة، عن كيف أنه لم يكن هناك ضياء في قبة السماء، وذلك عندما لم تكن هناك أرض، بل كانت محجوبة في الظلام، ولذلك ضجـر ديموغورغـون من الظلام اللامحدود، فتسلق إلى قمة جبـال أكروسيرونيـان Acroceraunian، واقتطع منهم قطعة كبيرة كانت كتلة ضخمة جداً كـانت ملتهبة، وقد جعل أولاً هذه الكتلة

كروية بألسنتـه، ثم طرقها حتى صـارت قاسية فـوق جبل كوكـاسوس Caucasus، ثم حملها إلى ماوراء تابروبين Taprobane، وغطسها في مـدار مضيء ست مـرات في الأمـواج، وطوّح بها من حـوله في الهواء مـرات كثيرة، وقـد فعل هذا من أجـل أن لايتـلاشى مطلقـاً، أو يتيبس ويصـدأ، ويتسـاقط إلى قطع خـلال العصـور، ولكي يستطيع التحـرك بنشاط إلى جميع أجزاء العالم، ثم إنـه رفع نفسه مباشرة، ودخل إلى كيان السموات، وملأ جميع مملكة أبيه بالضوء.

وحدث أنه بسبب التغطيس بالماء، الذي كـان من قبل عذباً، فإن هذا الماء صـار مراً مع ملح، وصـار الهواء مغلقـاً بشكل محكم وذلك بسبب الزوابع، أي حتى تتلقى أشعة من الضياء، ويكفي الآن ماقيل عن هذا.

ومع أن هذه والقصص المشابهة قد تظهر أنها خيالية من الظاهر، لكن زبدتها ملئية بالحقـائق الطبيعية واللاهوتيـة، وذلك كما تعلمنا من كتاب يوبيت Jobait (؟) حـول« أنساب أرباب الكفـار»، حيث استخـرج خلاصات جميلة جداً من كتابات الشعراء.

ويقول الملاحـون بأن ملوحة البحر تـؤثر فقط على ماء السطح، وأنه على بعـد عشر خطوات تحت السطح يمكن العثـور على الميـاه العـذبة، ولاأمتلك أنا خبرة تبين هل هذا صحيحاً أم لا، وكان هذا البحر الأحمر يدعى في العصـور القديمـة جداً باسم بحـر الايريتيريين Erythraean اشتقـاقـا من اسم الملـك ايرترايوس Erythraeus ، الذي كان ابن فرسـوس وأندروميدا، وحكم هذا في البلاد القريبـة من هذا البحر، وفي الجزر الموجـودة فيـه، وقد كـان ملكاً جباراً، ولذلك عندمـا مـات على أعظم الجزر شهرة، بنوا له ضريحاً واسعـاً وتعبدوه كـرب، وأطلقوا على البحـر الأحمر اسم بحـر الأيريتيريين، وكـان ذلك اشتقـاقـاً من اسمـه، ويدعـو الاغــريق البحـر باسمـه هذا حتـى هذه الأيام، لكن العبرانيين يسمــونه جـام ســوف Jam suph، وذلك حسبما حــدثنا جيروم في

رسالته إلى فابيولا، حول الأبعاد الاثني عشر.

ومكثنا نتمشى على ساحل هذا البحر لمدة تزيد على الساعة، وبعد ذلك امتطينا ظهور حميرنا، وسرنا مسرعين عائدين نحو الطريق العام، وبادرنا مسرعين خلف جمالنا، الذين قطعوا مسافة طويلة أمامنا، ذلك أننا كنا قلقين من التخلف وراءهم، وعندما شاهد البداة العرب رغبتنا بالسير بسرعة، ساعدونا في دفع حميرنا للاسراع بوخزهم من الخلف برماحهم، وعندما شعر الحمير بهذا طاروا مسرعين مثل الخيول، بخطوات سريعة للنجاة من وخزات البداة العرب، لكن البداة العرب تابعوا وخزهم لهم، وأنالم أشهد قوماً مسرعين، مثلما ركضوا هم، فقد امتلكوا أرجلاً طويلة ملتوية، ولم يرتدوا أحذية، أوصنادل، أوأحزمة، وكانوا يأكلون القليل من الخبز، ويشربون القليل من الماء، ولذلك كانوا عندما يركضون لايشعرون بأي ألم في أجوافهم، أو ضغط على صدورهم، أو قصور في التنفس، وهو مانعاني منه كله جميعاً، وأفترض أن ذلك بسبب اطعامنا أنفسنا أكثر مما يلزم في كل يوم، ويركض البداة العرب« خفاف الأقدام كظبي البر»، مثلما فعل عسائيل[صموئيل الثاني: ٢/ ١٨]، ولايستطيع رجل ممتطياً لفرس سريع أن ينجو منهم، لأنهم يمكنهم متابعة الركض لمسافة طويلة، ويفعلون ذلك مع السرور والمرح، ولم أضحك من قلبي خلال حجي كله مثلما فعلت عندما صعدنا من شاطىء البحر إلى الطريق السلطاني العام، لأن البداة العرب مزحوا معنا، وسبقونا، ورقصوا وتقاتلوا مع بعضهم برماحهم، وكان بينهم بدوي عربي غريب، أنا لم أره من قبل، وقد لعب ألاعيب غريبة مدهشة وتهريجية، وقد جعلني أضحك مراراً إلى حد أنني خفت أن أسقط من على ظهر حماري لإفراطي بالمرح.

وسرنا بهذه السرعة، مع البداة العرب وهم يلعبون من حولنا، لمسافة تقارب ميلين ألمانيين، وعندما وصلنا إلى الطريق السلطاني العام، نزلنا

إلى داخل سهل آخر شاسع حيث رأينا جمالنا وقد أناخوا إلى جانب بعض الآبار، ومعهم سائقي الجمال، ولذلك نزلنا نحو ذلك المكان، ووقفنا عند تلك الينابيع، حيث سقينا جمالنا وحميرنا، غير أننا أنفسنا مججنا الماء الذي كان مالحاً بعض الشيء، وكان علاوة على ذلك ساخناً من قبل الشمس، وله لون أحمر، ويعرف هذا السهل وهذا القفر باسم ماره[الخروج: ١٥/ ٢٣، العدد:٣٣/٨]، فبعدما عبر بنو اسرائيل البحر، وسلبوا المصريين الذين قذفوا على الشاطىء، بحثوا عن الماء، لكنهم لم يجدوا شيئاً، إنما حدث ربما بتوجيه واحد ما أن نزلوا إلى هاهنا، ووصلوا في اليوم الثالث إلى هذا المكان، وطلبوا الماء وبحثوا عنه، ولأنه لم يقع على طريقهم، انحرفوا جانباً عن طريقهم للحصول على الماء للشرب، كما غالباً يفعل الناس في القفار، وعندما وصلوا إلى هنا لم يستطيعوا شرب مياه ماره، لأنها كانت مياه مرّة[الخروج:١٥/ ٢٣]« فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء، فصار الماء عذباً»، وورد ذكر هذا أيضاً في سفر يهوديت:٥، وقال اللاهوتيون بأنها كانت شجرة من خشب مالح جداً، ولكي تكون المعجزة مدهشة أكثر، تتحول المياه المرة إلى مياه عذبة وقابلة للشرب برمي خشب مرّ فيها، وهذا التعاكس كما يبدو هو الذي عُني بالإلهيات:٣٨/ ٥ قوله:« ألم يجعل الماء عذباً بخشب»؟ لأن النص المقدس قد تحدث هناك عن السمات الطبيعية للذي ينمو في الأرض، والذي أعتقده أن هذه العذوبة، التي عملت في هذه المياه بوساطة الخشبة لم تستمر، إلاّ فقط حتى مغادرة بني اسرائيل، وبعد ذلك عادت إلى مرارتها الطبيعية.

وملوحة هذه المياه طبيعية، ولذلك من الممكن شربها من قبل الدواب، ومن قبل بعض الناس، لكن ليس من قبلهم جميعاً، والسهل كله مستنقعي ومليء بالماء، التي تنبع وتتدفق من البحر الأحمر، ويعتقد

كثير من الناس بـأن الأردن يجري من البحـر الميت، بعيــداً حتى هذا المكان مـن خــلال قناة تحت الأرض، وينبـع هنا، وذلك كما تقــدم لي وذكـرت، ويحكـي البـداة العـرب حكايـات خيـالية كثيرة حــول هذه الينابيع، من ذلك أن نعجـات كن يشربن هناك قـد حملن بخرفـان حمر، وذلك مثلما قرأنا عن النبع الذي اسمه ميلا Mella ، من أن نعجات شربن من هناك فحملن بخـرفـان سـود، عـلاوة على ذلك إنهم يفترون على هذه الينابيع، ويقولون إن كل من يشرب منهم يصاب بمرض، من نوع أنه لايبقى رجلاً بعد ذلك، وبعدما شربنا حملنا الجمال ثانية وغادرنا ماره إلى شاطىء البحـر الأحمر، وسرنا فوق سهول رملية شـاسعة جداً، ووصلنا عند غيـاب الشمس إلى مكان يدعـوه العـرب باسم Hanada حيث نصبنا خيامنا، لكن المنطقة كـانت جرداء، لذلك واجهنا كثيراً من المصـاعب في العثور على مـايكفي من عصي جافـة لنطبخ لأنفسنا بعض الطعام الساخن.

مسائل يتوجب ذكرها من أجل فهم صحيح للكتابات المقدسة

وفي اليوم الرابع، الذي كـان يوم القديس فـرانسيس المعترف، غادرنا Hanada في الصباح البـاكر، قبل اشراق الشمس، وسرنا فـوق سهول شاسعـة جداً، ومقفرة على جـانب البحر الأحمر، حتى وصلنا إلى بعض الجبـال، عند سفحهـا يرسل البحـر لســاناً نحـو الأمـام ويصل هنا إلى النهاية، وفي المكان الذي ينتهي فيه البحر الأحمر هناك، هناك ميناء تصل إليه السفن، وفي هذا الوقت تحررت مـن شك كبير، ساورني وبقي معي طوال الرحلة كلهـا، لأنني وان كنت أعـرف بشكل أكيـد أننا ينبغي أن نخـرج من القفار إلى أرض مصر لم يكن بإمكاني التخمين كيف سنقـوم بعبـور البحر الأحمر، لأنني كنت أعتقـد أن البحر الأحمر متصل بالبحـر المتـوسط، لأن بني اسرائيل قـدموا إلى القفـار بعـد عبور البحـر الأحمر، وكنت لاأفترض أن مسيحيـاً يمتلك أي طريق مـن الأرض المقـدسـة

وجبل سيناء، إلاّ عبر ذراع البحر الأحمر، الذي عبره خرج بنو اسرائيل من مصر، وأننا نحن لايمكننا فعل غير ذلك، وذلك إذا ماكان البحر الأحمر متصلاً بالبحر المتوسط كما افترضت، ومع ذلك اعتدت على التساؤل، إنه إذا لم يكن هناك طريق إلى مصر إلاّ عبر البحر الأحمر، كيف لم تعمل الكتابات المقدسة أية إشارة إلى ذلك، حيث أننا قرأنا عن كثير من الناس كانوا ينزلون إلى مصر من الأرض المقدسة، ويعودون ثانية، ومع ذلك لم ترد الاشارة إلى البحر الأحمر، إلاّ عندما خرج بنو اسرائيل من مصر، وإذا كان بإمكان الانسان أن يخرج من مصر إلى جبل سيناء بطريق آخر، لماذا جرى اقتياد بني اسرائيل عبر طريق غير عادي عبر البحر، وليس عبر الطريق العام فوق اليابسة؟ ووضعت الخبرة اليوم نهاية لشكوكي، لأن البحر الأحمر ليس متصلاً بالبحر المتوسط، بل هناك مكاناً شاسعاً وكثيراً من التلال تفصل أحدهما عن الآخر، ويجري بين الاثنين طريق عام من الأرض المقدسة إلى مصر، من دون عبور لذراع البحر، والذين يرغبون بالذهاب من مصر إلى جبل سيناء يعبرون فوق هذا، ويسيرون صاعدين إلى هناك، على طول شاطىء البحر الأحمر، وذلك من دون عبور للبحر في السفن، ثم يمكنهم الصعود من أرض مصر مباشرة إلى جبل سيناء، كما يمكنهم أخذ طريق أقصر بكثير من ذلك الذي يقود الآن، حول رأس ذلك البحر.

ولذلك اقتاد الرب بني اسرائيل، وأخرجهم عبر الطريق الأقصر عبر ذراع البحر، لأنه يقع في مواجهة جبل سيناء، ووفر على الناس القيام بالاستدارة، وبذلك كان بامكانهم الوصول بشكل أسرع إلى جبل الرب، وأعماله الرائعة، وذلك حتى يمكنه إظهار قدرته، وأغرق أعداء شعب الرب، ولو أن الرب قد رغب باقتياد بني اسرائيل مباشرة إلى الأرض المقدسة، وقتها كان الطريق الآخر عبر الفراغ فيما بين البحرين، طريقاً أقصر بالنسبة للوصول إلى فلسطين، لكن الرب لم يختر هذا، وقد

جرى تبيان سبب هذا في سفر الخروج:١٤، وكذلك من قبل، وانظر أيضاً تعليقات دي ليرا على النص، وكذلك كتابات مصنف -Spec ulum Historiale.

وشاهدنا في هذا المكان، وفي المنطقة التلية عند نهاية البحر الأحمر الأعمال الهائلة لقدماء ملوك المصريين الذين سعوا إلى جلب البحر الأحمر إلى النيل، ولذلك شرعوا بالحفر خلال جبال البرزخ عند رأس البحر، لتقسيم التلال، وللحفر خلال وسط الحجارة والصخور، وعملوا قناة ومجرى للمياه إلى مدينة Arsinoe التي تعرف أيضاً باسم الكليوبترية، وبدأ العمل في حفر هذا المجرى أولاً من قبل سيسوستريس Sesostris ، ملك مصر، قبل حرب طروادة، وذلك مقابل نفقات كبيرة، وبعد ذلك من قبل داريوس ملك فارس، الذي حاول عمل ذلك، لكنه تركه دون انتهاء، وأكمل فيها بعد بفن من الطراز الأول من قبل بطليموس الثاني، وجاء ذلك وفق طريقة أن المجرى كان ينغلق وينفتح من قبل نفسه فقط، وقصد الناس القدماء من هذا العمل وصل الشرق والغرب مع بعضهما، لأن نهر النيل يجري ليصب في البحر المتوسط، وإنه إذا مادخل إلى البحر الأحمر، يمكن للناس وقتها الإبحار خلال ذلك النهر من البحر المتوسط والمحيط الغربي إلى داخل البحر الأحمر، وإلى الخليج العربي، وإلى البحر الفارسي والبربري، لابل حتى البحر الهندي في الشرق، وبذلك يمكن للسفن القدوم حرّة من الهند، وفارس، وجزيرة العرب، وميديا، وجميع ممالك الشرق، إلى اليونان، وايطاليا، وفرنسا، وايرلندا، وانكلترا، وألمانيا، في حين على العكس من ذلك لايمكن للسفن من بلدان المشرق القدوم إلى ماوراء نهاية البحر الأحمر، حيث تتصل صحراء العربية بمصر، كما لايمكن للسفن القادمة من البلدان الغربية الذهاب أبعد من الاسكندرية التي تشكل حداً لآسيا وأفريقيا.

وفي أيامنا حاول واحد من ملوك اسبانيا أن يعثر على طريق من المحيط الغربي— أي أن تقول من البحر الخارجي، الواقع خارج أعمدة هرقل— إلى المحيط الشرقي وإلى بحر الهند، لكن هذه المحاولة كانت بلافائدة، مع أنهم قالوا بأنهم اكتشفوا بعض الجزر الثمينة، التي لم تكن معروفة من قبل.

وكان للبطالمة ملوك مصر، من محاولتهم لوصل الشرق بالغرب، وفق هذه الطريقة هدفين اثنين تطلعا إليهما، كان أولهما التمكن من امتلاك السلطة على كلاهما، لأنهم حسبما كانوا، كانوا قائمين فيما بينهما، والهدف الثاني أن يتوفر طريق إلى جميع أجزاء الدنيا، للتجار وللتجارات، ولذلك يمكن للمصريين جباية الخفارات وضرائب العشور من تجارات العالم كله مشاهدين أن الطريق لابد من أن يمر خلال بلادهم، وصدقاً، لو أنهم أكملوا ذلك العمل، لكان عملاً رائعاً، فوقتها كان يمكن للناس الابحار إلى مصر من البندقية، لابل من فلاندرز ومن ايرلندا، ويمكنهم الذهاب عبر النيل إلى الخيلج العربي، والوصول إلى أرض القرفة، ومن ثم الوصول إلى بلاد الهند الثرية جداً، التي حُدثنا أنه يوجد بين عجائبها أنها تمتلك شتائين وصيفين في سنة واحدة، وجبالاً من الذهب، جبالاً حقيقية، وليس مجرد كلام، وأن فيها أربعاً وأربعين منطقة مختلفة، ووقتها سيتوفر من خلال البحر الهندي طريق لنا نحن الغربيين إلى بلاد فارس، وفرثيا، وميديا، والعربية المباركة، وسبأ، وكلدانيا، ولسوف تمتلك شعوب الشرق طريقاً تستطيع أن تقدم عبره إلينا، وبناء عليه إنه بهذا العمل يمكن جمع الأجزاء الأساسية من العالم مع بعضها، وأعني بذلك: آسيا، وأفريقيا، وأوربا.

وحاول البطالمة المصريون، وقد جذبتهم هذه الآفاق، مع فن وبراعة عظيمة تقسيم قمم الجبال الصخرية وشقها، وجلب المياه وتركها تجري، وكأنهم تقمصوا بقدرة هرقل وجبروته، الذي ووفقاً لما جاء في حكاية

قديمـة جداً، قام بشق الجبل الذي أوقف جـرفه الأصم المحيط، وعمل جبلي أبيـلا Abila وكـالب Calpe ، من الجبل الواحـــد، حيث من بينهما أطلق البحر المتـوسط، الذي لم يكن موجـوداً في الأرض بعد، كما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

ولو أنه كان مع المصريين في هذه المحـاولة هرقل ليساعـدهم، وتيتان وأولاده، الذي ذهب إلى الحرب، مع يوف Joveوالأرباب الآخـرين، وللصراع لانتزاع السماء منهم، ولذلك قيل بـأنهم كدسوا الجبـال أحدها فـوق الأخـر، حتى يتخـذوا لأنفسهـم طريقـاً إلى السماء، أقـول لو أنهم امتلكوا مثل هؤلاء، لأمكنهم إزاحة الجبـال فوراً، ولاستطاعـوا بسهولة جلب البحر إلى مصر.

وعندما كـان المصريون يبذلون غاية جهـدهم في سبيل العمل المتقدم ذكـره، اجتمع حكماء مصر مع عقـلائها، وتناقشـوا حـول العمل الذي شرع به، وتناظروا عما إذا سيكون مفيـداً وعمليـاً أم لا، ولدى توصلهم إلى الحقيقة، أشاروا على الملك بطليموس التوقف عن العمل بكل وسيلة من الوسـائل، لابل إنهم استخـدمـوا كل الوسـائل التي توفـرت لديهم وكانت بمقـدورهم لجعل مصر كلها تتحد معهم في مقـاومة ومنع الذي سيطلق البحر عليهم، لأنهم اعتقدوا أن ذلك سوف يكون أشد الأعداء خطراً على بلاد مصر وأراضيها، لأنه بالتقاء هذين البحرين سوف يجري ابتلاع مصر كلهـا، ولسوف تغمـرها أمواج المحيط، وقـد قالوا: « نحن نعرف أن ميـاه البحر الهائجـة لاتستقر في مكان واحـد، بل أينما وجدت طريقـاً للجـريان تندفع بشدة متنـاهية، وتقهـر كل شيء، لابل أكثـر من هذا، فنحن إذاماافترضنا أن مياه البحر سوف تستقر في قناة النيل، فإنها سـوف تلوث مياه النيل الصحيـة والعذبة، وهي الميـاه التي تسقي مصر كلها، ومنها تشرب جميع مصر، لانعـدام الآبار في البلاد، ولسوف تجعل ميـاه النيل مرة، وغير قـابلة للشرب، وبلافائـدة، فكيف على هذا يمكن

لمصر أن تبقى إذا فقدت خدمات النيل؟ فبالضرورة سوف تكون غير مسكونة، لأنها لاتتلقى نعمة مطر السماء، الذي يتساقط على بقية أجزاء العالم، علاوة على ذلك، وإلى جانب هذا كله، نحن نعرف بشكل صحيح، أن ما نخشاه على مصر بهذا العمل هو أنها سوف تتعرض للدمار مع الأراضي البعيدة، وذلك عندما نقدر الحجم الكبيرللمحيط، والهائل الذي لامثيل له، مع جبال أمواجه العاتية التي تصل حتى السماء، والفتحات المظلمة فيما بينها، ويبدو لنا أننا ماأن نسمح للمياه الهائجة غير المدجنة بالعبور فوق حدودها، سوف يعقب ذلك على الفور تدفق كتل هائلة من المياه، وأول ماسيحدث هو أن جميع جزر البحرين سوف تطغي عليها المياه، ولسوف تجرف المياه: الفرس، والميديين، والعرب أيضاً جميعاً مع المصريين، ولسوف تغرق جميع الأراضي على شاطىء البحر، ثم إن ايطاليا لن تنجو من تلقي نصيبها من القوى غير الملجومة، ولسوف يطوف الأرخبيل البندقي وينغمر، ولن يتوقف البحر حيث هو، كما أن أمواجه لن تتوقف مطلقاً حتى تملأ الوديان الدنيا للألب، وتصل حتى سفوح أعالي الألب، وذلك كعلامة تبرهن على أن هذه الجبال قد عملت قبل عصرنا»، هذا وتقدم لي أن تحدثت بعض الشيء عن هذا الموضوع في ص٢١٧ وماتلاها.

وعندما سمع الملك بطليموس هذا، وتصور أن ذلك صحيحاً، تخلى عن العمل، ومع ذلك ترك برهانا أبدياً حول تصاميمه العظيمة حول هذه الجبال والتلال، وفي الحقيقة لولا أن مستشاريه وضعوا نهاية لهذه الأفكار، بتقديمهم الذي اعتقدوه حول هذه المسألة، لكان من المؤكد أنه أنهى هذا العمل ونفذه، لكن ليس التنفيذ والنهاية التي أرادوها، ثم إن ذلك لم يكن مسألة صعبة جداً، مشاهدين أن المسافة بين النيل والبحر الأحمر لاتتجاوز ستة أميال ألمانية.

وانظر أيها القارىء إلى أي مدى استطردت وتجولت بعيداً عن

حجي، وارتحلت تقريباً حول العالم كله، وذلك بسبب قلل الجبال والصخور القائمة هنا أمام أعيننا، وهكذا وقفنا عند نهاية هذا البحر لوقت طويل، ونحن نحدق ونتعجب منها، وأخيراً سرنا على طريقنا، وأدرنا ظهورنا للبحر الأحمر، وارتحلنا فوق سهل رملي شاسع.

حج المسلمين إلى مدينة مكة وشعائرهم السخيفة في معبد محمدﷺ

وقابلنا على هذا السهل في هذا اليوم وفي كل مكان حشوداً من الناس مع جمال محملة، ومع حمير وخيول، وجهاز ثمين، وفي الحقيقة كان هناك في قافلة واحدة مايزيد على خمسمائة جمل، يحملون الضروريات لاستخدام الناس الكثيرين من كلا الجنسين الذين رافقوهم، وكان هناك أناس فاخرين من أغنياء المسلمين، كانوا ذاهبين للحج إلى مكة،[ولزيارة قبر نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم] وفي الحقيقة صدر الأمر إلى أتباع محمدﷺ بالذهاب كل سنة إلى مكة، إلى بيت الله، الموجود هناك، وأمروا أن يقوموا هناك بالعبادة، وبالسير حول بيت الله، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، وأن يرموا حجارة من بين أطرافهم نحو الخلف لقمع الشيطان.

ويقول المسلمون، بأن آدم بعدما نفي من الجنة، تولى بناء هذا البيت تشريفاً لله، وكان هذا البيت، بيت صلاة لجميع أولاده، حتى أيام إبراهيم، فقد أعاد ابراهيم عمارته وترميمه وقدم أضحية هناك فيه، وبعد موته تركه إلى ابنه اسماعيل وله ولأولاده، وبقي مكاناً للصلاة لسنين طويلة متوالية حتى ولادة محمدﷺ، فعندما ولد أعطاه الله إياه بمثابة ميراث له ولجميع الأجيال التي جاءت من بعده، والآن كم هي هذه حكاية غير أصيلة وقطعة من الزيف، لأن كل ماقيل فيما يتعلق بهذا

البيت ليس له مايؤيده أو يزكيه في أي جزء من الكتابات المقدسة(١)، بل هو مدسوس فيها على شكل تعليقات، لأن هذا البيت كان قبل أن يبشر محمدﷺ بشريعته مليء بالأوثان، وقف هنا قليلاً أخي الانساني، فأنا أرجوك فعل ذلك لأنني سوف أبرهن لك بوضوح وأبين أي نوع من البيوت كان في البداية، ومالذي كان مقدساً فيه، ولماذا أمر محمدﷺ شعبه بالذهاب إلى هناك، والقيام بالأعمال التي بيناها من قبل، فلقد اعتاد ولدا لوط: عمون، ومآب، على تشريف هذا البيت، وعبادة صنمين كانا هناك فيه، كان أحدهما معمولاً من رخام أبيض، واسمه ميركوري، وكان الآخر من رخام أسود، وقد دعوه باسم خيموش CHEMOSH ، وقد عبدوا ذاك المصنوع من الرخام الأسود حتى يقدموا التشريف إلى ساتورن(زحل) وعبدوا المعمول من الرخام الأبيض تشريفاً لمارس(المريخ)، وعبدوا هذين الصنمين مرتين في السنة، وقدموا لهما الطاعة، أولاً لمارس، عندما تدخل الشمس أولاً إلى برج« الكبش»، لأن الكبش مقدس عند مارس، وعندما يغادره يجري بالعادة رمي حجارته، وثانيا لساتورن، عندما تدخل الشمس إلى برج« الميزان»، لأن الميزان مقدس عند ساتورن، ووقتها يحرقون البخور وهم عراة ورؤوسهم محلوقة.

واعتاد العرب أيضاً على عبادة هذين الوثنين مع العمونيين والمآبيين، وبعد مضي سنين طويلة كثيرة جداً جاء محمدﷺ الذي رغب في إزالة العادات القديمة السالفة الذكر، للناس، وغير طرائق العبادة بعض الشيء، وسمح بالسير حول البيت، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، ثم إنه خشية منهﷺ أن يبدو وكأنه يعلمهم التضحية للأصنام، بنى لهم تمثالاً

١ــ أن يقول راهب هذا هو أمر منطقي بالنسبة له، لكن علميا تحتاج الكتابات المقدسة إلى من يزكيها،، لأنها ركام متبدل متنوع من المعلومات المخترعة الزائفة، وكان هذا مدركاً لدى الأوائل، انظر كتاب« الدين والدولة» لعلي بن ربّن الطبري ــ ط. بيروت ١٩٧٩

لساتورن، وذلك في جدار زاوية البيت، ثم إنه خشية من رؤية وجه هذا التمثال ترك ظهره ظاهراً من الجدار الخارجي، أما بالنسبة للوثن مارس، فقد دفنه تحت الأرض، لأنه كان محفوراً من كل جانب، وبعدما دفنه وضع حجرة فوقه، لكنه علّم قومه الذين قدموا إلى هناك للصلاة، بأن يقوموا بتقبيل هذه الحجارة، بشكل خاشع ورؤوس حليقة، وأن يرموا الحجارة نحو الخلف من بين أرجلهم، علاوة على ذلك عروا ظهورهم، وذلك كعلامة على الشريعة القديمة، وقالوا بأنهم رموا الحجارة وفق هذه الطريقة لإرغام الشيطان على الفرار، وهم الشياطين الذين بالحري يتعبدونهم بشكل سري في صلواتهم، وهذا هو العمل المشهور— أو بالحري العمل السيء— لمحمدﷺ فهو مع أنه حظر عبادة الأصنام الأخرى على قومه، سمح في مدينة مكة بإقامة واحد تشريفاً لفينوس، [٧٢—ظ] لابل إنه لم يسمح لهم بالمغادرة جميعاً من دون تشريف هذه السيدة فينوس، التي بفنونها تفاخر بأنه الرجل الأقوى، وعندما مات أخيراًﷺ قام أبو بكر خليفته فعمل له ضريحاً فخماً وضعه في المعبد المتقدم ذكره، ووضعه داخل تابوت حديدي فيما بين مغناطيسين، حسبما تقدم القول من قبل(١).

وبناء عليه، يسافر المسلمون إلى مكة، ليس فقط تنفيذاً لأوامر محمدﷺ بل يذهب العديد منهم حتى يتمكنوا من رؤية تابوت محمدﷺ معلقاً بالهواء من دون حبل أو سلسلة، وكأن ذلك لأسباب طبيعية، وينخدع الناس بهذه الحيلة، ويعتقدون بأن جسدهﷺ مرفوع هكذا بسبب قداسته، وبذلك فإن الناس غير الواعين يتصلبون في خطيئتهم ويتمسكون.

علاوة على ذلك اعتقد بعض المسيحيين بأن هذا التعليق إعجازي،

١— القيمة الوحيدة لهذه المعلومات أنها تمثل درجة جهل فابري بالاسلام، ومدى حقده عليه.

فتخلوا عن الإيمان بالمسيحية، واقتاد بعضهم الفضول للقيام بالحج مع المسلمين، وذلك بالتظاهر بالرغبة بمشاهدة ضريح محمد ﷺ، وبسرور أخذ المسلمون مثل هؤلاء الناس معهم، حتى من دون تخليهم عن ايمانهم، وسمحوا لهم بالدخول إلى نزلهم القائمة على طول الطريق، من أجل رعاية الذين يذهبون في هذا الحج، وأعترف أنني غالباً ماأغريت بزيارة ذلك الضريح(المبارك) وفق هذه الطريقة، وأن يكون معي مرافق واحد، وبصعوبة منعت نفسي وأوقفتها عن القيام بمثل هذا العمل، وهنا يقوم السؤال التالي: هل الذي يقبل قبر محمدﷺ أو يركع أمامه، أو يفعل أي شيء من هذا القبيل بالتعبد هناك، هو كافر؟ وأجاب الاسكندر أوف هول Hall (كذا) على هذا بقوله:« إنه إذا مافعل ذلك كمجرد كلام، وليس من قلبه كله، فهو على ذلك مقترف لذنب عظيم، ومع ذلك هو ليس مهرطق أو محروم كنسياً، كما أنه ليس بحاجة للذهاب إلى البابا أو إلى الأسقف للحصول على التحليل»، فهذا ماقاله الاسكندر، لكن الذي يدخل وهو متظاهر بالتعبد، ويقدم التشريف للقبر بحركاته الظاهرية، لكن هو في عقله مستخف به، وفي قلبه ينظر نحو أخطائهم وحماقاتهم مع نية تبيان ذلك للناس المسيحيين، إن مثل هذا الانسان، وإن عدّ مقترفاً لذنب صغير بسبب فضوله وطفيليته، هو ينبغي— كما اعتقد— أن يعاقب عقوبة خفيفة، أو حتى يعفى عنه، وقد حكيت عجائب كثيرة حول ضريح محمدﷺ هذا، وفي الحقيقة، حدث في القديم أن جميع العالم، اندهش نحو التمثال الحديدي العائد لبيليروفون Bellerophon في مدينة سميرنا Smyrna، وإنه مثل هذا جميع الناس مندهشون تجاه هذا الضريح، ولقد كان الضريح المتقدم ذكره واحداً من عجائب الدنيا السبعة، بسبب بقاء مثل هذه الكتلة العظيمة من الحديد معلقة في الهواء، وذلك من دون أن تكون مربوطة بسلسلة من الأعلى، أو مدعومة بأية دعامة من الأسفل، لأن حجر المغنطيس وضع من الأعلى على ظهر قوس طويل جداً، كما أنه وضع

أيضاً في البلاط من تحت بالشكل نفسه، وبذلك جرى جذب التمثال نحو الأعلى ونحو الأسفل، وهكذا بقي معلقاً بين الاثنين، وبهذه الطريقة نفسها القبر الحديدي لمحمدﷺ معلق في الهواء بقوة مغناطيس، وذلك باستثناء أن قبر محمدﷺ هذا ليس عظيم الوزن مثلما كان تمثال بيليروفون، الذي احتوى على خمسة آلاف رطل (Pounds) من الحديد، لأنه كان مكونا من فرس عظيم مع رجل على ظهره.

هذا ولقد سمعنا رواية صادقة ومؤكدة، أنه في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا هبت فجأة عاصفة مرعبة، أرسلتها الحكمة الربانية، مع برق مضيء، ورعد مخيف تردد سماعه، ووقتها نزلت نار من السماء، ترافقت مع تساقط برد عظيم فوق مكة، وقد جرف ذلك المعبد والقبر لذلك النبيﷺ إلى أعماق الأرض، كما أن شطراً كبيراً من المعبد قد تهدم، وأتلفته النيران، وهكذا جرى حرمان المسلمين من آثار جسد نبيهمﷺ واضطربوا بذلك اضطراباً تاماً، لو أنهم تفكروا بذلك وفهموه، لكن قلبهم الأحمق قد ازداد قسوة، وهم الآن يذهبون حاجين إلى ذلك المكان كما فعلوا من قبل، وسيستمرون ربما بفعل ذلك من بعد، كما سلف لي وأشرت إلى ذلك من قبل، وهكذا قمت الآن من أجل حج وحجاج محمدﷺ بترك حجي الخاص، وعملت حجاً معهم بالخيال، وذلك من أجل أن أرى الفارق فيما بين حجنا وحجهم، لأن حجنا هو إلى ضريح يسوع المسيح ابن الرب، وكذلك سعياً وراء آثار العذراء القديسة كاترين الأكثر فضيلة، في حين إنهم يرتحلون إلى ضريح محمدﷺ، ويبتغون خدمة فينوس تلك العاهرة الأكثر شهوانية(كذا).

ولأستأنف الحديث عن حجنا: لقد مضينا على طريقنا، وقابلنا آخرين كثر من الحجاج المسلمين، الذين كانوا يسيرون على شاطىء البحر الأحمر إلى العربية المباركة، حيث توجد مدينة مكة على شاطىء البحر الأحمر(كذا)، ذلك أنها مدينة جميلة، وميناء بحري هام، إليه يجري جلب

كميات كبيرة، من البخـور، والفلفل، وأكباش القرنفل، والقـرفـة، وماشابه ذلك، وذلك بوساطة البحر، وتحمل هذه السلع من هناك على الجمال من قبل الحجاج، ويجري ارسالها حتى دمشق وأماكن أخرى، وكان سبب مصادفتنا لمثل هذا العـدد الكبير من الحجاج، هو أن صيامهم كـان قـد بدأ، وهم يفضلون في هذا الوقت الذهاب للقيام بالحج، وذلك مثلما يفعل المسيحيـون، عـلاوة على ذلـك، إنه في ذلك الفصل من السنة تتراجع حرارة الشمس الهائلة بعض الشيء.

ووصلنا عند الظهيرة إلى ساحـة كبيرة مع كثير من القـاعـات، وقـد كـانت هذه عبارة عن نزل، وبعـد دخولنا إلى ساحة النزل وجـدنا بئراً كبيراً وفخماً، مع دواليب وأحواض حجرية ومصبات ماء، وهم يطلقون عليـه اسم جـب السلطان، وتقـوم الثيران بنضح الميـاه منـه باستمـرار، وبعـدمـا دخلت جمالنا إلى هـذا المكان، ترجلنا من على ظهـور حميرنا، وتذوقنا الماء، لكننا لم نستطع الشرب منه لأنه كـان ساخنا، وبلاطعمـة، لابل كـان مـالحاً بعض الشيء، لكننا سقينا دوابنا، وأعتقـد أنه لابد قـد وجـد فوق هذه البقعـة خان منذ القـديم، لأنه هنا تلتقي الطرقـات مع بعضها، وهي الطرقات التي تقود من مصر إلى جميع أجزاء الدنيا، ولربما أقام مـوسى في هذا النزل، وعندما أراد الرب أن يقتله، لأنه لم يختن ابنه Eliezer، وهناك قامت صفوره بختانة(الخروج:٤/ ٢٤—٢٥)، وبعدما شـاهدنا هذا المكان، تابعنا سفـرنا فوق ذلك السهل الجاف حتى غيـاب الشمس، وأنزلنا الأثقال من على ظهـور دوابنا للاستراحة في مكان فوق السهل اسمه Choas، وهبت هناك ريح قـوية وعنيفة جـداً، ولذلك لم نستطع بأي سبيل نصب خيـامنا، فما أن ثبتنـاهم بالأوتاد، حتى اقتلعت الريح الأوتاد من الأرض، وألقت الخيـام فـوقنا، وبعدمـا ألقتهم الريح عـدة مـرات، مللنا من هذه المهمـة وتعبنا وتركنـاهم ممدودين فـوق الأرض، كما أننا تجولنا حـول المنطقـة حسب عـادتنا لإلتقـاط بعض

العصى من على السهل، غير أننا لم نجـد شيئاً يمكن أن يحترق، ولذلك أخذنـا بعض الأوعية الخشبيـة مما فرغ مما كـان فيه خمرة وماء، وكـذلك سـلال بيضنا، وصناديق دجـاجنا وكسرنـاهم جميعـاً، وعملنا ناراً منهم، لكن الريح التي كـانت قوية بعثـرت النار التي عملناها، ولذلك أرغمنا على الوقوف من حـول النار حاملين أقمشتنا وثيـابنا، لصد عنف الريح عن النار، وبناء عليه أكلنا في تلك الليلة، وشربنا ونمنا في الهواء الطلق، وانزعجنا كثيراً بهبـات الريح وبتحـركات الرمـال، وقـدم في تلك الليلة إلينا بعض الفقراء من البداة العرب، ورجونا منحهم بعض الخبز، الذي برغبـة منا ورضـا منحناهم بعضاً منه لأنهم بـدو أنهم متواضعين جـداً، ويتصرفون بشكل لائق.

واستيقظنا في اليوم الخامس عند منتصف الليل، وكان ذلك اليوم هو الأحد التـاسع عشر بعد التثليث، وعندما جـرى تحميل الدواب، غادرنا Choas، وسرنا فـوق ذلـك السهل القـاحل والشـاسع، حيث لم يكن هناك شيء أخضر مهما كان نوعه، وقبل شروق الشمس وقع لنا حادث، لن أتجاوز ذكـره، فقـد كـان في مجمـوعتنا الأولى النبيل العظيم والسيـد الكبير برنارد فـون بريتنبـاخ Braithenbach، الذي كـان وقتهـا حـاجب الكنيسـة المطرانيـة في مينز، والذي هو الآن عميـدها الأعظم جدارة، فبسبب ضعفه وسوء صحتـه عمل الرحلة كلها خلال الصحراء في سلة على ظهر جمل، وقبل فجر اليوم أمر الجمل الذي كان على ظهره أن ينوخ حتى يتمكـن من انعـاش نفسـه بالمشي بضع خطوات فـوق الرمال، وبعـدما أنعش نفسـه، تسلق ثانية إلى سلتـه، وسار جمله خلفنا، لكن بعدما سرنا بعض الشيء، أدرك السيد المذكور أن ماله كله قد وقع منه، من داخل صدره، حيث كـان قد وضعه، وخاط عليـه داخل حزام اعتاد أن يحزم به نفسـه أثناء الليل، وذلك بغية إبقـاء ماله مصـاناً، وكان معـه هناك كميـة كبيرة من الدوقيـات، وقـد وقعـت منه على الرمل في

المكان الذي توقف فيه.

وقد استدعى كالينوس إليه، واشتكى إليه فقدانه لماله، وهنا أمر كالينوس بوقوف القافلة، وأمر جمله بأن ينوخ، حتى يتمكن من الترجل، ويركض مسرعاً عائداً إلى المكان الذي اعتقد المعلم برنارد بأن ماله قد وقع فيه، وذهبنا نحن الحجاج إلى هناك معه، وبحثنا من أجله، لكننا لم نجده، وقد بحثنا فوق جميع المنطقة التي حوت آثار طبعات قدميه، لكننا لم نجد المال، وكان تعبنا بلافائدة، وكان يعرف بشكل أكيد أن ماله قد وقع في ذلك المكان وليس في غيره، ولذلك تجولنا في ذلك الموقع، وبحثنا فوق الرمال بأيدينا، وأخذنا حيطتنا بأن لايقترب منا أحد البداة العرب، ولامن سائقي الجمال أو سائقي الحمير، الذين أمسكناهم مراراً متلبسين بأعمال السرقة، إنما بعدما بحثنا لوقت طويل وتقصينا لم نجد شيئاً، فحكمنا بأن ذلك المال قد تمّ العثور عليه وسرقته من قبل واحد من البداة العرب، أو من سائقي الجمال، وبعد التشاور فيما بيننا حول ماينبغي القيام به وفعله لاسترجاع المال، تمنينا لو أنه كان قانونيا القاء القرعة أو البحث بوساطة التكهن بالقداح، مثلما تبرهن بأن عخان كان لصاً(يشوع:٧)، وكذلك عندما أخذ يوناثان طعاما[صموئيل الأول:١٤/ ٢٧]، لكن في قضية مثل هذه ليس قانونيا إلقاء القرعة، على أساس أنها محرمة بالقانون ضد التكهن بالقداح، ولذلك فكرنا ثم اتخذنا قرارنا باحضار جميع البداة العرب مع سائقي الجمال وسائقي الحمير الذين كانوا معنا، وجمعهم في مكان واحد، وأن نطلب منهم إعادة المال إلينا، ووقتها إذا لم يعيدوه إلينا، سوف ننقض عليهم ونربطهم ونجردهم من ثيابهم، ونضربهم، ونسيء معاملتهم، ونعذبهم حتى يعيدوه إلينا، لأننا كنا بالعدد أكثر منهم، ورجالاً أفضل منهم إذا وصل الأمر إلى الضراب، وبعدما أبرمنا هذه الخطة ركبنا حميرنا، ونحن كلنا أسف، وغضب، وحنق، وسرنا خلف الجمال الذين كانوا يسيرون

أمامنا.

وعندمـــا وصلنا إلى أولئـك الناس، نظرنـا شـــذراً إليهـم، وأخبرنا كـالينوس بالذي عـزمنا على القيـام به، وعندمـا سمع هذا انزعج كثيراً، واستدعى إليـه جميع الرجال الذين شك بهم، وطلب باخـلاص وجدية منهم إعادة الذهب الذي وجدوه، لكن مامن واحد أجابه صادقاً، وقمنا نحن أنفسنا فرجـوناهم بإعادة المال، وعرضنا منح جـائزة للرجل الذي وجده، لكننا لم نحصل على شيء بعملنا هذا، وهنا غضبنا وازداد حنقنا، فشرعنا نتهـــددهم، وسعينـا إلى إلقـــاء الأحمال من على الجمال، في حين وقف الفـــرسـان من حـولنـا، وسيـوفهم مجردة، ولم يسمحـوا لأحـد، بالابتعاد، وعندما رأى سائقو جمالنا وسائقو حميرنا بأننا كنا جادين، وأننا سـوف نتعـــامل معهم على الفـــور بخشـونة أعظم، اعترتهم الـدهشـة، والتمســوا من كـالينوس تخفيف غضبنا، خشيـة أن تسـاء معـاملة أناس أبرياء، وشرح لهم كالينوس مانوينا عمله، قائلاً بأننا سوف ننزل الأثقال كلهـا، ونفتش في جميع الحقائـب التي كانت على ظهـور الجمال والحمير، وأننا إذا لم نجـد المال هناك، سوف ننقض عليهـم ونجردهم من ثيـابهم حتى يكونوا عراة، ونستخرج مالنا منهم بالتعذيب.

وكنا في ذلك الوقت قد ألقينا بالأثقال من على ظهور الجمال، وشرعنا بتفكيكهم، ثم أخـذنا بإلقـاء سلـع أولئك التعسـاء من حـولنا، في حين وقفوا هناك يراقبـوننا وهم يرتجفون ويبكون، وفي أثناء القيـام بهذا، جاء واحد من أولئك البداة العرب، وكـان قد التحق بنا في ذلك المساء، جاء سراً إلى كـالينوس، وأخبره بالعثور على المال، وهنا صرخ كـالينوس على الفـور إلينا وطلب منا التعـامل معهم بسـلام، لأن المال قد عثـر عليـه، وبناء عليـه أعدنـا تحميل الجمال، وتابعنا السير على طريقنا، وتسلم ذلك السيد مـاله من كالينوس، وقد منح دوقية إلى ذلك العـربي الذي وجده، وكـان عربيـاً صـاحب مظهر بسيط ووجـه بريء، وقـال البداة العـرب

الآخرون عنه بأنه وجد في وقت آخر كنزاً كبيراً، كان قد وقع في القفار، وأنه أخذه إلى صاحبه وأرجعه إليه.

وسرنا بعد ذلك فوق ذلك السهل الأجرد، ومشينا طوال النهار في شمس محرقة بحرارتها حتى غياب الشمس، وقد قررنا أن نستريح في مكان اسمه المفرق Maffrach وذلك إلى جانب الطريق العام، ولكن عندما عسكرنا لم نستطع نصب خيامنا، لأننا لم نتمكن من تثبيت الأوتاد في تلك الرمال الناعمة جداً، وكنا جميعاً منهكين فاقديبن لوعينا، ولذلك لم نطبخ أي شيء في تلك الليلة، لأننا لم نستطع العثور على أي من الوقود، وقدم إلينا كالينوس تحذيراً بوجوب التيقظ والحراسة في تلك الليلة أكثر مما هو معتاد، لأن المكان خطير بسبب المنبوذين الذين يطردون من وقت إلى آخر من مصر إلى القفار بسبب جرائمهم، فهؤلاء الناس يكمنون في مثل هذه الأماكن، وغالبا مايؤذون الذين يعبرون ذلك الطريق، ولذلك نمنا في تلك الليلة بصعوبة، لخوفنا من كل من المهاجمة، وبسبب الرياح القوية، والبرد الذي عانينا منه، وتمددنا هناك تحت قبة السماء، وكنا منهكين من شدة التعب، ومن مشاق القفار، وكل ماحصلنا عليه من راحة هو بأن نهاية متاعبنا باتت وشيكة، وأن حدود القفار لم تعد بعيدة، وماكنا لنبقى في القفار، ونمكث أربعة عشر يوماً أخريات مقابل جميع كنوز الدنيا كلها، لأنه بدا الأمر بالنسبة لنا أننا لن نستطيع تحمل المزيد من مثل هذا العمل.



توقفت عند هذه النقطة حكاية فابري عن أن تكون لها أية علاقة بكل من فلسطين وسيناء، وكان بالود الحديث كيف أنه شاهد« حديقة البلسم»، والقاهرة التي كانت أعظم مدينة في العالم، مع جميع المخلوقات الغريبة فيها من فهود، ونعامات، وببغاوات، وهكذا دواليك، مما رآه هناك، لكن المكان لايسمح بذلك، وفيه تكرارا لما جاء بالرحلات

الأخرى، والمهم هو أن الحجاج نزلوا بقارب عبر النيل إلى الاسكندرية، وقد تعذبوا كثيرا وأسيئت معاملتهم، ومن هناك أبحروا إلى وطنهم على ظهر الاسطول البندقي، وقد عملوا رحلة طويلة وواجهوا مصاعب جمة، وأخيرا وصل فابري ورفاقه إلى البندقية في الثامن من كانون الثاني سنة ١٤٨٤، وقابل هنا بعضاً من أهل مدينته أولم، الذين لم يتمكنوا في البداية من التعرف عليه، لأنه كان شاحباً قد أنهكه السفر، وكانت السيدة مرغريت صاحبة نزل القديس جورج، الذي كان البيت الألماني في البندقية، قد تزوجت ثانية، وكان زوجها هو نيقولا فريج الذي كان واحداً من خدم البيت، وقد حدثنا فابري بأنه كان مسروراً بمعرفته بصاحب النزل الجديد، لأنه كان رجلاً جيداً وبشوشاً، ويبدو أنه لاقى استقبالاً جيداً، وأنه تلقى دعوة من المعلم برنارد بريتنباخ لزيارته في مينز، ليصوغا رحلتهما معاً، لكن فابري لم يستطع القيام بذلك، لأن واجبه كان الذهاب أولاً إلى ديره في أولم، وعندما وصل إلى هناك بعد كثير من المغامرات كان الرهبان يتعشون، لكن كلب الدير عرف خطواته، فأصدر عواءاً عالياً جداً، وأخذ يخدش الباب الذي جرى فتحه فوراً، وقد رحب به جميع الرهبان وكأنه انسان عاد من الموت، وفي الوقت نفسه جاء خلال الاسبوع التالي جميع أعيان المنطقة إليه للترحيب به، ولتهنئته بالعودة، وهنا لابد لنا من أن نقول له: وداعاً.

المحتوى

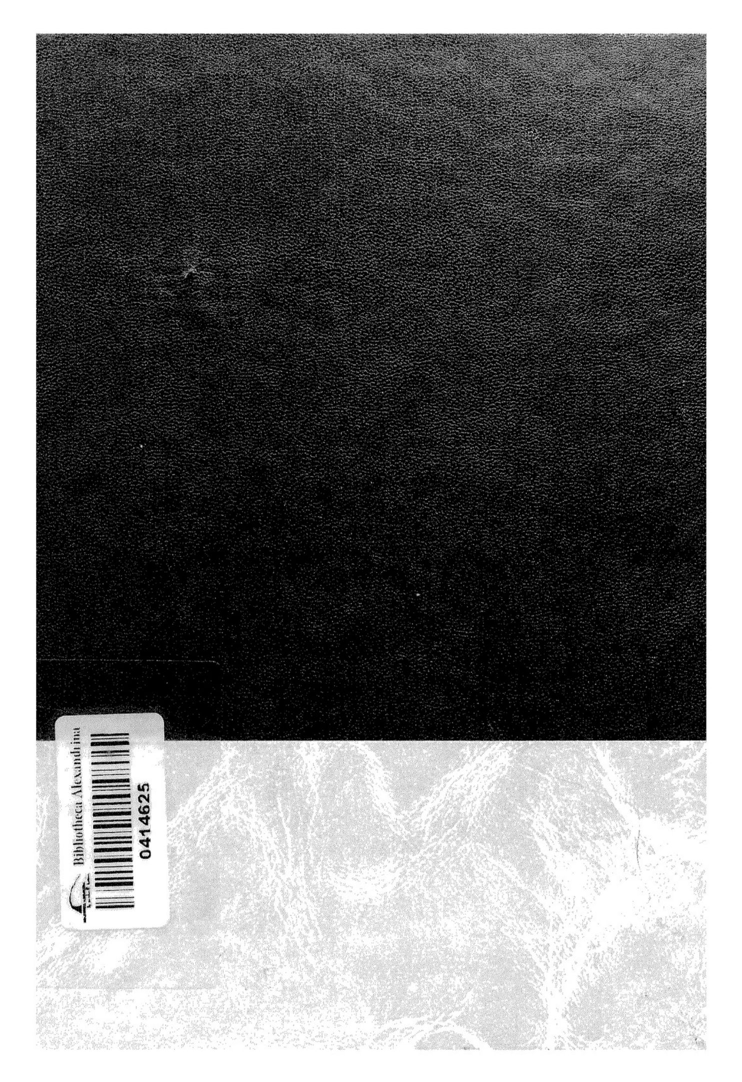
الصفحة	الموضوع
١١٤١	كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل المسلمين
١١٤٩	أوضاع المدينة المقدسة بعد الاستيلاء عليها
١١٧٠	مجمع ليون
١١٧٤	صراعات أمراء الصليبيين حول لقب ملك القدس
١١٨٢	أحوال القدس بعد طرد الصليبيين منها
١١٨٨	الشعوب التي تسكن القدس
١١٨٩	المسلمون
١١٩٠	الروم الأرثوذكس
١١٩١	السريان— اليعاقبه
١١٩٢	الأحباش— النساطرة— الأرمن
١١٩٣	الجورجيون— الموارنة— التركمان
١١٩٤	البدو— الحشيشية— المحمديون
١١٩٥	المماليك— اليهود— اللاتين
١١٩٧	القسم الثاني من كتاب الرحلات
١١٩٩	الحج من القدس إلى جبل سيناء
١٢٠١	الفصل السابع من كتاب الرحلات
١٢٠٨	جبل راما
١٢١٠	مغادرة بيت لحم
١٢١٤	دخول الحجاج إلى مدينة حبرون

الصفحة	الموضوع
١٢١٦	حقل دمشق
١٢١٨	موضع قتل هابيل
١٢١٩	الكهف الذي سكن فيه آدم مع حواء
١٢٢٠	الكهف المزدوج الذي اشتراه ابراهيم
١٢٢٢	مشفى حبرون
١٢٢٤	وصف حبرون وتاريخها
١٢٣٤	بلدة صقلغ
١٢٣٧	خساسة الروم الأرثوذكس والاقامة في غزة
١٢٤١	بداية الفصل السادس
١٢٤٢	حمام ساخن في غزة
١٢٤٨	المماليك في غزة
١٢٥٠	شراء الأشياء المحتاجة
١٢٥٢	مرض جميع الحجاج
١٢٥٣	خصومات الحجاج
١٢٥٤	ميثاق جديد بين الحجاج
١٢٥٥	وصف منطقة فلسطين
١٢٥٧	غزة
١٢٥٩	مقال حول الحمير، والجمال والقفار
١٢٦٠	سائقو الجمال

الصفحة	الموضوع
١٢٦١	طبيعة الجمال
١٢٦٦	سائقو الجمال
١٢٦٦	وصف القفار
١٢٧٢	أوضاع الصحراء
١٢٨٥	البداة سكان القفار
١٢٩٣	بداية الحج خلال القفار
١٢٩٥	السفر من غزة نحو جبل سيناء
١٣٠٠	الاستمرار بالسفر
١٣٠٣	السفر إلى قفار قادش برنيع
١٣٠٦	السفر إلى داخل القفار
١٣٠٩	خطر العواصف في الرمال
١٣١٥	مغامرة فيلكس فابري المرعبة
١٣٢٠	متاعب في بحر الرمال
١٣٢٨	منطقة مدهشة
١٣٣٢	يوم سفر شديد
١٣٣٧	متابعة السفر المنهك
١٣٤١	متابعة الترحال
١٣٤٤	ترحال يوم شاق
١٣٥١	مقال لاهوتي حول المن

الصفحة	الموضوع
١٣٥٦	اضطراب ألم بالحجاج
١٣٥٧	صعود الحجاج إلى جبل حوريب
١٣٦٩	الصعود إلى جبل كاترين
١٣٧٢	صعود جبل كاترين
١٣٧٨	البلدان المشاهدة من فوق جبل سيناء
١٣٨٨	النزول من جبل سيناء
١٣٨٩	زيارة داخل الدير
١٣٩١	إطراء جبل حوريب
١٣٩٤	عودة الحجاج إلى دير كاترين
١٤٠٦	ضريح كاترين
١٤١٨	وصف دير كاترين
١٤٢٣	رهبان دير كاترين
١٤٣١	مغادرة الحجاج لجبل سيناء
١٤٣٤	الرحلة
١٤٤٠	معاناة من نقص الماء
١٤٤٤	الفصل الثامن— أعمال الحجاج خلال شهر ايلول
١٤٤٩	رحلة خلال القفار
١٤٥١	ضياع بعض الحجاج
١٤٦١	رحلة إلى البحر الأحمر

الصفحة	الموضوع
١٤٦٨	مسائل تتعلق بالكتابات المقدسة
١٤٧٤	حج المسلمين إلى مكة
١٤٨٣	نهاية حج فابري في فلسطين


Bibliotheca Alexandrina
0414625